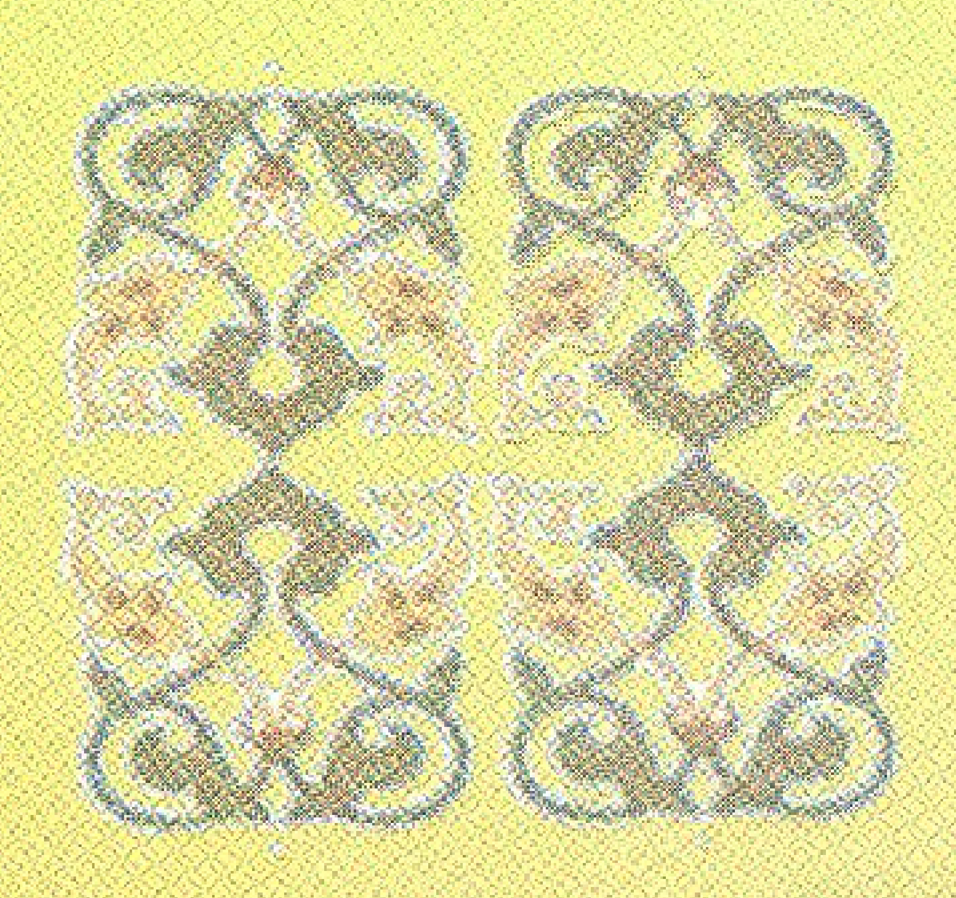
نحو القلوب

الصغير والكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

محاولة ممتعة للانطلاق بالنحو العربي إلى أشواق الحب الإلهي ومذاقاته



قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد علم الدين الجندي

شارك في تحقيق نحو القلوب الكبير

دكتور إبراهيم بسيوني





نحو القلوب الصغير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد علم الدين الجندي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

نحو القلوب

القشيرى ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك
ابن طلحة النيسابورى ، ٩٨٦ ـ ١٠٧٢ هـ
نحو القلوب الصغير / لعبد الكريم القشيرى
(زين الإسلام . مستعار)، تقديم وتحقيق وتعليق
أحمد علم الدين الجندى . ـ القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٧٠٨ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ٣٦٦ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ اللغة العربية ـ النحو
(أ) الجندى ، أحمد علم الدين (محقق ومعلق)
٢ ـ العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٢١٣ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 366 - 8

ديوى ٤١٥,١

أشرف على هذه الطبعة

سلوى مصطفى

أعد الفهارس

سميرة مصطفى كمال

سمية حسنى

راجعها

أحمد حسن

الإخراج الفنى

عمر حماد على

التنفيذ

مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف

رشيدة رشاد

الخطوط

أوس السنوسى

مدخل

لم يخل القرآن الأقدس من لمحات صوفية[١]، وليست التزكية فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٢] إلا لمحة صوفية تتم بعلم وعمل ومتابعة.

فالتزكية تحلية بالفضائل، وتخلية عن الرذائل، ثم بالتجلية فى جلال الملكوت وجماله، وكشف أعماقه وأسراره.

وكذلك كان سائر الأنبياء والرسل مثالا للصوفية، فمحمد ﷺ استمر سنوات يتردد على غار حراء متعبداً متجرداً متنسكا حتى هبط عليه الوحى وهو فى ذروة تصوفه، وعيسى عليه السلام يعتزل الناس فى خلوته يتأمل مع نفسه...

وحين سئل الرسول ﷺ عن الإحسان أجاب: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وصدر الحديث يصل بك إلى مقام المشاهدة، ونهايته تمنحك مقام التقوى والمراقبة، وما دامت هذه الرؤية ملء السمع والبصر والفؤاد لم يَعُدْ يرى الإنسان ذاته إلا من خلال «الله» فتعبده وكأنك تراه!! ثم تجد الهدف الأسمى يقرره الرسول ﷺ: «لى وقت مع الله لا يسعنى فيه إنس ولا جن ولا ملك ولا شيطان».

فالتصوف علم أصيل فى الإسلام مستمد من الكتاب والسنة وليس بدعا فى الدين. وفيه يقول الجنيد[٣]: لو علمت أن لله علما تحت أديم

---

(١) ففى كثير من آياته ﴿عِبَادِى﴾ البقرة: ١٨٦، إبراهيم: ٣١. و﴿عِبَادِنَا﴾ يوسف ٢٤. ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: ٥٤ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ التوبة: من آية ١٠٠ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند ت ٢٩٧هـ. وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والمتكلمون لتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه (الرسالة: ١٠٥).

السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه[٤]، لأن موضوعه يدور حول النفوس والقلوب والأرواح: تصفية، وتهذيبا، وسلوكا، ومناجاة، ومشاهدة. ومن عرف نفسه عرف ربه.

فالتصوف لباب الشريعة ومنهاج الطريقة وجماع علوم الدين، وهو متصل بالله، وقائم به وله، وسمى الغزالى التصوف (العلم الأعلى الأشرف) وقد أشار الرسول ﷺ فى حديثه إلى تدرجه حيث قال: «أعوذ بعفوك من عقابك» فهذه ملاحظة الفعل. ثم قال: «وأعوذ برضاك من سخطك» وهذه ملاحظة الصفات، ثم قال: «وأعوذ بك منك» وهذه ملاحظة الذات، فلم يزل يترقى إلى القرب درجة بعد درجة، ثم عند النهاية اعترف بالعجز فقال: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٥].

- ٢ -

وإذا كان التصوف كذلك فلا يؤخذ من الأوراق ومطالعة الكتب،وإنما يؤخذ من أهل الأذواق، والوجدان، والتحقيق، والعرفان، فلا يكون الإنسان صوفيا حتى يعلم، ولا يكون عارفا بالله حتى يعمل، ولا يكون قريبا منه حتى يصبح ذا حال إيمانى وخلق ربانى، فمبناه: علم ثم عمل ثم حال[٦]. وذلك مصداق قوله ﷺ «من عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يَعْلم، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم، تاه فيما يعلم، ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار». والصوفى بهذا المعنى يتجاوز حياته ليرى (الله) فى كل شىء فى: الزهرة والبسمة، والومضة والظلمة، والخوف والرجاء، والأرض والسماء. قال محمد بن واسع: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه!

---

(٤) الرسالة القشيرية ٧٣٤ تحقيق د/ عبد الحليم محمود

(٥) جواهر القرآن للغزالى ٢٤ ط ٢. الرحمانية بمصر.

(٦) ص ٢٣ المدخل إلى التصوف الإسلامى. السيد الفيضى. ط الدار القومية - مصر.

واستمع إلى الفطرة السليمة فى ذلك يصورها لك جعفر الصادق حين جاءه رجل يسأله عن (الله). فقال له جعفر: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. فقال جعفر: هل هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. فقال جعفر: فهل خطر ببالك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو «الله»[٧].

وهذا هو الفناء الذى صوره الحديث القدسى: «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به».

فالإنسان يرتفع ببشريته، ويسمو حتى يتخلق بأخلاق الله.

والصوفى عندما يبحث عن الحقيقة، إنما يبحثها فى إطار الشريعة، ليزيدها قوة وعمقًا، وثباتًا ونقاء، وصفاء واصطفاء، فلا دخول لحقيقة إلا من باب الشريعة، والشريعة باب الحق، والحقيقة بيت الحضرة، والشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده!

ومن هذا المقام مقام (المشاهدة) و(الكشف) بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق، وانكشاف العوالم والأسرار، يؤمن الصوفى إيمانا كاملا (بالغيب) وتلك ميزة الأديان كلها عن العلوم والفلسفات والماديات: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[٨] فالذى لا يؤمن بالغيب يجد نفسه كافرًا بالدين كله.

ومن هنا كان اتجاه (مدنيتنا المعاصرة) إلى المادة لتجد فيها الدائرة الثابتة التى تتكشف فيها الحقائق وما عدا ذلك من (الغيب)، زيف وسراب، وكان هذا أول مدخل علمى إلى الكفر يضعه أقطاب الإلحاد والفلسفات الوجودية الداعرة، والشهوات المسعورة السافرة، وذلك أن «التفسير

(٧) من مقالنا: قضايا إسلامية فى مجلة (الرأى) الليبية. العدد ٤٢.

(٨) البقرة: ٢، ٣.

اللاهوتى للأحداث والواقع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية، والدين قام على حقيقة لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علميا، فالدين باطل زائف لا حقيقة له[9]، والفلسفة الشيوعية ترى أن الدين خدعة تاريخية، بل ذهب أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء إلى أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ»[10] ومن أجل هذا حكموا على المؤمن بالله والغيب بأنه - فى ميزانهم - رجعى وفى منطقهم متخلف.

وكارثة هذه المبادئ والأفكار - التى تحيط بعالمنا الإسلامى وتتسلل إليه - أنها تعتبر التقدم قد جب ما قبله من مناهج الفكر، وأحل محلها المنهج العلمى، كما يرون أن تطور حركة التاريخ نسخت الإسلام نسخا نهائيا، ولابد من الاعتماد على موقف علمى عقلانى تجاه الحياة المعاصرة، وهم يعتمدون على التاريخ، والوجود، والعقل، أما الله والروح والخلود فهى فى نظرهم غير ذات موضوع[11].

وتلك المبادئ التى نادى بها هؤلاء قادت قطعانا من البشر فى وادى الإلحاد حيث ألَّهوا المادة وعبدوها، ومن المؤسف حقا أن بعضا من شبابنا فى العالم الإسلامى قد استهواهم هذا الانتماء إلى تلك الأفكار الماركسية المسمومة والاتجاهات العلمية البحتة.

ثم هل يمنحنا العلم والعقل الإيمان بالغيب وما وراءه؟ - إن بحث قضايا التصوف والأديان من خلال الإيمان بالغيب - وهو قاعدة التفكير والاعتقاد - يبدد أمامنا جحافل الظلام، ويمزق أمام أعيننا ركام الشك، ويبلغ بنا مطالع النور، ويهدينا إلى أنوار الحقيقة.

---

(٩) ص ٢٦ الإسلام يتحدى: تأليف: وحيد الدين خان وتعريب ظفر الإسلام خان، ومراجعة وتقديم د./ عبد الصبور شاهين.

(١٠) ص ٣٠: الإسلام يتحدى.

(١١) الإسلام وتحديات العصر: ٢٩ د./ حسن صعب بيروت ط٢.

ومن حسن الحظ أن نفرًا من العلماء حينما تعمق فى أسرار المادة والطاقة، شردت المادة منهم وأفلتت الطاقة من أيديهم، وارتدت كثير من الملاحظات والتجارب المعملية المادية إلى الروحانية، وما وراء هذا العالم، وهذا واحد من علمائهم (أينشتين) يرى أن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم، ولم يشعر نحوه بالروعة فهو حى حكمه حكم الميت»[١٢].

وذلك عالم روسى بردييف (Berdyaef) اختبر أزمات أوروبا كلها، وشهد أزمات القيصرية فى روسيا، كما شهد أزمة الشيوعية، ولم تزده هذه المواقف المحيرة إلا اعتصاما بالضمير الروحانى وساء ظنه بالثقافات والحضارات الغربية، لأنها تستغرق النفوس بالشواغل الدنيوية التى تنحصر فى السطوة والمال، ويبشر بصوفية وروحانية جديدة؛ لأن الصوفية فى نظره أعمق من الديانات ويجب أن تنتصر الصوفية على أباطيل الدعوات الاجتماعية المتشبهة بها، كما يجب أن تنتصر دولة الروح على دولة القيصر[١٣].

ومعنى هذا أن مناهج البحث عن (الحقيقة) قد أفلست، حين اتخذت من المادة وحدها تجربتها وتفسيرها، وهذا يتنافى مع الإنسان والخلق والدين، فالعالم الذى نعيش فيه على شفا جرف هار مع انطلاق الماديات وسيطرة العلوم، وصرامة قبضة الإنسان فى الكون، وهذا يعنى أن العالم لن تحل مشاكله بالوقوف على علوم المادة ونظرياتها، وتفسيراتها وحتميتها، والاحتمالات الرياضية، وحقيقة الوجود، ونظريات التطور العضوى، والكشوف الحديثة، والسنن الكونية، بل إن مشكلات هذا العالم منبعها عجزه عن إشباع روحه، لا من عجزه عن إشباع جوفه.

---

(١٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ٩٧ وما بعدها: العقاد. الناشر (الأنجلو المصرية).

(١٣) عقائد المفكرين: ١٢٥.

وقد استطاع الإسلام أن يوفق بين الروح والمادة، والدين والعلم لأنه مدنية كاملة، وذلك سر خلوده وبقائه. واستمع إلى الأستاذ بروم (Broom)[١٤] حيث يقرر بأنه لم تقنعه مباحثه فى دراسة الخفريات الفقرية طيلة خمسين سنة بأن أنواع الحياة الأخيرة قد جاءت من طريق التطور وكفى، بل أقنعته كذلك بأن هذا التطور لم يحدث جزافًا ولا عرضًا، ولكنه حدث بهداية أو هدايات روحانية.

ومن هنا نرى أن الصوفية قد طوت هذه الأبعاد والمسافات، وصححت الانحرافات والنتوآت، ووصلت إلى النهاية من أقصر طريق حين ابتدءوا سيرهم من عالم غير عالم الشهادة، وهو عالم الوعى الروحى، على حين ضل غيرهم ضلالا بعيدًا حين اعتمدوا على تجاربهم وأجهزتهم، ومعادلاتهم ومعاملهم.

- ٣ -

إن الميزان الدقيق فى الإسلام هو أن نتجه بأعمالنا إلى الله، لتصبح الحياة كلها عبادة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٥]، فنسمو بها وتسمو بنا، ونحولها إلى طريق الحق والخير، والحب والرحمة، وبهذا ينتقل الإنسان من الأرض إلى السماء، وإلى هذا تدعو الصوفية: إلى عبادة مخلصة لله، مع عبودية صادقة له، نتقرب إليه لنيل محبته، ومعاملة للخلق بإحسان، فالتصوف الحق: عبادة وعرفان وأخلاق، وهو: التهذيب علما، وتخلقا، وتحققا. وفى ذلك أعلى مراحل التدين، وعلينا نحن المسلمين أن نعمق هذا الاتجاه الصوفى بإبراز هذا المنهج الإسلامى الروحى، وننشر أهدافه ومعالمه ـ بالقدوة والسلوك والتأثير، لا بالتزييف والوعظ والشعارات والمباهاة.

---

(١٤) عضو الجمعية الملكية الإنجليزية: ٨٨: عقائد المفكرين.

(١٥) الأنعام: ١٦٢.

وتلك هى الروحانية الصادقة ـ وهى سمة الإسلام ـ التى تؤهل الإنسان لخلافة الأرض، وتميزه عن غيره من الأدعياء.

فليس التصوف كلاما لا روح فيه، وتفيهقًا لا عمل معه، وليس شططا وخصاما، ولا تعصبا وجدالا، ولا خمولا وانهزاما، ولا تواكلا وهوانا.

وليس من التصوف فى شىء من يرى الله من خلال هذا الكون رؤية خداع يقول (الله) ويقنع بها هتافا حرفيا، ونداء ظاهريا، لا يصل إلى روحه وكيانه، ولكن الصوفى الصادق يقولها، وما فى الكون كلمة أحب إلى قلبه منها، فالعبد فى حنين دائم، وشوق عريض، يراه (الجنيد) بأنه عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، والحب الإلهى عند الصوفى من أكبر همومه، وهو معرفة وتمكين وتحقيق، والعبادة عند الصوفى ليست طقوسًا ولا رسوما، وإنما هى حب أولا وأخيرًا. يقول أبو يزيد البسطامى «توهمت أنى أذكره (أى الله) وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى، ومعرفته سبقت معرفتى، ومحبته أقدم من محبتى، وطلبه لى أولا حتى أطلبه»[١٦].

والتصوف هو اليقين الذى يضىء الحياة وما بعد الحياة، ويرتفع بالإنسان إلى أعلى كفاحه، وأسمى نضاله، ليجاهد النفس، ويقتلع جذور الشر، وفوق هذا كله: إخبات لله، وتعلق به، ومحبة له.

إنه حركة بعث....

إن أمل الصوفى أن يصبح (الله) فى حس العالم كله واقعا محسوسا، نعته الحب، ونظامه الحكمة، وبهذا يسمو الإنسان حتى تصبح أعماله وأقواله: صلاة وتسبيحا، ويصبح الكون محرابا يلتقى فيه مع الإنسان:

---

(١٦) الرسالة القشيرية: ١٨٩ (التقدم العلمية ١٣٤٦ هـ مصر).

الجمادات والنباتات وعالم الطير والماء، ثم ينطلق هذا الحشد فى مواكب الحياة: دعاء وعبادة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١٧].

واستمع إلى قول د/ تشارلس ستانيمتز «لسوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى معرفة الله والصلاة، وعندما يأتى هذا اليوم، سيشاهد العالم فى جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده فى الأجيال الأربعة السابقة»[١٨].

إن مفهوم التصوف الذى نريده لعالمنا المعاصر، الا نرى غير الله سيدًا، فلا خضوع إلا لله، ولا عبادة للأبطال والقادة، ولا عبودية للمال والاقتصاد والدولة، ولا عبودية للتقاليد والعادات.

هذا نظامنا الذى أبدعه المسلمون عزة واقتدارا.

على أننا لا ننكر أن هنا وهناك بيئات صوفية وجدت فى كل مكان وزمان مشوهة الخلق تؤمن بالمظاهر والأشكال، ولم يستقيموا على الطريقة، فضلوا وأضلّوا، ويتحدث الإمام القشيرى عن هذه الأوضاع المنحرفة من بعض الصوفية فى زمنه فى مفتتح رسالته: «ثم اعلموا، رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

..... مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى

(١٧) الإسراء: ٤٤.

(١٨) مجلة الراى، العدد ٤٢.

رباطه. وارتحل عن القلوب حرمة[19] الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة[20]، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا[21] بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا فى ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات.. ولعل الله سبحانه يجود بلطفه فى التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة»[22].

وإن كل تطرف فى التصوف الإسلامى، مرده إلى أثر وافد غريب، أما الجانب المتزن فهو من عمل الإسلام.

- ٤ -

إن الصوفية تحمّل وأعباء، وتضحية وابتلاء، وفتوة[23] ووفاء، وقد كان

(١٩) احترامها.

(٢٠) أقوى وسيلة يصلون بواسطتها إلى مآربهم.

(٢١) تدينوا بعدم احترام الشيوخ.

(٢٢) الرسالة ص ٢٠ فما بعدها تحقيق د. عبد الحليم محمود وزميله. وانظر اللطائف: ٤١٢/٥.

(٢٣) وقد اشاد القرآن بخلق (الفتوة) عندما وصف اصحاب الكهف بأنهم ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٣) وهم فتية، لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة (الرسالة القشيرية ٤٧٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود).

- وقد وصف بهذا الخلق إبراهيم عليه السلام، ففى سورة الأنبياء ٦٠ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أو ليس من الفتوة أنه كسر أصنامهم وجعلها جذاذا؟!

ثم أخذت الفتوة تعبر التاريخ، وتمخر الآماد متطورة حتى اكتملت فى سيدنا رسول الله ﷺ، يقول القشيرى: سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول «هذا الخلق (أى الفتوة) لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد فى يوم القيامة يقول: نفسى نفسى، وهو - ﷺ - يقول: أمتى أمتى. (الرسالة ٤٧٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود).

وبهذا نجد أنفسنا أمام فتوة إسلامية تختلف عن الفتوة العربية الجاهلية، ففتوة الإسلام تسمو على فتوة الجاهلية وترتفع، وتصرع أنانيتها بالإيثار والبذل، والصدق والمروءة، وتقوم على مبدأين مهمين: الإيثار والجهاد، ولهذا يعرف الجنيد الفتوة بقوله «فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها» والفتى عندهم: من لا يدخر ولا يعتذر، وقال عنها الحارث المحاسبى «أن تنصف ولاتنتصف» الرسالة ٤٧٣.

وقيل: الفتى - يطيع مولاه، ويخالف هواه، ويراقب الله ويخشاه، ويستحى منه كأنه يراه. أما جانب الجهاد، فقد رابط هؤلاء الفتيان فى الثغور الإسلامية فى: تركستان، وعلى الحدود بين الأناضول=

منهم فى الصدر الأول فدائيو الإسلام والصناديد الذين قاموا بالفتوحات الإسلامية شرقا وغربا يَقْتِلون ويُقْتَلون، حتى جعلوا ظلام الأرض نورا، وحولوا جهلها علما، وقلبوا ظلمها عدلا، فكتائبهم موصولة بالله، وألويتهم حول راية القرآن معقودة، ومواقفهم فى الثغور الإسلامية لصد غارات الأعداء والطارئين معروفة، فأعينهم ساهرة فى (الرباطات)، لا تعرف للنوم طعما، ولا للراحة سبيلا، ومثلهم الأعلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى تحمل أثقل الصعاب وأشق الكفاح: ««إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا» كما نشروا الفكر الإسلامى فى ربوع المعمورة، فكان منه المعلمون، والأساتذة والرواد الذين حملوا مشاعل الثقافة فى كل اتجاه يعلمون ويربون ويهذبون.

وإليك صورا متألقة من حياتهم ومجاهداتهم، ومذاقاتهم، للاهتداء والاقتداء:

● يقول الشبلى «أنا المأخوذ بجرائم الخلق» وهذا جانب من الفتوة الصوفية حيث يتحمل وحده أخطاء مجتمعه».

● وكان أكثر دعاء إبراهيم بن أدهم وهو من أبناء الملوك: «اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك».

= وبلاد ما بين النهرين، وفى إسبانيا، لصد غارات المغول والبيزنطيين والإفرنج ولم يكن (الرباط) مركزا حربيا فحسب، بل كان دينيا أيضا، لا سيما بعد أن امتزجت الفتوة بالصوفية، ومن هنا وجدنا الفتوة تتلاقى وتتصافح مع الصوفية وذلك فى كثيرمن: خصالها، وتعاليمها، وقوانينها (انظر: الفتوة. تأليف ابن عمار البغدادى. تحقيق د. فؤاد حسانين القاهرة ١٩٥٩) بدليل وجود مؤلف سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٦م لأحمد بن الياس النقاش، يسمى (تحفة الوصايا) عالج فيه (الفتوة) من الجانب الصوفى، كما أن القشيرى عقد بابا فى رسالته الصوفية المشهورة سماه (باب الفتوة).

هذا، وقد تلقفت أوروبا في العصور الوسطى نظام الفتوة من المسلمين حين تم الاتصال بيننا وبين الإفرنج والنورمنديين والصليبيين فى إسبانيا وصقلية وفلسطين حيث نقل شباب الإفرنج واستمار نظام الفتوة الإسلامية ومثلها العليا وطبقوه عندهم باسم (فروسية الإخوان) حتى صار الغرب يزهو بهذا الخلق ويدل على جميع الحضارات ـ وهو أصل من تراثنا وأمجادنا.

وقيل له مرة: إن اللحم قد غلا!!

فقال: أرخصوه. أى: لا تشتروه. وأنشد:

وإذا غلا شيء عليَّ تركته　　　فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وكان يعمل فى الحصاد، وحفظ البساتين، وينفق على أصحابه.

وقال سهل بن إبراهيم: صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت، فأنفق عليَّ نفقته، فاشتهيت شهوة، فباع حماره وأنفق عليَّ ثمنه.

فلما تماثلت، قلت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخى على عنقى. فحملنى ثلاث منازل[٢٤]!!

● وقيل لبشر بن الحارث الحافى ت ٢٢٧هـ: بأى شيء تأكل الخبز؟

فقال: أذكر العافية وأجعلها إداما. وقد استشفع الخليفة المأمون بأحمد ابن حنبل فى أن يأذن بشر بن الحارث للمأمون فى زيارته. فأبى بشر[٢٥]!!

وقال بشر: أشد الأعمال ثلاثة:

الجود فى القلة، والورع فى الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى.

وقيل: جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها؟ فقال أحمد: من أنت؟ عافاك الله تعالى. فقالت: أخت بشر الحافى. فبكى أحمد وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق. لا تغزلى فى شعاعها[٢٦].

(٢٤) الرسالة القشيرية: ٥٣/١.
(٢٥) المرجع السابق: ٧١/١.
(٢٦) الرسالة: ٢٨٦/١.

● والحارث المحاسبى ت ٢٤٣هـ ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر[٢٧]، فرأى من الورع الا يأخذ من ميراثه شيئًا. ويقول الغزالى: «المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة».

● ودخل رجل على داود بن نصر الطائى ت ١٦٦هـ، فرأى أمامه جرة ماء انبسطت عليها الشمس فقال له: ألا تحولها إلى الظل؟ فقال: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحى أن يرانى الله أمشى لما فيه حظ نفسى[٢٨].

● ويقول أبو زيد البسطامى ت ٢٦١هـ: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة[٢٩].

● وهذا أبو تراب النخشبى ت ٢٤٥هـ. يقول: ما تمنت نفسى علىّ شيئًا قط، إلا مرة واحدة: تمنت علىّ خبزا وبيضا، وأنا فى سفرى، فعدلت عن الطريق إلى قرية، فوثب رجل وتعلق بى، وقال: كان هذا مع اللصوص، فبطحونى وضربونى سبعين خشبة. قال: فوقف علينا رجل صوفى، فصرخ وقال: ويحكم هذا أبو تراب النخشبى، فخلونى واعتذروا إلىّ، وأدخلنى الرجل منزله، وقدم إلى خبزا وبيضا، فقلت (فى نفسى لنفسى): كلها بعد سبعين جلدة»[٣٠].

● ومن حكمه، الناس يحبون ثلاثة وليست لهم: النفس والروح، وهما لله، والمال وهو للورثة. ويطلبون اثنين ولا يجدونهما: الفرح والراحة، وهما فى الجنة.

(٢٧) كان ينكر القدر. الرسالة القشيرية: ٨٢/١.
(٢٨) المرجع السابق ٧٦/١.
(٢٩) الرسالة القشيرية: ٨٢/١.
(٣٠) الرسالة: ٩٨/١.

وكان لهؤلاء الأخيار الأبرار كراماتهم - وهم خيار خلقه «لهم ما يشاءون عند ربهم». فخبيب رضي الله عنه حين استشهد أصحابه، وكانوا فى حرب لرسول الله ﷺ ووقع هو أسيرا، سجنه الحارث فى بيته. تقول بنت الحارث هذا، لقد كنت أدخل عليه محبسه، فأجده يأكل العنب، وما بمكة كلها يومئذ ثمرة عنب واحدة، وما كان هذا إلا رزقا رزقه الله إياه.

● ومن مبادئهم:

١ - الصوفى: لا يكدره شىء، ويصفو به كل شىء.

٢ - من زاد عليك فى الأخلاق زاد عليك فى التصوف.

٣ - إذا قلت يا رب أين الطريق إليك؟ جاءك النداء: فارق نفسك وتعال.

٤ - أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين التياهين.

٥ - الأوقات: لأصحاب القلوب. والأحوال: لأرباب الأرواح. والأنفاس: لأهل السرائر.

● ومن تعاريفهم:

١ - سئل ذو النون المصرى عن العارف. فقال: كان ههنا، فذهب[٣١] وعرفه القشيرى: بأنه كائن بائن[٣٢].

٢ - الوجد: المصادفة، والمواجيد: ثمرات الأوراد[٣٣].

٣ - التواجد: يوجب استيعاب العبد. والوجد: يوجب استغراق العبد. والوجود: يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق فى البحر[٣٤].

(٣١) الرسالة: ١/١٩٣. (٣٢) اللطائف: ٢/٢٥٣. (٣٣) الرسالة: ١/٢٠٢.
(٣٤) المرجع السابق: ١/٢٠٤. فالتواجد: بداية، والوجد: واسطة، والوجود: أعلى درجات الشهود. اللطائف: ٦/١١٥.

٤ ـ الخلوة: صفة أهل الصفوة، والعزلة: من أمارات أهل الوصلة[٣٥].

٥ ـ حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء[٣٦].

تلك هى الصوفية التى أريدها، وأدعو لها[٣٧]، وأعتز بها ـ عقيدة وسلوكا، قوة وعملا، أملا وعزما، تذوقًا ووجدا، إشراقا وفيضا، إنها يقظة فى الوجدان، والشعور والحس، وإن فى غيبتها عن العالم الإسلامى يغيب عنا كل شىء، ونعيش فى فراغ روحى أخلاقى رهيب، وندفع غرم الحضارات المادية الزائفة التى نعيش فيها، ولا يصيبنا من غنمها شىء، وإذا كان الأمر كذلك فهل عالجنا كل مشكلاتنا وقضايانا على أرضنا، ولم يبق منها إلا الهجوم على التصوف والصوفية ونسينا معسكرات الكفر والإلحاد، والتخريب والهدم التى تحيط بنا، من بين أيدينا ومن خلفنا، وهى مهما غيرت أشكالها وأسماءها وطقوسها ـ تقف للإسلام بالمرصاد، وتتربص به وبأهله الدوائر! لتنهشنا أنيابها المسعورة الحاقدة، وتنوشنا أقلامها المسمومة الجائرة! «إن الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم، والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره «نفحات إلهية» ـ لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد»[٣٨].

فارفعوا أيديكم عن (رجال الله) وانظروا ما وراءكم.. إلى الخطر الداهم الذى تسلل إلى بلاد المسلمين بليل، ليبدد نورها ظلاما، وسلامها قتالا، وكبرياءها ضعة، ووحدتها فرقة.

(٣٥) الرسالة: ١/٢٧١.　　(٣٦) الرسالة: ٢/٦١٥.

(٣٧) لا أريد بالدعوة إلى الصوفية أن تشمل أفراد المجتمع كله، فهذا تكليف بما لا يستطاع، وإنما أرجو أن نسعى إليها ما استطعنا، ليكون فى مجتمع الإسلام نماذج وطلائع لها.

(٣٨) الإسلام يتحدى: ١٨٨ (من كلمة رئيس أكاديمية نيويورك سابقًا).

وإلى اللائمين، والمتغامزين، والشانئين، والمشوهين للمثل العليا التى دعت إليها الصوفية[٣٩] الحقة ـ عن جهل أو عمد ـ أقول لهم جميعًا ما قال الشاعر العربى:

أقلوا عليهم ـ لا أبا لأبيكم ـ من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا

ولا أنسى فى خاتمة هذا الكتاب أن أذكر صديقى وأخى الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعة عين شمس، لما له من فضل على الكتاب وصاحبه.

وللأستاذ محمد بلحاج المدرس بجامعة الفاتح تقديرى، لما أسدى إلى من يد، وقدم من عارفة.

و«الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله».

طرابلس الغرب

فى ١٨ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ الموافق ١٧ مايو ١٩٧٦م

أحمد علم الدين الجندى

(٣٩) عندما أقول: التصوف أو الصوفية ـ فإنما أقصد النقاء الإسلامى. فليس من التصوف إذًا أولئك الأدعياء المضللون الذين يقومون بحركات مريبة باسم الإسلام، دون أن يكون فى قلوبهم إيمان، وفى سلوكهم صدق. فهؤلاء محتالون منافقون، والطريقة منهم براء، وقد حمل على أمثال هؤلاء ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٧٢.

الفصل الأول

عبد الكريم القشيرى

بين مولده ووفاته

١ ـ حياته وعصره وأخباره:

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابورى. الأستاذ أبو القاسم القشيرى الملقب زين الإسلام. ولد رحمه الله سنة: ست وسبعين وثلاثمائة، فى شهر ربيع الأول، فى بلدة: أستوا[1]، وكان سكانها من العرب الذين قدموا من خراسان. أما (نيسابور) فكانت فى هذا الوقت عاصمة خراسان، وهى مركز العلماء ومهد العلوم والفنون.

نشأ القشيرى يتيما، وكانت تظهر عليه النجابة فى صغره، ولما شب ونما لزم عتبة باب أبى على الدقاق، فأشار عليه أستاذه بأن يشتغل بعلوم الشريعة أولا. فخرج إلى درس أبى بكر محمد بن أبى بكرالطوسى ت ٤٠٥هـ. وأخذ عنه الفقه، ثم انتقل بإرشاد أستاذه إلى الإمام أبى بكر بن فورك ت ٤٠٦هـ فأخذ عنه علم الأصول وبرع فيه، ثم اختلف بعد وفاته إلى مدرسة الأستاذ أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرايينى ت ٤١٨هـ. ودرس بها، وهى مدرسة منقطعة النظير تخرج منها أئمة العلماء كأبى بكر البيهقى الحافظ ت ٤٥٨هـ وغيره، ثم نظر بعد ذلك فى كتب القاضى أبى بكر الباقلانى ت ٤٠٣هـ. ومع ذلك كله كان لا يفارق مجالس أبى على الدقاق.

وقد ذكر القشيرى سلسلة بيعته بلسان شيخه الدقاق[2].

---

(١) بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها أو فتحها وبعدها واو ثم ألف.

(٢) طبقات الشافعية ٥/١٥٧ ط الحلبى.

أما شيوخه: فهم كثر نذكر منهم: أبو على الدقاق، وأبو إسحاق إبراهيم (الإسفراييني) وأبو نعيم أحمد المهرجاني، وأبو الحسن أحمد بن محمد الخفاف، وأبو عبد الله الحسين البزار..

أما تلاميذه: فهم كثير، منهم: أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، وأبو إبراهيم إسماعيل العلوى، وأبو عبد الله الفراوى.

وعقد القشيرى مجلس الإملاء فى الحديث سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وكان يحضر مجلسه آلاف من الناس، وقد اشتغل بالتدريس فى: نيسابور، وبغداد، ومرو، ونسا، كما قضى معظم وقته فى التأليف والتنسك، والاجتماع بالأصحاب والمريدين، ومجالس الذكر والسماع.

وكان عديم النظير فى مجالس التذكير، وقد شرع فى عقد هذه المجالس فى حياة شيخه الدقاق وهو فى الثلاثين من عمره، وكانت تعقد فى المسجد المطرز.

ذكره أبو الحسن الباخرزى فى كتابه «دمية القصر» فقال: «جامع لأنواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ربط إبليس فى مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب، فى فصل المنطق المستطاب، ماهر فى التكلم على مذهب الأشعرى، خارج فى إحاطته بالعلوم عن الحد البشرى، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائد»[3].

هذا مجمل ما رددته المصادر[4] عن الإمام القشيرى، ولكن بقى فى

(٣) دمية القصر ١٩٤ فما بعدها، طبقات الشافعية ٢٤٣/٣ فما بعدها.

(٤) وانظر فى ترجمته: تاريخ ابن الأثير ١١٨/٨ ط الاستقامة.

ـ البداية والنهاية لابن كثير ١٠٧/١٢ ط السعادة.

ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧٥/٢.

ـ مرآة الجنان لليافعى ٩١/٣ فما بعدها. =

شعورى وخاطرى صورة عن هذا الإمام أسجل جوانب منها من خلال قراءتى فى مؤلفاته لتكتمل هذه النماذج الرفيعة، وتلك اللفتات الآسرة، وذلك العطاء المتجدد من تاريخه العطر، حياة ومماتا:

●● عربى النسب، قشيرى الأب، سلمى الأم، شافعى أشعرى سنى.

●● شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، وإمام الأمة، أجمع أهل عصره، على أنه سيد زمانه، وقدوة وقته، وبركة المسلمين فى عصره.

●● كان يقف بين رجال الإسلام فى عصره بقامته الفارعة فلا يطاوله أحد.

●● وكان ثمرة لنتاج دراسة عقلية لغوية أدبية دينية واسعة واكبتها الفيوضات والإلهامات، وباركها بعد هذا كله الاصطفاء الإلهى فكان من رجال الله الذين يعدهم ويصنعهم قبل أن يختارهم.

●● لم يكن القشيرى فقيها أو متكلما أو سنيًا أو كاتبا أو شاعرًا فحسب ولكنه كان كل هذا أو أكثر من هذا.

●● وكان جانب الربانية فى القشيرى مهيمنا عليه، فتجرد من عبودية الدنيا إلى عبادة الله، ومن إرادتها الجامحة إلى إرادته، ومن رغباتها الهادرة إلى رغبته، فأصبح الحضور عنده لله ولا سواه، والكلمة لله ولا سواه.

= ـ شذرات الذهب ٣١٨/٢ فما بعدها لابن العماد الحنبلى ط بيروت.
ـ دمية القصر للباخرزى ١٩٤ ـ ١٩٦.
ـ النجوم الزاهرة ٩١/٥.
ـ طبقات الشافعية للسبكى ٢٤٣/٣ فما بعدها ط أولى. الحسينية مصر.
ـ طبقات المفسرين للسيوطى ٢٢/٢١.
ـ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ١٨٨/٢.
ـ كشف الظنون ٥٢٠، ٨٨٢.

●● جند قلمه وكلمته للدعوة إلى الله حتى تصل إلى ضمير الأمة المسلمة، كما جرد حياته للدفاع عن مبادئه ومثله العليا، فنصر الحق، واستقام على جادته، ودعا إليه، وتمسك به، فلم يكن سلبيا مثل غيره، بل زج بنفسه فى دروب الحياة، وكثيرًا ما كان يغمز أصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية (لطائف الإشارات ٥/٢٤٩).

●● وكان من أعدل الصوفية مذهبا، وأصحهم منهجا، وأقومهم مسلكا، فلم يندفع إلى المذاهب الجامحة، والتيارات الطائشة، ولم يتجه كما اتجه غيره إلى القشور والطقوس والرسوم، يدور حولها ومن وراء ذلك باطن هواء، وضمير خواء.

●● وكانت له فى معاناته إشارات خفية لطيفة تصل به إلى تصوير النفس وخلجاتها، والروح ومساراتها، وهو فى هذا يخترق حجب الماديات مترقيا إلى المقامات الروحية، والفيوضات الربانية، والمكاشفات والأسرار.

●● أقام القشيرى صوفيته على أصل من القرآن وركيزة من السنة، وأكبر آماله أن يتم لقاء بين الشريعة والحقيقة[٥]. فمراعاة الحقيقة عنده لا تتم إلا بمراعاة الشريعة.

●● وكان صادقا فى بدايته ووسيلته وغايته، فطهر قلبه من كل سانحة، وصفى نفسه من كل كدورة، والصادقون فى الصوفية هم: الذين صدقوا فى الطلب فقصدوا[٦]، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا (اللطائف ١/٢٣٧).

---

(٥) اللطائف ١/٢٧٦، ١٦٦.

(٦) يشير القشيرى إلى مراتب أهل الحق، وغاياتهم فى كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحى.

●● كل عمل عنده للعبد مرتبط بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنسانى[٧].

●● على العبد أن يكون فانيا بحقوق ربه عن حظوظ نفسه، «وشتان بين عبد صباحه مفتتح بعبادته، ومساؤه مختتم بطاعته، وبين عبد صباحه مفتتح بمشاهدته، ورواحه مفتتح بعزيز قربته» (اللطائف ٥/١١١).

●● العبادة الحقة هى المجردة عن الطمع، والثواب والعقاب[٨].

●● كل شىء ناطق بالوحدانية إما نطق مقالة كما فى حال الإنسان وإما نطق دلالة ـ كما فى الجمادات[٩].

●● الصوفية اجتماعيون غير منعزلين كما يظن بهم بعض الناس.

●● التصوف لا ينافى العمل والحركة.

●● التصوف لا يمكن أن يسود المجتمع كله، بل هو محصور فى طائفة مخصوصة[١٠] أو كما جاء فى الرسالة القشيرية ص ١٢٧: «هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم» ولهذا كانت لغتهم رمزية أكثر منها معجمية، فهى لغة كشف وذوق.

●● العقل آلة لتصحيح الإيمان فى البداية والالتجاء إليه للوصول يعد قاطعا من القواطع؛ لأن العقل يستمد أحكامه من المحسات فلا يدرك الغيب، وإنما يجب أن يعتمد على الملكات الأعلى: كالروح والسر وسر السر فى العروج نحو القمم الشواهق[١١].

●● غاية التصوف تحقيق الاتصال المباشر بالخالق الأعلى.

---

(٧) اللطائف ١/٦٢.
(٨) اللطائف ٥/٣٢٠.
(٩) اللطائف ٥/٢٩٠.
(١٠) اللطائف ٣/٧٣.
(١١) اللطائف ١/٤٢، ٢٧٩، ٦/١٣٤.

●● أما المحنة القاسية والفتنة التى طار شررها بين السلطان (طغرل) ووزيره وبين القشيرى بخاصة والأشاعرة بعامة حتى شملت (خراسان) كلها وكثيرًا من البلاد العربية، وكان القشيرى وأصحابه ضحيتها حين هجم الأوباش عليه وراحوا يجرونه فى الطرقات حتى قبض عليه من قبل السلطان، ولكن الشعب خلصه من جور السلطان بعد معارك ضارية تم النصر فيها للشعب على السلطان ووزيره، ولكن القشيرى الصامد المؤمن غادر المشرق كله فى سبيل عقيدته وترك أهله وبيته وأولاده عشر سنوات كاملة يسيح فى الأرض يتعبد وينحنى صلبه على أجزاء القرآن، وسوره، ويقرأ، ويدرس، ويجلس أمام مصباح نحيل خافت يؤلف ويكتب ويلتمس الهداية والفتح.

وفى أثناء قيامه بشعيرة الحج التقى بأصحابه الذين فروا من ديارهم وأخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وخطب فيهم على المنبر، وما هى إلا لحظة حتى أطرق ثم صاح «يا أهل خراسان.. بلادكم، إن (الكندرى) غريمكم يقطع الآن إربا إربا، وإنى أشاهده الساعة! يقول السبكى فى طبقاته: «ضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع (الكندرى) إربا إربا، وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان»[١٢].

أقول: أما المحنة القاسية فقد صهرته فى بوتقتها، وجعلت منه رجلا صابرا محتسبا صامدا لا يلين ولا ينحرف على الرغم من قسوة النفى والتشريد، وظلمة الطغيان والتهديد.

ولهذا يقرر القشيرى ضرورة السفر إن نبا بك المكان واشتد الجور، وتعرضت العقيدة للمحنة بشرط أن يصحب السفر عن المكان سفر عن النفس[١٣].

(١٢) طبقات الشافعية للسبكى ٢٧٢/٢.

(١٣) اللطائف ٢٣٦/٢، ٩/٥، ٥٩، ١٥٨/٦.

●● أما أستاذه الروحى فهو أبو على الدقاق، لسان وقته وإمام عصره، وقد ملك عليه الدقاق قلبه وعقله حتى توثقت بينهما الصلة الروحية فاختاره لكريمته وقد وهبه الله منها ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم عباد ليل وأنضاء عبادة، وبنتا واحدة هى «أمة الرحيم» ـ واستمع معى إلى علاقة المريد بالشيخ، والتلميذ بالأستاذ يقررها القشيرى فيقول: «لم أدخل على الأستاذ أبى على رحمه الله فى وقت بدايتى إلا صائمًا وكنت أغتسل قبله!، وكنت أحضر باب المدرسة غير مرة فأرجع من الباب احتشامًا من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فى إبرة مثلا لعلى كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتى، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا»[14].

●● أما أصدقاؤه: فمنهم: أبو عبد الرحمان السلمى وأبو المعالى الجوينى.

●● وأخيرًا نالت المحن والآلام والأسفار منه حتى خبا ذلك السراج عام ٤٦٥هـ بعد أن نال المرض من جسمه كذلك، ولم ينل شيئًا من قلبه ودينه فكان يؤدى الصلاة قائمًا حتى آخر لحظة. ويتفق ابن كثير والسبكى على أنه «كانت له فرس يركبها قد أهديت له فلما توفى، لم تأكل علفا حتى نفقت بعده»[15]. طيب الله ثراه، وبرد مثواه ومترعه، ونور ضريحه ومضجعه.

٢ ـ مؤلفاته وآثاره

كان من نتائج هذا الفكر الذى استكشف المعارف، واستخرج أبكار الإشارات ـ تحقيقا للوعى الروحى ـ هذه المؤلفات:

---

(١٤) الرسالة: ١٣٤.

(١٥) الإمام القشيرى ص ٤٣ دكتور إبراهيم بسيونى.

١ ـ التيسير فى علم التفسير: وهو أول كتبه تأليفا، وفرغ منه قبل سنة ٤١٠هـ ـ مخطوط (ليدن والهند).

٢ ـ الرسالة القشيرية: وطبعت كثيرًا، وترجمت، وألفت ٤٣٧هـ.

٣ ـ التحبير فى التذكير: طبع فى القاهرة ١٩٦٨م وحققه الدكتور إبراهيم بسيونى.

٤ ـ آداب الصوفية: مفقود.

٥ ـ لطائف الإشارات: وهو تفسير صوفى على طريقة أرباب الحقائق، طبع لأول مرة بالقاهرة، دار الكاتب العربى، بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى فى ستة أجزاء، وقدم له الأستاذ حسن عباس زكى.

٦ ـ كتاب الجواهر: مفقود.

٧ ـ عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة: مفقود.

٨ ـ كتاب المناجاة: مفقود.

٩ ـ كتاب المنتهى فى نكت أولى النهى: مفقود.

١٠ ـ كتاب نحو القلوب الكبير: تذكر المصادر أنه مفقود، ويحمد الله اكتشفت أصوله المخطوطة وهى فى مكتبة طلعت تصوف ١٥٩٣ وعثرت على مخطوطات أخرى من تونس، ومن حماة بسوريا يتملكها الأديب المحقق الأستاذ مصطفى الحدرى، وقد أسرع بإرساله إلى مشكورًا، وقد حققه الدكتور إبراهيم بسيونى بالاشتراك معى.

١١ ـ كتاب نحو القلوب الصغير: وهو هذا الكتاب الذى يحقق لأول مرة.

١٢ ـ كتاب أحكام السماع: ذكرت المصادر أنه مفقود، وقد نشره المعهد المركزى للأبحاث الإسلامية ـ باكستان. وحققه د. فير تحت عنوان: الرسائل القشيرية. وعربه الأستاذ السورتى.

١٣ ـ كتاب الأربعين حديثا: مخطوط (ليدن).

١٤ ـ الأحاديث التى سمعها القشيرى بسند متصل عن شيخه الدقاق: دار الكتب الآصفية. مخطوط.

١٥ ـ رسالة ترتيب السلوك نشرت بالمعهد المركزى (باكستان) حققها د. (فير) محمد حسن.

١٦ ـ شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة: نشرت بالمعهد المركزى (باكستان).

١٧ ـ كتاب سير المشايخ.

١٨ـ كتاب المعراج: حققه الدكتور على عبد القادر. ط. دار الكتب الحديثة ١٩٤٦ بالقاهرة.

١٩ ـ استضافة المرادات: إستانبول (مخطوط).

٢٠ ـ بلغة المقاصد فى التصوف.

٢١ ـ ناسخ الحديث ومنسوخه.

٢٢ ـ حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح: مخطوط (الأسكوريال).

٢٣ ـ منثور الخطاب فى مشهور الأبواب: مخطوط (الجزائر).

٢٤ ـ الفصول فى الأصول: مخطوط (القاهرة).

٢٥ ـ مجالس أبى على الدقاق.

٢٦ ـ التوحيد النبوى: مخطوط (القاهرة).

٢٧ ـ اللمع فى الاعتقاد: مخطوط (القاهرة).

٢٨ ـ شرح أسماء الله الحسنى: طبع بالقاهرة ١٩٦٩، ونشره الأستاذ أحمد عبد المنعم الحلوانى.

٢٩ ـ فتوى محررة فى ذى القعدة سنة ٤٣٦هـ، أوردها السبكى فى طبقاته جـ ٣.

٣٠ ـ ديوان شعر.

٣١ ـ القصيدة الصوفية: ذكرها الحلوانى فى مقدمة كتابه (شرح أسماء الله الحسنى).

٣٢ ـ المقامات الثلاثة: له بطاقة بمكتبة جامعة القاهرة، والأصل غير موجود.

٣٣ ـ الفتوة.

٣٤ ـ الحقائق والرقائق: مخطوط. بمكتبة جستر بيتى. دبلن. أيرلنده رقم ٣٠٥٢ وتاريخ النسخ ٧٧٥هـ. ولم يذكر هذا الكتاب أحد من أصحاب التراجم والسير، ولقد طلبت تصويره لتحقيقه ونشره.

وأرجع أن آثار القشيرى التى سبقت آنفا هي أكمل آثار ظهرت له حتى الآن، لا سيما أن السبكى قد أشار إلى تأليفه فبلغت عنده ثلاثة عشر مؤلفا، وعند الدكتور على عبد القادر ثلاثة وعشرين، وعند الدكتور إبراهيم بسيونى خمسة وعشرين، وفى هدية العارفين للبغدادى ستة عشر مؤلفا.

٣ ـ شعر القشيرى

سبق أن أشرت إلى أن للقشيرى ديوانا من الشعر، ولكنه مفقود حتى الآن، ولم تشر المصادر أنه ألف ديوانا شعريا إلا إشارة واحدة وردت فى مصدر معاصر[١٦]، ولم تذكر أين يوجد هذا الديوان، ولهذا اتجهت إلى آثاره الموجودة: مطبوعة أو مصورة أو مخطوطة لأستخرج من خلالها شعره، وقد قسمت هذه المادة الشعرية التى عثرت عليها إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ نوع جمعته من كتب الطبقات والتراجم والسير.

ب ـ ونوع جمعته من غضون تراثه ومؤلفاته.

جـ ـ وآخر استشهد به فى كتبه ومؤلفاته.

أ ـ شعره من خلال كتب التراجم والسير

قال رحمه الله[١٧]:

يا من تقاصر شكرى عن أياديه
وكل كل لسان عن معاليه

وجوده لم يزل فردا بلا شبه
علا عن الوقت ماضيه وآتيه

لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه
لا كشف يظهره، لا ستر يخفيه

(١٦) الرسائل القشيرية ٢٦، تحقيق د/ فير.
(١٧) طبقات الشافعية: ترجمة القشيرى ٢/٢٤٣.

لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه

لا حد يقطعه، لا قطر يحويه

لا كون يحصره، لا عين تبصره

وليس فى الوهم معلوم يضاهيه

جلاله أزلى لا زوال له

وملكه دائم لا شىء يفنيه

وقال أيضا[18]:

جنبانى المجون يا صاحبيا

واتلوا سورة الصلاة عليا

قد أجبنا لزاجر العقل طوعا

وتركنا حديث سلمى وميا

ومنحنا لموجب الشرع نشرا

وشرعنا لموجب اللهو طيا

ووجدنا إلى القناعة بابا

فوضعنا على المطامع كيا

إن من يهتدى لقطع هواه

فهو فى العز حاز أوج الثريا

(18) المرجع السابق.

والــذين ارتــووا بــكــأس مــنــاهم

فـعـلـى الـصـد سـوف يـلـقـون غـيـا

وقال أيضا[١٩]:

لا تــدع خــدمــة الأكــابــر واعــلم

أن فـى عــشــرة الــصــغــار صــغــارا

وابغ مـــن فى يمينه لـــــك يمـــن

وتــرى فى الـيـسـار مـنه الـيـسـارا

وقال أيضا[٢٠]:

لـو كنت سـاعـة بيننـا مـا بيننـا

وشـهـدت كـيـف تـكـرر الـتـوديـعـا

أيـقـنـت أن من الـدمـوع مـحـدثـا

وعـلـمت أن من الحـديث دمـوعـا

وقال أيضا[٢١]:

سقى الله وقتا كنت أخلو بوجهكم

وثغر الهوى فى روضة الأنس ضاحك

أقـمـنـا زمـانـا والـعـيـونُ قـريـرة

وأصـبـحـت يـومـا والجـفـون سـوافكُ

(١٩) طبقات الشافعية ٢٤٨/٣، شذرات الذهب ٣٢٠/٣.

(٢٠) طبقات الشافعية ج ٣ ترجمة القشيرى، والبداية والنهاية لابن كثير ١٠٧/١٢.

(٢١) شذرات الذهب ٣٢١/٣.

وقال أيضا[٢٢]:

وإذا سقيت من المحبة مصة

ألقيت من فرط الخمار خماري

كم تبت قصداً ثم لاح عذاره

فخلعت من ذاك العذار عذاري

وقال أيضا[٢٣]:

أيها الباحث عن دين الهدى

طالبا حجة ما يعتقده

إن ما تطلبه مجتهدا

غير دين الشافعي لا تجده

وقال مرتجلا عندما صعد المنبر، وشخص إلى السماء ضارعا، والناس من حوله يتفرسون وجهه، وصاح: «يا أهل خراسان... بلادكم بلادكم! إن الكندري غريمكم يقطع الآن إربا إربا، وإني أشاهده الساعة، ثم قال:

عميد الملك ساعدك الليالي

على ماشئت من درك المعالي

فلم يك منك شيء غير أمر

بلعن المسلمين على التوالي

(٢٢) طبقات الشافعية.

(٢٣) المرجع السابق.

فـقـابـلـك الـبلاء بمـا تلاقى

فذق مـا تسـتحق من الـوبـال[٢٤]

وقال فى رمد الحبيب:

يـا من تـشـكى رمـدا مـسه

لا تـرفع الـشـكوى إلى خـالـقك

مـوجب مـا مـسك من عـارض

أنك لم تـنـظـر إلى عـاشـقك[٢٥]

وله أيضا[٢٦]:

الأرض أوسع بـقـعـة

من أن يـضـيق بك المـكـان

وإذا نـبـا بـك مـنـزل

ويـظل يـلـحـقك الـهـوان

فـاجـعل سـواهـا مـغـرسـا

ومن الـزمـان لك الأمـان

ومن غزلياته الرقيقة[٢٧]:

قـالـوا بـثـيـنـة لا تفى بعـداتـهـا

روحى فـداء عـداتـهـا ومـطـالـهـا

(٢٤) دمية القصر ١٩٥. (٢٥) دمية القصر ١٩٥.

(٢٦) دمية القصر ١٩٥. (٢٧) دمية القصر ١٩٥.

إن كـان نجـز عـداتـهـا مـتـأخـرًا

فـلـقـ، تـشـرفـنـا بـنـقـد مـقـالـهـا

وله أيضا[٢٨]:

مـا خـضـابى بـيـاض شـعـرى إلا

حـذرًا أن يـقـال شـيـخ خـلـيـع

يلاحظ فى المقطع الشعرى الأول الذى يتحدث فيه عن وحدانية الله وتنزيهه أن فواصله قصيرة مؤثرة قد أخذت أقصى سرعتها، وانطلق من خلالها ما يشبه الذكر والتسبيح، والتعظيم والتمجيد، للواحد الأحد، وهذا ديدن القشيرى عندما يغيب عن نفسه ويستولى عليه اسم «الله» الذى لا تمسه علة، ولا تميزه عزلة، ولاتلحقه آفة، ولا تدركه مسافة. فلا معين يساعده، ولا منازع يعانده!

واستمع إليه فى تسبيحة علوية من تلك التسابيح التى أحاطت به، واستولت عليه وذلك فى مفتتح «رسالته»: «فسبحانه من عزيز لا حد يناله، ولا عد يحتاله، ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره، ولا ولد يشفعه، ولا عدد يجمعه، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه، ولا فهم يقدره، ولا وهم يصوره».

فهذا النص النثرى لا يقل فى تأثيره وفواصله وموسيقاه عن المقطع الشعرى السابق والذى يدور حول الفكرة نفسها.

(٢٨) دمية القصر ١٩٥.

ب ـ شعره من خلال آثاره وتراثه

يقول القشيرى:

١ ـ «وعزيز من يصدق فى الصداقة، فيكون فى الباطن كما يرى فى الظاهر، ولا يكون فى الوجه كالمرآة ومن ورائك كالمقراض، وفى معناه قلت:

من لى بمن يثق الفؤاد بوده
فإذا ترحل لم يزغ عن عهده
يا بؤس نفسى من أخ لى باذل
حسن الوفاء بوعده لا نقده
يولى الصفاء بنطقه لا خلقه
ويدس صابا فى حلاوة شهده
فلسانه يبدى جواهر عقده
وجنانه يغلى مراجل حقده
لاهم إنى لا أطبق مراسه
بك أستعيذ من الحسود وكيده

٢ ـ وفى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٢٥)﴾ (الزمر: ٢٥). «أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أن أتم السرور ما يكون فلتة، ومن الهجران والفراق ما يكون بغتة غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد، وأشد وأوجع تأثيرًا فى القلب، وفى معناه قلنا:

فبت بخير والدنى مطمئنة
وأصبحت يوما والزمان تقلبا

وأتم السرور وأعظمه تأثيرًا ما يكون فجأة ـ قال قائلهم[٢٩]:

---

(٢٩) هذا من شواهد القشيرى.

بينما خاطر المنى بالتلاقى

سابح فى فؤاده وفؤادى

جمع الله بيننا فالتقينا

هكذا صدفة بلا ميعاد

(اللطائف: ٥/٢٧٩)

٣ ـ ويتحدث عن انتظار اليسر من الله، وهو صفة المتوسطين فى الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا، واستواء وجود السبب وفقده، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا فى أفياء الرحال يعللون بحسن المواعيد وأبدا هذه حالتهم:

إن نابك الدهر بمكروهه

فعش[٣٠] بتهوين تصانيفه

فمن قريب ينجلى غيمه[٣١]

وتنقضى كل تصاريفه

(اللطائف: ٦/١٦٩ ـ النجوم الزاهرة: ٥/٩١)

٤ ـ وفى تفسير قوله تعالى: «يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم».

«ويقال: إن المؤمن وثق بحسن إفضاله، فاغتر بطول إمهاله، فلم يرتكب الزلة لاستحلاله، ولكن طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله، وكما قلت:

---

(٣٠) فقل...

(٣١) غمه.

يـقـول مـولاى: أمـا تـسـتـحى
ممـا أرى من سـوء أفـعـالك
فـقلت[٣٢]: يـا مولاى رفـقـا فـقـد
جـرأنى كـثـرة أفـضـالك

(اللطائف: ٦/٢٦٥)

٥ ـ وفى قوله تعالى: «تعرف فى وجوههم نضرة النعيم».

«فأحوال المحب شهود عليه أبدا. فإن كان الوقت وقت وصال فاختياله ودلاله، وسروره وحبوره، ونشاطه وانبساطه. وإن كان الوقت وقت غيبة وفراق، فالشهود عليه نحوله وذبوله، وحنينه وأنينه، ودموعه، وهجوعه، وفى معناه قلت:

يـا من تـغـيـر صـورتى لمـا بـدا
لجميع ما ظنوا بنا ـ تحقيق[٣٣]

وقلت:

ولمـا أتى الـواشـين أنى زرتـهـا
جـحدت حذارًا أن تشيع السـرائر
فقـالوا: نرى فى وجهك اليوم نضـرة
سـرت[٣٤] فى مـحيـاك.. وهـاذاك ظـاهـر

(٣٢) فى الأصل: قلت، وعدلناها: فقلت ـ ليستقيم الوزن.
(٣٣) ما ظهر على أساريرى من أشياء حاولت كتمانها قد حقق ظنون الواشين والعاذلين،... فلا فائدة ـ فالصب تفضحه عيونه! (المحقق).
(٣٤) فى الأصل: كست محياك. وعدلناها إلى: سرت فى محياك. ليستقيم الوزن، ولأن (سرت) قريبة من (كست) فى الكتابة.

وبـردك لا ذاك الـذى كـان قـبـلـه

به طـيب نـشـر لم تـشـعه المجـامـر

فـمـا كـان مـنى من بـيـان أقـيـمه

وهيـهـات أن يـخفى مـريب مسـاتر

(اللطائف: ٦/ ٢٧٠ وما بعدها)

٦ ـ وعند تفسيره لقوله تعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظنا».

«أرباب الحقائق على بصيرة وقطع، ولا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون أهل المعرفة به سبحانه ـ فيما يعود إلى صفته ـ على الظن.

وكما قلنا:

طـلـع الـصـبـاح فلات حـين سـراج

وأتى الـيـقـين فـلات حـين حـجـاج

حـصل الـذى كـنـا نـؤمل نـيـلـه

من عـقـد ألـويـة وحل رتـاج

والـبـعـد قـوض بـالـدنـو خـيـامه

والـوصـل وكـد سـجـلـه بـعـنـاج

قد حـان عهد للسرور فحيهلا[٣٥]

لـهـواجم الأحـزان بـالإزعـاج

(اللطائف: ٢/ ٩٥ فما بعدها)

---

(٣٥) اسم فعل أمر بمعنى: عجل إليه، وحيهل: تتعدى بنفسها وبعلى وباللام والباء، وهى مركبة من (حى) بمعنى: أقبل، و(هلا) التى للحث والعجلة.

٧ ـ وفى تفسير قوله تعالى: «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور».

«ليس للأحوال الدنيوية خطر فى التحقيق، ولا يعد زوالها وتكدرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل، لكن المحنة الكبرى والرزية العظمى ذبول غصن الوصال، وتكدر مشرب القوم، وأفول شوارق الأنس، ورمد بصائر أرباب الشهود.. عند ذلك تقوم قيامتهم، وهناك تسكب العبرات. ويقال: إذا نعق فى ساحات هؤلاء غراب البين، ارتفع إلى السماء نواح أسرارهم بالويل. ومن جملة ما يبثون من نحيبهم ما قلت:

قولا لمن سلب الفؤاد فراقه
ولقد عهدنا أن يباح عناقه[٣٦]

بعد الفراق.. فبالذى هو بيننا
هلا رحمتم من دنا إزهاقه؟

عهدى بمن جحد الهوى أزمان
كنا بالصبابة ـ لا يضيق نطاقه

والآن مذ بخل الزمان بوصلنا
ضاق البسيطة حين دام فراقه

هل ترتجى من وصل عزك رجعة
تحنو على قمر يدوم محاقه

(٣٦) فى الأصل: عتاقه، ورجحت أن تكون: عناقه. بالنون لتتوام مع (الفراق).

إن كان ذاك كما تروم فأخبروا

أنى له (أنى) يعود شروقه[٣٧]

(اللطائف: ٢/١٢٦)

ج ـ أبيات الاستشهاد

١ ـ فى أول سورة براءة: «ذكر الله البراءة من المشركين قطعا، فلم تصدر بذكر الرحمة، وقد كان بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأولئك المشركين عهد.. فنزل الخبر من الغيب بغتة، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأة، فقال: «براءة من الله ورسوله».

وأنشدوا:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا

فهبت به ريح من البين فانطفا

(اللطائف: ٣/٦)

٢ ـ «كيف يكون المفلس من عرفانه، كالمخلص فى إيمانه؟ وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك فى وجوده؟

كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول: أنت؟ وأنشدوا:

وأحبابنا شتان[٣٨]: واف وناقص

ولا يستوى قط محب وباغض

(اللطائف: ٣/١٠)

(٣٧) فى الأصل: أن يعود. ورجحت: أنى يعود، لاستقامة الوزن.

(٣٨) اسم فعل ماض بمعنى: افترق.

٣ ـ وفى قوله تعالى: «يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان...».

«ويقال: إن القلوب مجبولة على محبة من يبشر بالخير، فأراد الحق ـ سبحانه ـ أن تكون محبة العبد له ـ سبحانه ـ على الخصوص، فتولى بشارته بعزيز خطابه من غير واسطة فقال: يبشرهم ربهم برحمة منه» وفى معناه أنشدوا:

لـولا تـمـتع مـقـلـتى بـلـقـائه

لوهـبـتهـا بـشـرى بقـرب إيـابه

(ط: ٣/١٦).

٤ ـ ويقول عن المتخلفين فى غزوة تبوك: «بين الله سبحانه أنه لو كانت المسافة قريبة، والأمر هين لما تخلفوا عنك، لأن من كان غير متحقق فى قصده، كان غير بالغ فى جهده، يعيش على حرف، فإذا رأيت المريد يتبع *الرخص ويجنح إلى الكسل.. فاعلم أنه منصرف عن الطريق، متخلف عن* السلوك. وأنشدوا:

وكـذا المـلـول إذا أراد قـطـيـمـة

مل الـوصـال وقـال: كـان وكـانـا

ومن جد فى الطلب لم يعرج فى أوطان الفشل، ويواصل السير والسرى، ولا يحتشم من مقاساة الكد والعنا، وانشدوا:

ثم قـطـعت الـلـيل فى مـهـمـه

لا اسـداً اخـشـى ولا ذيـبـا

يغلبني الشوق فأطوى السرى

ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

(ط: ٣/٣٠)

٥ ـ وفى قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» «لأن النفس محل الآفات فجعل الجنة فى مقابلها، وجعل ثمن القلب أجل من الجنة، وهو ما يخص به أولياءه فى الجنة من عزيز رؤيته[٣٩].. وأما القلب فاستأثره قهرًا، والقهر فى سنة الأحباب أعز من الفضل. وفى معناه أنشدوا:

بنى الحب على القهر فلو

عدل المحبوب يوما لسمج

ليس يستحسن فى حكم الهوى

عاشق يطلب تأليف الحجج

(ط: ٣/٦٤)

٦ ـ وفى قوله تعالى: «أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر...» «الخوف ترقب العقوبات مع مجارى الأنفاس.. وأعرفهم بالله أخوفهم من الله.. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون[*] على رجل كأنهمو

قوم[٤٠] يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

(ط: ٤/٣١)

(٣٩) رؤية الله أعز من الجنة، وهى مطلب القشيرى أولا.

(*) مستوفزون: رفع الرجل فى غير اطمئنان.

(٤٠) غير موجودة فى الأصل كلمة (قوم) وزدناها ليستقيم الوزن، ولأنها تناسب مصطلحات الصوفية.

٧ ـ وفى قوله تعالى: «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل...».

«إنا وإن أنزلنا قبلك كتبنا على المرسلين فما أخلينا كتابا من ذكرك، قال قائلهم:

وعـنـدى لأحـبـابـنـا الـغـائـبـين

صـحـائف، ذكـرك عـنـوانـهـا

(ط: ١/ ٢٣١)

٨ ـ وفى قوله تعالى: «سنكتب ما قالوا...»

«هذه الكلمة من موجبات الحجلة لأهل التقصير بأدق إشارة، يعنى أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم، قال قائلهم:

صحائف عندى للعتاب طويتها

ستنشر يوما والعتاب يطول

سأصبر حتى يجمع الله بيننا

فإن نلتقى[٤١] يوما فسوف أقول

(ط: ١/ ٣١٢)

٩ ـ يكون أجاجا ـ دونكم، فإذا انتهى

إليكم تلقى طيبكم فيطيب

(ط: ٣/ ٦٠)

(٤١) الياء للإشباع.

١٠ ـ ابكى إلى الشرق إن كانت منازلكم

مما يلى الغرب خوف القيل والقال

(ط: ١٦٥/٣)

١١ـ إذا ما تمنى الناس روحا وراحة

تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا

(ط: ٢٠١/٣)

١٢ـ وأنت إذا أرسلت طرفك رائدًا

لقلبك يومًا ـ أتعبتك المناظر

(ط: ٢٧٨/٤)

١٣ـ ما زلت أنزل من ودادك منزلاً

تتحير الألباب دون نزوله[٤٢]

(ط: ١١/٤)

١٤ـ والليالى إذا نأيت طوال

وأراها إذا دنوت قصار

والليل أطول وقت حين أفقدها

والليل أقصر وقت حين ألقاها

---

(٤٢) وفى الرسالة ١٥٢ ط أولى. الحلبى، أن سبب وفاة النورى ت ٢٩٥هـ أنه سمع هذا البيت فتواجد فهام فى الصحراء فوقع فى أجمة قصب قطعت وبقى أصولها مثل السيوف، فكان يمشى عليها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يسيل من رجليه، فتورمت قدماه ومات.

يـطـول الـيـوم لا ألـقـاك فـيـه

وحـول نـلـتـقى فـيه ـ قـصـيـر[٤٣]

(ط: ٧٩/٥)

١٥ ـ ولما ادعيت الحب قالت: كذبتنى

فـمـا لى أرى الأعـضـاء منك كواسيا[٤٤]

فـمـا الحب حتى يلصق القلب بالحشا

وتـذبل حـتى لاتجـيـب المـنـاديـا

وتـنـحل[٤٥] حـتى لا يـبـقى لك الـهـوى

سـوى مـقـلـة تـبـكى بـهـا وتـنـاجـيـا[٤٦]

١٦ ـ إذا انـسـكـبت دمـوع فى خـدود

تـبـين مـن بـكـى ممـن تـبـاكى

(اللطائف: ٢٩٣/١، نحو القلوب الكبير ورقة ٦٥)

١٧ ـ ولـو بيـد الحـبيب سقيت سما

لـكـان الـسم من يـده يـطـيب

(ط: ٢٣٩/٥)

(٤٣) الاستشهاد على المعنى الواحد بأكثر من شاهد يؤكد سعة اطلاع القشيرى ومحفوظه من الشعر.
(٤٤) مكسوات باللحم.
(٤٥) تهزل.
(٤٦) الرسالة القشيرية: ٦١٩ ـ وقد نسب إلى السرى السقطى فى: اللمع ٣٢١.

١٨ ـ وإذا تـذلـلت الـرقـاب تـقـربـا

مـنـا إلـيك فـعـزهـا فى ذلـهـا

(ط: ١٩٩/٥)

١٩ ـ أغـيب إذا شـهـدتك ثم أحـيـا

فـكم أحـيـا لـديك وكم أبـيـد

(ط: ٦٥/١)

٢٠ ـ سهـر الـعيون لغيـر وجهك بـاطل

وبـكـاؤهـن لـغـيـر هـجـرك ضـائع[٤٧]

٢١ ـ ومن كان فى طول الهوى ذاق سلوة

فـإنى من لـيـلى لـهـا غـيـر ذائق

وأكـثـر شىء نـلـته من وصـالـهـا

أمـانى لم تـصـدق كـخـطـفـة بـارق

(الرسالة: ٦١٧؛ وفيات الأعيان ٣٧٥/٢)

وكان ابن خلكان يعجب بهذين البيتين.

تعليق موجز على شعره واستشهاده بالشعر

١ ـ كان الشعر ولا يزال قمة الفنون، لما امتاز به من الإيماء والرمز، فكان أهلا لأن يحمل تلك الدقائق والرقائق، والوجدان والوله والمقامات والأحوال. فاستعان القشيرى به ليكشف عما يعانيه من: كتمان وإفصاح،

(٤٧) شرح أسماء الله الحسنى ٤٢ للقشيرى، نشره أحمد الحلوانى ط أولى ١٩٦٩ القاهرة.

وتشرد وذبول. وحنين وأنين، وعشق للأحزان، وتلذذ بالآلام، ويصور خلجات القلب عند التلاقى والافتراق، والإقبال والإدبار، والرضا والدلال، وهى فى هذا أقرب إلى المتيمين والعذريين، ولهذا استعار أسماء معشوقاتهم فى شعره: كسلمى، ومى، وبثينة، وليلى، ونقلها إلى بيئته الصوفية كما قالوا:

أسميك ليلى فى نسيبى تارة
وآونة سعدى وآونة ليلى

حذارا من الواشين إن يفطنوا بها
وإلا، فمن لبنى فديتك من ليلى

فالحب كما ترى عند القشيرى هو جوهر التصوف ورسالته، ومصدر الإلهام والكشف. يحيل به ماديات الكون إلى أرواح مسبحة عابدة، ولقد آثر القشيرى فى حبه الكتمان خوفا من اللائمين والعاذلين لا سيما فى عشقه الإلهى الذى يتجه له بكل قلب وروحه.

٢ ـ وعندما يصور القشيرى (الله الصمد) ـ وهو أنصع فكرة فى المعرفة الصوفية ـ تراه يميط اللثام حتى تتكشف له الحقيقة شيئًا فشيئًا، وهمه أن يصل إلى غاية السفر ويستشرف أفق الواصلين، وشعره عن الذات الإلهية ينبع من منطقة فوق الوعى والإدراك.

ولا غرو فغاية الشعر عنده إلهية، وأكثر شعر القشيرى الذى وصلنا من خلال مؤلفاته يرتبط بكنف الله، ولله، وميزته فيه: الصدق والإخلاص والصفاء.

٣ ـ كما أشار إلى السكر والشطح فى قوله:

وإذا سقيت من المحبة مصة
ألقيت من فرط الخمار خمارى

حيث هيمه السكر وتيمه وغيبه، ولما أفاق تاب وأناب، ولكنه رأى الحبيب فعاد إلى سكره الذى أفناه ومحاه! والثمل يبتعد عن عالم الحس، ويعيش فى منطقة فوق عالمنا، ولكنه بيننا، والخمر الإلهية لا لغو فيها ولا تأثيم، لأنها من يد الحبيب، والمحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه.

فالقشيرى كان يعيش بوجدانه لا بغرائزه، فكان حاله: من مناجاة وقرب إلى طاعة وعبادة، ومن ذكر ومحبة إلى نجوى وأنس، فكان الله معبوده ومحبوبه.

٤ ـ وتتناثر الحكمة والموعظة فى جوانب شعره، ولم يكن مبعث ذلك إحساسه بالرحيل ودنو الأجل كغيره، وإنما كانت جزءًا من حياته التى عاشها والتجربة التى صادفها.

٥ ـ أما استشهاده بالشعر، فكان مصدر اختيار الشاهد عنده، ما يعانيه من صوفية عارمة، فهو ينقل الشاهد من مكانه الضيق إلى الرحب الفسيح حيث المذاقات والمكاشفات والمشاهدات، ولا يختار شواهده إلا بعد تذوقها وفحصها ببصيرة كاشفة، ثم يحيطها بجو من نفسه ووجدانه، وعندئذ يصبح الشاهد فى بيئته الجديدة أشبه بطاقات النور التى تتحرك إلى غاياتها، وتتخطى الحجب والحجز، والأبعاد والآماد.

٦ ـ ونستطيع أن نحكم على القشيرى بعد تلك الجولات الواسعة فى مؤلفاته وآثاره بأنه كان مقلا فى الشعر[٤٨].

٤ ـ أدبه

وهذا أدب القشيرى، نقدم جوانب منه، لنتعرف على اتجاهاته، وما يحمل من صدق وإشارات، ومعارج وغايات:

(٤٨) مال إلى هذا الرأى د/ إبراهيم بسيونى. اللطائف ٦/ ٢٧٠ (هـ).

١ ـ في قوله تعالى: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.. ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم..» «وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات. فمنهم من شفاء صدره في قهر عدوه، ومنهم من شفاء صدره في نيل مرجوه، ومنهم من شفاء صدره في الظفر بمطلوبه، ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه، ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

وكذلك ذهاب غيظ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتنوع أبوابه، وفيما ذكرنا تلويح لما تركنا.

(اللطائف: ٢/١٢)

٢ ـ وفي قوله تعالى: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء».

«إن دامت ليالي الفترة فمن الذي يأتي بنهار التوبة غير الله؟

«وإن دامت ليالي الطلب فمن الذي يأتي بصبح الوجود غير الله؟

«وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسط غير الله؟

«وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصال غير الله؟[٤٩].

(ط: ٥/٧٨)

٣ ـ وفي تفسيره لقوله جل شأنه: «وإلهكم إله واحد...».

«والواحد ـ من لا مثل يدانيه، ولا شكل يلاقيه، لا قسيم يجانسه، ولا قديم يؤانسه، لا شريك يعاضده، ولا معين يساعده، ولا منازع يعانده.

(٤٩) الشيخ رقت أحاسيسه، ودقت مشاعره، وقويت صلته بالله واستولى عليه الاسم الأعظم، فراح في ذكر وتسبيح وهتاف (وانظر: المحقق).

إحدى الحق صمديُّ العين، ديموميُّ البقاء، أبدى العز، أزليُّ الذات. واحد فى عز سنائه، فرد فى جلال بهائه، وتر فى جبروت كبريائه، قديم فى سلطان عزه، مجيد فى جمال ملكوته.

(اللطائف: ١/١٥٥)

٤ ـ وعند قوله تعالى: «قد علم كل أناس مشربهم».

«والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكل يرد مشربه، فمشرب عذب فرات، ومشرب ملح أجاج، ومشرب صاف زلال، ومشرب رنق أوشال.

وسائق كل قوم يقودهم، ورائد كل طائفة يسوقهم، فالنفوس ترد مناهل المنى والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات. والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك فى حقيقة الوجود والذات.

(اللطائف: ١/١٠٧)

٥ ـ وعند قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: الذين زينوا ظواهرهم بالمجاهدات، حسنت سرائرهم بالمشاهدات، الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف، الذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب مَن حيث المواصلات.

(اللطائف: ٥/١٠٦)

٦ ـ ويقول فى معنى: «الجليل الجميل» وهما من أسماء الله تعالى:

«واعلم أنه عز وجل يكاشف القلوب مرة بوصف جلاله، ومرة بوصف جماله، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشا فى دهش، وإذا

كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشا فى عطش، فمن كاشفه بجلاله أفناه، ومن كاشفه بجماله أحياه، فكشف الجلال يوجب محوا وغيبة، وكشف الجمال يوجب صحوا وقربة، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا، فمن غاب فهو مهيّم، ومن طاب فهو متيّم. واعلم أن العابدين شهدوا أفضاله فبذلوا نفوسهم، والعارفين شهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم، والمحبين شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم، فمن كان له علم اليقين شهد جلاله، ومن كان له حق اليقين شهد جماله»[٥٠].

٧ ـ وعند قوله تعالى: «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار...».

«الإشارة منه أن العبد فى أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم.. ثم يفكر حتى تزداد بصيرته.. إنه كالقمر ـ يصير كاملا، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلا قليلا، وكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد فى نفسه نقصانا حتى يتلاشى، ويختفى ولا يرى.. ثم يبعد عن الشمس فلا يزال يتباعد حتى يعود بدرا ـ من الذى يصرفه فى ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارف أبدا فى ضياء معرفته، صاحب تمكين غير متلون، يشرق من برج سعادته دائمًا، لا يأخذه كسوف ولا يستره سحاب. وشبيه القمر عبد تتلون أحواله فى تنقله، فهو فى حال من البسط يترقى إلى حد الوصال، ثم يرد إلى الفترة، ويقع فى القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقض، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يجود الحق ـ سبحانه ـ فيوفقه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سكرته، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة

(٥٠) التحبير فى التذكير ٦٢ تحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى وانظر: شرح أسماء الله الحسنى ٢٠٠ نشره الأستاذ أحمد الحلوانى ط أولى ١٩٦٩ القاهرة.

الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقصان والزوال.. كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.. وأنشدوا:

كـــــل يـــــوم تـــــتـــلـــون

غـــيـــر هـــذا بـــك أجـــمـــل

(اللطائف: ٢١٧/٥ فما بعدها)

وبعد هذه الجولة الخاطفة فى أدب القشيرى نلاحظ أنه:

١ ـ كان يحمل ألفاظه طاقات متجددة، ويولد منها معانى كثيرة، كما كانت تسعفه فى المواقف النفسية والوجدانية، وليس فى لجوئه إلى المحسن اللفظى تعويض يعوض نقصا أو خللا أو ضعفا فى الجانب الدلالى) انظر النص الأول.

٢ ـ أن القشيرى فى النص الثانى استولى عليه الاسم الأعظم، فرقت أحاسيسه، ودقت مشاعره فغاب فى ذكر، وتسبيح وهتاف.

٣ ـ وفى النص الثالث يسرع الأسلوب، ويبلغ أقصى غايته، وتضمر فقراته إذ يتحدث عن «الوحدانية» فيدفع عنها الظنون والشبه، والتوهم والعجز.

٤ ـ أما النص الرابع فأراد به القشيرى أن يرتب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى وهى: النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر، ثم صور الأفات التى تلحق كل ملكة، ومفرداته نشطة تزداد من درجة إلى أخرى عمقا وانطلاقا.

٥ ـ وفى النص الخامس طالت فقراته، لأنه يتحدث عن المجاهدين ومكانتهم، فالمقام مقام بسط لما هم فيه من نعيم دائم، وعز مقيم.

٦ ـ والنص السادس أشار فيه إلى المعراج الروحي ومراتبه، وخصائص كل مرتبة: فالعابدون يبذلون نفوسهم، والعارفون يبذلون قلوبهم، والمحبون يبذلون أرواحهم، وأسلوبه لا تكلف فيه، ولا يسخر جهده لتحلية اللفظ، لأن همه متجه إلى كشف مراحل النفس، ورحلتها في الطريق حيث يتم للصوفي اكتشاف أبعاد نفسه، وكانت موسيقى النص تتلون عندما ينتقل من خطرة إلى أخرى، وإذا كان النص يحمل بين يديه كشوفات ومصطلحات صوفية، فإنه يحمل على أكتافه نماذج فنية، من الأدب الرفيع المتسم بالشفافية والصدق.

٧ ـ أما النص السابع فيشير إلى أن القشيري اتخذ من مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والليل والنهار ـ إشارات رائعة تتصل بالجمال الصوفي: رياضة ومجاهدة وكشفا، وهو بهذا يرتب المعرفة الإنسانية في حلقات متدرجة متصاعدة.

وكان موفقا حين عقد عن طريق التشبيه الخصيب المتألق ـ صلة ومودة بين عالم السماء وباطن الإنسان، وما يحمله من سلوك ومعارف، ومبادئ وقيم. كما كشف عن طريق الإشارات معاني للألفاظ ـ التي تتحرك في اتجاهات شتى ـ تفوق معانيها المعجمية، وذلك عمل فني رائع يؤكد ما بين التصوف والفن من رحم وقرابة.

الفصل الثانى

مناهج القشيرى واتساع دراساته

أ - بين الإشارة والعبارة :

عرف النحو بتعريفات مختلفة فهو :

١ - العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التى ائتلف[١] منها قال صاحب المقرب : فعلم أن المراد بالنحو ما يرادف قولنا (علم العربية) لا قسيم الصرف.

وجاء فى الصبان تعليقا على «لا قسيم الصرف» هذا اصطلاح القدماء. واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجعله قسيم الصرف.

٢ - علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال إفرادها وحال تركيبها وما يتبعها[٢].

٣ - انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره : كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكثير، والإضافة والنسب، والتركيب، وغير ذلك[٣].

---

(١) أشمونى ١/١٥ فما بعدها.

(٢) حاشية الخضرى على ابن عقيل ١/١٦.

(٣) الخصائص ١/ ٣٤.

٤ – علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية إعرابًا وبناء[٤].

ومن التعريفات السابقة وغيرها نرى أن النحاة يختلفون فى تحديد دائرة النحو :

فمنهم من يجعلها تشمل أساليب اللغة من جميع نواحيها.

ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها.

ومنهم من يرى أن دائرة النحو يجب أن تكون أوسع من البحث فى الإعراب وضبط أواخر الكلمات فتشمل الجملة من حيث أسرار الجمال التى تكمن وراء نظم كلماتها، وترتيبها الذى يقتضيه علم النحو، وأن معانى النحو تمثل العلاقات بين معانى الكلم فى النفس وإليها يستند ترتيب هذه المعانى[٥].

ولا نريد من عرض هذه التعريفات للنحو أن نناقشها أو ننتقص من قدر النحو، ولكننا نريد أن نصل من ذلك إلى أمرين :

أولهما : أن النحو بهذه التعريفات السابقة يمثل البناء الكبير وهو إذن خلاصة البحث اللغوى فى جميع مستوياته.

وثانيهما : أن النحو بالمضمون السابق يدور حول (العبارة) من حيث تقديم بعض أجزائها أو تأخيره أو تعريفه أو تنكيره أو حذفه أو ذكره أو إثباته أو نفيه أو تغير أواخر الكلمة المفردة لتغير العوامل الداخلة عليها. وفى أثناء دراستهم هذه نرى نموذجًا من الخلاف بينهم والجدل والنزاع

(٤) حاشية الصبان على الأشمونى عند تعريف النحو.

(٥) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٢٥٢ د. إبراهيم سلامة. الأنجلو المصرية.

الذى يتمثل فى كل خطواتهم حتى كثروا من احتمال أوجه الإعراب وتقديره وصوره من غير أن يشيروا إلى تصوير المعنى. وحسبنا هذا النموذج على سبيل المثال لا الحصر :

(أ) ما ذكره الأشمونى فى الصفة المشبهة من أن لمعمولها ثلاث حالات: الرفع على الفاعلية، والنصب على التشبيه بالمفعول به، والخفض بالإضافة. والصفة مع كل من الثلاثة : إما نكرة أو معرفة، وهذه الستة فى أحوال السببى، وهو اثنا عشر نوعًا. فتلك اثنتان وسبعون صورة[٦]. ويضم إليها ثلاث صور فتصير الصور خمسا وسبعين. والصفة إما مفردة أو مثناة أو مجموعة جمع سلامة أو تكسير مذكرة أو مؤنثة، فإذا ضربت الثمانى فى خمس وسبعين صارت ستمائة. والصفة أيضا إما مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة فإذا ضربت الثلاث فى ستمائة صارت ألفا وثمانمائة. ومعمول الصفة إما مفرد أو مثنى أو مجموع جمع سلامة أو تكسير مذكر أو مؤنث فإذا ضربت الثمانى فى الألف وثمانمائة صارت أربعة عشر ألفا وأربعمائة، تسقط منها مائة وأربعة وأربعون من صور المعمول الضمير.. فالباقى أربعة عشر ألفا ومائتان وستة وخمسون بعضها جائز وبعضها ممتنع، فالدرس كما ترى قائم على المنهج الشكلى والجفاف العلمى من تقسيم الأنواع.

(ب) روى أن عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو البويهى سأل الإمام أبا على الفارسى : بماذا ينصب الاسم المستثنى فى نحو قام القوم إلا زيدا؟ قال : بتقدير أستثنى زيدا، فقال له عضد الدولة - وكان فاضلا - لم قدرت «أستثنى زيدا فنصبت؟ وهلا قدرت امتنع زيد.. فرفعت! فقال له أبو على : هذا الجواب الذى ذكرته لك جواب ميدانى وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح[٧].

(٦) انظر حاشية الصبان على الاشمونى فى الصفة المشبهة.

(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٣١٦ ط تحقيق ابى الفضل، نهضة مصر.

وذهب البصريون إلى أن العامل الفعل المقدم بتوسط (إلا) وذلك لأن هـذا الفعل وإن كان لازما فى الأصل إلا انه قوى بـ (إلا) فتعدى إلى المستثنى.

وذهب الفراء من الكوفيين إلى أن (إلا) مركبة من (إن ولا) ثم خففت (إن) وادغمت فى (لا) فهى تنصب فى الإيجاب اعتبارا بـ (إن) وترفع فى النفى اعتبارا بـ (لا) (٨).

(ج) ومن ذلك ما رواه أبو العباس أحمد بن يحيى قال : اجتمع الكسائى والأصمعى عند الرشيد، وكانا معه يقيمان ويظعنان بظعنه فأنشد الكسائى:

أبلغ حبيبا وخلل فى سراتهم

أن الفؤاد انطوى منهم على حزن

إلى أن قال :

ام كيف ينفع ما تعطى العلوق به

رئمان أنف إذا ما ضن باللبن(٩)

فقال الأصمعى رئمان : بالرفع. فقال له الكسائى : اسكت ما أنت وهذا، يجوز رئمانُ ورئمانَ ورئمانِ!

والمعنى : وما ينفعنى إذا وعدتنى بلسانك؛ ثم لم تصدقه بفعلك، فمثلك كالناقة إذا نحر عنها ولدها وحشى تبنا فهى تشمه بأنفها ثم تأباه بقلبها. فكما ترى تقدير كلمات مصنوعة ليصح بها الإعراب الذى ملك عليهم أمرهم.

---

(٨) انظر أسرار العربية لابن الإنبارى ص ٢٠١ فما بعدها.

(٩) الأشباه والنظائر ٣ / ٢٤٤.

ومن هنا آثرنا تسميتهم بـ (أهل العبارة) أو (أهل الظاهر) لأن عملهم لا يتعدى الشكل والسير حول محيط الدائرة أو قريبا منها. وهيهات أن يصلوا إلى مركز الدائرة أو نقطة النبع، وإذا كنا وجدنا على هذا الجانب (أهل العبارة) فإننا نرى على الجانب الآخر (أهل الإشارة).

والإشارة : ترجمان لما يقع في القلوب من تجليات ومشاهدات. وتلويح لما يفيض به الله على من اصطفاه من خلقه من أسرار وفيوضات. وإذا كان المصطلح لأهل النحو الظاهرى (العبارة) فإن المصطلح لأهل النحو الباطنى (الإشارة) ولكل وجهته. والنحو الظاهرى أو نحو العبارة (لغته العقل) وتدرك بالألفاظ والكلمات، وأما النحو الباطنى أو نحو (الإشارة) فلغته (القلب) وتدرك بالذوق والإلهام والفيض، ولا يمكن نقل ذلك عن طريق العبارة، ولهذا رمزوا لها وأشاروا. والعبرة عند أهل (الإشارة) بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح. يعنيهم الجوهر أكثر مما يعنيهم المظهر. وفى الخبر «من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم»[١٠].

ويوضح أبو نصر السراج هذا العلم الموروث بأنه (علم الإشارة) حيث يكشف الله سبحانه وتعالى لقلوب أصفيائه المعانى المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة[١١].

وأسلوب أهل الإشارة يقوم على الإيماء والرمز وسرعة الالتقاط. كما أن كلماتهم محملة بالشحنات النفسية لتتواءم مع الموقف الذى هم عليه، ولهذا كان لهم فهم وتذوق قلبى يختلف عن لغة (العقل). ولهذا عندما نظر الرسول - ﷺ - وحوله أصحابه إلى أبى بكر قائلا له : «أتذكر يوم لايوم؟» فلم يفهم أصحابه - مايريد ولكن أبا بكر أجاب بقوله «نعم». ولما سئل

(١٠) أورده ابو نعيم فى حلية الأولياء عن أنس بن مالك.

(١١) اللمع ١٤٧.

الصديق عن ذلك قال : إنه يوم الميثاق[١٢]. وقد يستطيع الإنسان أحيانا أن يجد تعبيرا يكشف به سر الإشارة ولغتها. خذ مثلا قول القشيرى : «فالله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته، وأسرار الموحدين إلى تطلع[١٣] قربته» فقد استطاع الدكتور إبراهيم بسيونى أن يعرى قشرة هذا النص حتى شف عن حقيقته فقال : «وهذا النص يشير إلى رأى القشيرى فى مراتب أهل الحق : زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد. ويشير ثانيا إلى ملكاتهم الباطنية : نفس ثم قلب ثم روح ثم سر. ويشير ثالثا إلى غاياتهم فى كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحى : طاعة فمعرفة فمحبة فقرب[١٤].

ولو نظر إنسان ما إلى نص القشيرى السابق ما استطاع أن يفهم شيئا غير عادى فى النص لأن أسلوبه يسير .ومعناه أيسر. ولكن الصوفى له تأملات تحمله أدوارًا باهظة فى تعقب كل لفظة حيث يطيل التأمل فيها وفيما حملت من مذاقات وشحنات بل فى تعقب كل حرف وحركة ونقطة فمن ذلك قول الشبلى ت ٣٣٤ هـ «أنا النقطة التى تحت الباء» «البسملة» ص ١٠٩ دكتور إبراهيم بسيونى.

وإذا استطاع الإنسان ان يكشف عن سر الإشارة أحيانا فإنه فى كثير من الأوقات لا يستطيع ذلك. لأن الإشارة الصوفية فوق أسلوب الشفرة[١٥] فلا تدرك باللمح والحس. وإنما تدرك بالمجاهدات والفيوضات. كما تقوم الإشارة على قفزات ونقلات روحية. وهيهات أن يدرك العقل أسرارها أو

(١٢) لطائف الإشارات ص ٧ من المقدمة للأستاذ حسن عباس زكى.

(١٣) التحبير فى التذكير : تحقيق د. إبراهيم بسيونى ص ٩٥.

(١٤) التحبير، المرجع السابق.

(١٥) لعل كلمة (الشفرة) هى (الجفر) لفظا ومدلولا وهو عند الشيعة علم قائم على رموز وأرقام. انظر مقدمة ابن خلدون.

يعبر الفكر عنها إلا مكدودا لاهثًا، لأن (العبارة) ليس فى طاقتها أن تتتبع أسرار (الإشارة).

على أنه لا تعارض بين العبارة والإشارة فهما يتكاملان ويتضافران، فما قامت علوم الظاهر إلا لنصرة الشريعة والحقيقة؛ فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده. ومن هنا كان لدى أهل الإشارة حصيلة كبيرة من المعارف اللغوية والنحوية والإنسانية وغيرها فهم يعتمدون على العبارة أولاً. ثم يبدأون فى رحلة أخرى تقوم على الرياضات والمجاهدات والمذاقات والكشوفات التى تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم. فلابد إذن من علم الظاهر قبل الانطلاق إلى علم الباطن، ولهذا فقد ألف القشيرى تفسيره الكبير المعروف «بالتيسير فى التفسير» قبل عام ٤١٠ هـ. وهو نتاج الدراسة العقلية واللغوية حيث يعنى بالجانب التقليدى : من لغة ونحو وأخبار وقصص وغيرها، فلما سلك الطريق الصوفى والتقى بشيخه الدقاق ألف تفسيره المعروف «بلطائف الإشارات»٤٣٤هـ. وهذا التفسير الأخير نتاج الفيوضات والإلهامات والمذاقات يتتبع فيه الإشارات لا العبارات، ولا يتوقف عند حدود المفردات والألفاظ بل يذهب إلى ما وراء العبارة.

جاء فى طبقات الشعرانى ١٤٧/١ لسيدى إبراهيم الدسوقى : «للعارفين من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسن مختلفة» فتفسيره «التيسير» يدركه العوام والمثقف العبارى، أما تفسيره «اللطائف» فلا يصل إليه إلا الخواص ولهذا قالوا : العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ولذلك كان علم العبارة من مقومات الثقافة العامة، وعلم الإشارة من مقومات الثقافة الخاصة. وللقشيرى فهم خاص غير فهم أصحاب العبارة يتجلى : فى التفسير واللغة والفقه والنحو والأصوات والمصطلحات والتذوق وفن الرسم والكتابة. وآن لنا أن نوضح جانبا من هذه القضايا.

(ب) فى التفسير :

١ - فى قوله تعالى : «ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد» الإشارة من قوله «ويحذركم الله نفسه» للعارفين، ومن قوله «والله رءوف بالعباد» للمستأنفين. فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة. ويقال : أفناهم بقوله «ويحذركم الله نفسه» ثم أحياهم وأبقاهم بقوله «والله رءوف بالعباد».

٢ - وفى قوله جل ذكره «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم...». «تحبون الله» فرق، و«يحببكم الله» جمع. «تحبون الله» مشوب بالعلة و«يحببكم الله» بلا علة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها العبد من نفسه وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره سبحانه - على كل شىء وعلى كل أحد. وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال، فمن لم يفن عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية. ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه ولطفه به، وهى إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه. فعلى هذا تكون من صفات فعله. ويقال : شرط المحبة . امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك. قال قائلهم :

وما الحب حتى تنزف العين بالبكا

وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل (محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام). قال الخليل «فمن تبعنى فإنه منى». وقال الحبيب «فاتبعونى يحببكم الله» فإن كان متبع الخليل (منه) إفضالا فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه وكفى بذلك قربة وحالا...

ويقال فى هذه الآية : إن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة، لأنه قال «يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»، بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله.

ويقال : قال أولا : «يحببكم الله» ثم قال «ويغفر لكم ذنوبكم» والواو تقتضى الترتيب ليعلم أن المحبة سابقة على الغفران، أولاً يحبونهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجب الغفران، لأن العفو يوجب المحبة. والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبب الأسنان وهو صفاؤها. والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السر. والحب حرفان : حاء وباء. والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن، فالمحب لايدخر عن محبوبه لا قلبه ولابدنه[١٦].

٣ - ولم تكن بسملة السورة كيانا مستقلاً قائما بذاته عن السورة كما فى تفسير أهل العبارة بل كانت البسملة عند القشيرى فى أول كل سورة خلاصة مركزة لحديث طويل يتواكب مع النسيج العام داخل السورة وكأن بين البسملة والسورة رحما فى المعنى وثيقة، ومسالك دقيقة. ولم يكن مرد هذا إلى معرفة القشيرى باللغة والنحو، والاشتقاق والبلاغة فحسب، وإنما كان مرجعه إلى صفاء روحه، ودقة حسه، ورقة شعوره، ونقاء سريرته، وبعد تأملاته، وعمق رياضته ومجاهداته.

كما اعتمدت هذه النظرة الفذة من القشيرى على أنه لا يؤمن بالتكرار فى القرآن، فحين تأتى البسملة فى أول كل سورة فإنما تأتى لمعنى جديد، ومرمى سديد يتفق مع السياق العام لمضمون ما تحتويه السورة وإليك بعض النماذج :

ففى سورة «الأنبياء» يكشف عن معنى البسملة فى أول السورة بقوله: «بسم الله» اسم عزيز من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بجميل نعمته إن

---

(١٦) لطائف الإشارات للقشيرى ١/ ٢٤٦ - ٢٤٨.

أطاع فضله، وإن اضاع أمهله، ثم إن آب وأقر.... ذكره، وإن عصى وعاب ستره. ثم يقول : اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه. بتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وجد العارفون كمال مشاهدتهم[١٧]...

فالترابط وثيق بين إشارات البسملة ومشاهد السورة فى الداخل حيث اختلف الناس بين مؤمن وكافر، ومصدق ومكذب حول رسالة الأنبياء.

وتراه في سورة الجن يكشف عن بسملتها بقوله : «بسم الله» اسم عزيز به أقر من اقر بربوبيته، وبه أصر من اصر على معرفته، وبه استقر من استقر من خليقته، وبه ظهر ما ظهر من مقدوراته، وبه بطن ما بطن من مخلوقاته، فمن جحد فبخذلانه وحرمانه، ومن وحد فبإحسانه وامتنانه[١٨].

فالترابط واضح بين إطار السورة المتجسد فى البسملة وبين جزئيات السورة فى الداخل. لاحظ قوله «ظهر ما ظهر وبطن ما بطن» وربطه (بالجن) وبقوله فى السورة : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا». وفى بسملة (المنافقون) يقول : «بسم الله» اسم من تحقق به صدق فى أقواله، ثم صدق فى أعماله، ثم صدق فى أخلاقه، ثم صدق فى أحواله، ثم صدق فى أنفاسه.... «يقول القشيرى فى قوله تعالى «والحافظون لحدود الله» : هم الذين يحفظون مع الله أنفاسهم»[١٩]. ومراعاة (الأنفاس) من الأمور التى شغلت الصوفية. يقول الجنيد:

وما تنفست إلا كنت مع نفسى

تجرى بك الروح منى فى مجاريها

(١٧) لطائف الإشارات ٤/ ١٦٣.
(١٨) اللطائف ٦ / ٢٠٥.
(١٩) اللطائف ٣/ ٦٨.

فصدقه فى القول ألا يقول إلا عن برهان، وصدقه فى العمل ألا يكون للبدعة عليه سلطان، وصدقه فى الأخلاق ألا يلاحظ إحسانه مع الكافة بعين النقصان، وصدقه فى الأحوال أن يكون على كشف برهان، وصدقه فى الأنفاس ألا يتنفس إلا على وجود كالعيان[٢٠]. والترابط وثيق بين البسملة والمشهد العام للسورة كما ترى.

فكل بسملة فى القرآن الكريم لها معنى جديد يتواكب مع المعنى العام للسورة[٢١].

(ج) فى الفقه :

١ - فى قوله تعالى «ويقيمون الصلاة» وأما إقامة الصلاة والقيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو. فنفوسهم مستقبلة القبلة وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة.

أرانى إذا صليت يممت نحوها

بوجهى وإن كان المصلى ورائيا

أصلى فلا أدرى إذا ما قضيتها

اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا[٢٢]

٢ - وفى قوله جل ذكره «ومما رزقناهم ينفقون» على لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إما نفلا وإما فرضا على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لايدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئا من ميسورهم،

(٢٠) اللطائف ٦ / ١٥٥.

(٢١) انظر ٦/ ٢٤١، ٣٣٠، ٥/ ٢٤١ وانظر سورة الحجر ويوسف وبراءة.

(٢٢) اللطائف ١/ ٦٨ فما بعدها.

فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة المربوبية، فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال.. وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم «لأنفسهم ولحظوظهم لحظة قامت عليهم القيامة» [٢٣].

٣ - فى قوله جل ذكره «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» ويقال : الاستطاعة فنون، فمستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزمن المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه. وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا.

ويقال : الحج هو القصد إلى من تعظمه : فقاصد بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم... فإذا بلغ منى نفى عن قلبه كل طلب ومنى، وكل شهوة وهوى، وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى، وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية... وإذا حلق قطع كل علاقة بقيت له[٢٤].

٤ - يرى القشيرى أن المريد لا يلجأ للرخص فى العبادات، والأفضل تركها، لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه[٢٥].

---

(٢٣) اللطائف ١/ ٦٩.

(٢٤) اللطائف ١/ ٢٧٥ فما بعدها. وانظر نظرة القشيرى : للصوم والطهور والغسل والمسح والتيمم فى لطائف الإشارات ٩٩/٢، ١/ ١٦٥ فما بعدها.

(٢٥) انظر اللطائف ١/ ١٦٥، ٢٦٤/٢ وانظر التحبير فى التذكير: للقشيرى تحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى ٦٦.

ويفسر القشيرى قول الله تعالى : ﴿إن الإنسان لفى خسر﴾ بأنه الرجوع إلى الرخص بعد إيثار الأشق والأولى[٢٦].

كما يرى القشيرى أن الفقير[٢٧] إذا انحط عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده. والقشيرى فى آرائه الفقهية هذه يشير إلى أن الصوفى عليه أن يستبطن ظواهر العبادات، ويكشف اللثام عن أسرارها بأن تنزه العبادة عن الأطماع والأعواض ومايراه القشيرى جدير بأنه يسمى «بالفقه الصوفى»[٢٨].

(د) فى اللغة :

من خصائص القشيرى أنه لا يعترف بالتكرار فكل كلمة فى موقع لها معنى يختلف عن مدلولها فى موقف آخر، لأن التكرار قد يكون آية ضعف فى القائل :

١ - ففى قوله جل ذكره «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» يلتمس القشيرى معنى جديدا لكلمة الاصطفاء، فالأول : اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة، والثانى : اصطفاك بأن حملت بعيسى عليه السلام من غير أب[٢٩].

٢ - يرى بعض العلماء أن لفظ «الله» مشتق من قولهم (أله) بالمكان، أى اقام به، أو من (لاه) أى علا، أو (لاه) بمعنى احتجب، أو من (الوله) وكأن اسمه يوجب الوله. والقشيرى لا يرى الاشتقاق فى هذا معتمدا على أن «الله» اسم الذات الذى لا يصح أن يسمى به أحد من المخلوقين. وكل اسم

---

(٢٦) اللطائف ٦/ ٣٢٣.

(٢٧) معنى الفقير : الصوفى المتجرد.

(٢٨) انظر نماذج منه في الرسالة : ص ١٩٨ ط الثانية (الحلبى).

(٢٩) لطائف الإشارات ١/ ٢٥٤.

من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم فإنه للتعلق دون التخلق. والقائلون باشتقاقه لابد لهم من مادة يشتق منها هذا الاسم، والله تنزهت ذاته لم يسبق بمادة. ومبحث الذات الإلهية عند القشيرى ليس مجرد كلام نظرى جدلى، كما ترى ذلك فى مباحث أهل العبارة، وإنما المقصود أن نتخلق بها على سبيل المجاز فى الاستعمال ونعمل بما نعلم[٣٠]. فالقشيرى لا يتوقف عند حدود الاشتقاق كأهل العبارة ولكنه يلفتنا إلى الجانب السلوكى المترتب على المعرفة.

٣ - وفى قوله جل ذكره «وليعفوا وليصفحوا» يقول القشيرى : العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيدا، ولكنه يسرع إلى التمييز بينهما فيقول : العفو فى الأفعال. والصفح فى جنايات القلوب[٣١].

٤ - كما كان القشيرى لماحا فى الربط بين المرادات الصوفية وبين صيغ الاشتقاقات اللغوية معتمدا على الفروق الدقيقة فى المادة الواحدة واستنباط دقائقها ورقائقها. اسمعه يقول : «والصبر فى حق العباد على ثلاثة أقسام:

أولها : التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة، ثم الصبر وهو سهولة تحمل ما يستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء، ثم بعده : الاصطبار وهو النهاية فى الباب.

ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشقة، بل يجد روحا وراحة كما قيل :

تعودت مس الصبر حتى ألفته

وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر[٣٢]

وفى اللطائف ٣٢١/١ فى تفسيره لقوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ (آية ٢٠٠ من سورة آل عمران) يقول :

(٣٠) التحبير فى التذكير مقدمة الناشر د. إبراهيم بسيونى.

(٣١) اللطائف ٤، ٢٧٣.

(٣٢) التحبير فى التذكير ٩٥ تحقيق د. إبراهيم بسيونى وانظر الهامش.

«ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر، ثم المصابرة، ثم الاصطبار، وهو نهاية». فزاد هنا (مصطلح) المصابرة. ثم يقول «اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا فى ترك الهوى والشهوات وقطع المنى والعلاقات، ويقال : اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ورابطوا بأسراركم»(٣٣).

(هـ) فى الحرف :

الحرف فى ذاته لايعطى معنى إلا إذا كان رمزا، والإشارة ليست إلا مرموزا صادرا عن رمز (٣٤). وقد اشتد الجدل بين الإشاريين والعباريين فى حروف أوائل القرآن(*). ولا أريد أن أتعرض لهذا الجدل بينهم إذ هو مسطور فى كتب التفسير فى أوائل السور القرآنية، ولكن يكفى وضع المعالم الآتية :

١ - أن هذه الحروف علم مستور وسر محجوب استأثر الله به.

٢ - أن القرآن تحدى بها العرب حيث نزل بهذه الحروف التى يعرفونها.

٣ - أوائل السور قسم أقسم الله فيها بنفسه.

---

(٣٣) فرق أبو طالب المكى ت ٢٨٦م بين التصبر والصبر. فالتصبر : حمل النفس على الصبر ومجاهدتها عليه، وترغيبها فيه، وفيه تكلف وتصنع للصبر... أما الصبر فهو «التحقق بالوصف وذلك هو المقام» انظر : قوت القلوب فى معاملة المحبوب ١/ ٤٠٥ ط الحلبى.

(٣٤) البسملة ٥٣ د. إبراهيم بسيونى.

(*) لا يفوتنا أن ننوه بالحدث الإسلامى الخطير الذى أثاره شاب مصرى يعيش فى أمريكا - وهو د. رشاد خليفة عالم الكيمياء حيث استخدم العقول الإلكترونية لأول مرة فى محاولة لتفسير فواتح السور فى القرآن. وقد قام بتسجيل هذا البحث فى مكتبة الكونجرس تحت رقم ٢٧٣٨٦ بتاريخ ١١ إبريل سنة ١٩٧٢، وقد قام بتغذية الجهاز الإلكترونى برقم كل سورة وعدد آياتها، وعدد كل حرف أبجدى فيها، وأجرى متوسطات ونسب وعمليات حسابية متداخلة معقدة سجلت نتائج مذهلة يضيق المقام عن التصدى لها، ويكفى أن نشير إلى أن الباحث أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن إعجاز القرآن الكريم ليس فى الجانب الأدبى اللغوى أو غيره بقدر ما هو إعجاز حسابى يفوق طاقة الإنس والجن. ومن خطوات البحث الجريئة أن العقل الإلكترونى قام بـ ٦٣ أكتليون عملية، يعنى بوضع ٢٧ صفرا على يمين الرقم السابق.

٤ - أوائل السور أسماء علمية لبعض سور القرآن المفتتحة بها .

٥ - أوائل السور تنبيه لكى لا يفوت السامع شيئا مما يلقى عليه.

٦ - عد أوائل السور على حساب الجمل، فقد روى العز بن عبدالسلام أن عليا رضى الله عنه استخرج واقعة معاوية من (حم عسق).

والرموز الحرفية والرقمية قد لعبت دورا خطيرا فى الدور الذى قام به العلويون ضد الأمويين ثم ضد العباسيين.

على أن الحروف قد عولجت فى اتجاهات مختلفة أهمها :

١ - الاتجاه الصوتى ويتمثل فى دراسة الخليل وسيبويه وابن دريد وابن جنى وغيرهم، وكانت دراستهم للحروف من حيث أجراسها وصفاتها : من همس وجهر، ومن شدة ورخاوة، ومن إطباق وانفتاح، ومن استعلاء واستفال، وتقسيم الجهاز الصوتى إلى مدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة من الحروف، وما يعرض للصوت فى بناء الكلمة من إعلال وإبدال وحذف ونقل.

٢ - الاتجاه الترابطى : ويتمثل فى سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة أيام المأمون، فقد ربط بين الحروف وعددها وبين عدد منازل القمر الثمانية والعشرين. كما ربط بين نصف الحروف الذى يدغم مع لام التعريف «وهى الشمسية» ونصفها الذى لا يدغم، وخلص من ذلك إلى الشبه بين منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر فى وجه القمر الآخر، كما ربطوا بين العبادات من زكاة وحج، وبين الحروف والأرقام.

٣ - الاتجاه الفلسفى ويمثله ابن سينا وابن عربى فى فتوحاته حيث طبق الأول عليها فلسفته فى الخلق وأنواع العوالم والعقول. وصارت الحروف عند الثانى موجدة وخالقة لجميع الكائنات التى لانهاية لها. وقد

ربط ابن عربى بين الذوات المخلوقة حاملة لصفاتها الخلقية والخُلقية قائمة فى مقاماتها، وبين الحروف الملفوظة محركة بحركاتها البنيوية والإعرابية صادرة من مخارجها الصوتية المتنوعة فى قوله :

«أوجد سبحانه وتعالى الحركات والحروف والمخارج تنبيها منه سبحانه وتعالى أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات، فجعل الحركات نظير الصفات وجعل الحروف نظير الموصوف وجعل المخارج نظير المقامات والمعارج[٣٥]».. فابن عربى يقابل بين الجانب الصوتى والجانب الكونى[٣٦].

٤ - الاتجاه الميثولوجى : ويمثل هذا الاتجاه للحروف وهى عندهم أمة من الأمم تسخر الطبيعة. وذكر البونى أن عوالم حرف الميم تجمد الثلج وتلقيه فى الشمس لئلا تحرق البشر، وقد استغل فيما بعد هذا الاتجاه حيث أصبح عقيدة ودينا يتخذ أصوله من قيم الحروف العددية والتصرف فى الأرقام[٣٧].

٥ - الاتجاه الدلالى : ويتمثل فى إيجاد علاقة بين معنى الحرف وأصله، كإيجاد علاقة بين حرف (الكاف) ومعناه (المصلح للأمور) بالأصل كاف. وذلك فى قول كثير :

جواد إذا ما جئت تبغى نواله

وكاف إذا ما الحرب شُبَّ شهابها

على أن كثيرا من الحروف لانستطيع أن نجد بينها وبين معانيها أدنى علاقة، وإلا فما العلاقة بين حرف (التاء) وبين معناه وهو (البقرة التى تحلب دائما) فى قول مهلهل :

(٣٥) الفتوحات لابن عربى ١/ ١٠٥ وانظر جلال الدين الدوانى فى رسالة (الزوراء).

(٣٦) وإذا أردت مزيدا من معارف ابن عربى عن الحروف فانظر رسالة قيمة - للزميل حامد طاهر مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم - القاهرة.

(٣٧) انظر أماكن متفرقة من كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى د/ كامل الشيبى.

أبى فـارس الـهـيـجـاء فى كل حـومـة

وجـدك عـبـد يـحـلـب الـتـاء دائـمـا

أو بين الحاء وبين معناه وهو (المرأة السليطة)[٣٨].

هذا وقد تلاعب الشعراء بهذه الحروف وحملوها معانى عجيبة فى الأعصار المختلفة: فالسين هو الرجل الكثير اللحم والشحم، فى قول العتابى :

يــجــود عــلى الــعــفــاة بــكل من

إذا مــا الـــســـين شح بمــا يــراد

والذال هو عرف الديك فى قول الحارث اليشكرى :

به بــرص يــلــوح بــحــاجــبــيه

كــذال الــديك يــأتــلق ائــتلاقــا

والناقة الهزيلة تشبه حرف النون فى قول ابن الإردخل:

فـلا ونــداك لم يــلــحق غــبــارى

أخــو ســيــر أعــاد الحــرف[٣٩] نــونــا

ويشبه هذا ما جاء فى السفر الثانى من شروح سقط الزند القسم الرابع[٤٠] لأبى العلاء :

(٣٨) كتاب الحروف للخليل ص ١٥٨، ١٥٩.

(٣٩) الحرف الناقة (ديوان ابن الإردخل ٢٦٦ خط بمكتبة دار العلوم) (أبو بكر الجزولى).

(٤٠) الدار القومية ص ١٦١١. شبه الناقة فى هزالها وضمورها بحرف النون. تحت راء. تحت رجل يضرب رئتيها : اسم فاعل من رئته : إذا أصبت رئته. لم يكن بدال : أى لم يكن رفيقا بها. اسم فاعل من (دلا) ركابه إذا سار سيرا رفيقا. والرسم : رسم دار الحبيب. والمراد بالنقط : نقط المطر.

وحـــرف كـــنـــون تحت راء ولم يـــكن

بـــدال يـــؤم الـــرسم غـــيـــره الـــنـــقط

٦ - الاتجاه الصوفى : ونعرض أمثلة لحرف (الألف) وحدها من بين أخواتها للاختصار فى بعض إشارات (القشيرى).

(أ) فى تفسير أول البقرة (ألم) يقول : والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

(ب) ويقال : يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تقدس الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

(ج) ويقال : اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا... وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة على سنة الأحباب فى ستر الحال[٤١].

(د) وذكر القشيرى فى التحبير ص ٢٤ أن الألف من هذا الاسم يعنى «الله» إشارة إلى الوحدانية، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة، واللام الثانية إلى محو المحو فى كشف الهاء.

ومعروف لدى العباريين أن الحرف فى حد ذاته لا يحمل معنى، ولكنه عند الإشاريين كالصوفية يحمل معنى كبيرًا كما رأيت، وكما روى أن النفرى

(٤١) اللطائف : ١/ ٦٥ - ٦٦.

نظر إلى صور الحروف بعين الصوفى فرآها كلها مرضى إلا الألف ويعنى به الله. بل يذهب بعضهم أن (الألف) ماهيتها فى (النقطة)[٤٢] لأنها هى التى أعطت للحروف معنى فالحرف إذا تجرد من النقطة لا معنى ولا مفهوم له، وبعض الحروف يحمل النقطة فى جوهره كالألف والميم، وبعضها يحمل النقطة فى مظهره كالباء، ولهذا كان الشبلى يقول فى حالة (الجمع): «أنا النقطة التى تحت الباء»[٤٣]. ويعتبر هذا فهما جديدًا للصوفية فى (الكتابة) العربية، وفى معانى الحروف. كما أن لهم ذوقا خاصًا فى الوصل والقطع والهمز والشكل، والنصب والرفع وكثير مما لا يطلع عليه غيرهم، لأن الصوفية كما جاء فى الرسالة «أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم»[٤٤]

وقد فهم القشيرى من الألف - فى ضوء النصوص السابقة فهما جديدا حيث نقله إلى السلوك الإنسانى والعمل فى التأدب والتخلق بما نعرف من أسرار هذا الحرف فى الوجدان الدينى وتلك وجهة يهتم بها القشيرى فى تألف الظاهر والباطن[*] وتواكب الحقيقة والشريعة حتى فى أشكال الكتابة والإملاء، فليست المسألة اتجاهات فلسفية أو ميثولوجية فى الحروف كما رأينا ذلك عند غيره.

---

(٤٢) يقول الحلاج : فى القرآن علم كل شىء، وعلم القرآن في الأحرف التي فى أوائل السور، وعلم الاحرف في لام ألف، وعلم لام ألف فى الألف، وعلم الألف فى النقطة، وعلم النقطة فى المعرفة الأصلية. أخبار الحلاج ٩٥ فما بعدها.

(٤٣) ألف الهمدانى كتابا فى أسرار النقطة.

(٤٤) ص ١٧٢.

(*) وهذا الاتجاه حرص عليه كثير من الصوفية يقول السرى السقطى فى تعريف التصوف أنه : اسم لثلاثة معان. إحداها : ألا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة. ويقول الجنيد ٢٩٧ هـ: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. انظر الرسالة القشيرية ١/ ٦٥، ١٠٧ تحقيق د/ عبدالحليم محمود و د/ ابن الشريف.

على أن بعض هذه الاتجاهات فى فهم الحروف قد يتداخل بعضها فى بعض، فالحدود ليست حاسمة عند الصوفية، يؤكد ذلك شيخ من شيوخ القشيرى الإمام (أبو بكر بن فورك) حيث يقول : «هو» حرفان هاء وواو، فالهاء تخرج من أقصى الحلق، وهو آخر المخارج، والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج فـ «هو» إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى : «هو الأول والآخر»[٤٥]. فنص ابن فورك تداخل فيه الاتجاه (الصوتى) مع الاتجاه (الكلامى الصوفى).

(و) فى المصطلح :

يركز الصوفى همه فى عمارة الباطن، ولهذا وجدنا مصطلحات كثيرة عندهم تتصل بهذا الجانب بل يستعير الصوفى نماذج ومصطلحات من مختلف الفروع ليعبر بها عن الحقيقة بعد أن يمنح هذه المصطلحات نفسا حارًا وطاقات متجددة تنطلق فى مدارات متعددة. وقد استنبط القشيرى من المصطلح وهو خلاصة الاستقراء اللغوى إشارات دقيقة تفوق المعنى القاموسى اللغوى ولفها بستار واق حتى لا تشيع فى بيئة أخرى غير بيئتهم:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء العاشقين تباح

معتمدين فى ذلك على سنة الأحباب فى ستر الحال، وعلى التركيز واللمح، قال شاعرهم :

قلت لها : قفى فقالت قاف

لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف[٤٦]

(٤٥) كتاب التحبير فى التذكير ٢٥ تحقيق د/ إبراهيم بسيونى.

(٤٦) شواهد الشافية ٤/ ٢٧١ والأغانى ٥/١٣١. قالت : قاف - أى إنى واقفة أو : وقفت، فاستغنى بالحرف عن الجملة.

ولم يقل : وقفت سترًا على الرقيب، ومراعاة لقلب الحبيب، وهكذا تكثر العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ونظرة خاطفة فى الرسالة القشيرية تريك بابا (للمصطلحات) غنيا بالألوان، والمذاقات، والمجاهدات والأحوال. وحسبها أنها تعبر عن مواقف نفسية وروحية وكشفية، كما توضح مراحل الحب والفناء، والشهود والتواجد والوجد، والوجود والغيبة والحضور، والمحو والإثبات[٤٧].

هذا، ولما كان التصوف رحلة شاقة مشحونة بالصراع كان على المصطلح الصوفى أن يغطى مراحل هذه الرحلة المثيرة من منطقة فوق الوعى والإدراك، فيطالعك القشيرى بفروق دقيقة :

١ – بين (النعمة) على لسان العلماء وهى : لذة خالصة عن الشوائب، وعند أهل الحقيقة : ما أشهدك المنعم، أو ما ذكرك بالمنعم، أو ما أوصلك إلى المنعم، أو ما لم يحجبك عن المنعم[٤٨].

٢ – وفى اللطائف ١/١٢٣ عند تفسيره لقوله تعالى «ما ننسخ من آية...» يقول : فلا ننسخ من آثار العبادة شيئا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودة[٤٩].

والنص يفيض بمصطلحات القشيرى : فالعبادة للعوام والعبودية للخواص والعبودة لخواص الخواص، وهى صفة أهل المشاهدات.

ولما كان القشيرى كثيرا ما يعتمد فى مصطلحه على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب أمكن وضع المصطلح السابق فى ترتيب دقيق هكذا : آثار العبادة. أنوار العبودية. أقمار العبودة[٥٠]. وكلها

(٤٧) والقرب والبعد والإفصاح والكتمان والسر، وسر السر، والتخلق والتحقق.

(٤٨) اللطائف ١/ ٩٥.

(٤٩) اللطائف ١/ ١٢٣.

(٥٠) اللطائف ١/ ١٢٤ وانظر المحقق.

مراحل تصف حالة النفس ورحلتها فى الطريق حيث يتم للصوفى اكتشاف أبعاد نفسه ومدى صلتها بالله وبخلقه فتفنى حظوظه، ويصير ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق، وفى هذا المقام نسمع قول مؤمنة صادقة بعد ليل حافل بالصيام والقيام! «إن استغفارنا فى حاجة إلى استغفار».

٣ - ويطالعك القشيرى بمصطلح من مصطلحاته الخاصة وهو (المريد) عند تفسيره لقوله تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل)، وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه (الأنعام).

فيقول عند الآية الأولى : «ويقال: الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب، ولا مطالبة. وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئا، الأولون قائمون بشرط العبودية والآخرون معتقون بشرط الحرية»[٥١].

وعند الآية الثانية يشير إلى أن الإرادة عند الصوفية لها معنى اشتقاقى يختلف عنها عند علماء اللغة[٥٢]. فالمريد، على موجب الاشتقاق، من له إرادة كالعالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد فى عرف الصوفية من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لايكون مريدا[٥٣].

٤ - كذلك تنوعت المصطلحات والرموز عند الصوفية، فاقتبسوا كثيرًا من علوم الفلك والكيمياء والنحو والبلاغة ليعبروا بها عن أحوال باطنية، وخذ مثالاً واحدًا من مصطلح البلاغة والنحو[٥٤] :

(٥١) اللطائف ج ٣ ص ٣٢٠.
(٥٢) اللطائف ٢/ ١٧٠.
(٥٣) وانظر الرسالة القشيرية ٩٢.
(٥٤) استعمله القشيرى فى كتابه التحبير فى التذكير ص ٤٦.

«واعلم أن الرفع والخفض فى الأمور الدنياوية مجاز وفى الأمور الدينية كالأخلاق والصفات الباطنة حقيقة، فمن زكى نفسه وطهر خلاله، فهو المرفوع حقيقة، ومن دسى نفسه فى دنس خلاله، وأسرته شهواته وهواه فهو المخذول المخفوض حقيقة». فالقشيرى يلاحظ انتقال المصطلح من المعنى اللغوى إلى الاصطلاحى ثم أخيرًا إلى التصوف.

(ز) فى نحو القلوب :

سبق أن تحدثنا عن نحو العبارة ونحو الإشارة. أو نحو الظاهر ونحو الباطن. وأن الأول يدرك بالعقل والثانى يدرك بالقلب، ولهذا سماه القشيرى «نحو القلوب». وفكرة القشيرى فى مبحثه هذا جديدة مبتكرة، فهو كما سبق يواكب بين الحقيقة والشريعة. فالحقيقة ظاهر، والشريعة باطن. أى أن العبادات لها ظواهر وبواطن. ولقد أطلعنا القشيرى على هذا الاتجاه فى بعض تواليفه - ففى كتابه الكبير «لطائف الإشارات» تفسير لكتاب الله على مذهب أهل الباطن. وفى كتابه «المعراج» يدرس رحلة عرفانية كان الرسول ﷺ خلالها مبهورا بالكشوفات والفيوضات، وكان طيلة الرحلة مرادا لا مريدا ومحمولا لا متحملا - على طريقة أهل الباطن أيضا.

كما أنه وضع فى كتابه «التحبير فى التذكير» قضية كلامية، وهى دراسة الأسماء والصفات الإلهية حيث قام بنقلها من محيط علماء الكلام التقليديين إلى دوائر الصوفية - وكان ذلك على طريقة أهل الباطن أيضا[55]. فما الذى يمنع القشيرى إذن من أن يعالج النحو العربى التقليدى الذى يعنى بالإعراب ومايصيب أواخر الكلمات من رفع ونصب. وجر وجزم، ومن تعريف وتنكير. وتأخير وتقديم على طريقة أهل الباطن أيضًا؟ وأن

(٥٥) الإمام القشيرى : سيرته - آثاره - مذهبه فى التصوف ص ٧٧ دكتور إبراهيم بسيونى.

ينقله من محيط النحاة حيث كان فيه هامدا جامدا إلى محيط الصوفية حيث يكون فيه مذاقا وحسًا وشفافية، وأن يصبغ مصطلحات النحو العربى بصبغة جديدة، وفهم روحى ملون بألوان الطوالع واللوامع، والمجاهدات والمذاقات.

لقد كان القشيرى الصوفى أولا متسلحا بأسلحه النحو الظاهرى قبل أن يبدأ هذا العمل عارفا بدقائقه وأسراره حتى يتسنى له أن ينقل الفكرة فى النحو الظاهرى إلى مثيلتها فى النحو الباطنى. فلم يجعل القشيرى من (نحو الإشارة) ثورة كما فعل ابن مضاء مع نحو العبارة، بل على العكس مد القشيرى بينهما جسرا وفتح طريقا، وجعل بينهما مودة ورحمة ونسبا وصهرا. كما استعمل القشيرى مصطلحات العلوم الأخرى غير النحو ليعبر بها عن جوانب الحياة الباطنية(٥٦).

ولم يكتف القشيرى بهذا النقل بل اعتمد على مظاهر الطبيعة وأخذ منها إشارات رائعة ليوضح بها حقائق العلم الصوفى من مجاهدات وكشوفات وأحوال ومقامات، معتمدا فى ذلك على الفروق الدقيقة بين هذه الظواهر الكونية(٥٧). ولقد قام القشيرى بمثل هذا الصنيع فى النحو الظاهرى حيث التقط المصطلح النحوى عند أهل الظاهر واستكنه منه نحوًا صوفيا عند أهل الباطن عن طريق إشارات تتصل اتصالا وثيقا بالمجاهدات والمقامات والكشوفات والمعارف العليا معتمدا فى ذلك على استنباط خفايا الألفاظ دون أن تحجبه قشورها الظاهرة، ومعانيها المألوفة.

وآن لنا أن نوضح ونفصل ما أجملناه معتمدين على النصوص الأمينة الموثقة من مؤلفات القشيرى أولا، ومن إشاراته وفيوضاته على قدر ما حملته طاقاتنا ثانيا.

---

(٥٦) التحبير فى التذكير ٤٦ حيث استعمل مصطلحات البلاغة فى التصوف.

(٥٧) انظر أمثلة من لطائف الإشارات ٦/ ٢١٩، ٢٧٥، ٣٠٣.

١ - فى باب (الإعراب والبناء) يقدم القشيرى إشارات مركزة يمكن أن نلمح من ثناياها : أن ما يصيب أواخر الكلمات فى الظاهر من رفع ونصب وجر وجزم يمكن أن يعترى القلب الإنسانى، - وهو يشبه الكلمة المفردة - ما يعترى الكلمة من رفع ونصب وجر وجزم أيضًا، فهناك مطابقة بين حركات الإعراب وما يصيبها من تغير بحسب العوامل فى النحو الظاهرى وبين حركات القلب وما يحدث للإنسان. إلا أن حركات النحو ظاهرية، وحركات القلب روحية فلو تصورنا حالة العبد صعودا فكأنه وهو مرتبط بعلائق الدنيا متأثر بها يشبه الاسم المجرور الذى يؤثر فيه حرف الجر، وليست حروف الجر إلا عوامل لفظية ضامرة، فإذا انسلخ من العلاقة وتجرد منها فهو يشبه الاسم الذى تخفف من ثقل العلاقات وهى تشبه حالة (النصب) والفتحة أخف الحركات، والنصب يقابل حالة انكماش الإرادة. ووقوع العبد تحت تصرف الإرادة الإلهية. وليس له من نفسه فى نفسه شىء. وهذا أشبه بالمكملات فى النحو الظاهرى. من المفاعيل وغيرها المميزة بالنصب والتى لا تقوم بذاتها. بل هى تابعة للعمدة فى الجملة وواقعة تحت تأثيره. فإذا ما وصل إلى التحقق صار (مرفوعا) من لدن الحق. واكتسب منزلة عالية وهى (الرفعة). وعلامة الرفع فى النحو الظاهرى وجودية، والعبد عند الصوفية له جهود ومعاناة فى طريقه إلى المقامات. وهذه الجهود تكون مستمرة ولاينتقل من مقام لاحق إلا إذا استوفى شرائط المقام السابق. وفى كل مرحلة ينال نصيبه من لدن الحق فإذا أصيب العبد بالسأم أو الملل أو اعترضه عائق أو جذبته علاقة أصيب (بالفترة). فإن طارد دواعيها استمر وإلا أصيب (بالوقفة) ونصيبه يكون الهجر. فإذا داوم الرحلة بدون (فترة) أو (وقفة) كان نصيبه (الوصل) من لدن الحق. (والوصل) أشرف من (الوقف).

أما الوقف فى النحو الظاهرى فهو تغير مخصوص علامته السكون والسكون عدم الحركة. ولهذا أهمل أبو الأسود الدؤلى السكون ولم يعده

من الإعراب فهو سلبى والحركة إيجابية، والعلاقة وثيقة بين الوقفة فى النحو الصوفى، والوقف فى النحو التقليدى.

أما أن (الوصل) أشرف من (الوقف) فيقرره أحد علماء العربية حيث يقول «إن الوصل مما تجرى فيه الأشياء على أصولها، والوقف من مواضع التغيير... وحالة الوصل أعلى رتبة من حال الوقف، وذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول فلذلك كانت حالة الوصل عندهم أشرف وأقوم وأعدل من حال الوقف»[٥٨]. ويبدو من اتجاه القشيرى فى فهمه لحركات الإعراب فى نحو الظاهر أنه يرتب على العلم بها عملا وسلوكا فى الإنسان بل حياة ومصيرا، وذلك ما نسمع صداه الآن فى أحدث النظريات المعاصرة حيث ترى أن البعد الأساسى فى كل عمل فنى بعد الألوان والظلال وأبعاد اللوحة - هو الإنسان. وهذا فرق بين الصوفية وأهل الجدل والنظر من النحاة والفلاسفة، وخذ مثالا واحدا من قول ابن عربى[٥٩]:

حركات الحروف ست ومنها
أظهر انه مثلها الكلمات
هى رفع وثم نصب وخفض
حركات للأحرف المعربات
وهى فتح وثم ضم وكسر
حركات للأحرف الثابتات
هذه حالة العوالم فانظر
فى حياة غريبة فى موات

(٥٨) الخصائص ٢/ ٣٣١ دار الكتب.

(٥٩) لوحة ١٠٣/ ب روح القدس فى مناصحة النفس مصور عن جامعة إستانبول بجامعة الدول العربية رقم ٢٢٧ تصوف.

فابن عربى ينظر بما فى الكون من تغير بحالات الإعراب - المتغيرة فى تعاقبها على الكلمة كما ينظر العناصر الأولى الثابتة فيه بحركات البناء التى لا يعتورها التغيير فى الكلمة. وقد شبه القشيرى (المعرب) فى نحو الظاهر وهو المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) فى اصطلاح الصوفية وهو عندهم صفة أرباب الأحوال، فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين لأنه ينتقل من حال إلى حال، فإذا وصل ثم اتصل فهو صاحب (تمكين). ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل[٦٠].

وصاحب (التمكين) فى التصوف يشبه (المبنى) فى نحو الظاهر، وحركات البناء أصل، وحركات الإعراب فرع فى نحو العبارة. لأن حركات البناء لاتزول ولا تتغير عن حالها، وحركات الإعراب تزول وتتغير، وما لا يتغير أولى بأن يكون أصلا مما يتغير. فالمبنى أشرف من المعرب فى نحو العبارة. لما سبق. وفى نحو الإشارة كذلك، لأن الثبات وعدم التغير فى السراء والضراء، عند تقلب الأحوال على العارف من علامات (التمكين)، وسادات الوقت هم أهل التمكين. يقول القشيرى فى اللطائف[٦١] : «فالمريد مسافر بقلبه لأنه يتلون ويرتقى من درجة إلى درجة، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن، والطريق منازل ومراحل ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس، وإنما تقطع بالقلوب، والمريد سالك والعارف واصل».

٢ - ويمضى القشيرى فيرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجعله مرتبطا بعلاقة خارجية عن ذاته، والمبتدأ فى لغة أهل الإشارة اسم «الله» وهو قائم بذاته بغض النظر عن وجود الخبر فالاسم «هو» عند الصوفية نهاية التحقق، ولا يحتاج إلى خبر لأنه كلام تام بدون شىء آخر يتصل به، أو يضمر لاستهلاكهم فى حقائق القرب واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم، فلا يسبق إلى قلوبهم غيره، ويكتفون به عن كل بيان[٦٢].

(٦٠) الرسالة ص ٤١.
(٦١) اللطائف ٣/ ٣١١.
(٦٢) التحبير فى التذكير ٢٥.

لكن هذا الاسم «هو» فى نحو الظاهر يحتاج إلى خبر ليتم الكلام، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، لأن الخبر هو الذى يكشف عن معناه.

ثم ينظر القشيرى المبتدأ المتجرد عن العوامل اللفظية بالفقير الصوفى المتجرد عن كل علاقة تصده عن الله لأنه قائم مع الله بالله، فهو (مرفوع) القدر عند الله لما ناله من تجرد وفقر وتوكل وصبر[٦٣] وصد وهجر، والله يحب أن يرى ثياب التجرد على الفقراء لأنها الثياب التى خلعها عليهم بنفسه حين آثروا حقه على حظوظهم، وكذلك كان حكم المبتدأ (الرفع) فى النحو الظاهرى للتجرد عن العوامل.

٣ – ويمضى بنا القشيرى فى تأصيل فكرته حيث يلتمس نحوًا روحيا للفعل المضارع فى رفعه ونصبه وجزمه، فإذا كان فعل الحال متجردًا عن العوامل الناصبة والجازمة فأصله الرفع، وهو من العلو والارتفاع، فإذا دخل عليه ناصب أو جازم صرفه إلى غير الرفع. والأمر كذلك عند أهل الطريق؛ فإذا دخلت الشواغل والعلائق اتجاه العبد غيرت منزلته، كأن تنتصب النفس لترى أفعالها وتلاحظها وتشاهدها فتصيبها الدعوى والادعاء، وذلك عند الصوفية دبيب خفى يؤثر فى التوحيد، وحديث النفس شرك عندهم، إذ العبادة يجب أن تكون خالصة حتى من الطمع فى الآخرة ثوابا وعقابا.

وكذلك إذا اعترضت القواطع والموانع اتجاه العبد أصيب (بالفترة) ثم (الوقفة). وهى الحبس بين المقامين لعدم استيفاء حقوق المقام الذى خرج عنه، وعدم استحقاقه دخوله فى المقام الأعلى. فالوقفة عندهم لها معنى وهى نفسها السكون والجزم فى (نحو العبارة). ولما كان السكون دليل الجزم، فذلك يؤكد أنه عنصر مهم له قيمة إيجابية فى النظام اللغوى

(٦٣) اللطائف ٦ / ٢٤٧ محقق.

تجعله يقارن بالحركات، ولهذا أطلق عليه فى الدراسات اللغوية الحديثة «الحركة الصفر»[٦٤]. فإذا سلم العبد فى النحو الباطنى من (الملاحظة) و(الفتور) و(الوقفة) وبادر باستشعار التحسر تداركته الرحمة ونظر الله سبحانه وتعالى إليه بقبول الرجعة (وارتفع) قدره عند العزيز الغفور «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح (يرفعه)»، كما يرتفع فى النحو الظاهرى ـ الفعل المجرد من العوامل الناصبة والجازمة، الا ترى أن الرفع لا يطرأ إلا على الكلمات الرئيسة فى الجملة كالمبتدأ والفاعل وأشباههما فهو للعمد، كما أن النصب والجر للفضلات والمكملات.

٤ ـ ثم ينتقل القشيرى إلى المكملات فى الجملة فيتحدث عن الحال والتمييز.

ولنبدأ بتعريف الحال فى النحو الظاهرى وهو : وصف فضلة منصوب للدلالة على هيئة، وللحال أربع صفات : أن تكون منتقلة مشتقة نكرة، وكونها نفس صاحبها فى المعنى. أما تعريف التمييز فهو فضلة نكرة بمعنى (من) يبين إبهام اسم أو إبهام نسبة. ويلتمس القشيرى معانى روحية لما تقدم فى إشارات مركزة يستشف منها أن العبد إذا (انتصب) استقامت (أحواله)، إذ أصبح لا يرى عملا بعين العجب فهو (منتصب) مستقيم خالص لله. والعبد كذلك لخموله، وبعده عن الشهرة (نكرة) فليس للخلق عنده اعتبار، لأنه مستقيم فى طريقه إلى الحق، فإذا قلنا فى النحو الظاهرى جاء القائد منتصرا - فصاحب الحال هو الفاعل، لأنه هو الذى صنع الانتصار، فهى متصلة - بهيئته، أما فى النحو الإشارى فإذا قالوا (صاحب الحال) فمعناه عندهم (مرزوق الحال) لأن الحال هنا من لدن (الحق) و(الأحوال) كلها من الله فهى تأتى من عين الجود، فهى مواهب، كما أن (المقامات) تحصل ببذل المجهود فهى مكاسب، وبهذا ينكشف النقاب عن مدى الفرق والتشابه بين النحو الظاهرى والإشارى فى الحال،

(٦٤) د. كمال بشر - مجلة المجمع ج ٢٤.

وإذا كان التمييز فى نحو الظاهر لا يكون إلا بعد تمام الكلام فكذلك فى نحو الباطن، فلا يميز الله أحداً من عباده إلا بعد أن يتحلى بالعلم والفقه والفضائل من إيثار وإخلاص وبذل وتضحية وهى عناصر الفتوة فإذا تحلى تمت له رتبة التمييز «ونصيبهم الله لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم لوداده»(٦٥).

٥ – ثم يتجه الشيخ رضى الله تعالى عنه إلى (التوابع) :

فيبدأ بالبدل وأقسامه، فالنعت، فالعطف، فالتوكيد. وحسبى من التوابع ملحظ واحد بين (البدل) الظاهرى والإشارى تتضح فيها الملامح بينهما. وذلك أن بدل البعض يمكن فصله فيما إذا قلت مثلا : أكلت التفاحة نصفها – بمعنى انك أكلت النصف الصالح ورميت النصف الفاسد، وفى النحو الإشارى كذلك فقد تخلصوا من نفوسهم وعللهم. فبدل الله سيئاتهم حسنات.

أما بدل الاشتمال فلا يمكن فصله فى نحو العبارة كما إذا قلت: أعجبنى العندليب صوته، وكذلك فى نحو الإشارة فهم لم يتمكنوا من التجرد والأعلال، ولا يزال عندهم وارد من ثواب أو عقاب، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا من عللهم وأن يستبدلوا بالعبادة المغرضة عبادة خالصة، فهم بين خوف ورجاء، وقبض وبسط.

ثم أخيراً يمضى بنا إلى (حروف الجر)، وهى آخر المطاف. يقول القشيرى عن حروف الجر : «وهى تخفض الأسماء، فلما علم المحققون أن الأشياء بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا أنفسهم تواضعا لله فتعززوا بالإضافة إلى جانب الله، أولئك الذين اصطفاهم الله لقربه وجعلهم من حزبه»(٦٦).

---

(٦٥) نحو القلوب : للإمام القشيرى.

(٦٦) نحو القلوب : للإمام القشيرى.

والحرف فى نحو العبارة : ما جاء لمعنى فى غيره[٦٧]، والحروف متى اختصت بالأسماء عملت الجر، وإنما وجب أن تعمل الجر لأن إعراب الأسماء رفع ونصب وجر، فلما سبق الابتداء إلى الرفع فى المبتدأ والفعل إلى الرفع فى الفاعل وإلى النصب أيضا فى المفعول، لم يبق إلا الجر فلهذا وجب أن تعمل الجر[٦٨].

وسميت حروف الجر لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء اى تضيفها وتوصلها إليها؛ ولهذا سماها الكوفيون (حروف الإضافة).

وعلامة الجر الكسرة وما ناب عنها فى اصطلاح النحاة، فهى تحدث عملا خطيرا فى الاسم على الرغم من قلة حروفها وضمورها. يؤكد هذا أن رجلا وقف على الشبلى فقال : أى صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر فى الله عز وجل، فقال : لا، فقال : الصبر لله تعالى. قال: لا. قال: الصبر مع الله تعالى. قال : لا. قال : فأى شيء! قال : الصبر عن الله عز وجل. قال : فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف[٦٩]. فحروف الجر هى التى أعطتك هذه الشحنات المملوءة بالمذاقات والمواجيد، ولهذا أنشدوا :

والصبر (عنك) فمذموم عواقبه

والصبر (فى سائر) الأشياء محمود

وهاك القشيرى يكشف عن حقيقة حرف الجر على طريقة أهل الإشارة حيث يقول فى تفسيره «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة....» من شهد المصائب شهد نفسه لله، وإلى الله، ومن شهد المبلى علم أن مايكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله،

(٦٧) أسرار العربية لابن الإنبارى ١٢.
(٦٨) أسرار العربية ٢٥٣.
(٦٩) رسالة القشيرى ٢٨٥.

الذى كان لله فصابر واقف، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحكم إن أثبته ثبت، وإن محاه انمحى، وإن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، فهو عن اختياراته فان(٧٠).

وانظر كيف يستعمل حرف الجر مرتبطا بمراتب العبادة وهو يتحدث عن تفسير آية الصوم : «من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القربة. الصوم لله تحقيق العبادة، والصوم بالله تصحيح الإرادة(٧١).

كما تظهر شفافية القشيرى وتذوقه فى لهجة تستقطر الدمع وتستنزف الدم حيث يقول «أفمن هو (فى) روح إقبالنا (عليه) كمن هو (فى) محنة إعراضنا (عنه)، أفمن بقى (معنا) كمن بقى (عنا)»(٧٢).

فما أشبه حروف الجر هنا بذرات نور دقيقة متتابعة فى مدارات متعددة تعطى الواحدة منها الأخرى قوة دفع، وتأخذ من سابقتها دفعة منح.

وأحيانا تجد حرف الجر النحيل أقوى من الدنيا ومن فيها، وكأنه زلزال يهدر فى جوانب نفسك، ذلك حين يفسر قول الله عز وجل «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم». يقول القشيرى : فأعلن التبرى منهم، وأظهر الخلاف معهم، وانصب العداوة لهم... «وكن بنا لنا متبريا عمن سوانا، واثقا بنصرتنا، فإنك بنا ولنا»(٧٣).

وأحيانا يرق حرف الجر شيئا فشيئا حتى يضمر ويعرى حتى يغيب عن شاهدك، وذلك حين يفسر قوله عز وجل : «إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض». يقول القشيرى «أفردت قصدى لله، وطهرت عقدى عن

(٧٠) اللطائف ١/ ١٥٢ وانظر ١٦٠، ٢٦٥.
(٧١) اللطائف ١/ ١٦٥.
(٧٢) أدب القشيرى ص ٣٢٢ مخطوطة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة - د. إبراهيم بسيونى.
(٧٣) اللطائف ١/١٣٠ فما بعدها.

غير الله، وحفظت عهدى فى الله لله، وخلصت وجدى بالله، فإنى لله بالله، بل محو فى الله والله الله[٧٤].

وإذا كان الكوفيون قد سموا حروف الجر (حروف الإضافة) فقد استغل القشيرى هذا المصطلح الكوفى، واستكنه منه نحوا صوفيا ظهر فى تفسيره لقوله تعالى : «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» يقول : «وأولى من تسومه الهجران والإعراض عن الكفار نفسك؛ فإنها مجبولة على المجوسية حيث تقول «لى ومنى وبى»[٧٥].

وواضح أن القشيرى يرى فى حروف الإضافة على هذا النمط شركا خفيا. وهذا معنى قولهم : «التوحيد إسقاط الياءات» يعنى ياءات الإضافة إلى نفسك. والتوحيد الحق لا يقتضى شعورك بما سوى الموحد. وقد سئل بعض المشايخ : ألك رب؟ فقال : أنا عبد وليس هو مولى لى، من أنا حتى أقول لى[٧٦]؟

ويلاحظ على حروف الجر فى (نحو الظاهر) أنها تتداخل وتشتجر حينا ويحل بعضها مكان بعض. أو يقع التـرادف بينها حينا آخر حتى غابت حقيقتها وغامت. ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر : فقد وقع التداخل بين (عن) وبين (الباء) فى قوله تعالى «وما ينطق عن الهوى» وبين معنيين من معانى (الباء) : فهى للمصاحبة فى «فسبح بحمد ربك».

ويرى بعضهم أن (الباء) للاستعانة. كما يحل بعضها مكان بعض : فـ (على) تقع للتعليل (كاللام) فى «ولتكبروا الله على ما هداكم»، أو بمعنى (فى) الظرفية مثل «ودخل المدينة على حين غفلة». أو بمعنى (من) مثل «الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون» .

---

(٧٤) اللطائف ٢ / ١٨٠.

(٧٥) اللطائف ١ / ٢٤٥.

(٧٦) انظر التحبير فى التذكير ـ ٢٦ تحقيق د. إبراهيم ـ ـ ـ.

كما تكون اللام بمعنى (إلى) مثل «بأن ربك أوحى لها». أو بمعنى (على) فى الاستعلاء مثل «ويخرون للأذقان يبكون»، أو بمعنى (فى) مثل «ياليتنى قدمت لحياتى»[(٧٧)].

وإذا كان بعض النحاة يحكمون بصحة هذا كله فإن (النحو الصوفى) يرفضه؛ لأن القشيرى كما رأيت من أمثلته التى تذوقت معانيها لم تكن حروف الجر عنده قاموسية كما كانت عند النحاة: بل كانت كائنات حية تحمل عصارة ذهنه وتفكيره فى حقائق علم القلوب، وبيان سبيل السلوك :

(أ) ففى قوله تعالى ﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عبادة﴾ (الشورى آية ٢٥).

يرى النحو التقليدى أن (عن) بمعنى (من) (مغنى اللبيب ١/ ١٣٠). ولكن الصوفى يرى أن (عن) فى مكانها. والمعنى عندهم أن الحق يقبل التوبة متجاوزا عن عباده فى توبتهم لعدهم حلوصها رحمة منه بهم[(٧٨)]. ولا تستطيع (عن) إذا كانت بمعنى (من) أن تؤدى هذا الملحظ الخفى.

(ب) واستمع إلى القشيرى يقول «لا أذكرك إلا بك ولا أعرف إلا بك» ويرى الدكتور إبراهيم بسيونى فى تعليقه على الجملة السابقة أن المنهج

---

(٧٧) انظر مغني اللبيب لابن هشام في هذه الحروف.

(٧٨) مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس. كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ، كما قيل فى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) : إن (في) ليست بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال في الشيء، وإما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، كما ضمن بعضهم «شربن» في قول الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت ... متى لجج خضر لهن نئيج

معنى : روين. وأحسن في (وقد أحسن بي) معنى لطف، وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى، وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شذاذا، ومذهبهم أقل تعسفا. (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام = «الباء المفردة». فالكوفيون يتوسعون فى معانى حروف الجر. ويعطونها أكثر من معنى. كما يجيزون إنابة بعضها عن بعض قياسا : وانظر شرح التصريح على التوضيح ٢/ ٢ والصبان على الأشمونى ٢/ ٢١٦، وهمع الهوامع للسيوطي ٢/ ٢٩.

الصوفى يفترق عن المنهج الكلامى والفلسفى اللذين يعتمدان فى الاستدلال على الخالق بالمخلوق، أما الصوفية فيستدلون أولا بوجوده سبحانه على وجودهم. وعندهم أن الاستدلال بالأول الخالق على المحدث المخلوق أولى؛ ذلك لأن الحق مشهودهم.

عجيب لمن يبغى عليك شهادة

وأنت الذى أشهدته كل مشهد

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك: «متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك؟». فحرف الباء هنا أشعر بفضل الله على العبد حين يسبق إلى معاونته كى يذكره، ويبعده ويعرف به[79]. فقد حملها القشيرى فى الفعل معانى جديدة أثرت الفكر الدينى. فحرف الجر فى النحو الصوفى على نحوله خطير: إذ يعبر عن مذاقات ومواجيد.

وإذا كان حرف الجر عند أهل العبارة يجر الاسم ويترك فيه أثرا ماديا وهو الجر فإنه عند أهل الإشارة أعمق أثرا وأوسع نشاطا، وأرق حسا، واشهى مذاقا: فهو يجر العبد من نفسه إلى مرحلة (النصب)، ثم إلى مرحلة (الرفع)، أو ليس من أسمائه تعالى «الرافع الخافض»؟

ثم حروف الخفض (أحوال) من قبيل (الخوف) الذى يرفع بعده العبد إلى (الرجا)، و(القبض) الذى يرفع منه إلى (البسط)، و(الحجب) الذى يرفع منه إلى (الكشف).

ثم ألا تجد معى بعد هذا الطواف والمسير أن القشيرى كان يجرد حرف الجر من غلافه وغلالته حتى يستشف معدنه، ويلمس سره، ويربطه بالحياة الروحية الصافية؟، وقد كان القشيرى ـ نور الله مضجعه، وبرد مثواه ومترعه ـ يعمل نفس هذا العمل مع بدنه ونفسه وروحه!!

---

(٧٩) الإمام القشيرى ٢٣٢ د. إبراهيم بسيونى مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة.

هذا، وقد كان للشيخ اتجاهات إعرابية حملت قيما إشارية فى كتابه اللطائف أذكر منها على سبيل المثال[٨٠].

١ - ما جاء فى اللطائف ٢/٣٣٢ عند شرحه لقوله عز وجل «يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» (الأنفال ٦٤) يقول : أحسن التأويلات : من فى محل النصب، أى : ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله». على أن العربية تجيز وجها آخر تكون فيه (من) فى محل رفع أى كفاك وكفاك المؤمنون (انظر الكشاف)، ولكن ملحظ القشيرى فى الإعراب يرجع كل شىء إلى الله. فالخلق خلقه، والحكم حكمه، وذلك مذهبه.

٢ - ما ورد فى اللطائف ٢/١٥٤ «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض» (الأنعام آية). فـ (الذى) إشارة و«خلق السموات والأرض» عبارة. استقلت الأسرار بسماع «الذى» لتحققها بوجوده، ودوامها لشهوده. واحتاجت القلوب عند سماع «الذى» إلى سماع الصلة، لأن «الذى» من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال «خلق السموات والأرض».

وانظر اللطائف فى أماكن متفرقة تجد القشيرى يسخر الجانب الإعرابى ليخدم مذهبه فى التصوف (٥/٧٧).

وما دام حديثنا فى النحو عند القشيرى، فهل كان القشيرى يميل إلى مذهب معين فيه؟

الواضح أن القشيرى كان يستعمل مصطلح البصريين فى (نحو القلوب). وبجانب هذا رأيته فى «نحو القلوب» يسمى (حروف الجر) (حروف الإضافة) وذلك مصطلح كوفى، وإنما سميت حروف الجر حروف

(٨٠) انظر نماذج مختلفة فى المرجع السابق.

الإضافة لأنها تضيف الفعل إلى الاسم، أى توصله إليه[٨١]. كما سمى الضمير (بالكناية) وذلك فى قوله تعالى ﴿ولا يحيطون به علما﴾[٨٢]. وفى مرة أخرى عند قوله تعالى ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾[٨٣]. وهذا اصطلاح كوفى أيضًا[٨٤]. وإنما عبر عن الضمير بالكنى، لأنه يكنى به أى يرمز به عن الظاهر اختصارًا. لأن اللبس مأمون مع الضمير. والغرض منه : الدلالة على المراد منه مع الاختصار، كما استعمل حرف (الصلة) وذلك عن الحديث فى قوله تعالى ﴿ليس كمثله شىء﴾ (الشورى آية ١١). فقال «والكاف فى «ليس كمثله» صلة أى : ليس مثله[٨٥]». وهذا مصطلح كوفى يقابله (حروف الزيادة) عند البصريين[٨٦]. والقشيرى كعادته يستعمل دقائق اللغة ورقائقها تورعا من أن ينسب (الزيادة) إلى الكتاب المقدس كما فعل غيره.

ويظهر أن الشيخ لم يمل إلى مذهب بعينه فى النحو البصرى أو الكوفى بل كان يمر بها سريعا فلم يلتفت إلى خلافات النحاة من بصريين وكوفيين فى إشاراته (النحوية) ولم يقف ليناقش أصحاب كل مذهب أو مدرسة ولا ليناقش غيرهم من أصحاب الفرق الإسلامية. فالشيخ كان يمر على عجل فى كل ذلك. يؤكد هذا ما جاء عن القشيرى فى «نحو القلوب» «قال أهل العبارة : الاسم مشتق من السمو، أو من السمة على الخلاف»[٨٧].

لكنه كان طويل النفس مسترسل الفكرة حين يحرك مثل هذا النص من أفقه الضيق، ومكانه الجامد إلى الرحب الفسيح، حيث السلوك والتخلق.

---

(٨١) الهمع ٢/ ١٦.

(٨٢) اللطائف ٤/ ١٢٠.

(٨٣) اللطائف ٥/ ٣٥٢.

(٨٤) شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨٤.

(٨٥) اللطائف ٥/ ٣٥٥.

(٨٦) شرح المفصل ٨/ ١٢٨.

(٨٧) نحو القلوب للإمام القشيرى.

والاستشفاف والتذوق، ومن هذا المنطلق الأخير وحده نذر عمره، وكرس جهوده. استمع إليه يقول[٨٨] : «الاسم مشتق من السمو والسمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهمته إلى محال المشاهدات، فمن عدم سمة المعاملات على ظاهره، وفقد سمو الهمة للمواصلات بسرائره، لم يجد لطائف الذكر عند قالته. ولا كرائم القرب في صفاء حالته».

(ز) ويظهر أن القشيري فهم من النحو ما يشمل النحو والصرف فتكلم في «نحو القلوب» على مسائل صرفية مثل:

١ - الصحيح والمعتل من الأسماء.

٢ - والاشتقاق في الاسم.

وفكرته في المسائل الصرفية كفكرته في مسائل النحو تقوم على المطابقة في أن مايصيب الكلمة من تغيرات يحدث مثيلها للعبد. فالصحيح من الأسماء عند أهل العبارة : ما سلم من حروف العلة وهي : الألف والواو والياء، وهي أصوات تقع في مهب التغيير والتبديل والحذف في النحو الظاهري. والصوفي يرى أن مجيء حرف العلة في آخر الكلمة أو في جوفها «في القلب» تنظير بأنه يجب أن يتجرد العبد من العلل في وسط الطريق ونهايته، والصوفي يرى أن النفس محل المعلولات وأوصاف الضعف البشري، والقلب محل المحمودات، وبقاء الإنسان بالعلل علامة ضعف، والعلل باقية مع العبد ما دام في حالة (التلوين) فإذا تجرد من العلل وأصبح فانيا عن حظوظه - كان في حالة (التمكين) وسلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس وحق له الإعراب وهو البيان ثم الكشف والعيان. والعلل تلازم الإنسان حتى مرحلة السر، ولا يخلو من

(٨٨) اللطائف ١/ ٦٤.

العلل إلا عين السر أو سر السر. وهى أمانة للحق لدى الخلق كى يشاهدوه بها. ومن أجل هذه (العلل) منع الاسم من الصرف وهو (التنوين). والأصل فى الاسم : أن يلحقه التنوين ليدل على تمكنه فى الاسمية. فإذا وجد فى الاسم : (علتان) تدلان على الفرعية، وكانت واحدة ترجع إلى اللفظ والأخرى ترجع إلى المعنى، أو واحدة تقوم مقامها، فإن الاسم حينئذ يشبه الفعل، وشبهه بالفعل يضعف قوته، ويصبح ثقيلا مثله، فيأخذ حكمه وهو امتناع التنوين، لارتكابه العلل ظاهرا وباطنا، (والعلة) مرض فى العبد، ونقص فى (الكلمة) الممنوعة من الصرف : (فالوصف) : دعوى النفس بالظهور والغرور. والصوفى يستر نفسه. (والتأنيث) : إشارة إلى أن الطريق الصوفى شاق، فإن تهاونت فيه فأنت ضعيف (كالأنثى) لا تتحمل المجاهدات (والعدل) فى نحو العبارة : اشتقاق اسم من اسم عن طريق التغيير له كاشتقاق : عمر من عامر. والمشتق فرع من المشتق منه. و(العدل) يشمل التغيير والتحويل والعدول عن الأصل. وفى نحو الإشارة : عدول عن الطريق القويم، والتنظير بينهما قائم. و(وزن الفعل) كأن تجعل لعملك قيمة ووزنا. وهذا نوع من (دعوى النفس) والإعجاب بما تفعل، والصوفى ملتزم بإسقاط التدبير وإثبات التقدير، والمعول عليه فضل الله، ولا قيمة لعمل العبد ولا (وزن لفعله)[89] بجانب فضل الله. وكل عمل للعبد مرتبط بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنسانى، حتى أعمال الإنسان الصالحة لا تدخله الجنة[90]. وليست فى نظر الصوفية إلا كالخيول الراكضة فوق ثبج الماء لا حول لها ولا طول، ولا نفع فيها ولا قدرة.

ويعرض القشيرى لاشتقاق (الاسم)؛ ففى النحو الظاهرى نسمع خلافا بين النحويين : فيرى البصريون أنه مشتق من (السمو)، لأنه سما على

(٨٩) نحو القلوب : للإمام القشيرى.

(٩٠) وصدق الرسول (ﷺ) حين قال «ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته»، وقول (ﷺ) : «لن يدخل أحدكم عمله الجنة...».

مسماه، وعلا على ما تحته من معناه، أو أنه قد (سما) على الفعل والحرف[٩١]. ويرى الكوفيون أنه من (السمة) فكأنه سمة على المسمى يعرف بها.

كما نرى أنموذجا من هذا الخلاف بين رجال الفكر الدينى حيث نجد أهل السنة وهم فى اشتقاقه كالبصريين، وأما المعتزلة فهم كالكوفيين، والفرق بين المذهبين : أن أهل الاعتزال ينكرون الصفات، وأهل السنة يثبتونها. كما اشتد الجدل بينهم لأنهم نقلوا هذه المشكلة إلى الحديث عن الأسماء والصفات الإلهية، كما نرى وجها آخر لهذا الجدل بين دوائر النحاة المتمثل فى البصريين والكوفيين[٩٢].

ولكن القشيرى الصوفى أخرج قضية اشتقاق الاسم والخلاف فيه من الجانب الصرفى التقليدى والجانب الجدلى الكلامى إلى الجانب الصوفى الذى يهتم بالسلوك والتخلق، والتطبيق والعمل. ومن آداب من عرف اسما من أسمائه أن يتأدب بما يعرف، وأن يطبق على نفسه :

أولا : سلوكا بمقتضى ذلك الاسم.

وثانيا : أن يكون ذكر هذه الصفة حافزا على التشبيه بالصفات الإلهية فى حدود الطاقة الإنسانية. استمع إلى هذا المعنى من القشيرى حيث يقول:

«فمن قال : إنه مشتق من (السمو) فهو اسم من ذكره سمت رتبته، ومن عرفه سمت حالته، ومن صحبه سمت همته.

ومن قال : إنه من (السمة) فهو اسم من قصده وسم بسمة العبادة، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة، ومن أحبه وسم بسمة الخواص، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص.

---

(٩١) أسرار العربية لابن الأنبارى ص ٤ ط. دمشق.

(٩٢) انظر نموذجا من هذا الجدل فى (أسرار العربية ص ٥ لابن الإنبارى).

أو يقول : اسم من واصله (سما) عنده عن الأوهام[٩٣] قدره (سبحانه) ومن فاصله وسم بكى الفرقة قلبه[٩٤].

كما يعرض القشيرى لتصغير الثلاثى فى (نحو اللسان) بأنه : اسم ضم أوله وفتح ثانيه مع زيادة ياء ثالثة كقولك فى رجل : رجيل، وحجر: حجير. كذلك إذا أراد الحق تحقير العبد زاده شغلا يتوهمه الناس نعمة وفضلا ورفعة، ولكن هذه الزيادة إذلال له، ومنقصة بحاله»[٩٥].

ثم، أما بعد : فإنى أرى بعد هذه الرحلة الروحية فى آثار الشيخ وشواهده أن الرجل كان موفقا فى نقل مصطلح النحو العربى إلى محيط التصوف الإسلامى حيث أطلعنا من خلال ذلك على فلسفة روحية قوامها القواعد النحوية، وأنه كان رائدا فى هذا العمل وذاك النقل من بيئة إلى بيئة. كما يؤكد هذا العمل مرة أخرى مدى الترابط فى عالم المصطلحات، مما يساعد فى المستقبل إن شاء الله على دراسة مراحل هذا الانتقال وتطوره، ويحدد أخيرا إشارات الأخذ والعطاء. والتأثير والتأثر.

(٩٣) اعلم ان ما يصوره وهمك وظنك فانه بخلاف ذلك.

(٩٤) اللطائف ٣ / ٥.

(٩٥) نحو القلوب الكبير. للإمام القشيرى. ورقة ٧٢ ميكروفيلم رقم ٧٤٣٤ دار الكتب والوثائق المصرية.

الفصل الثالث

الكتاب

(أ) منهج الكتاب

وبعد أن تحدثنا عن فكرة القشيرى فى النحو، وكيف عالج «نحو القلوب» من خلال «النحو العربى التقليدى»، *وقدم لنا فهما روحيا جديدا* له، حيث جعل *العلاقة بين النحوين : الإشارى والعبارى*، هى *العلاقة* نفسها التى يقوم عليها التصوف الملتزم بالكتاب والسنة وهى الربط بين الحقيقة والشريعة والباطن والظاهر[1] : فكل حقيقة لا تؤيدها الشريعة فهى باطلة، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة : فهما وجهان لحقيقة واحدة، بمنزلة الإسلام والإيمان «والجسم والقلب، لاينفك أحدهما من صاحبه»[2].

نقل القشيرى هذه الفكرة الصوفية نفسها عندما عالج النحوين : الإشارى والعبارى، فقضايا النحو الظاهرى عنده موصولة بقضايا النحو الباطنى؛ ولذلك كان منهجه :

١ - أن يبدأ بالقضية فى النحو الظاهرى أولا ثم يثنى عليها بالنحو الباطنى، وتلك إشارة منه إلى وجوب اتباع نحو الظاهر نظريا، واتباع نحو

---

(١) وجماع هذا قوله سبحانه : «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر...» البقرة ١٧٧، وقول رسوله ﷺ : «من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه» النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير «بر».

(٢) علم القلوب ٥٢ أبوطالب المكى.

الباطن، رياضة وحالا، وقد أصاب الغزالى كبد الحقيقة عندما وضع نحونا التقليدى بين (علوم الصدف والقشر)[٣]. ويستحيل الوصول إلى لبه ونواته، وفقه أعماقه إلا عن طريق علوم (القشر) كما يستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا عن طريق عالم الأجساد.

فليست قضية النحو عند القشيرى فى حفظ التعريفات والقواعد، والإلمام بقضايا الرفع والنصب والجر والمفرد والجملة وأحكامها، وإنما كان نحوه بعد هذا فضا للقشرة الظاهرية حتى شف، المصطلح ورق درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وفتح باب الورود.

٢ - وكان القشيرى فى استخراجه (للإشارات) من النحو الظاهرى - معتدلا فلم يجنح، ولم يجمح، ولذلك كان نحوه الظاهرى الباطنى على صغر حجمه صافيا نقيا، فلم يهم فى أودية الأباطيل والضلال، ودروب الخيالات والأوهام.

٣ - وإذا كان النحو العربى يدرك بالعقل، فإن نحو القلوب لا يدرك إلا بالذوق؛ ولذلك كانت لغته الرموز لا العبارات، واللطائف والإشارات. وهى وحدها: لغة الإلهامات والمجاهدات، والأحوال والكشوفات، والمواجيد والأذواق.

يقول أبو سعيد الخراز: «العبارة يعرفها العلماء، والإشارة يعرفها الحكماء، والرمز يعرفه الأولياء، واللطائف يقع عليها السادة والشيوخ»[٤].

فالعبارات ليس فى مقدورها أن تعبر عن هذه الدقائق وتلك الرقائق، فالعبرة بالمقاصد والمعانى لا بالألفاظ والمبانى:

---

(٣) جواهر القرآن ١٨، ٢٠ للغزالى.

(٤) علم القلوب ٧٥.

وإطـراق طـرف الـعـين لـيس بـنـافـع

إذا كـان طـرف الـقـلب لـيس بمـطـرق

على أن (إشارات) القشيرى حين ربطها بالنحو العربى لم تكن مغرقة فى الرمزية إلى حد الغموض والإبهام، بل يستطيع من عانى معاناته ونقى سريرته من الكدورات أن يفهمها، وأن يستبطن خفايا ألفاظها حيث يدق النحو فيها ويرق، ويلطف ويشف، فتلحظه عيون الأرواح لا عيون الأشباح، وتتلوه متبتلة فى محراب هذا الكون لا فى عرصات المعاهد وحلقات الدرس. فهو الآن فى هذه المعارج، وتلك الرحلات والكشوفات قد تحول من نحو العقول والورق، إلى نحو القلوب والحرق. على أن القارئ العادى لن يستطيع أن يصحب القشيرى فى رحلته هذه، ما لم يتهيأ لها، ويهيئ لها من نفسه وسلوكه وجهده وروحه، وأهل الطريق هم الذين يتاح لهم بفضل الله الفيض الذى يكشفون به سر هذا المصطلح الإشارى.

٤ – ولم يخصص القشيرى (نحوه) للجانب النحوى وحده، ولكنه التفت إلى جوانب صوتية[٥] واشتقاقية، وأشار إلى الصحيح والمعتل، وبعض مصطلحات النحو، ليجعل من هذا كله نقطة ارتكاز ينطلق منها إلى مشارف عليا، ويحلق فى مدارات للصعود وراء هذا الكون المادى المحسوس - ليشاهد عوالم الأرواح والأسرار، وهيهات أن يدرك الإنسان شيئا منها إلا بفضل الله ورعايته.

٥ – والقشيرى حين ألف نحوه – لم يجعله نحوا (جماليا) كما نادى بذلك عبدالقاهر الجرجانى، ولا نحواً (رياضيا تحويليا*) كما تنادى به

---

(٥) وهذا ملحظ دقيق من القشيرى ينبطه عليه علماء اللغة المحدثون حيث يقررون من الناحية المنهجية ضرورة ربط النحو بعلم الأصوات والصرف. انظر آراء : ألكسندر هيوم A.Hume و: فيرث Firth وبالمار Palmar فى كتاب علم اللغة العام القسم الثانى ص ٢٤٢ د. بشر.

(*) والنحو التحويلى – يعنى بتحديد الإمكانيات التعبيرية الكامنة فى لغة من اللغات. علم اللغة ٧٧ د. حجازى.

بعض الإتجاهات الوافدة المعاصرة، ولكنه جعل نحوه (صوفيا إلهيا) يغمر الوجود، ويعمر القلوب، فكان بحق حلقة اتصال رائعة سامقة بين المخلوق والخالق[٦]. يرى الإنسان فى كل جزئية من جزئياته - ربه وهيمنته على هذا الوجود كله، وكأنما يحرك القشيرى وجدان الإنسان بأن لا يقصد من أعماله فى مسيرته الحياتية إلا ربه، وكل علم لا يوصل إلى تلك الغاية الشريفة فهو علم مكدود لا ثمرة له، ولا فائدة فيه. فنظرة القشيرى هى فى الشمول أوسع، وفى العطاء أجزل، وفى الأنفاس أطهر وأعطر، ولأنها ـ أخيرا ـ ترتبط بكنف الله ـ سبحانه ـ فهو أسمى وأرفع!!

وعلى لبنات هذا النحو الظاهرى بنى القشيرى فلسفة خلقية عملية ترتبط بكنف الله ومراقبته واستشعار حضوره الدائم فيستوى عنده المنع والعطاء والجفاء والوفاء، والشدة والرخاء، وتلك لعمر الحق نظرة فى الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية.

وحسبك من رجل يجعلك - حين تستنبط خفايا هذا النحو - مهيما فى الله ومتيما : كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!

٦ - وأسلوب المؤلف قد بلغ فيه الإيجاز غايته، والتركيز نهايته، ويميل فيه إلى السجع، كما يساوى بين فقراته.

٧ - وهذا الكتاب يرى النور لأول مرة، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية بعد أن ظل زمنا طويلا طى الكتمان والنسيان، والكتاب طرفة نفيسة من طرف التفكير المبتكر فى المصطلح النحوى حيث نقل المؤلف المصطلحات

(٦) إن المراقبة واستشعار الحضور الالهي الدائم، والتقلب في الحياة تحت سمع الله وعلمه وبصره هى مفتاح الاتصال فى التصوف، يقول سهل التسترى «لن يتربى القلب بشىء أكثر ولا أفضل، ولا أعظم، من نظره إلى الله عز وجل، واستماعه منه، وكلامه معه» فى الفلسفة والأخلاق ٢٨٥ د. كمال جعفر.

النحوية[٧] إلى ميدان التصوف على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال.

٨ - أما هدف الكتاب وغايته - فلحمته وسداه : عمارة الباطن، وتنمية الإيمان والتأمل، وتصوير العبودية الصادقة، وتصحيح العلاقة بين الله تعالى والإنسان، وبين الإنسان والناس، بعد أن أصبح غريبا بينهما تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق عن أرضه ودينه. والكتاب رحلة نفسية، وخلاصة تجربة علمية روحية عاشها الإمام القشيرى فى حياته وعاناها.

كما ترى القشيرى يلفتنا إلى تربية السلوك والقدوة من خلال قواعد هذا النحو. وأمر هذا النحو على ما سبق صعب مستصعب، لأنه يتصل بالحق تبارك وتعالى، ويكتشف فيه المؤلف دخائل النفوس وسلوكها، والنيات ونوازعها، فلا يطيقه إلا عباد متجردون، وعباد موحدون. وصدق رسول الله - ﷺ - «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». وهذا هو الهدف الثانى، تثقيف اللسان واستقامته، وعصمته من الزلل والخطأ.

---

(٧) من الجدير بالذكر أن بعض رجال الصحافة في مصر قد استغل أنماطا من المصالح النحوى فى نقد أخلاقيات المجتمع المعاصر، ومظاهر أمراضه ويمكن أن يسمى هذا النوع بـ «النحو الأخلاقى» وحسبى هذا المثال على سبيل الطرفة للأستاذ : أحمد رجب فى باب «نصف كلمة» مما ينشره فى صحيفة الأخبار ٢٥/٣/١٩٧٣ يقول :

المرفوع : تقارير الرقابة الإدارية عن واحد حرامى،

المحذوف : تقارير الرقابة الإدارية من ملف الحرامى،

المنصوب : زفة بنى همبكة للمدير فى المطار.

النصب : تصريح مزمن يقول : قريبا تختفى مشكلة انقطاع التيار.

المكسور: كالون الشونة فى شركات المطاحن.

لا الناهية: حرف نفى ورفض جازم ننفى الموظف الشريف إلى آخر الدنيا.

الممنوع من الصرف : حديد التسليح من غير لحاليح.

عمرو وزيد : فاعل ومفعول به فى الجملة المفيدة «وجد عمرو زيتا».

المضاف والمضاف إليه : المضاف هو بون الجمعية من الموظف لتاجر السوق السوداء، والمضاف إليه بريزة

وإذا كان للصوفية (نحو) وللأخلاقيين (نحو) فليس بعجيب أن نرى للفقهاء (نحو) كذلك. فقد عثرت على عنوان كتاب باسم «نحو الفقهاء» لمؤلفه : سعيد بن أحمد الميدانى الأديب المتوفى ٥٣٩ هـ.

(ب) محتويات الكتاب ومقدمته

يقع هذا الكتاب فى مقدمة وخمسة أبواب :

فى الباب الأول: عالج أقسام الكلام. وفى الثانى : عالج الأسماء واشتقاقها، ثم عالج فى الباب الثالث :موانع الصرف.

ثم ذكر فى الباب الرابع : الإعراب والبناء، وفى الباب الخامس : البدل.

كما اشتمل على عشرة فصول :

فى الفصل الأول : تحدث عن الصحيح والمعتل من الأسماء، وفى الثانى: تحدث عن المعارف والنكرات، وفى الثالث : أشار إلى المبتدأ والخبر. كما تحدث فى الرابع : عن الزمن، وفى الخامس: عن الفاعل. والسادس : عن حروف الخفض. كما استشهد المؤلف فى ثلاثة عشر موضعا بآيات من القرآن الكريم، وفى موضع واحد بحديث شريف، ثم شاهدين من الشعر أشتملت عليهما نسخة (ط) دون بقية النسخ.

وقفة ومناقشة حول الكتاب

هذا وقد جاء فى كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١٨٦/٢ فما بعدها حين ترجم للقشيرى أن له «كتاب نحو القلوب الكبير» و«كتاب نحو القلوب الصغير». وفى طبقات الشافعية الكبرى للإمام السبكى ٢٤٣/٣ فما بعدها (ط أولى مصر) أن من مصنفات القشيرى «كتاب نحو القلوب الكبير وكتاب نحو القلوب الصغير أيضا». وفى مقدمة كتاب المعراج للقشيرى ص ٢٠ تحقيق د. على حسن عبدالقادر يذكر أن من كتبه المفقودة «نحو القلوب الكبير». وفى مقدمة المجلد الأول من لطائف الإشارات للقشيرى د. إبراهيم بسيونى يذكر أن للقيشرى كتابا باسم «نحو القلوب الصغير» وآخر «نحو القلوب الكبير». كما أشار (بروكلمان) فى تاريخ الأدب العربى ج ١/ ٥٧٧ من الأصل الألمانى أن للقشيرى كتابا باسم «نحو القلوب»

رقم ٣٨٠٥ برلين. وبعد البحث والتنقيب أصحح المعلومات السابقة على أساس :

١ - أن للقشيرى «نحو القلوب الصغير ونحو القلوب الكبير» والذى قمت بتحقيقه الآن هو «نحو القلوب الصغير» معتمداً على أن «نحو القلوب الكبير» تحت يدى الآن.

٢ - أن ما رآه د. على حسن عبدالقادر من أن «نحو القلوب الكبير» مفقود، قد عثرت عليه وتحت يدى مخطوطته. ويقوم بتحقيقها د. إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعات العراق وعين شمس بالاشتراك معى.

٣ - أن الرقم الذى أشار إليه (بروكلمان) سابقا على أنه يحمل «نحو القلوب» للقشيرى فى دار الكتب (برلين) نوع من الخلط وقع فيه (بروكلمان) بدليل أن رقم ٣٨٠٥ تحمله مخطوطة أخرى فى ألمانيا معنونة ب «فائدة جليلة فى حساب ليلة القدر»[8].

هذا وقد ألفت كتب أخرى فى «نحو القلوب» منها:

١ - مخطوطة «نحو القلوب وما يتبعه من سيرة سيد المرسلين ووفاة خواص العلماء العاملين» لأبى عبدالله محمد بن على بن عراق، ضمن مجموع للمؤلف نفسه تحت رقم ٤٢٧ (برلين).

٢ - «نحو القلب» شرح الأجرومية تأليف الشيخ الإمام العالم قدوة المحققين على بن ميمون الحسنى ثم الإدريسى تحت رقم ٣٦٤ تصوف دار الكتب المصرية، وكتبت فى العشر الأوسط من شهر شعبان ٩١٥ هـ.

وبهذا يكون البحث قد صحح معارف واكتشف حقائق.

---

(٨) من خطاب ورد لى من الزميل د. عرفة مصطفى بالمانيا. فله الشكر.

- بقيت كلمة أخيرة فى (توثيق الكتاب) وهى :

١ - أن مصطلحات النحو العربى تتناثر فى مؤلفات القشيرى : كالرفع والخفض[٩] والسكون والحركة[١٠] والمعرفة والنكرة[١١] وسقوط الإضافات[١٢].

٢ - أن حديثه عن أزمنة الفعل فى «نحو القلوب» نسمع صداها فى لطائف الإشارات[١٣].

٣ - أن آراءه عن اشتقاق الاسم نرى مثلها فى اللطائف[١٤].

٤ - و(المبتدأ والخبر) فى «نحو القلوب» ترى الفكرة نفسها فى التحبير ص ٢٥.

٥ - كما ورد نص فى كتاب مجهول المؤلف يسمى بـ «نحو القلوب» ضمن مجموعة خطية تحت رقم ١١٦ مجاميع بدار الكتب يقول فيه : «يقول الإمام القشيرى : وفعل الحان مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية العبد نفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا سلم العبد من الملاحظة والفتور ارتفع قدره عند العزيز الغفور، «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

وبمقابلة هذا النص بما جاء فى «نحو القلوب» للقشيرى يؤكد أن النص نفسه مأخوذ من كتابنا الذى نحققه، مما يؤكد صحة نسبته إلى القشيرى.

---

(٩) التحبير فى التذكير ص ٤٦، ٤٧ وانظر لطائف الإشارات ٥/٢٩٣.
(١٠) اللطائف ١/ ٢١١، ٢٢٧، ٦/١٢٤.
(١١) ٦/ ١٦٠ لطائف، والتحبير ٢٢.
(١٢) ٤/ ١٢٢ (لطائف، والتحبير ٢٦).
(١٣) ١/ ١٧٣. ٢٩٨، ٦/١٣٣ والتحبير : ص ٥١.
(١٤) ١/ ٦٤، ٢/٥، ١٠٢، ٢٣٣، ٥/ ٤١٧، ٦/١٠٠.

٦ - أن الآراء الصوفية فى «نحو القلوب» تتسق ومذهب القشيرى المعتدل من أنه : صوفى سنى أشعرى، يجمع بين الشريعة والحقيقة والعلم والعمل.

٧ - كما له آراء فى (المتعلق النحوى) ربطها بمذهبه الصوفى؛ إذ العبد يجب أن يكون مع الله بلا علاقة أو علة. وهما : من الشواغل والقواطع، والإيمان الصادق فى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله. وفى ذلك يقول القشيرى عند تفسير قوله تعالى: «فاذكرونى أذكركم» (فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق[١٥].

- وبهذا المنهج فى التوثيق أكون قد استخرجت خصائص القشيرى (نحوية كانت أو صوفية) من الكتاب المحقق ثم قارنتها بنصوص خارجية نقلت عنه. وكل هذا إمعان فى التوثيق، والوصول به إلى مرحلة عالية من التثبت والضبط والأمانة.

(ج) مخطوطات الكتاب ورموزها

ننشر هذا الكتيب لأول مرة عن النسخ الآتية :

١ - مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم ١٩٦ تصوف بدون تاريخ وتقع فى اثنتى عشرة صفحة ومسطرة كل صفحة ١٢ سطرا بكل سطر منها ٨ كلمات وفى أول صفحة من المخطوط على الجانب الأيسر من أعلى «من من من منَّ بها على مالكها أفقر العباد إلى الله تعالى صالح منصور اليافى. (ثم كلمات مشتبهات).... محمد ابن حسنى (كذا) الشابى التونسى وفقه الله. ويلاحظ عليها : تسهيل الهمزات ووضع نقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ت).

---

(١٥) اللطائف : ١/ ١٤٩.

٢ - مخطوطة بمكتبة طلعت رقم ٢٤٢ مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها : (ميكروفيلم) بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٥٥ من ورقة ١٧ - ٢٢. وقد كتبت فى ١٣١٩ هـ آخر ربيع الآخر بخط الفقير حسين رضا الوزير عفى عنه بفضله الوفير. ومتوسط سطور الصفحة ١٠ أسطر. ومتوسط كلمات السطر الواحد ثمانى كلمات، وخطها فارسى غير مضبوط بالشكل. وتقع فى مجموعة أنيقة تسمى «علبة الآداب» وفيها رسالتان : إحداهما : «نحو القلوب» للامام القشيرى رحمه الله تعالى، والأخرى : «رسالة فى اللغة» لواحد من العلماء، وفى آخر النسخة قال الجنيد قدس سره : سألت أكثر المشايخ عن التصوف، فلم يشفنى الجواب، فرأيت النبى (ﷺ) فى المنام فقلت : يارسول الله : ما التصوف؟ فقال : التصوف ترك الدعوى وكتمان المعنى.... وقد رمزت إليها بالحرف (ط).

٣ - مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٤٥٥ ب مساحتها ٢٠٠ × ١٤٥ مم وتقع فى ٦ صفحات بقلم معتاد بكل صفحة ٥ أسطر بكل سطر ١٣ كلمة. والعناوين بمداد أحمر، وعلى الصفحة الأولى فى أعلاها : حققه محمود الجبالى الموظف بالجمعية التشريعية والمنتدب بمجلس الوزراء بدون تاريخ. ويلاحظ عليها : تسهيل الهمزات ووضع نقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ن).

٤ - مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤٥٣ ب مساحتها ٢٤٣ × ١٥٨ م م وتقع فى ١١ صفحة وبالصفحة ١٣ سطرًا بكل سطر ٨ كلمات على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود، والعناوين بالمداد الأحمر. كتبها : محمود فؤاد الجبالى السكرتير بمجلس النواب المصرى والمنتدب للعمل برئاسة مجلس الوزراء فى ٢ رمضان ١٣٤٤هـ - ١٧ مارس ١٩٢٦ م. والنسخة غير مرقومة وقد رمزت إليها بالحرف (ج).

٥ - مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام رقم ٢٦ مجاميع فى ثلاث ورقات وأرشدنى إلى

مكانها مشكورا الأخ الدكتور حسن عبداللطيف، وتقع ضمن سبع رسائل خطية على الترتيب الآتى فى المجموع :

١ - ترجمان الأشواق وشرحه وهو ديوان الشيخ محيى الدين.

٢ - تحفة واهب المواهب فى بيان المقامات والمراتب.

٣ - نحو القلوب. وهو هذا الكتيب الذى نحققه لأول مرة.

٤ - المذاكرة الحسية بالمحامل الحنيفية للشيخ على الكيزوانى.

٥ - أجوبة عن قول سيدى عمر بن الفارض : قلبى يحدثنى... إلخ. للشيخ على الكيزوانى.

٦ - المناظرات بين الظاهر والباطن للشيخ على الكيزوانى.

٧ - كشف الأسرار عن لسان حال الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى (عبدالسلام).

وقد كتبت هذه الرسائل السبع بخط النسخ الجميل وكل صفحة مطرزة بإطار من الخطوط السوداء المذهبة، ومسطرة كل منها ٢٣ سطرا. وقد نسخ لى «نحو القلوب» هذا من المدينة المنورة بتوفيق الله : العبد الفقير الدكتور عبدالمجيد قطامش وهو يحج بيت الله الحرام ويزور قبر الرسول ﷺ وذلك يوم الثلاثاء ١٩٧٢/٢/١ م.

وقد رمزت إليها بالحرف (م).

٦ - مخطوطة يتملكها الأستاذ مصطفى الحدرى من (حماه) بسوريا، وقد تفضل مشكورا فأعطانى الفروق بين نسخته وأصلنا المخطوط. وقد أشرت إليها فى المتن والتحقيق والتعليق بنجمة هكذا(*). وتقع نسخة الأستاذ الحدرى فى تسع صفحات صغار فى كل منها ١٥ سطرا وكتبت بخط واضح جميل، وفيها بعض التصحيف والتحريف. وعلى صفحة

العنوان تمليك هذا نصه «دخل فى ملك الفقير محمد أمين غفر الله له ولوالديه آمين ٢٢ شوال سنة ١٢٢٦ بالشراء الشرعى وليس فى المخطوطة ما يدل على تاريخ نسخها وإن كان يظن الأستاذ الحدرى - حفظه الله - أنها كتبت فى القرن العاشر، وقد رمزت إلى هذه النسخة بالحرف (س).

(د)

قابلتنى عقبات مختلفة فى التحقيق، ونصوص محرفة مصحفة ملتبسة فى أكثر المخطوطات :

١ - وقد حاولت جاهداً إقامة هذه النصوص بعد دراسة رواياتها، وأشرت فى قسم التحقيق إلى المصحف والمحرف والخطأ.

٢ - ولما كانت الأصول خالية من الشكل، فقد قمت بتشكيل ما يجب شكله، لا سيما الألفاظ التى يلتبس معناها.

٣ - وقمنا بوضع الأقواس، والنقط، والفواصل، وإشارات الاستفهام، والتعجب وغيرها.

٤ - ثم أفردت (ملحقا) يشتمل على نصوص أخرى فى نحو القلوب للقشيرى وغيره، تليه (دراسات) قمت بها فى ضوء الكتاب وثيقة الصلة بموضوعه.

- وتلك الدراسات شملت مباحث : ١ - فى اللحن، ٢ - صوفية الحركات، وفيها أفضت فى شرح فقرة صوفية من الكتاب لها دلالات لغوية نفسية صوتية. ٣ - بين المبانى والمعانى فى النحو.

وعلى الرغم من صغر هذا الكتيب إلا أنه يحمل المحقق أمورا صعبة، وأعباء مثقلة؛ لأن ظاهر النص له معنى، وإشارته لها معنى آخر، ولا يمكن الخوض فى مثل هذا إلا إذا كان المحقق على علم بمصطلحات النحوين: العبارى والإشارى، ليعقد بينهما صلات، ويجعل بينهما مودة ورحمة، وآصرة وقربى.

فإذا أضيف إلى ذلك أن (الكلمة) عند الصوفية تحمل خلجات نفسية وفيوضات إلهية، وحالات وجدانية تجعلها بعيدة الأغوار، مديدة الأبعاد عرفنا كيف يتبدد المسير، ويتشعب بنا الطريق، وتغرب اللغة وتتبهم على ذلك الدرب الشائك الطويل.

وفيما يلى بعض ما تيسر من صور مخطوطات الكتاب :

المحقق

أحمد علم الدين الجندى



كتاب

نحو القلوب رحم الله مؤلفه ونفعنا به والمسلمين أجمعين

تأليف الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري كما ورد في كشف الظنون

المنتسب محمود الجبالي الموظف بالجامع الزيتونة المسند بابجبل الوزراء

٢٤٤٥٥

نحو القلوب ... رفع وخفض ونصب

علامة الرفع فيه روح وأنس وقرب

والحال بنصب ما ليس للفتى فيه كسب

والحرف للخفض فيه حزن وقبض وجب

هذا هو النحو لا ما قد قاله عثمان حسب

لحن اللسان مباح واللحن بالقلب ذنب

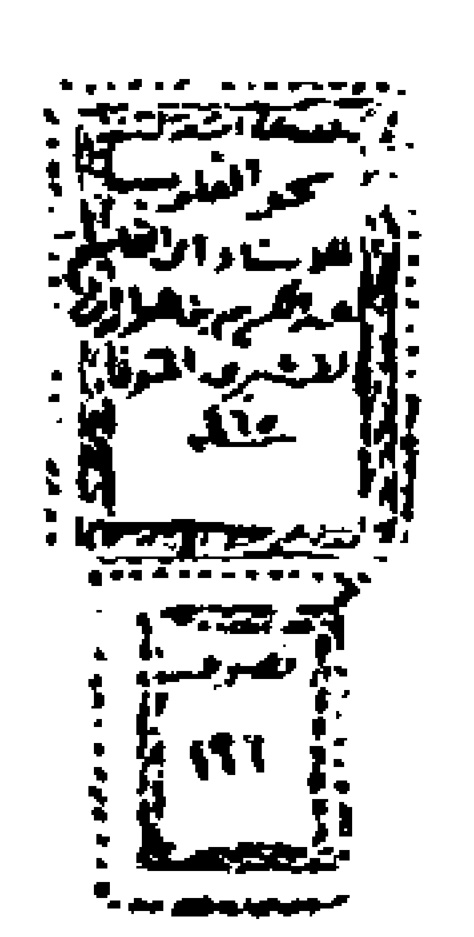
واقبح اللحن عندي كبر وتيه وعجب

تمت

عنوان نسخة ٢٤٤٥٥ دار الكتب المصرية (ن).

الصفحة ٦ : ٧ من نسخة ١٩٦ تصوف تيمور (ب)

الورقة ١٧ من نسخة ٢٤٢ مجاميع طلعت ٩٦٥٥ ميكروفلم (ط)
وبها عنوان كتاب « نحو القلوب »



الصفحة الأولى من نسخة ١٩٦ تيمور (ت)

مجموعة لطيفة

المسماة تحفة الأدب لاشتمالها أدب الدين وأدب

الدنيا، وحكم البيان، جمعها كاتبها

الفقير حسين بن الوزير [illegible]

بفضله الوفير

آمين

وفيها رسالتان إحداهما نحو القلوب للإمام القشيري

رحمه الله تعالى، والأخرى رسالة في اللغة لبعض العلماء

تاريخ إتمامها ١٢١٩

آخر ربيع الآخر

عنوان نسخة ٢٤٢ مجاميع طلعت ٩٦٥٥ ميكروفلم (ط)

كتاب نحو القلوب

للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم[1] بن هوازن القشيري[2]

المتوفى سنة ٤٦٥هـ

(١) في (م) ساقطة.

(٢) في (م) رحمه الله تعالى، ورضي عنه وعنا بمنه وكرمه آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم[٣]

الحمد لله الذى أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها وأوقفه[٤] على المقصود، من دائرة[٥] الوجود، فحل شكلها، فبين[٦] لبنيه حروفها[٧]، ووسم اسمها، ورسم فعلها[٨]، فمنهم من شمر لوابل[٩] القسمة وما رضى بطلها[١٠]، ومنهم من رضى بالعزيمة فلما عقد عقد[١١] العزيمة حلها، فزمرة أقبلت على إصلاح الشان[١٢] ليظهر فضلها، وزمرة تجاوزت إلى[١٣] جنات[١٤] ، الجنان ذوات أغصان[١٥] العصيان، من شجرة[١٦] الطغيان، فقطعت أصلها، ثم نحت نحو من أعلها[١٧].

---

(٣) فى (ط ن ج) سقطت «البسملة» وفى (م) زيادة: «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

(٤) فى (ج): «ولما أوقفه».

(٥) فى (ت ن م): «دايرة» ربما كانت إشارة إلى الحقيقة المحمدية التى منها صدر الوجود. وهم يرون أن رسول الله ﷺ كان له وجود سابق على وجوده المعروف ويستشهدون لذلك بقوله عليه السلام «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين». وأرجح أن هذه النظرية لم تكن شائعة فى دوائر التصوف السنى الذى كان القشيرى أحد أعلامه وإن كانت شائعة عند كثير من رجال الشيعة.

(٦) فى (ج): «لنبيه» وهو تحريف.

(٧) فى (م): «حروف حروفها».

(٨) إشارة من القشيرى إلى الأسماء، والأفعال والحروف فى (النحو).

(٩) الوابل: المطر الشديد، والطل: المطر الخفيف.

(١٠) فى (ط م س): «ظلها» وفى (ج) «ظلها» وهو تصحيف، لأن: الطل ـ بالطاء المهملة يقابل: الوابل. والقشيرى يشير إلى السعى والمجاهدات.

(١١) فى (م): «عقدها» والقشيرى يغمز من ينتمون إلى طريق الصوفية، ثم يفسخون عقدهم مع الله، وبهذا يتركون الإرادة إلى العادة.

(١٢) فى (ج م س): «اللسان».

(١٣) فى (ت): «فى» وسائر النسخ: «إلى».

(١٤) فى (ط ج م س): «جنان الجنان» وفى: (ت) «جنات الجنان» والجميع صحيح، لأن الجنة جمعها (جنات) على لفظها، وجنان ـ أيضًا.

(١٥) فى (ج م س): «فرات أغصان».

(١٦) شجرة الطغيان: كناية عن النفس ورمز لها، والصوفية يصرون على اقتلاع شرور النفس من جذورها، ولا يكتفون بتقليم الأغصان.

(١٧) أعلها: سقاها شراب الحب ـ فأعلها بعلة الحب فهى تحمل المنيين: السقيا وجرح الحب، ولعلها؟ تصل إلى المحبوب حتى تشفى على يديه: =

لعلهـــا، تظـــفر[18] بشفـــائها ولعلهـــا، ويخاطبهـــا شفاهًا[19] ومن لها.

أحمده على نعمه كلها، وجوده على[20] دلها، فأهدت إلىَّ وبلها[21]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أستظل ظلها، يوم لا ظل إلا ظلها، وأشهد أن سيدنا[22] محمدًا عبده ورسوله الذى أرسله إلى جنود الطغيان ففلَّهـــا، وإلى ليـــوث[23] الأوثان فأذلها، صلى الله تعـــالى[24]

= وإذا مـــا السقـــام حـــل بقلبـــى
لم أجـد غـيـره لـســقـمى طـبـيـبًا

(18) فى (ت): «بثباتها، وحلها». وفى (ج): «بشتاها». وفى (ط): «فظفر بشفاها». وفى مثل هذا المعنى يقول يحيى بن معاذ الرازى:

يـقـولـون يـحـيى جن من بـعـد صـحـة
ولا يـعـلـم الـعـذال مـمـا حـشـائـيـا
إذا كـــان داء المـــرء حب مـــلـــيـكه
فـمـن غـيـره يـرجـو طـبـيـبًا مـداويـا

(نشأة التصوف الإسلامى ٢٠٣ دكتور بسيونى)

(19) فى (ط): «وتخاطبها» وفى (ج): «وتخطبها شفاهها ومن جلها» والصحيح ما أثبت.
وفى مثل هذا المعنى تقول رابعة:

إنى جـعـلـتك فى الـفـؤاد مـحـدثى
وأبـحـت جـسـمـى من أراد جـلـوسى

(20) فى (ط): «إلى جوده» وفى (ج): «إلى وجوده على ذلها» وفى (م) «التى جود على دلها» وجميع ما سبق تحريف وتصحيف. والصحيح ما أثبت. ويؤكده قول يحيى بن معاذ الرازى ٢٥٨هـ: «اللهم إنى أتقرب إليك، وبك أدل عليك (اللمع: ٣٣١). وقيل لذى النون المصرى: بم عرفت ربك؟ قال عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى (الرسالة القشيرية ١٤٢).
وإلا فمتى غاب الحق تعالى حتى يحتاج إلى دليل يدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه؟:

عـجـبت لمن يـبـغى عـلـيك شـهـادة
وأنت الـذى أشـهـدته كل مـشـهـد

(21) فى (ت): «فاهتزت» وفى (ج): «فأهدت إلى ويلها» وفى (م): «فهدت» وفى (س) «فاهتدت إلى وبلها» وما أثبته من (ط) وهو الصحيح.
(22) فى سائر النسخ: «محمدا» وما أثبته من (ت).
(23) فى (ج): «يوم لهوث». وهو تحريف.
(24) فى سائر النسخ: «صلى الله عليه» وما أثبته من (ط).

عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمة[٢٥] إلى يوم [٢٦] تضع كل ذات حمل حملها، وبعد:

فإن النحو عبارة عن القصد، والناس مختلفون فى المقاصد، ومفترقون[٢٧] فى المصادر والموارد[٢٨]، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جنانه أكثر همه. فالأول صاحب عبارة، والثانى صاحب إشارة، فنقول وبالله التوفيق ولرسوله التصديق.

باب أقسام الكلام

قال أهل العبارة: أقسام[٢٩] الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، وقال أهل[٣٠] الإشارة: الأصول ثلاثة. أقوال وأفعال وأحوال، فالأقوال: هى العلوم وهى مقدمة[٣١] على العمل لقوله[٣٢] ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[٣٣] ثم تجب المبادرة إلى صالح الأعمال[٣٤]، ثم تأتى الأحوال مواهب من الله تعالى[٣٥].

(٢٥) فى سائر النسخ: «دائمة» وفى (ت): «دايمة».

(٢٦) فى (ج): «أن تضع».

(٢٧) فى (ط م س): «ومفترقون» وفى (ت): «ومتفرقون».

(٢٨) فى (ط ج م): المصادر والموارد وفى (ت): «الموارد والمصادر».

(٢٩) فى (م): «الكلم».

(٣٠) فى (م): «أصحاب».

(٣١) فى (ت): «متقدمة».

(٣٢) فى (م): «لقوله ﷺ» وفى سائر النسخ: «قال النبى ﷺ».

(٣٣) انظر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج١ باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» والحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم، وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله». والحديث متواتر، وأصل من أصول الإسلام: انظر: السراج المنير شرح الجامع الصغير ٢٩٧/١.

(٣٤) (ت): «ثم تجىء المعارف إلى صاحب الأعمال وفى (س) «إصلاح الأعمال» وما أثبته هو من سائر النسخ.

(٣٥) فى (ت): «تعالى» ساقطة. وبعدها: «والله الموفق للسداد» زيادة من (ت).

باب الأسماء واشتقاقها

قال أهل[٣٦] العبارة: الاسم مشتق من السمو أو من السمة على الخلاف. وقال أهل الإشارة: اسم العبد: ما وسمه الله تعالى[٣٧] به فى سابق مشيئته من شقاوة[٣٨] وسعادة، فمن قربه[٣٩] فى سابق مشيئته، فقد سما قدره بين بريته.

ولما دخل[٤٠] العباد إلى مكتب التعليم طالع آدم لوح الوجود[٤١] فقرأ «وعلم آدم الأسماء[٤٢] كلها» وطالع

(٣٦) فى (م ط): «قال أهل العبارة» ساقطة.

(٣٧) فى (ت): «تعالى به» ساقطة، وفى (س): «تعالى فى».

(٣٨) فى (م ط ج س): «سعادة وشقاوة».

(٣٩) فى (ت): «فمن قربه»، والصواب ما أثبته من سائر النسخ. يقول أبو عبد الله المغربى ٢٩٩هـ: «إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته، وقام بمراد سيده، يكون اسمه ما سمى به، ونعته ما حل به، إذا سمى باسم أجاب عن العبودية، فلا اسم له ولا رسم، لا يجيب إلا لمن يدعوه بعبودية سيده:

لا تدعنى إلا بيا عبدها
فإنه أصدق أسمائى

ولاحظ قوله سبحانه فى وصف نبيه ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته فى الدنيا «سبحان الذى أسرى بعبده...» الرسالة: باب العبودية.

(٤٠) «إلى» ساقطة من (ط م). ويشير القشيرى بهذا إلى (فكرة الميثاق) وهى التى وردت فى سورة الأعراف آية ١٧٢ «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ...» فالميثاق أخذ على الخلق، وكانت الأنفس واعية بذواتها، حاضرة بعقولها، ووعت خطاب الخالق الأعظم، وأجابت النداء طائعة وهى فى مرحلة الذر وقبل أن تكون أعيانا، فالميثاق مشهد حقيقى. بل إن بعض الصوفية يتذكر هذا اللقاء الربانى، ويذكر صورته ومشهده، وهذا سهل ابن عبد الله التسترى ﷺ يقول: «أعرف تلامذتى من يوم: «ألست بربكم»، وأعرف من كان فى ذلك الموقف عن يمينى ومن كان عن شمالى... طبقات الشعرانى ١٥٨/١ وانظر تفسيرات أخرى للآية الكريمة فى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضى البيضاوى وحاشية الخطيب المشهور بالكازرونى، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفى.

(٤١) لوح الوجود: الذى به أسماء الموجودات (الماديات).

(٤٢) الآية فى سورة البقرة ٣١. ولعلماء العربية آراء تتصل بأصل اللغة ونشأتها ترتبط بالآية الكريمة: فمن علماء العربية من يرى أن اللغة توقيفية، ومنهم من يرى أنها تواضع واصطلاح، ومنهم من يرجعها إلى غريزة زود بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى، وآخرون يذهبون إلى أنها صدرت عن الأصوات الطبيعية (وإذا أردت مزيداً من التوضيح والأدلة فانظر: دلالة الألفاظ ١١ - ٢٣ للدكتور أنيس، وعلم اللغة ٨٧ فما بعدها د. وافى)، ويعنينا فى هذا الموضوع أن نناقش ابن جنى =

محمد ﷺ[43] وسلم لوح الشهود[44]، فقيل له بلسان الحال: نحن نطلعك[45] على كل موجود، ثم خوطب بقوله: «اقرأ باسم ربك الذى[46] خلق» فلما قرأ[47] وأدب وهذب، قيل يا محمد: قد عرفتنا بالأسماء والصفات فتعرف[48] إلينا بالذات «اقرأ[49] وربك الأكرم» «قل الله[50] ثم

= حين علل خصوصية تعليم آدم (الأسماء) وحدها، مع أن اللغة تشمل الأفعال والحروف بقوله: «اعتمد ذلك الله تعالى من حيث كانت الأسماء أقوى القبل الثلاثة ولابد لكل كلام يفيد من الاسم، وقد تستغنى الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل. فلما كانت الأسماء من القوة والأولوية فى النفس والرتبة. على ما لا خفاء به. جاز أن يكتفى بها مما هو تال لها (الخصائص ١/١٤ فما بعدها) والحق أن مصطلح (الاسم) بهذا المعنى أى: على أنه قسيم الفعل والحرف لم يظهر فى هذا الوقت، وإنما ظهر متأخراً زمن النحاة (فالأسماء) فى الآية ليست مصطلحاً نحوياً حتى نرى دفاع ابن جنى لها وإنما هى من (السمة) أى العلامة سواء كانت سمة أفعال أو أسماء أو حروف. والقشيرى لم يفهم من (الأسماء) فى الآية على أنها مصطلح نحوى كما فهم غيره، بدليل أنه فصلها بقوله: «فيز لديه حروفها ووسم . . . وسم فهمها» هذا، وما كان القشيرى سنياً أشعرياً فقد كان مع القائلين بالتوقيف فى أصل اللغة، وذلك مذهب أهل السنة (المزهر للسيوطى ١/١٦، ٢٥) إلا أنه رأى بعد ذلك أنه يمكن أن تكون مواضعه واصطلاحاً (المزهر للسيوطى ١/٢٤ ط أحياء الكتب العربية).

(٤٣) فى (ط): «تعالى عليه».

(٤٤) والمراد به: الموجودات فى مرحلة القدرية (قبل أن تكون أعياناً) وهى تشابه (عالم المثل) عند أفلاطون.

(٤٥) فى (ط): «نصل بك على . . .» وفى (س): «نعريك». وفى (ح): «نطلق» وفى (م): «نصف» والصواب ما أثبته من (ت).

(٤٦) إشارة إلى الربط بين الخلق والتعليم والآية ١ من سورة (العلق).

(٤٧) فى (ت). «قراءه» وهو تحريف وفى (س): «قرأ». ومن منهج القشيرى: أن معرفة الأسماء والصفات الإلهية ليست معرفة كلامية فحسب، ولكن يجب أن يترتب عليها آداب وسلوك.

(٤٨) فى (م): «فتعرف إلينا بالذات» وفى سائر النسخ «فتقرب». والمعرفة أعلى درجة التحقق. وجلت الصمدية أن يستشرف منها عالم بعلمه، أو واهم بوهمه، أو عارف بمعرفته وكل ما هنالك هو شهود (الفعل) الإلهى لا (الذات) الإلهية. وفى (س) سقط بين هاتين الكلمتين: «بالذات... فلما».

(٤٩) فى (ت): «واقرأ» وهو تحريف. والآية ٣ من سورة (العلق).

(٥٠) والآية ٩١ من سورة الأنعام. (الله) اسم الذات. ولقد تفرد جل جلاله بهذا الاسم دون خلقه. وسأل بعضهم لم تقول: الله الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: نفى العيب (أى نفى عدم الألوهية عند النطق بالنصف الأول من العبارة: لا إله) حيث يستحيل العيب عيباً، ويوضح الشبلى هذا المعنى عندما وجه إليه السؤال نفسه فيقول لا أنفى له ضداً. فصاح السائل قائلاً: أريد أعلى من ذلك؟ فقال الشبلى: أخشى أن أؤخذ فى وحشة الجحد. فقال السائل: أريد أعلى من ذلك! فقال =

ذرهم فى خوضهم يلعبون». فلما غاب عن الاسم وجد المسمى. ولما أعرض عن الفعل[٥١] حل الحرف المعمى، أى: المعنى الذى لا يسمى.

فصل

الاسم: صحيح ومعتل. قال أهل[٥٢] العبارة: الصحيح ما سلم من حروف العلة وهى: الألف والواو والياء، وقال أهل[٥٣] الإشارة: من[٥٤] سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو[٥٥] الوسواس وياء[٥٦] الياس - فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان[٥٧]ثم الكشف والعيان، فعلم علم

= الشبلى: قل الله..» (٩١ سورة الأنعام) فزعق الرجل زعقة خرجت بعدها روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلى... وحملوه إلى الخليفة، فلما سئل الشبلى عن ذلك قال: روح حنت فدنت، ودعيت فأجابت... فما ذنبى؟ فصاح الخليفة، خلوه... فلا ذنب له (انظر التحبير ٢٤ د. بسيونى). وهذا أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى يعتكف فى إحدى الزوايا ثلاث سنين، عندما شرع فى سلوك الطريق، وقد حشا أذنيه بالقطن، وعزف عن النوم، وصار يردد دائمًا: الله الله! حتى استجابت أبواب الزاوية لهذا الترديد (انظر: مذاهب التفسير الإسلامى ٢٨٤) للمستشرق أجنتس جولد تسهر ترجمة د. عبد الحليم النجار. على أن النداء الحبيب إلى قلوب الصوفية اسم (الله).

(٥١) وفى (س): «عن الفعل فى الحرف المعمى رأى». وفى (ت) «العقل» وفى سائر النسخ «الفعل» وهو الصحيح. والجملة مضطربة اضطرابًا شديدًا ومعناها كما نظن والله أعلم «لما فنى محمد ﷺ عن نفسه، بقى بالحق ولما غاب عن عمله (بشريته) حل الحرف المعمى (يعنى شاهد الذات). وهذا المعنى هو نفس (الفرق والجمع) عند الصوفية. وفى هذا الصدد ينقل القشيرى عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبى عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات (ورؤية) التقصير فيها! فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم (بالغيبة) عنها (برؤية) منشيها ومجريها؟ (الرسالة القشيرية ٢٢).

(٥٢) فى (ط ج م س) ساقطة.

(٥٣) فى (ط ج م س) ساقطة، وأثبت ما فى (ت).

(٥٤) فى (ط م س): «فمن».

(٥٥) فى (ج) ساقطة.

(٥٦) فى (م): «الايامر».

(٥٧) فى (ج): «وهى».

اليقين، ثم عين[٥٨] اليقين، ثم حق[*] اليقين، والله أعلم[٥٩].

باب موانع الصرف

موانع[٦٠] الصرف عند أهل العبارة: تسع وهى معروفة[٦١]، وعند أهل الإشارة (الجمع) - أن يجتنب العالم جمع[٦٢] الدنيا واجتماع الناس عليه. (والصرف)[٦٣] صرف وجوههم إليه. (والوصف) أن يكون قصده أن يوصف بالخير ويعرف[٦٤] به. (والتأنيث) ضعف العزم، والرضى[٦٥] بالرذائل[٦٦]. (والمعرفة) أن يعرف نعم الله تعالى عليه ثم يقصر[٦٧] عن الشكر.

---

(٥٨) فى (ط ت) ساقطة، وأثبتها من (م) ومن لطائف الإشارات ١٩٥/٦. وكذلك الرسالة القشيرية ص ٤٤. (والبيان) فى مذهب القشيرى المعرفى: مرحلة قلبية وليست عقلية، وترتيب القشيرى هكذا:
(١) عقلية: ونورها البرهان أو علم اليقين.
(٢) قلبية: ونورها البيان أو عين اليقين.
(٣) كشفية: ونورها العرفان أو حق اليقين.
انظر: اللطائف ٢١٣/١ مع المحقق، ١٩٥/٦ والرسالة القشيرية ٤٤، ٨٢.
وهذا الترتيب يكشف عن الدقائق النفسية المرتبطة بكل مرحلة. والتوحيد - فى نظر القشيرى - وهو أعلى درجات العرفان.

(*) فى (س) «حرف» وهو تحريف.

(٥٩) ساقطة من (ط م س).

(٦٠) فى (ط): «الموانع عند أهل العبارة» وفى (م): «موانعه عند أهل العبارة تسعة» وأثبت ما فى (س) «تسع» وهو الصحيح، لأن موانع جمع مانعة.

(٦١) ساقطة من (م).

(٦٢) فى (ت): «عند جمع» وفى (ط م): «جمع الدنيا».

(٦٣) فى (م): «والصرف صرف..» وفى سائر النسخ: «وصرف».

(٦٤) وذلك من دعوى النفس، والنفس محل المعلولات، ونظرة الإنسان إلى عمله وإعطاء هذا العمل قيمة - من قبيل دعوى النفس، ويرى أبو عثمان المغربى: أن إخلاص الخواص - هو ما يجرى عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل. ولا يقع لهم عليها رؤية.

(٦٥) فى (م): «والرضاء».

(٦٦) فى (ط): «بالرذايل».

(٦٧) فى (م): «نعمة الله تعالى عليه» وفى (ت): «ثم نقصه» وفى (ط ج) «يقصر» وهو ما أثبته، وفى (م): «ثم يقصر عن الشكر» ساقطة. (والمعنى) أن الجاحد لا يشكر لأنه لا يعرف، والعارف يشكر، فإذا عرف ولم يشكر يكون مصابًا بالعلة - وهى تساوى فى النحو (الظاهرى) منع الصرف. وعوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا، وخواصهم إذا أعطوا آثروا، وإذا منعوا شكروا (اللطائف: ٣١٧/٤). وكثير من يشكر على نعم المنح، ويقل من يشكر على نعم الدفع.

(والعجمة) أن يهمل[٦٨] نعمة الله بكتمان علمه. (والعدل) عدوله[٦٩] عن الطريق القويم. (والتركيب) أن يشوب * عمله[٧٠] بأفعال الجهل[٧١] (والألف) ألف أنا، (والنون) نون العظمة[٧٢]. (ووزن الفعل) أن يزن أعماله[٧٣] معتقداً أن عنده[٧٤] - حاصلاً فيحصل العجب. فمتى اجتمعت علتان من هذه العلل لم ينصرف إلى القبول، وانحرف عن باب الوصول.

---

(٦٨) فى (م): «والعجمة أن يهمل نعمة الله» ساقطة. وفى (ط ج): «أن يذكر» وفى (س): «ينكر» بدل: «أن يهمل» وما أثبته من (ت). وفى (س): «الله عليه» بزيادة «عليه».

(٦٩) فى (ت): «عدول» وفى سائر النسخ: «عدوله» وهو ما أثبته. والعدل فى نحو العبارة - علة فرعية بمعنى أن المعدول فرع عنه. والعدل: على خلاف القياس، وذلك: كعمر. فهو معدول عن (عامر) اسم فاعل من الصفات، فلما قصدوا التسمية به، وجعله علماً خيف التباس العلم بالصفة، لأن الصيغة فيهما واحدة. فعدلوا عنه إلى عمر، فالعدل: فى (نحو العبارة) - تغيير صفة اللفظ، وفى (نحو الإشارة) عدول عن الطريق القويم والتشابه واضح.

(*) فى (س): «يشوق» وهو تحريف.

(٧٠) فى (ت). «علمه».

(٧١) فى (ت): «الجحد» وفى سائر النسخ: «الجهل» وهو ما أثبته.

(٧٢) فى (ت): «نون نحن» وفى (س): «والنون العظمة» وفى سائر النسخ: «نون العظمة» وهو ما أثبته. ويشير القشيرى إلى معنى دقيق وهو أن (الألف والنون) يمنعان الاسم من الصرف فى (نحو العبارة) فى مثل: عثمان وعطشان، وفى (نحو الإشارة) ألف ونون أيضاً. وهما يمنعان العبد من (الوصول) إذا قال: (أنا) وذلك نقص فى التوحيد عندهم، والمفروض أن تفنى عن ذاتك (أنيتك) فلا تقل: إنى وإنى، وصحة التوحيد عند الصوفية فى سقوط الإضافات فلا تقل: نى، بى، منى. (اللطائف ١/ ٢٤٥، ٢/٧٦). يوضح هذا المعنى ما قرأته فى مكان لا أذكره الآن من اللطائف من أن جابر بن عبد الله استأذن فى الدخول على الرسول ﷺ فقال الرسول: من الطارق؟ فقال: أنا جابر، فقال الرسول ﷺ: أنا أنا. وكان الرسول استكثر عليه أن يقول: أنا. ويمكن أن يقف فى سبيل ذلك ما جاء على لسان الرسول الكريم حين قال: «قال: إنى أنا النذير المبين» ولكن يزول هذا الشك إذا أن الرسول عندما قال ذلك كان مع الله وله وبه، فانيا عن شاهده. يقول الإمام القشيرى فى اللطائف ٢/٠١٠: كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول (أنت)؟ وأنشدوا:

واحـــبـــابـــنـــا شـــتـــان: وافٍ ونـــاقـص

ولا يـــســـتـــوى قط مـــحـب وبـــاغـض

(٧٣) فى (م): «افعاله».

(٧٤) فى (ت): «أنه عند الله حاصل» وفى سائر النسخ: «أن عنده حاصلاً» وهو ما أثبته.

«باب الإعراب[75] والبناء»

لما كان الإعراب بالحركات الثلاث: الرفع والنصب[76] والجر. والجزم.

---

(٧٥) فى (ج): «والبناء» وفى (ت): «والبناء».

(٧٦) فى (م): «الرفع والنصب والجر» وفى باقى النسخ ساقطة.

ويمكن أن يكون التغيير الواقع على القلب بسبب العوامل الداخله عليه من الغيب من: الهامات وواردات وخواطر يعقب بعضها بعضًا أشبه بالتغيير فى أواخر الكلم اللسنية بسبب العوامل الداخلة عليه لفظًا أو تقديرًا، وهذه عوامل لسانية، وتلك عوامل قلبية. والتغيير فى نحو اللسان: فى الرفع والنصب والخفض والجزم، فالرفع طرف، والخفض طرف، والنصب واسطة بين الطرفين، والجزم صالح للطرفين معًا، فالرفع: إشارة إلى الخاطر المحدود وهو قسمان: رحمانى وملكى، والخفض: إشارة إلى الخاطر المذموم وهو قسمان: نفسانى وشيطانى. والنصب: واسطة بين المحمود والمذموم، وما أشبهه فى النحو الظاهرى بالفتحة وهى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب. يقول الدكتور إبراهيم بسيونى ٧٧ فى كتابه: الإمام القشيرى «فالفتحة يمكن أن توصف بأنها وسط بين طرفين: الرفع والخفض، أو بين موجب وسالب، وهى بهذا التوسط يمكن أن تكون توقفًا عن الحركة، ولا أغالى إذا فسرتها على أساس ما نعرف فى الميكانيكا، من توقف الجسم عن الحركة إذا وقع تحت جذب قوتين متساويتين، ومتضادتين فى الاتجاه». والحركات الإعرابية الثلاث يقابلها ثلاث حقائق. شريعة وطريقة وحقيقة. ويروى الصوفية قول الرسول ﷺ: «الشريعة مقالى، والطريقة فعالى. والحقيقة حالى».

وقد اختلف علماء العربية فى (عوامل) الرفع والنصب والجر والجزم إلى فرق:

(أ) فبعضهم يراها عوامل فلسفية، ومن هؤلاء سيبويه حيث يقول فى (الكتاب ٢/١): «وإنما ذكرت لك ثمانية مجار لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل وليس شىء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شىء أحدث ذلك فيه».

فسيبويه يرى أن العامل هو أساس التفرقة بين ألقاب الإعراب وألقاب البناء. ولا شك أنه تأثر بهذا الاتجاه من علماء الفلسفة والكلام، إذ أن الألفاظ لها قوة فى إحداث الإعراب عنده، ومذهب سيبويه هو مذهب البصريين والجمهور.

(ب) وبعضهم يرى أن العامل إنما هو المتكلم نفسه لا لشىء غيره كالفعل وما حمل عليه. وعلى رأس هؤلاء ابن جنى فى كتابه الخصائص ١٠٩/١ فما بعدها. وإنما نسب العمل إلى الفعل للتقريب والتعليم تيسيرًا للعلم ومساعدة للمتعلم، وذهب إلى ذلك الرضا فى شرح الكافية ٢١/١ والأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه (إحياء النحو) ص ٥٠ فما بعدها.

(ج) وآخرون يرون أنها عوامل لغوية، فالخليل يرى «أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به» الكتاب ٢/٣١٥. كما يذهب قطرب من المتقدمين والدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين إلى أن الحركات الإعرابية لم تكن تفيد تلك المعانى التى أشار إليها النحاة من الفاعلية والمفعولية ونحو ذلك: انظر الإيضاح للزجاجى ص ٦٩ فما بعدها، والأشباه والنظائر للسيوطى ٨٦/١ وإنما الذى دعا إلى هذه الحركات نظام المقاطع فى الكلام، وأن =

كان مدار أهل[77] الإشارة برفع[78] هممهم إلى الله تعالى، ونصب أبدانهم فى طاعة الله تعالى، وخفض[79] نفوسهم تواضعًا لله تعالى[80]،

= الذى يعين الحركة هو أحد عاملين:

(١) طبيعة الصوت المحرك.

(٢) وانسجام الحركة مع ما يكتنفها من حركات أخرى (من أسرار اللغة ١٧٦ - ١٨٤ دكتور أنيس: ط الأنجلو).

(د) ويراها ابن مضاء القرطبى عوامل توفيقية حيث يقول فى كتاب الرد على النحاة ص ٨٧: «وأما مذهب أهل الحق فإن هذه الأصوات (يقصد الحركات الإعرابية) إنما هى من فعل الله تعالى» ويرى بأن مذهب القائلين بـ: أن الألفاظ يحدث بعضها بعضًا باطل عقلاً وشرعًا كما خطأ النحاة فى قولهم بالعوامل المضمرة، لأن نسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال، كما بين فساد رأى سيبويه السابق. ولقد كان ابن مضاء مدفوعًا فى آرائه فى العمل باتجاهات دينية وسياسية.

(هـ) وقد نقد الدكتور تمام فى كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١ رأى ابن جنى وغيره ممن قالوا بالتوقيف، ومال إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية... فإذا كان الفاعل مرفوعًا فى النحو فلأن العرف ربط بين فكرتى الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقى واضح وكان من الجائز جدًا أن يكون الفاعل منصوبًا والمفعول مرفوعًا لو أن المصادفة العرفية لم تجر على النحو الذى جرت عليه... فقد جاءت الحركة الإعرابية فى نمطية اللغة على هذه الصورة، لأن العرف ارتضاها... والحقيقة لا عامل.

(و) ما سبق من آراء القدماء يعتبر انعكاسًا لعلم الكلام. فالجهمية: يرون أن الله هو الفاعل لكل شىء، والمعتزلة ينسبون ذلك إلى الإنسان فهو الذى يفعل ما يريد بقدراته. والأشاعرة والماتريدية: يذهبون إلى أن فى العمل الإنسانى الإرادى التقاء قدرات وإرادات بيد الله والإنسان دون تناف بين قدرة الله وقدرة الإنسان.

فموقف ابن مضاء ليس إلا صدى لمذهب الجهمية، وموقف جمهور النحاة صدى لمذهب المعتزلة والقدرية. أما موقف ابن جنى فهو يحاكى بتوسطه موقف متاخرى المتكلمين من أشاعرة وماتريدية: تقويم الفكر النحوى ٢٤١ د. على أبو المكارم.

أما القشيرى فيرى أن الله خالق الناس وأفعالهم وأكسابهم.

(٧٧) فى (م): «أهل» وفى باقى النسخ ساقطة وقد أثبت ما فى (م).

(٧٨) فى (ت): «برفع للوهم» وفى سائر النسخ: «برفع هممهم إلى الله تعالى» وهو ما أثبته.

(٧٩) فى (ج): «وحفظ» وسائر النسخ: «وخفض» وهو الصحيح لمناسبته للرفع والنصب.

(٨٠) فى (ج س) ساقطة، وكذلك سقطت كلمة «تعالى» من وراء لفظ الجلالة أربع مرات قبلها. ولاحظ دقة القشيرى فى التعبير والمصطلح (خفض نفوسهم وجزم قلوبهم) لأن النفس محل المعلولات، والقلب محل المحمودات فيجب أن يكون بعيدًا عن الغير والسوى. والإشارة بـ (نصب أبدانهم) إلى جريان أحكام المقادير من غير أن يكون للعبد اختيار، ولا له فيما هو به إيثار. (وسكونهم) تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال شىء من آداب الشريعة. (وجزم قلوبهم) بقطع العلائق وحذف العوائق، وبتر خطرات المنى وأعناق المطالب بسيوف اليأس.

وجزم قلوبهم عما دون الله تعالى، وسكونهم إلى الله تعالى. والمعرب، هو المتغير[٨١] من أصحاب التلوين[٨٢]، والمبنى[٨٣]: ما كان مستقيمًا فى حالة[٨٤] لا يتغير وهم أصحاب التمكين[٨٥].

فصل

الأسماء: معارف ونكرات، وكذلك العباد منهم معروف، له نصيب مع القوم هو به معروف[*]، ومقام فى الصدق هو به موصوف، ومنهم منكر لا نصيب له مع القوم، ولاحظٌ له سوى الأكل والنوم.

فصل

المبتدأ: مرفوع لتجرده عن العوامل اللفظية، والفقير المتجرد مرفوع القدر، وخبره مرفوع، لانقطاعه عن العلائق[٨٦]، وتعلقه بالحقائق، الواردة من الخالق[٨٧].

---

(٨١) فى (ت): «المعنى» وفى (ن): «المتبر» وفى (ج): «المقرب» وفى (م): «التمين» والجميع محرف، وما اثبته من (ط) هو الصحيح.

(٨٢) فى (ط): «التكوين» وسائر النسخ: «التلوين» وهو الصحيح الذى اثبته، لأنه مصطلح معروف عند الصوفية وهو: صفة أرباب الأحوال، وما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقى من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف (انظر الرسالة القشيرية ص ٤١). وقد شبه القشيرى «المعرب» فى نحو اللسان وهو: المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) فى اصطلاح الصوفية.

(٨٣) فى (ط): «والمبنى منه كان».

(٨٤) فى (ط ج): «فى حالة».

(٨٥) فى (ن): «التملين» وفى (ج): «اليمين» وكلاهما محرف، لأن (التمكين) مصطلح صوفى وهو: صفة أهل الحقائق، وصاحب التمكين وصل ثم اتصل، ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل (انظر الرسالة القشيرية ص ٤١). وصاحب (التمكين) فى التصوف أشبه (بالمبنى) فى نحو اللسان، إذ الثبات وعدم التغير فى السراء والضراء من علامات التمكين، وسادات الوقت هم أهل التمكين، قال بعض المشايخ: «انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا» (الرسالة القشيرية ٤١).

(*) فى (س): «معرف» وفى سائر النسخ «معروف».

(٨٦) فى (ت،ط): «العلايق، بالحقايق» وبالهمز فى (م). ويقول القشيرى فى اللطائف ١/١٤٩ (فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق».

(٨٧) زيادة فى (م). والقشيرى يرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجمعه مرتبطًا بعلاقة خارجية عن ذاته، وفى ذلك إشارة إلى الوجود المطلق، وإيجاده للخلق من علامات (رفعه) وتقديمه، فهو الاسم المرفوع الذى برفعه رفع كل مرفوع.

فصــل

الأفعال ثلاثة: ماض وحال ومستقبل، وأحوال القوم مختلفة: فمنهم من فكرته فى السابقة، ومنهم من فكرته فى الخاتمة، ومنهم من اشتغل بإصلاح وقته الذى هو فيه[88]، عن الفكرة فى مستقبله وماضيه.

فصــل

وفعل[89] الحال: مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية[90] العبد لفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا[*] سلم العبد من الملاحظة[91] والفتور، ارتفع قدره عند العزيز[92] الغفور «إليه يصعد[93] الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

فصــل

الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، فلما رأى العارف ألا فاعل[94]

---

(88) زيادة فى (ط م ج). ويرى القشيرى أن الصوفى مشتغل بما هو أولى به فى الحال، قائم بما هو مطالب به فى الحين، فالصوفى ابن وقته. وقيل: الصوفى من لا ماض له ولا مستقبل، فهو مشغول بشهود الحق عن مراعاة جميع الأوقات. فالزمن عندهم مجرد من النسبية التى جردوا أنفسهم منها. سئل أبو يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح ولا مساء! يشير إلى أنه غير مطلع على الأوقات، بل مستغرق فى شهود الموقت، كما تلاشت أبعاد المكان عندهم أيضًا. (انظر التحبير ص ٥١، والرسالة القشيرية ٣١ واللطائف ١٣٣/٦).

(89) فى (ت) ساقطة والتصحيح من سائر النسخ.

(90) فى (ت) بدون همز.

(*) فى (س): «فإن».

(91) فى (ت): «الملافظة» وهو تحريف والصحيح ما أثبته من سائر النسخ ومن اللطائف ٨٧/٢، ١٠٦/٣، ٨٧/٤. ويرى القشيرى أن (ملاحظة) الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس، ومثلها مصطلح (المساكنة) وهما من آفات الطريق، بل يرى أن خيانة الأحوال تكون (بالملاحظة) والإعجاب والمساكنة، ثم يقول: «وأخفاها: «الملاحظة». يقول القشيرى فى اللطائف ٨٧/٤ عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً» بأنهم الذين يلاحظون أعمالهم، وما منهم بعين الاستكثار.

(92) ساقطة من (ت) وموجودة فى سائر النسخ.

(93) فى (م): «الذى إليه».

(94) فى (ت): «أن لا عارف» وفى سائر النسخ: «أن لا فاعل» وهو الصحيح الذى أثبته، لأن المعرفة قابلة للنقص والزيادة.

إلا الله تعالى[٩٥] عظم قدره، ورفع ذكره، وخضع لجلاله، وتواضع عند شهود كماله، ورأى نفسه مفعولاً فانتصب لعبادته «فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب»[٩٦].

فصـــل

الحال: وصف هيئة الفاعل والمفعول، ومن شرطه أن يكون نكرة منصوبة[٩٧]. فالعارف[٩٨] متوجه إلى الله تعالى[٩٩] فى إصلاح حاله، مجتهد فى تنكير[١٠٠] نفسه كى لا يُعرف[١٠١]، فأحواله مع الله مستقيمة منتصبة[١٠٢]، وهى بستر التورية[١٠٣]. والنكرة محتجبة «يحسبهم الجاهل أغنياء[١٠٤] من التعفف».

فصـــل

التمييز: تفسير ما أبهم[١٠٥]، وتبيين ما لم يكن يفهم، فالقوم بالعلم

---

(٩٥) زيادة من (م).

(٩٦) آية ٧، ٨ من سورة (الشرح).

(٩٧) زيادة من (م).

(٩٨) يعرف القشيرى (العارف) بأنه: كائن بائن، كائن مع الناس بظاهره، بائن عن جميع الخلق بسرائره. والمعرفة: تقتضى استصغار الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره، فإن نطق نطق بالله، وإن سكت سكت به. (انظر التحبير ٢٢ وفيه يوضح القشيرى منهج العارفين ودستورهم).
ولا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه (التعرف للكلاباذى ٣٧).

(٩٩) فى (س): سقطت «تعالى» من وراء لفظ الجلالة.

(١٠٠) فى (ط م): «تنكيرها» وفى (ج): «تنكرها» وما أثبته من (ت).

(١٠١) فى (ج م): «حتى لا تعرف» وما أثبته من (ت).

(١٠٢) فى (ط): «منقضية» وفى (م): «منتهية» وفى س «متهيئة» وما أثبته من (ت) إذ (النصب) من علامة (الحال).

(١٠٣) فى (م ط ج س) : بستر «التورية». وهو الصحيح وفى بقية النسخ: «وهى تستر الرؤية».

(١٠٤) فى (ت): «أغنياء» وفى سائر النسخ: «اغنياء» والآية ٢٧٣ سورة البقرة.

(١٠٥) فى (م س): «وما ابهم».

ميزوا الحق من الباطل، وتبين[١٠٦] لهم بالسلوك[١٠٧] الحالى[١٠٨] من العاطل. ولا يكون التمييز إلا بعد تمام الكلام، وكذلك[١٠٩] تفقهوا ثم اعتزلوا[١١٠]، وأحكموا العلم ثم تميزوا، فلما تمت لهم رتبة التمييز، نصبهم الله تعالى[١١١] لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم[١١٢] لوداده، قال الله تعالى «ليميز[١١٣] الله الخبيث من الطيب».

باب البدل

البدل: على أربعة أقسام، بدل الكل من الكل، وهو بدل العارفين، تركوا الكل فعوضهم الكل[١١٤] «وجوه يومئذ[١١٥] ناضرة، إلى ربها ناظرة» شعر:

---

(١٠٦) فى (ت): «وشب بهم» وفى سائر النسخ: «وتبين لهم» وهو الصحيح الذى أثبته.

(١٠٧) فى (م س): «بالسكوت» وهو تحريف، والصحيح ما فى سائر النسخ: «بالسلوك».

(١٠٨) فى (ت): «الخالى» بنقطة فوق الحاء، وفى سائر النسخ: «الحالى» بالحاء المهملة وهو الصحيح الذى أثبته.

(١٠٩) فى (ت س): «ولذلك قيل تفقهوا». وفى سائر النسخ: «وكذلك تفقهوا» وهو ما أثبته.

(١١٠) لا يريد القشيرى من العزلة: الهرب من المجتمع، والانقطاع للعبادة وترك الدنيا، وإنما يريد العزلة الروحية حيث تعزل نفسك لمحاسبتها وتقويمها.

(١١١) زيادة من (م).

(١١٢) فى (م): «فاستخلفهم وما أثبته من سائر النسخ».

(١١٣) ساقطة من (ج). والآية ٣٧ من سورة الأنفال.

(١١٤) فى (ت س): «لمن له الكل» وفى سائر النسخ: «فعوضهم الكل» وهو ما أثبته وكلاهما صحيح. قال الأزهرى: أجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل، إلا الأصمعى فإنه امتنع من ذلك لأنهما معرفتان فلا تدخلهما الألف واللام، لأنهما فى نية الإضافة (انظر: الخلاف فى المعاجم وكتب النحو) ويمكن أن نجد أنموذجًا لمن ترك الكل فعوضه الله الكل . فى (إبراهيم بن أدهم) حين خلع ثوب الإمارة ورمى به بعيدًا، وبدله باطمار سائل وغادر قصره وهجر العالم وآثر أن يأكل من عمل يده فعمل بستانيًا فحمالاً فراعيًا، وكان يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التعب (الحلية ٧/ ٣٧٠).

(١١٥) فى (ت): «يوميذ». والآية ٢٢ ـ ٢٣ من سورة القيامة.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا[١١٦]

وأجنحة تطير بغير ريش إلـى ملـكوت رب العالمينـا

وبدل البعض: بدل العابدين[١١٧]، بدلوا[*] بالمعاصى الطاعات[١١٨]، وبدلوا باللذات المجاهدات «فأولئك[١١٩] يبدل الله سيئاتهم حسنات». وبدل الاشتمال[١٢٠]: لقوم[*] اشتملت أعمالهم على خوف ورجاء[١٢١] فأعطوا[١٢٢] ما يرجون، وأمنوا مما يخافون «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[١٢٣].

وبدل الغلط[١٢٤]: بدل المطرودين، باعوا نصيبهم من القرب[*] بحظوظ عاجلة[١٢٥] «بئس[١٢٦] للظالمين بدلاً».

---

(١١٦) هذا الشعر ورد فى (ط) دون بقية النسخ وهو: لميمونة السوداء (عقلاء المجانين للنيسابورى ترجمة ميمونة). وفى الشعر تلمح أن امتلاء القلب بالمعرفة وقف على امتلائه بالحب.

(١١٧) فى (م): «العارفين العابدين» وفى سائر النسخ: «العابدين» وهو الصحيح الذى اثبته، لأن بدل (الكل من الكل) هو: بدل العارفين. والمناداة صفة (العابدين) والمناجاة نعت (الواجدين) كما أن (المناداة) تكون على الباب، و (المناجاة) تكون على بساط القلوب.

(*) فى (س) سقطت كلمة «بدلوا».

(١١٨) هذه العبارة وردت مضطربة فى النسخ ففى (ط): «واللذات بالمجاهدات» وفى (ج): «بالطاعات فى اللذة بالمجاهدات» وفى (م): «واللذة بالمجاهدة» وصحتها كما أراه: (بدلوا بالمعاصى الطاعات، وبدلوا باللذات المجاهدات) لأن الباء تدخل فى العربية على المتروك. انظر كتب النحو المطولة، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية (بدل).

(١١٩) فى (ت): « أوليك» وسائر النسخ: «أولئك» وهو تحريف. والآية الكريمة: «فأولئك» ٧٠ من سورة الفرقان.

(١٢٠) فى (ت): «اشتمال».

(*) فى سائر النسخ: قوم وفى (س): «لقوم».

(١٢١) فى (ت): «ورجا».

(١٢٢) فى (ت): «فاعطو».

(١٢٣) فى (ت) الآية الكريمة خالية من الهمزات، وهى فى سورة يونس آية ٦٢.

(١٢٤) بدل الغلط المعروف فى النحو . لا يرد فى القرآن الكريم لاستحالة الغلط على الله.

(*) فى (س): «الفوت».

(١٢٥) فى (ت): «عاضلة» وهو تحريف والصحيح ما أثبته من (ط ج).

(١٢٦) فى (ت): «بيس» والآية ٥٠ من سورة الكهف.

فصـــل

النعت: تابع للمنعوت، والوصف تابع للموصوف، كـــذلك أعمـــال العبد لا تفارقه[١٢٧]، وما حصل من خير أو شر[١٢٨] فهو لاحقه.

فصـــل

حروف العطف تتبع[١٢٩] الآخر الأول، وأهل الإشارة توسلوا[١٣٠] إلى الله تعالى[١٣١] فى العطف عليهم، واللطف بهم، ليلحقهم بأهل قربه، ويجعلهم من حزبه.

فصـــل[١٣٢]

التوكيد: هو التحقيق، والقوم أكدوا إيمانهم بالتصديق، وعقدهم مع الله بالتوثيق[١٣٣]، وشمروا فى ملازمة الطريق.

---

(١٢٧) فى (ط): «لا يفارقه».

(١٢٨) فى (ج): «وشره». وكما أن النعت فى (نحو اللسان) تابع للمنعوت فى رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه وتنكيره فكذلك فى (نحو الجنان) يتبع منعوته حيث يلزم مقام العبودية بالمعرفة التى لأجلها خلق، فبالمعرفة يكون تابعًا لموصوفه بالتخلق بأخلاقه راضيًا بمجارى الأقدار مستسلمًا لها فى حالة الخفض متلذذًا بها كتلذذه بحالة الرفع، مطيعًا فى كل الأحوال بكل الجوارح الظاهرة والباطنة:

كـيـفـمـا دارت الـزجـاجـة درنـا
يـحـسـب الجـاهـلـون أنـا جـنـنـا

(١٢٩) فى (ط): «يتبع». وفى (ج): «هى تتبع».

(١٣٠) فى (ج): «توسلوا فى العطف» والعطف فى (نحو الجنان) لا يتم إلا بالوسيلة وهى الرحمة الإلهية، وكذلك فى (نحو اللسان) لا يتم العطف إلا بالحرف، وهى الوسيلة.

(١٣١) فى (م): «تعالى» «عليهم» ساقطتان.

(١٣٢) فصل التوكيد - ساقط من (م).

(١٣٣) فى (ط ج س): «بالتحقيق» وأثبت ما فى (ت). ويجب ملاحظة ما بين النحويين: العبارى والإشارى، أو نحو القلوب ونحو العقول، أو نحو اللسان ونحو الجنان، ففى (النحو العبارى) إذا قلت: جاء محمد، فقد أعطيت المخاطب معنى يعلم به مجىء محمد، وهذه درجة فى العلم كافية. ولكن هناك درجة أقوى حين تقول: «نفسه أو عينه» وكذلك فى (النحو الإشارى). فالعارفون إيمانهم بالله من حيث الشريعة - يتم ويتأكد من حيث الحقيقة بمراحل التصديق والتحقيق. فالإيمان - مرحلة شريعة، والتحقيق والتصديق حقيقة. فالحقيقة مؤكدة الشريعة، وكذلك فى نحو العبارة - فالتوكيد فيما سبق قد أكد المعنى وحققه.

فصـــل

حـروف الجـر[١٣٤]: تـخـفـض الأسـمـاء[١٣٥]، فـلـمـا عـلـم المحـقـقـون أن الأشياء[١٣٦] بـالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا[*] أنفسهم تـواضـعًا لله، فـتـعـززوا[١٣٧] بـالإضـافـة[١٣٨] إلـى جـانـب[١٣٩] الله تـعـالى[١٤٠]، أولئك[١٤١] الـذين اصـطـفـاهم الـله[١٤٢] لـقـربه[١٤٣]، وجـعـلهم[*] من حـزبه، نـسـأل الـله العظيم أن يجعلنا[١٤٤] منهم، وأن يلحقنا بهم، إنه كريم[١٤٥] لطيف حليم وهاب، محسن متفضل جواد رحيم تواب، وإليه المرجع والمآب.

---

(١٣٤) فى (م): «الخفض».

(١٣٥) فى (ت): «الأسماء وأثبت ما فى سائر النسخ.

(١٣٦) فى (ت): «الانشا» وهو تحريف. صوابه: «الأشياء» كما فى سائر النسخ.

(*) فى (س): «حفظوا».

(١٣٧) فى (م): «فتعززت».

(١٣٨) التوحيد الحق. إسقاط الياءات (ياءات الإضافة) فلا تقل: منى - لى - بى.
اللطائف ١/٢٤٥. ٤/١٢٢. وقيل لبعض المشايخ:
الك رب؟ فقال: أنا عبد! من أنا حتى أقول لي؟! انظر: اللطائف ١/٢٤٥، ٤/١٢٢. ٤/١٤٦ وانظر: التحبير فى التذكير: ٢٦.
والفكرة دقيقة بين (نحو الإشارة والعبارة) فى الإضافة، فالمضاف إليه مخفوض كقولك (دار على) فى نحو العبارة، والخفض أضعف الحركات، إذ الخفض دليل الإهانة والذلة. فتما اعتمد العبد على الإضافة، وعن طريق الإضافة تكون العلاقات، صار العبد إلى أضعف الحالات. وإذا كان الاسم مفردًا. كان له أقوى الحركات مثل: (على) فى المثال السابق فله الرفع، والدليل على ذلك قوله جل شانه: «فى بيوت اذن الله أن ترفع» وقوله. «يرفع الله الذين آمنوا منكم».
وكذلك العبد. مادام مجردًا بقطع مطالبه وعلائقه فله أقوى الحالات.

(١٣٩) فى (م): «جناب» وما أثبته من (ت ط ج).

(١٤٠) ساقطة من (ت).

(١٤١) فى (ت): «إليك».

(١٤٢) ساقطة من (م).

(١٤٣) فى (م س): «بقربه».

(*) فى (س) «فجعلهم».

(١٤٤) «أن يجعلنا منهم» ساقطة من (م). وأثبتها من سائر النسخ.

(١٤٥) فى (ط): «إنه كريم وهاب، والحمد لله وحده، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» وأما خاتمة (ج س) فهى: «إنه كريم وهاب، تم كتاب نحو القلوب، وصلى الله على =

تم كتاب «نحو القلوب» بحمد الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(ملحق)

(فى أول نسخة(ن) وردت هذه الأبيات فى الصفحة الأولى للعنوان وهى):

١. (نحو القلوب) عجيب	رفع وخفض ونصب
٢. علامة الرفع فيه	روح وأنس وقربُ
٣. وأحرف الخفض منه	حزن وقبض وحجب
٤. والنفس حرف لمعنى	إسقاطه مستحب
٥. والحال ينصب ما ليـ	ـس للفتى فيه كسب
٦. هذا هو النحو لا ما	قد قال عثمان حسب
٧. لحن اللسان مباح	واللحن بالقلب ذنب
٨. وأقبح اللحن عندى	كبر وتيه وعجب

= محمد نبيه وصحبه وسلم». وأما خاتمة (م) فهى: «إنه كريم وهاب. تم الكتاب المبارك بحمد الله وعونه، وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ملحـــق

نصوص فى نحو القلوب وتشتمل على:

نصوص للمؤلف فى غير هذا الكتاب

نصوص لأبى العباس أحمد بن عجيبة

لاحظنا أن القشيرى لم يستقص فى «نحو القلوب» الذى حققناه جميع قواعد النحو العربى وأبوابه التقليدية، ولكنه اقتصر فيه على بعض القواعد والأبواب دون بعض، من ذلك مثلاً أنه ترك:

علامات الأسماء والأفعال، والاسم الموصول، ونواصب المضارع وجوازمه، ونائب الفاعل والمفاعيل، والعوامل الداخلة على المبتدأ والخبر: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها، والمصدر والظرف والمستثنى، ولا النافية للجنس، والمنادى. والترخيم، والتعجب، والنسب، والجموع...

فجميع ما سبق وغيره لم يتناوله القشيرى، ولذلك آثرنا أن نعرض نصوصًا عثرت عليها فى قراءاتى تناولت الموضوع ذاته. للقشيرى ولغيره، ولكنها مختلفة عما سبق فى كتابه هذا الذى حققناه، وهدفى من ذلك:

١. أن تكتمل صورة الموضوع إلى حد واضح فى ذهن القارئ حيث يرى معالم الحقل الواسع الذى حرث فيه رجال العربية وأعلام الفكر الصوفى.

٢. أن تقوم دراسة مقارنة فى المستقبل بين ما كتبه الإمام القشيرى وبين ما كتبه غيره من الأئمة الأعلام فى الموضوع ذاته.

وقد اخترت نماذج لتكميل موضوعنا من مصدرين:

أحدهما: لإمام يمثل الشرق الإسلامى وهو: الإمام القشيرى فى كتاب آخر له عثرت عليه وهو «الأصول فى نحو أرباب القلوب».

وثانيهما: لشيخ من شيوخ المغرب الإسلامى وهو: أبو العباس أحمد بن عجيبة[1] فى شرحه على المقدمة الآجرومية فى علم العربية للإمام الصنهاجى. ولقد قام بتجريد هذا الشرح العلامة عبد القادر بن أحمد الكوهنى[2] فى كتاب سماه «منية الفقير المتجرد، وسيرة المريد المتفرد»[3].

ومنهجى فى عرض تلك النصوص:

أولاً: يقوم على عدم التدخل فيها، أو التعليق عليها، إلا بالقدر اليسير، لتقويم عبارة مبهمة، أو تصويب كلمة رجحها السياق. والكتابان:

أولهما: للقشيرى، ومازال مخطوطًا لم ير النور[4] بعد.

وثانيهما: وهو كتاب: منية الفقير... طبع عام ١٣١٩هـ إلا أن الطبعة قديمة متهالكة، كما أنها نادرة كذلك، وهى لهذا أشبه بالمخطوط فى نفاسته وندرته، وفى نشر مثل هذا بعث لتراث فكرى حضارى إسلامى كاد ينسى فى زحمة التاريخ ودروبه.

---

(١) ١١٦٠ ـ ١٢٢٤هـ ١٧٤٧ـ ١٨٠٩م أحمد بن عجيبة ـ بن محمد المهدى بن عجيبة الحسنى الإدريسى الشاذلى الفاسى (أبو العباس).
صوفى مفسر من تصانيفه:
إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عطاء الله فى التصوف. البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد. شرح الأجرومية فى النحو. الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية «معجم المؤلفين ٢/١٦٣ عمر كحالة».

(٢) ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م عبد القادر بن أحمد بن أبى جيدة الكوهنى الفاسى، عالم محدث، صوفى، توفى بالمدينة، من آثاره: شرح فاتحة البخارى وخاتمته، وفهرسة تعرف بإمداد ذوى الاستمداد إلى معالم الرواية والإسناد. «معجم المؤلفين ٥/٢٨٢».

(٣) قدم إلى الزميل الدكتور حسنى زيدان هذا الكتاب مشكورًا من مكتبته الخاصة.

(٤) لهذا الكتاب أصول فى دور الكتب: بالقاهرة والإسكندرية وتونس وإيران وتركيا، وجميعها تحت يدى لتحقيق المخطوط بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعة عين شمس.

وثانيًا . أن النصوص التى أقدمها من هذين المصدرين تسيران فى منهلين متجاورين وتشمل:

١. نصوص مشتركة بينهما فى موضوع واحد .

٢. نصوص تفرد بها كتاب دون آخر .

(أ) نصوص مشتركة بين الكتابين

يقول القشيرى «وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم، وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد . وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد . وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء منك شيء، وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار . وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق. وقد يكون برفع يدك عن الحرام، ثم برفع ما تضمره من إثبات الأنام[٥] ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات، ثم ترفع الحاجات عن أحكام الصحبة[٦] حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله .

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن[٧] على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب فى محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد، والتنقي عن دقائق الافتراق. وقد يكون العبد منصوبًا لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار، أو منه فيه اشتغال[٨]، ولما يلقى به استثقال، ولما ينتظره استقبال، ولا لما

---

(٥) فى بعض النسخ (الآثام) والصحيح كما أثبتناه.

(٦) فى بعض النسخ: المحبة، والصحيح ما رأيناه، لأن الغرض تجريد التوكل والتفويض عن كل الناس وعن جميع الأصحاب.

(٧) فى بعض النسخ: البدل، وهى خطأ .

(٨) فى بعض النسخ بدون نقط.

يوعد به استعجال، ليس لهم فيه حظ، ولا لهم فيه نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم.. فهم غياث الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل، وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس فى ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح لكل من طالبك بشىء ليس فى الشرع له نكير من غير رد ولا نزاع، ولا إبرام واستكراه.. وهكذا العارف يستقبل أعقاب الكافة مستحقرًا لقدره، مستقذرًا لنفسه وفعله، فى عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم: القطع، ويكون ذلك بحذف العلائق، وقطع العوائق، والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة، من غير إخلال بشىء من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى، فإن الأمانى والمعانى متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات[٩] بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والرد[١٠]. (انظر وجوه الإعراب).

* * *

ويقول الكوهنى فى تجريده عن ابن عجيبة:

«وأقسام الإعراب أربعة: (رفع ونصب وخفض وجزم)، وأحوال التغير الذى يعترى الإنسان وينزل به أربعة:

---

(٩) فى بعض النسخ الاختبارات. والصحيح كما أثبتنا.

(١٠) ربما كانت الردة: لأن القشيرى يعتبر من فسخ عقده مع الله ابتغاء الرخص كالمرتد.

رفع ـ أى رفع القدر والعز والجاه عند الله تعالى، وعامله[11]: العلم بالله، والعمل بطاعته، وصحبة أهل العز والفناء، وهم الأولياء رضى الله تعالى عنهم.

وضده: الخفض ـ وهو الذل والهوان، وعامله: الجهل وارتكاب المعاصى، واتباع الهوى كما قال الشاعر:

لا تتبـــع النفس فى هواهــا   إن اتبــاع الهـــوى هـــوان

وقال آخر:

إن الهوى لهـو الهـوان بعينــه   فإذا هويت فقد لقيت هـوانا

فإذا هويت فقد تعبدك الهوى   فاخضع لحبك كائنا من كانا

والنصب ـ نصب النفس لمجارى الأقدار، وهو مقام الرضا والتسليم، وهو حال أهل الطمأنينة من العارفين الواصلين.

والجزم ـ هو التصميم والعزم على السير والمجاهدة والمكابدة إلى الوصول إلى تمام المشاهدة.

فأهل الرفع والنصب ـ عارفون واصلون، وأهل الخفض: تالفون تائهون، وأهل الجزم: سائرون.

وقد يتلوّن العبد بين الرفع والخفض، فتارة يغلب نفسه فيرتفع، وتارة تغلب عليه نفسه فينخفض، وهؤلاء أهل التلوين قبل التمكين، وقد يكون التلوين بعد التمكين، و هو تلوين العارف مع المقامات، فيتلون فى كل مقام بلون، فتارة يظهر عليه الهيبة والخوف، وتارة يظهر عليه الرجاء والبسط، وتارة يظهر عليه الورع والكف، وتارة يظهر عليه الرغبة والأخذ، وتارة

(١١) يلاحظ أن الصوفية عندهم (عوامل) ولكنها غير عوامل النحاة. يقول الكوهنى: فكلما طلبهم (عامل) الخفض استدركهم (عامل) الرفع فيرفعهم فلا خفض لهم أبداً. باب الإعراب.

يظهر عليه الشوق والقلق، وتارة يظهر عليه السكون والطمأنينة، وقد يطلب العبد الرفع فينخفض وهو من سبق له الحرمان والعياذ بالله. وقد يطلب الخفض فيرتفع وهو من سبقت له العناية، فلا تضره الجناية. ربما قضى عليك بالذنب فكان سببًا للوصول، والله تعالى أعلم (انظر باب الإعراب).

* * *

ويقول القشيرى:

«كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال ألفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائمًا، فهذه مشبهة بأفعال، وليست بأفعال محضة.

والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب، فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادى عليها أنها ليست بأفعال محضة فكذلك من تشبه بقوم يجرى مجراهم، ويحكم له فى الظاهر بحكمهم، ولكنه ينادى عليه بأنه متشبه بهم وليس منهم حقًا.

قال الشاعر فى هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

(انظر كان وأخواتها)

ويقول الكوهنى فى تجريده:

فـ (كان) تشير إلى: كان الله ولا شىء معه، حيث لا شكل ولا رسم. وأمسى وأصبح وأضحى إلى تلوينها بمرور الفلك فى الصباح والمساء والضحى. ويشار بظل وبات - إلى تلوينها بمرور الليل والنهار. وبصار - إلى تلوينها بالظهور والبطون، وبليس - إلى تنزيهها كقوله تعالى «ليس كمثله

شيء»، وبـ «مازال» وأخواتها إلى أنه تعالى ما زال وما يزول وما يحول عما كان عليه: فالتغير عليه تعالى محال، ويدام - إلى دوام ربوبيته أزلا وأبدا.

ومن شأن هذه الأفعال أن ترفع الاسم وتعظمه وتجلله، وهو الذى كان مبتدأ الأشياء وأصل ظهورها - ورفعها له دلالتها على تلوين الآثار، وتنقلات الأطوار، فتدل بذلك على عظمة الواحد القهار. وتنصب الخبر الذى هو عبارة عن الأثر لجريان أحكام الواحد القهار (انظر باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر).

* * *

يقول القشيرى: المنادى على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف، كذلك من كان من العباد مفرداً ينادى على وصف غير وصف ما ينادى وهو مضاف. وكذلك من كان بوصف النكرة، فالمفرد المعرفة من الأسماء مبنى. على الضمة - والضمة أقوى الحركات، وكذلك من كان أبدا بنعت التفريد كان فى أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادى المضاف منصوب. وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو فى أضعف الحالات - كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر (انظر النداء).

* * *

ويقول الكوهنى فى تجريده:

«المنادى خمسة أنواع: المفرد العلم، والنكرة المقصودة، والنكرة غير المقصودة، والمضاف، والمشبه بالمضاف.

فأما المفرد العلم والنكرة المقصودة فيبنيان على الضم من غير تنوين نحو: يا زيد ويا رجل، والثلاثة الباقية منصوبة لا غير».

المنادى فى الأزمات والمآرب أى الشدائد والمقاصد خمسة:

المفرد العلم، وهو الحق جل جلاله، وهذا هو المقصود بالذات، والأربعة وسائل، وقد يطلق المفرد العلم على الرسول عليه الصلاة والسلام، لانفراده بالكمالات...

والنكرة المقصودة، وهى سر الولاية، فمن ظفر بها كان بابا من أبواب الله يفزع إليه فى الشدائد، وتقضى بشفاعته الحوائج، لأنه نائب عن الرسول الذى هو الحجاب الأعظم، وإنما فسرنا النكرة المقصودة هنا بسر الخصوصية، لتنكر أولاً، وتقصد ثانيًا بعد التمكن منها، فيظهر صاحبها بعد الخفاء، لينتفع به العباد، وتحيا به البلاد.

والنكرة غير المقصودة هى الخصوصية التى بقيت على حال الخفاء حتى مات صاحبها، فهو كنز من كنوز الخفاء، وعروس الحضرة، لا يعرف إلا أمثاله ومن قرب منه.

والمضاف إلى أولياء الله بالتربية والخدمة، وهو الملحق بهم فى المآل.

والمشبه بالمضاف: وهو من تزيا بزيهم، وانتسب إليهم، ولم يكن له همة للظفر بسرهم، فلا شك أنه تلحقه بركاتهم وتنسحب عليه أنوارهم، كما قال القائل:

لى سـادة من حبهـم ... أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكـن منهم فـلى ... فى حبهم عز وجـاه

فأما المفرد العلم ويراد به الرسول عليه الصلاة والسلام، والنكرة المقصودة من بنى إبراهيم، فيبنيان على الضم على الله، والجمع بالله من

غير تنوين، أى من غير شهود الأثر بسبب غيبتهم فى شهود المؤثر فلا يفترقون عنه ساعة

والثلاثة الباقية منصوبة للمقادير، يجرى عليهم ما كتب لهم مع السكون تحت مجاريه، إن قربهم فبفضله، وإن فر منهم فبعدله...

(انظر باب المنادى)

* * *

(ب) نصوص تفرد بها كتاب القشيرى

يقول القشيرى: الاسم المفرد إذا ثنيته ألحقته ألفا فى حال الرفع، وياء فى حَالَىْ النصب والجر، ونونا بعد الألف والياء. ونون التثنية مكسورة، وهى تسقط عند الإضافة.

والإشارة منه: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد، والاثنان لا واحد له من لفظه، فلا يقال من الواحد: واحدان، ولا من اثنين: اثن. وهذا محال فى التقدير... كذلك الذى هو واحد فى الحقيقة[12] فيستحيل أن تزول عنه وحدانيته - تقديرًا ووجودًا، والذى يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير فردًا لا ثانى له - تقديرًا، قال الله تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين»[13].

وما دام الواحد من الأسماء واحدًا فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين، وقع فى التغير، فمرة مرفوعًا بالألف، ومرة منصوبًا أو مخفوضًا بالياء - كذلك العبد ما دام بقلبه مفردًا مجردًا فهو فى أسمى نعوته[14] - فإذا حصلت علاقة المواصلات[15] وقع فى التلوين فمرة ومرة (انظر المفرد والمثنى).

(١٢) المقصود هو الله جل شأنه.

(١٣) الذاريات: ٤٩. وفى الأصل سقطت (شىء).

(١٤) فى بعض النسخ (نحواه) وارجح أنها: نجواه.

(١٥) من آفات الطريق: العلاقات، ويجب إسقاطها لأنها نقص فى التوحيد. فلا اثنينية فى التوحيد، لأن التوحيد إسقاط السوى.

ويقول القشيرى: ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغيير الإعراب، وهى مثل: إنما وكأنما وليتما ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو فى حال ما دخل عليه مثله فى حال تجرده عنها. دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاه[١٦] فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى فرآه لا يؤثر فيه ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت[١٧] فقال: فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى..

فقال ذلك الشيخ: يا فلان، إنا قد جردنا عن رق الأشياء فى الأزل. (انظر الحروف التى لا تؤثر على المبتدأ والخبر).

وهناك أبواب أخرى تفرد بها القشيرى عن الكوهنى فى النحو منها:

وجوه البناء، وهمزة الوصل، والإلحاق، والإدغام، والتصغير، وجموع القلة والكثرة. وحسبنا ما ذكرناه منها.

(ج) نصوص تفرد بها كتاب الكوهنى وابن عجيبة

«وأما الألف فتكون علامة للرفع فى تثنية الأسماء خاصة» وأما ألف الوحدة، أى التحقق بها، فتكون علامة لرفع صاحبها وكماله فى تثنية الأسماء خاصة، أى فى حالة التمسك بالشريعة والحقيقة فقط، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق إلا أن يكون مجذوبًا، أو نقول: تكون ألف الوحدة علامة للرفع فى تثنية الأشياء الدالة عليها الأسماء.

(١٦) انظر القصة فى الرسالة القشيرية ص ٣٥.

(١٧) يصر القشيرى على احترام الوقت، والصوفى ابن وقته.

وتثنيتها جعلها ورؤيتها قائمة بين الضدين: بين الحس والمعنى، بين الحكمة والقدرة، بين العبودية[١٨] والربوبية، بين الملك والملكوت، بين الأثر والمؤثر، بين الكون والمكون، بين الخلق والحق. فلا يكون العارف كاملاً حتى يبلغ إلى هذا المقام. فإن وقف مع الضد الأول كان محجوبًا مطموس البصيرة، وفيه قال المجذوب رضى الله عنه: من نظر الكون بالكون عراه العمى فى البصيرة، ومن نظر الكون بالمكون صادف علاج السريرة، وإن وقف مع الضد الثانى كان غير صاح، فانيًا غير باق، مجذوبًا غير سالك، فلا يكون كاملاً، وبالله التوفيق (انظر باب معرفة علامات الإعراب).

ويقول الكوهنى فى تجريده:

«والمعرفة خمسة أشياء: الاسم المضمر نحو: أنا وأنت، والاسم العلم نحو: زيد ومكة، والاسم المبهم نحو: هذا وهذه وهؤلاء، والاسم الذى فيه الألف واللام نحو: الرجل والغلام، وما أضيف إلى واحد من هذه الأربعة...».

المعرفة بالله تظهر فى خمسة أشياء، فمن عرف الله تعالى فيها فهو عارف، ومن جهلها أو أثبتها مع الله فهو تالف.

أولها: الكنايات، نحو: أنا وأنت. فما دمت تقول: أنا أفعل، أو أنت فعلت فأنت جاهل مشرك. وإن غبت عنك وعن غيرك فأنت موحد عارف.

ثانيها: أسماء الأشخاص والأماكن. فإن عرفت الله فيها فأنت عارف، وإن أثبتها مع الله فأنت جاهل. الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، ما نصبت لك العوالم لتراها، بل لترى فيها مولاها.

---

(١٨) العبودية من حيث الغالب الحسى، والربوبية من حيث المظهر المعنوى، العبودية مرتبة على الحس البشرى، والربوبية مرتبة على الأمر المعنوى، العبودية ظاهرة والربوبية كامنة. والضدان يجتمعان فى محل واحد مع اختلاف الجهة (منية الفقير المتجرد ص ٤٩).

الثالث: المبهمات ـ من الكائنـات: كهذا فعـل كذا، وهذه فعلت، فما دام العبد ينسب التأثير للغـير، ويتوقع منه ضررًا أو نفعًا فهو جاهل بالله.

الرابع: المعرفة عند الناس بالرياسة والجاه كالحكام والقواد وغيرهما من أهل الرياسة الظاهرة، وكذلك أهل الرياسة الباطنة كالأولياء والصالحين، فمن عرف الله تعالى فيهم، ورأى أنهم متصرفون تحت قهرية الحق، يتصرفون بقدرته وإرادته، ليس بيد أحد منهم شيء، بل ولا وجود لهم مع الحق، فهو عارف، وإن أثبت لهم ضررًا أو نفعًا، ودخل قلبه منهم جزع أو خوف فهو جاهل بالله تعالى.

خامسها: ما أضيف لواحد من هؤلاء كأصحاب العشائر فهو بمنزلتهم، لا حول لهم ولا تأثير، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، نعم الإضافة لها تأثير في المضاف، فمن انضاف إلى أهل العز بالحق تعزز ودام عزه، ومن انضاف إلى أهل العز بالخلق أو المال مات عزه، وأعقبه الذل، ولله در القائل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا ... مضافًا لأرباب الصدور تصدرا

وإياك أن ترضى بصحبة ساقط ... فتنحط قدرًا من علاك وتحقرا

وأرباب الصدور هم العارفون بالله الذين صدرهم الله تعالى لنفع عباده، والدعاء إليه على قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. والساقط: هو الجاهل بالله وبأحكامه كائنا من كان.. (انظر المعرفة والنكرة).

تعليق

١ ـ والقشيري، وإن كان قد عقد للمعرفة والنكرة بابا، لكنه أجمل الحديث عنها فلم يفصل كما فصل الكوهني، ومثل هذا ما فعله القشيري في باب العطف، حيث لم يتعرض لمعاني حروفه. أما الكوهني فقد فصل

حروفه وبين معانيها النحوية والصوفية. كذلك تفرد الكوهنى بذكر بابى التوكيد والبدل على حين لم يشر إليهما القشيرى.

٢ ـ آثرنا أن نعرض هذه النصوص أمام القارئ خالية من الموازنة والنقد ليحسها الإنسان بروحه ووجدانه حسب طاقته، فكل فرد له مقام وقدر، ومنهل ومشرب و«قد علم كل أناس مشربهم».

كما أن هذه النصوص الصوفية لا تخضع للقوانين والضوابط العامة التى يخضع لها أى نص أدبى آخر، ونحن نقدمها ـ كما رأيت ـ لأهل الأذواق والوجدان ـ وأصحاب الشهود والعيان.

دراسات للمحقق
فى
ضوء الكتاب



(١)

فى اللحـــــن

لســان فـصـيـح مـعـرب فـى كلامه
فيـاليته من حسـرة العـرض يسلم
وما ينفـع الإعراب إن لم يكن تقى
ومـا ضـر ذا الـتقـوى لسـان مـعـجم

فى أول نسخة (ن) المخطوطة، وردت هذه الأبيات وهى

نـحـو الـقـلـوب عـجـيب	رفع وخـــفض ونـــصـب
عـلامـــة الـــرفع فـــيه	روح وأنـس وقـــــــــرب
وأحـــرف الخـــفض مـــنه	حـــزن وقـــبض وحـــجب
(والـنـفس حـرف لمـعـنى	إسـقـاطه مــسـتـحب)
والحـــال يـنـصب مـا لـيـ	ـس لـلـفـتى فـيه كـسب
هـذا هـو الـنـحـو لا مـا	قـد قـال «عـثمـان» حسب
لحن الـلـســان مـبــاح	والـلـحن بـالـقـلب ذنب
وأقـبح الـلـحن عـنـدى	كـــبـــر وتـــيه وعـــجب

التعليق باختصار على الشعر

★ الأبيات السابقة تحدد معالم النحو (الصوفى) أو نحو (الإشارة) أو نحو (الجنان)، وذلك فى مقابل نحو (العبارة) أو نحو (اللسان).

★ الشعر من (المجتث) مستفعلن فاعلاتن.

★ أضفت البيت الرابع من «نحو القلوب» لمؤلف مجهول مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١٦ مجاميع.

★ دقة من الناظم فى البيت الرابع، وذلك حين أخبر عن النفس بأنها حرف فيجب إسقاطه، لأنها محل الأوصاف المذمومة، والنفس لا تعيش إلا فى أوطان الشهوات، فتدعوك اليوم إلى ما فيه هلاكك، ثم تشهد عليك غدا بزلاتك.

★ كما أن البيتين السادس والسابع يشيران إلى ما روى عن عثمان رضى الله عنه حين فرغ من كتابة المصحف ونظر فيه فقال «قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئًا من لحن ستقيمه العرب بألسنتها» (المصاحف لأبى داود السجستانى (٣٢). واللحن معناه فى قول عثمان: اللغة أو القراءة! قال عمر رضى الله عنه» إنا لنرغب عن كثير من لحن أبى، يعنى لغة أبى» المرجع السابق. وقول بعض العرب «ليس هذا لحنى ولا لحن قومى» فاللحن: اللغة هنا. وكان عمر أيضًا يقول: «أبى أقرأنا، وإنا لندع بعض لحنه، أى قراءته» فاللحن القراءة. وانظر مادة (لحن) فى (اللسان).

ولحن اللسان مباح، أما لحن القلب وهو محل العرفان والمشاهدة - فذنب عظيم.

ولذلك كان معرفة «نحو القلب» آكد وأنفع من معرفة نحو اللسان، فعليك الاشتغال أولاً (بنحو) قلبك لتسلم من لحنه، وتصلح علمك وعملك، وبلحن القلب - تكون جاهلاً فى عملك أعمى فى بصرك، أصم فى سمعك،

أخرس فى كلامك، أحمق فى عقلك. فإن قدمت الاشتغال (بنحو) لسانك، فنحوك ملحون، وفهمك معكوس، وبصرك مطموس وكلامك مخروس، وألبست الحق بالباطل، وكتمت ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى، كما أن نحو القلب . لا يكون إلا بحفظه من الأخلاق المرذولة الذميمة من كبر وتيه وعجب، فإذا انتهى الطالب من معرفة نحو القلب . أسرع فى تعلم نحو اللسان على قواعد التراكيب العربية متجردًا فى كل خطواته من الرياء والسمعة والمباهاة والتشدق.

* والأبيات السابقة محاولة لنظم القواعد فى «نحو القلوب» وهى تناظر ما فعله علماء «نحو العقول» كابن معطى وابن مالك والسيوطى وغيرهم.

* وقد استعملت الشواهد الشعرية المصطلحات النحوية؛ لتعبر عن فلسفة روحية وإشارات خفية لعمارة الباطن من: طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والدخول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى.

* وهذا النص الشعرى شبيه بما جاء فى (منهاج العارفين للإمام الغزالى ص ٨٢ فما بعدها تحت عنوان (باب الأحكام) وقد طبع هذا الكتاب مع مجموعة تسمى (القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى) جاء فيه:

إعراب القلوب على أربعة أنواع:

رفع وفتح وخفض ووقف

فرفع القلب: فى ذكر الله تعالى.

وفتح القلب: فى الرضا عن الله تعالى.

وخفض القلب: فى الاشتغال بغير الله تعالى.

ووقف القلب: فى الغفلة عن الله تعالى.

فعلامة الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق.

وعلامة الفتح ثلاثة أشياء: التوكل، والصدق، واليقين.

وعلامة الخفض ثلاثة أشياء: العجب، والرياء، والحرص، وهو مراعاة الدنيا.

وعلامة الوقف ثلاثة أشياء: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس الحلال.

(٢)

صوفية الحركات

اعــلــلت عــلــة (قــال) وهى قــديمــة

اعــيــا الأطــبــة كــلــهم ابــراؤهــا

(أبو العلاء المعرى)

* * *

آثرت وضع «صوفية الحركات» عنوانًا لنصين من «نحو القلوب» للقشيرى.

وقبل الكشف عن سبب إيثارى لهذا العنوان أعرض النصين ثم أتبعهما بدراسة موسعة مفصلة تكشف عن سبب هذا الإيثار وذلك الاختيار.

١ - يقول القشيرى: «الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل، وكذلك أعمال المكلفين على قسمين: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة، فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة، وحروف العلة ثلاثة: الواو والياء[1] والألف، وصنوف العلة ثلاثة: الرياء، والإعجاب والمساكنة. وبعض صنوف العلة الطف من بعض، وبعضها أجلى من بعض[2]. ومن الأفعال ما هو أجوف وهو الذى حشوه حرف علة، كذلك

(١) بدون همزة.

(٢) فى بعض النسخ: وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال الطف وبعضها أجلى».

من أفعال العباد ما هو أجوف، وهو الذى داخله ذلة. ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يعقبه آفة، فإن قبول القرب موقوف على وفاء(*) العواقب، ومن الأفعال ما هو لفيف وهو الذى اجتمع (فيه) حرفان من حروف العلة: إما مفترقين أو مقترنين، كذلك من الأفعال ما تتوالى[2] عليه الآفات فصاحبه يعتريه الرياء، ويلحقه الإعجاب» نحو القلوب ورقة ٦٢-٦٣ تصوف طلعت رقم ١٥٩٣. ومصورة (ميكروفيلم ٧٤٣٤).

٢ - ويقول القشيرى فى «نحو القلوب»: الاسم صحيح ومعتل. قال أهل العبارة: الصحيح: ما سلم من حروف العلة وهو: الألف والواو والياء، وقال أهل الإشارة: من سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس - فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان...».

وللكشف عن إشارة النصين لابد من الاستعانة:

أولاً: بمصطلحات القشيرى التى تتصل بآفات الطريق.

وثانيًا: الاستعانة كذلك بعلماء الأصوات القدامى والمحدثين لتوضيح مكانة ما أسماه القشيرى بحروف (العلة) ولم اختار هذه الأصوات بالذات دون غيرها من الأصوات الساكنة؟

- ١ -

وأقدم نصوصًا كاشفة فى الجانب الأول (الصوفى) للقشيرى:

(أ) يقول القشيرى فى تفسير قوله تعالى: «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا»...

(*) بدون همزة.

(٢) فى الأصل: فى بوالا.

الذى ضل سعيهم هم الذين قرنوا أعمالهم (بالرياء)، ووصفوا أحوالهم (بالإعجاب)، وأبطلوا إحسانهم (بالملاحظات) أو بالمن» اللطائف ٨٧/٤.

(ب) ويقول القشيرى عند تفسير قول الحق سبحانه . «إن الله لا يحب كل خوان كفور».

الخيانة أقسام: خيانة فى الأموال. تفصيلها فى المسائل الشرعية وخيانة فى الأعمال، وخيانة فى الأحوال.

فخيانة الأعمال: بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال: بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشرها : الإعجاب ثم المساكنة، وأخفاها «الملاحظة» اللطائف ٢١٨/٤.

(ج) وفى مفتتح سورة الأحزاب: «يا أيها النبى أتق الله...» اتق الله أن تلاحظ غيرًا معنا، أو تساكن شيئًا من دوننا، أو تثبت أحدًا سوانا...».

(د) ويقول القشيرى: «فمن علم أنه المعبود سبحانه، دون غيره أخلص فى حالته، وصدق فى طاعته، وصفى عن الرياء أعماله، وزكى عن الإعجاب أحواله... وأما الإعجاب الذى هو رؤية المقام، واستكبار القدر والجاه، واستكثار الطاعة والفعل، فإنه سبب الحجاب، ولهذا قال الشيوخ: «من أعجب بنفسه، حُجب عن ربه» شرح أسماء الله الحسنى ٨٧.

ومن إشارات هذه النصوص الصوفية نرى:

١ ـ أن الرياء يكون فى الأعمال، وهى: جهود كسبية. والإعجاب والملاحظة والمساكنة تكون فى: الأحوال وهى: مواهب فيضية.

٢ ـ وفى نص للقشيرى فى اللطائف ١٦٠/٣ قرن الملاحظة بالأسرار. ومرة أخرى فى اللطائف ٨٧/٤ قرن الملاحظة بالإحسان.

٣ ـ شرّ هذه الآفات الإعجاب، ثم المساكنة، وأخفاها الملاحظة. يؤكد هذا:

أولاً: ما قاله الشيوخ: من أعجب بنفسه حجب عن ربه (شرح أسماء الله الحسنى ٨٧). والعجب يدعو إلى الكبر، وإلى نسيان الذنوب وإهمالها، كما أن المعجب يستعظم عبادته، ويمن على الله بفعلها، وإذا أعجب بها عمى عن آفاتها، وعلة العجب كما قال الغزالى: الجهل المحض.

ثانيًا: أما (المساكنة) فمن قولك: سكنت إلى فلان: استأنست به. والسكن: ما تسكن إليه النفوس من الأهل والوطن، ومنه قوله تعالى: «والله جعل لكم من بيوتكم سكنا» ٨٠/ النحل. واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفى العلاقة: أى المساكنة.

فمن عرف الله: ... لا يسكن إلى غيره، وعلامة سكون القلب إلى الله، أن يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده، وخطر المساكنة لغير الله. يرويها الخواص حين حدث بأعجب ما رأى فى أسفاره. قال: لقينى الخضر عليه السلام فسألنى الصحبة، فخشيت أن يفسد علىّ توكلى بسكونى إليه، ففارقته (الرسالة القشيرية ٣٧٢).

ثالثًا: أما (الملاحظة): فهو أخفى هذه الآفات جميعًا، لأن استقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفى الملاحظة. وعلامة الحقيقة: ترك ملاحظة العمل. والذين ضل سعيهم هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار. وكان الواسطى يقول «إياكم واستحلاء الطاعات فإنه (أى الاستحلاء) سموم قاتلة. (الرسالة القشيرية ٤٢٤).

والصوفى الصادق هو الذى يراقب أسراره، ويتجاوز الحدود الفاصلة إلى المستويات العالية، وهو فى كل خطوة يراقب مشاعره وأحاسيسه ويلتفت إلى ما يعكر صفو هذا الكمال والجلال. ففى الرسالة القشيرية ٦٦ «أن السرى السقطى قال: منذ ثلاثين سنة أنا فى الاستغفار من قولى:

الحمد لله مرة. قيل: وكيف؟ فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلنى رجل، فقال لى: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله. فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسى خيرًا مما حصل للمسلمين». ويرى الصوفية أن من شهد فى إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

رابعًا: أما (الرياء) فاشتقاقه من الرؤية، وأصله: طلب المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير.

والرياء: أصناف كثيرة: رياء فى الدين، والقول، والهيئة، والعمل، وإذا تعلق بالعباد ـ فهو التلبيس، والمكر، لأنه يخيل إليهم أنه مخلص لربه، وليس كذلك، وإذا تعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله ـ سبحانه ـ خلق الله، فهو مستهزئ بالله، ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بى. وسأل رجل رسول الله ﷺ: فيم النجاة؟ فقال الرسول «ألا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» وسماه الرسول: الشرك الأصغر. وفى طبقات الصوفية للسلمى ص ١٢ قال: وسمعت الفضيل يقول: خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشيطان أبعده من الرياء.

- ٢ -

نصوص فى علم الأصوات توضح مخارج ومكانة

الألف والواو والياء

أ - يقول ابن جنى : « والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها: الألف ، إلا أن الصوت الذى يجرى فى الألف مخالف للصوت الذى يجرى فى الياء والواو، والصوت الذى يجرى فى الياء مخالف للصوت الذى يجرى فى الألف والواو، والعلة فى ذلك: أنّ تجد الفم والحلق فى ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال.

أما الألف: فتجد الحلق والفم معا منفتحتين.... وأما الياء: فتجد الأضراس معها سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتى اللسان وضغطته... وأما الواو: فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس» .(سر صناعة الإعراب: ١/ ٨ فما بعدها).

ب - ثم يقول ابن جنى «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهى: الألف والواو والياء،فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة، وهى الكسرة والفتحة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمّون الفتحة: الألف الصغيرة، والكسرة: الياء الصغيرة، والضمة: الواو الصغيرة، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة» (سر صناعة الإعراب ١/ ١٩ فما بعدها ط أولى ١٩٥٤).

ج - وروى الليث عن الخليل: أن الألف والواو والياء والهمزة جوف، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع فى مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان إنما هى هواء. وكان الخليل يقول: الألف والواو والياء هوائية: أى أنها فى

الهواء.... والحروف اللينة: الألف والواو والياء وهى حروف المدّ واللين، وقيل لها ذلك: لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتّسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلب، إلا أن الألف أشد امتدادا واستطالة، إذا كان أوسع مخرجا... وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف «شرح المفصل» لابن يعيش: باب الإدغام.

* ونرى من خلال هذه النصوص وغيرها :

١ ـ أن مخارج الألف والواو والياء تختلف. ففى الألف يكاد اللسان يكون مستويا فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه، وحركته متسعة. أما الياء فمن أدنى اللسان وهى حركة أمامية ضيقة، والواو من أقصى اللسان، وهى حركة خلفية ضيقة شفوية.

٢ ـ أن الحركات تنقسم إلى قصيرة وهى: الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة وهى: الألف والياء والواو، وتسمى: حروف المدّ واللين. ولا فرق بينهما إلا أن الحركات الطويلة تساوى من حيث الكمّ والمدى حركتين قصيرتين، والحركة الطويلة أقوى من القصيرة حيث تكوّن عنصرا واستقرارا فى الصيغة.

٣ ـ أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة.

٤ ـ أن هذه الحركات كثيرًا ما يحدث لها تغييرات طارئة من : حذف وإدغام وقلب وإبدال وإعلال.

* ومن عرض هذه النصوص نستطيع أن نربط فى نص القشيرى الأول بين الرياء والإعجاب، والمساكنة والملاحظة، وبين حروف المدّ واللين وهى: الألف والواو والياء (صوتيا) (وصوفيا)، لأنه لم يربط بين هذه الآفات وبين ما أسماه حروف العلة فى هذا النص. وأرجح:

١ ـ أن الألف من الجانب الصوتى تناسب (المساكنة والملاحظة) فى الجانب الصوفى. فالألف (أخفى) و (أوسع) مخرجا، و(الّين) [٤] و (أشد امتدادا واستطالة). وفيما سبق، ذكرنا أن الملاحظة والمساكنة، تكون فى (الأحوال)، واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفى المساكنة واستقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفى الملاحظة، وكلها تتصل بالدقائق (الخفية)، والرقائق غير المنظورة. وهى تشبه (خفاء) الألف، ولقد كان القراء يعدّون من الحروف الخفية الألف، بل الألف أخفى هذه الحروف (لطائف الإشارات لفنون القراءات ١/ ٢٠٠ شهاب الدين القسطلانى. تحقيق الشيخ عامر عثمان، والدكتور عبد الصبور شاهين.) ثم (اتساع) الألف لتحتوى الإنسان ومَنْ يساكنه، و(الانفراج) فى مخرجه ليسع أصحاب الأسرار، والأحوال والإحسان، كما أن (امتداد الألف واستطالته) يشبه مَنْ (يُسَاكن) غيره حيث يستأنس به، ويلين له، ويفىء إليه، فما أشبهها فى الجانب الصوتى (بامتدادالألف واستطالته).فإذا أضفت إلى ذلك ما جاء عن الخليل من قوله «إن الألف اللينة أضعف الحروف المعتلة» (تهذيب اللغة ٤٤/١، ٥١ للأزهرى تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط المؤسسة المصرية العامة.) وقول العكبرى فى إعراب القراءات الشواذ ج١ لوحة ٤ مخطوط بدار الكتب المصرية تفسير رقم ١١٩٩ «والألف ضعيفة فى غاية اللّين» أدركت معى مدى انطباق الجانب الصوتى على الجانب الصوفى، فمَن تسكن إليه نفسك وتهواه من : مالك أو زوجك أو ولدك، تلين له وتذلّ، وتصبو إليه وتخضع، وتدنو إليه وتأنس،وتقرب إليه وتضعف. فما أشبه ذلك بوصف الخليل للألف بأنها «أضعف الحروف». والألف فيها من الضعف: الرخاوة والانفتاح، وكذلك شأن المساكن.

---

(٤) يلاحظ أننا نأتى بنفس المصطلحات عند القدماء من علماء الأصوات والعربية ونتظر لها الصوفية عند القشيرى.

كما يمكن أن نربط بين الفتحة التى هى بعض ألف المدّ واللّين فى كثرة[٥] دورانها فى النسيج العربى وبين المساكنة والملاحظة وهما من آفات الطريق وأكثرها شيوعا كذلك، إذ قلما يتجرّدُ منهما عبد! فمَنْ منّا سلم من مساكنة ماله، أو زوجه أو صاحبه؟ وفى الرسالة القشيرية ١٩٤ أن القشيرى سمع من شيخه الأستاذ أبى على الدقاق رحمه اللّه، يقول فى معنى قوله ﷺ «إنه لَيُغَانُ على قلبى حتى أستغفر اللّه تعالى فى اليوم سبعين مرة»: أنه كان ﷺ أبدا فى الترقى من أحواله،فإذا ارتقى من حاله إلى حالة أعلى مما كان فيها، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدها (غيْنًا) بالإضافه إلى ما حصل فيها، فأبدًا كانت أحواله فى التزايد».

٢ ـ أما الواو من الجانب الصوتى فتناسب (الإعجاب) فى الجانب الصوفى.

وذلك أن الواو من أقصى اللسان وهى حركة خلفية ضيقة حيث يضيق مجرى النفس فى الفم «وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلُب» كما يقول ابن يعيش فى شرح المفصّل، (باب الإدغام). ويزيد ابن جنى فى «سر الصناعة» ص ٨/١ قوله «وتضمّ لها معظم الشفتين» وهى أثقل واظهر من الكسرة والفتحة؛ لأن لها مستويين: خلفية بالنسبة للحلق، ومستديرة بالنسبة للشفتين، وقد التقى رأى علمائنا القدامى والمحدثين على أنّ الضمّ الذى هو بعض حركات المدّ واللّين أثقل وأقوى من الكسر والفتح (المحتسب ٢/ ٢٩٩ط. المجلس الأعلى، الإنصاف فى مسائل الخلاف ١٤/١ ط٤، أسرارالعربية ٣١ لابن الانبارى، التصريح ٥٩/١ للشيخ خالد الأزهرى، فى اللهجات العربية ٨٥ د/أنيس).

---

(٥) الفتحة : هى الحركة الخفيفة المستحبة، ويميل إليها العربى كثيرا وهى أخف الحركات (إحياء النحو: ص . ز، ٥٠، ٧٨ إبراهيم مصطفى) وقد ثبت إحصائيا أن نسبة شيوع الفتحة كبير، يجاوز ٥٠٪ من الحركات على حين يبلغ الكسر والضم ٣٥٪ من الحركات.

وقد دلت أحدث التجارب على أن نسبة ورود الفتحة التى هى بعض الألف ٤٦٠ فى الألف على حين تليها الكسرة ١٨٤ فى الألْف، ثم الضمة ١٤٦ فى الألْف (الألسنية العربية ج٢ ص ٢٩ ريمون طحان. دار الكتاب اللبنانى - بيروت)، وانظر إحصاء آخرفى بعض الصيغ فى القرآن الكريم أكد هذه التجارب الحديثة (فى اللهجات العربية ١٥٧) د/ إبراهيم أنيس ط٢. وانظر إحصائية أخرى لثلاثة نصوص قرآنية من (البقرة ١ - ١٨) و(طه من ٢ - ٣٤) و (الروم من ٢ - ٢٠) أى من كل سورة مائتى كلمة.

وكانت النتيجة لهذه الستمائة كلمة هى: الفتحة ٥٩,٤٪، الكسرة ٢٠,٨٪، والضمة ١٩,٨٪ (العربية الفصحى ٣٦. هنرى فليش. تعريب د/عبد الصبور شاهين. الكاثوليكية - بيروت).

فإذا لاحظنا هذه المعالم الصوتية وضح لنا ما يشبهها صوفيا فى : صفة الإعجاب والمعجب. فالمعجب (ثقيل) فى نفسه، (قوىّ) فى مظهره، لأنّه متكبر مغرور، يستكبر قدره، ويستكثر طاعته، وينظر إلى غيره بعين الاحتقار والذّلّ. وإذا كانت الواو: خلفية فى مستوى الحلق، ومستديرة فى مستوى الشفتين فتلك إشارة إلى أن صفة الإعجاب تحيط بالإنسان وتملكه وتدخل عليه من كل جانب !.

والمعجب يشعر بالزيادة عن غيره ويبالغ فى ذلك حتى استقر ذلك فى سَمْته، وأصبح سجية له وخلقا، وغريزة وطبعا. وفى الجانب النحوى الصرفى تجد طبق هذا. فكل فعل أردت التعجب به أو المدح، أو قصدت به المبالغة فى معناه، أو قصدت به الزيادة أو للدلالة على أن معناه صار كالطبع والغريزة فى صاحبه - حولته إلى باب فَعُل - بضم العين التى هى بعض واو المدّ واللّين، وإن لم يكن من هذا الباب. فتقول فى الفعل كتب - بفتح العين - حين تريد المبالغة فى معناه، أو التعجب، أو قصدت أنه زاد على قرنائه فى صفة الكتابة قلت: كَتُب الرجل علىّ ! بضم عين الفعل بمعنى: ما أكْتبه !.

فإذا أضفت إلى ذلك أن الضمة فى العربية دائما ـ علامة الإسناد، بمعنى أنها تدل على تحقيق الارتباط بين الركنين الأساسيين: المسند إليه والمسند ـ أيقنت أنها قوية، لأنها تقوم بدور خطير فى الإسناد، وهى فى قوتها تذكرك بقوة هذا المعجب المتكبر!! كما ترى الدراسات الصوتية أن الواو حرف مجهور، والجهر من صفات القوة والقوة من صفات المعجب كما أن تفخيم الألف يكون بإمالته نحو الضمّ، والتفخيم: تغليظ الحرف فى مخرجه كقراءة ورش : الصلواة والزكواة والحيواة. وقد عدّ علماء القراءات التفخيم من صفات القوة، ولهذا كتبت ألف التفخيم بالواو فى القرآن كما سبق. والصلة واضحة بين الجانب الصوتى فى (التفخيم) والجانب الصوفى فى (الإعجاب).

٣ ـ أما الياء من الجانب الصوتى فيناسبها آفة (الرياء) فى الجانب الصوفى.

وذلك أن الياء أيسر نطقا من الواو؛ لأن الياء تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه، وهو مخرج الضمة التى هى بعض واو المدّ (فى اللهجات العربية ٨٥، أسرار العربية ٣١٦ ابن الأنبارى). كما مالت العربية إلى الكسرة التى هى بعض ياء المدّ. كلما كان لها أن تختار بينها وبين الضمة مما يؤكد ثقل الواو. كما تميل العربية إلى قلب الواو إلى الياء وهذا دليل على خفة الياء.

ويقول ابن الأنبارى: «إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبوا الواو ياء، وجعلوها ياء مشددة فقالوا: طيّا وليًا وشيّا. والأصل فيها طَوْيا ولَوْيا وشَوْيا. وإنما وجب قلب الواو إلى الياء دون قلب الياء إلى الواو لأن الياء أخف من الواو فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر كان قلب الأثقل إلى الأخف أولى (الإنصاف ١/١٤ط السعادة. ط٤).

والمرائى أضعف من المعجب، لأنه يتظاهر بما ليس فيه، ويرى الناس خلاف ما هو عليه ليخدعهم به، فسبيله ملتوية، وطرقه غير مستقيمة؛ ولذا

ناسبه الياء، والياء من علامات التصغير فى العربية فهى علامة ضعف، ونرى الياء ـ صوتيا ـ ضعيفة أيضًا بالاستفال والرخاوةوالحروف المستفلة ضد المستعلية، وما أدقّ قول ابن الجزرى فى النشر ٢٠٢/١ حين قال: وأسفل (الحروف) المستفلة الياء. وكذلك المرائى يحسّ بحقارة نفسه، وصغر شأنه فى كل أموره. كما أن كلمة (الرياء) تشتمل على حرف الياء، فهى بها أولى.

وفى الجانب الصوتى نجد الواو والياء تعتبران صوتيا حركتين متقابلتين (متنافرتين)، إذ الواو حركة خلفية،والياء أمامية، ومثل هذا التنافر تجده فى الجانب الصوفى، لاحظ الواو للإعجاب، والإعجاب يتصل (بالأحوال)، والياء للمرائى، والرياء يتصل (بالأعمال). والواو يميل إلى البدوى، لأنها مظهر من مظاهر الخشونة البدوية، والبدوى ميله إلى الكبر والإعجاب أشد، أما الياء فتميل إليها المجتمعات المتحضرة، (فى اللهجات العربية ٨٣ ط ٢ دكتور إبراهيم أنيس)، وانظر: اللهجات العربية فى التراث ٣١٢ دكتور أحمد علم الدين الجندى. الهيئة المصرية العامة للكتاب). وفى البيئات المتحضرة يكثر الرياء والتصنع [٦].

هذا، ولما كان المعجب يعجب بنفسه ويتعامل معها، والمرائى يرائى الناس، وهم أكثر عددا وأوسع شمولا، ناسبه صوت الياء. يؤكد هذا ما يقرره علماء النحو من أن «باب الياء أوسع من باب الواو» (همع الهوامع ٤٧١).

ونعرض أمامك نصًا صوتيا لعالم من علماء الأصوات والعربية يقوى ما نذهب إليه هنا، وما ذهبنا إليه من قبل مِنْ:

* أنّ قوة الواو والضمة (صوتيا)، لتناسب قوتها قوة المعجب فى تكبره وغروره، وثقله وصلفه (صوفيا).

* وأنّ انحطاط الياء والكسرة عن الواو والضمة (صوتيا)، لتناسب الياء حقارة المرائى وهوانه فى مجتمعه، وصغر نفسه (صوفيا).

---

(٦) وما أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المتحضرة المعاصرة من هذا الداء الوبيل.

* وأن الألف والفتحة كانتا أعذب أخواتها وألينها وأخفاها (صوتيا) وهي في ذلك أقرب إلى صفة المساكنة وما فيها من: ضعف ولين، وخضوع وذلّ في الجانب (الصوفي). وإليك النص :

قال أبو الفتح ابن جنّي: غلا في (قوله): غلوًّا، وغلا(السعر): يغلو غَلاء. فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي... فلما اتفق اللفظان والمثلان في الماضي والمضارع خالفوا بين مصدريهما ليكون ذلك الخلاف بين مثاليهما أنفسهما فقالوا: غُلُوًّا وغلاء (المحتسب ٢/ ١٣٩ ط المجلس الأعلى).

نعم، وخصّوا (غلا) في (القول) بالغلوّ، لأن لفظ (فُعُول) أقوى من لفظ (فَعَال)، للواوين والضمتين، (وضعْف الألف) والفتحتين، وذلك أن الغلوّ في (القول) أعْلى وأعنى عندهم من غلاء السّعر، ألا ترى إلى قول اللّه تعالى: «تكاد السّموات يتفطرْن منه وتنشقّ الأرضُ وتخرّ الجبال هدًا أنْ دعوْا للرحمان ولدا» وقال تعالى: «ياأهل الكتاب لا تغْلُوا في دينكم» وأما غلاء السّعر فلا يدخل النار ولا يحرّم الجنة.

ثم إنهم قالوا: غَلتْ القدر تغلي غليانا ـ فلما (صغر) هذا المعنى في أنفسهم أخذوه من الياء، لأنها تنحط عن الواو والضمة إلى الياء والكسرة، (أي في المضارع: تغلي).

فإن قلت: فقد قالوا: علْوت في (المكان) أعلو علوًّا، وعليتُ في (الشرّف) عَلاء، فجعلوا الشرف دون ارتفاع النّصْبَة. قيل: لم يجْفُ الشرف عندهم، ولا تبشّع تبشّع الكفر والغلوّ في القول المعاقَب عليه، والمنهيّ عنه، فَلان جانبهُ، ونَعُم وعَذُب في أنفسهم، فبنوه على (فَعِل) لتنقلب الواو ياء، ومصدره على (الفَعَال)، لعذوبته بالفتحتين والألف.

وهذه أماكن إن رفَقْت بها، وسانَيْتَها، وتأنّيْتَها، ولم تَبءَ عليها (لم تتفاخر ولم تتسام) وتَخْتَبِطْها ـ أوْلتك جانبها، وأركبتك ذروتها، وقبلتْك لها

ضيفا، وبسطتك يدًا وسيفا. وإنْ أخلدْت بها إلى ضدّ هذا أخلدتْ بك إلى ضدّه، فتلافيا ورفقا، لا مُغالاة ولا خُرْقا (المحتسب ٢/١٤٠ ط المجلس الأعلى).

* تلك هى المذكرة التفسيرية التى توضح إشارة القشيرى فى النص الأول فى المعتلّ من الأفعال حيث قال «وبعض صنوف العلة الطف من بعض، وبعضها أجلى من بعض» والصحيح من أفعال العباد: ما سلم من صنوف العلّة، وهى : الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة، وإذا كانت عقبات الطريق وقوادحه بعضها ألطف وبعضها أخفى، فقد كشفنا عن حروف (العلة) ما كان منها ألطف وأخفى، وما كان منها أظهر وأجلى.

-٣-

* أما النص الثانى فقد كفانا القشيرى مؤونة الكشف عن إشاراته حيث قرن كل حرف من حروف العلة، بآفته فى المعتل من الأسماء فقرن الألف (بالإلباس)، والواو (بالوسواس) والياء (بالياس)

ولنذهب إلى المعاجم فنراها تقول:

١ ـ لبس عليه الأمر : اختلط، وفى أمره لُبْس ولُبْسَةٌ: إذا لم يكن واضحا.

والتبس عليه الأمر: اختلط واشتبه، واللبس: الشك. واللِّبس: الشبهة، وأمرٌ ملبس: مشتبه.

وفى القرآن الكريم «ولا تلْبِسوا الحقّ بالباطل» (٤٢ البقرة).

لا تخلطوا الحقّ بالباطل لتخفوه، أو لا تستروا الحق بالباطل لتجعلوه معمى مشكوكا فيه.

فالمعنى اللغوى دائر بين التخليط، والتعمية، والشك والحيرة والتدليس والشبه. فإذا اتجهت إلى الجانب الصوفى الإسلامى وجدت أن العبد عليه أن يترك أبوابا من الحلال خوفا من الوقوع فى الحرام. وهذا معنى قول

الرسول ﷺ «لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به،حذرا لما به بأس» (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ٢٠١).

وإذا كان اللّبس هو الشبهة، فأنت منهى عنها ليطيب مطعمك ومشربك وملبسك ولا تكن كالذى يرتع حول الحمى فيوشك أن يقع فيه وفى الحديث« مَنْ ترك الشبهات استبرأ لذمته ودينه وعرضه، ومن واقع الشبهات، فكأنما واقع الحرام» (المسائل فى أعمال القلوب ٢٠١). وكان مطرف بن الشخير يقول: «صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا صفى له، ومن خلّط خُلّط عليه» (علم القلوب ١٨١).

وتستطيع أن تربط صوتيّا بين الألف، وهى أخفى حروف العلة، وأضعفها، وألينها ـ وبين التلبيس بمعنى الخفاء والشك والتعمية،كما أن ألف المد يصيبها التخليط والتلبيس وعدم الوضوح والاشتباه حين تكون (مَشُوبة) [٧] بالكسرة فى الإمالة، والإمالة أشكال وأنواع ودرجات، كما تكون ألف المد واللين (مختلطة) (٧) بالضمة وهى المسماة بألف التفخيم، وقد تكون الألف بين التفخيم والترقيق،والفاصل بين هذه الدرجات فى الجانب الصوتى دقيق جدا، كذلك الحرام والحلال بينهما مشبَّهَات والصوفى يترك هذه الشبهات والآفات.

٢ ـ أما الوسواس : فترى المعاجم أنّ :

أ ـ الوسوسة: حديث النفس وهو ما يخطر بالبال ويهمس بالضمير، ويقال لصوت الحلى: وسواس .

ب ـ الوسوسة : الخطرة الرديئة .

ج ـ الوسواس : الشيطان الذى يوسوس لغيره.

فالمعنى اللغوى دائر بين: الكلام الخفىّ، وحديث النفس ، والشيطان. فإذا اتجهت إلى جانب الصوفى وحدث أن الخاطر ـ وهو خطاب يرد على

(٧) يلاحظ أننا نأتى بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية عند القشيرى.

الضمائر ـ إذا كان من المَلَك فهو الإلهام،وإذا كان من قِبَلِ النفس فهو الهاجس، وإن كان من قِبَل الشيطان فهو: الوسواس، وما كان من قبِلَ الشيطان فهو يدعو إلى المعاصى، وماكان من قبِلَ النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة، أو استشعار كبر «والشيطان طالت مقارنته للإنسان وتفقده له ولأحواله، حتى لم تخف عليه حاله، فعرف مطالبه ومذاهبه» (المسائل فى أعمال القلوب ٨١). وهو مجبول على عداوتك، ومنتصب أبدا لمحاربتك يرميك بسامه، وله مع العباد عداوة عامة ومعك أيها المجتهد فى العبادة عداوة خاصة، ومعه عليك أعوانٌ أشدّها عليك: نفسك وهواك وله أسباب ومداخل، وهو يراك وأنت لاتراه (منهاج العابدين٣٢) وهو يأتيك من جميع جوانبك.

والطريق لدفعه بالمجاهدة والمخالفة والاستغراق فى الذّكر، وفى الحديث عن أنس «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر اللّه خنس، وإن نسى اللّه التقم قلبه» (منهاج العابدين٣٦)، ومن ختله وعداوته ووقوفه لك بالمرصاد، أنه عادى أبويك فأذاقهما المرارة بعد اللذة،وغرهما بفجوره، ونزع عنهما لباسهما، ولم يرجع إلى اليوم عن غيّه «إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا».

وتستطيع بعد هذا أن تربط (صوتيا) بين الواو ـ وهى أثقل وأقوى من نطق الياء والألف ـ وبين الشيطان عدوك اللعين الجاثم على قلبك، يأتيك من وجه الإفساد إغواءً وضلالا، ومن وجه الخير والصلاح مكرا وخداعا، كما أنها تحتاج إلى جهد عضلى أكثر، والشيطان يحتاج إلى جهد ومجاهدة، ثم لاحظ أن الواو خلفية فى مستوى الحلق، ومستديرة فى مستوى الشفتين،والإشارة من ذلك أن الشيطان قوى يحاول أن يوقعك فى قبضته. لأنه يأتيك من جوانب متعددة من الخلف (فى مستوى الحلق) [8]

(٨) يلاحظ أننا نأتى بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية.

والأمام (فى مستوى الشفتين) (٨) وقد استعاذ العباد بربّ الناس «مِنْ شرّ الوسواس، الخنّاس الذى يوسوس فى صدور الناس».

٣ ـ أما : اليأس.

فهو ضيق باب الأمل والرجاء : وفتح باب القنوط والشقاء ولعلك تستطيع أن تلمح ما بين المعنى الصوفى والصوتى من رباط يظهر فى (ضيق) (٨) مخرج الياء، كما يظهر فى الجانب الصوفى من (ضيق) باب الأمل والرجاء، زد على ذلك أن التصغير فى العربية يكون بزيادة الياء، والتصغير علامة ضعْف، وفى الفصيلة الهندية ـ الأوروبية على العموم تجد الكسرة (التى هى بنت الياء) تعبر عن صغر الحجم، والرّقة، وقصر الوقت (من أسرار اللغة ١٤٨ دكتور إبراهيم أنيس ط٤) وتلك الملامح السابقة من: تصغير ، ورِقّة، وصغر حَجْم تشيرإلى الضّعْف، وهى من هذا الجانب أشبه بِمَنْ أصابه اليأس والقنوط، فتراه ضعيفًا غاية الضعف، ألم تغلق نفسه أمامه النوافذ؟ وتسدّ حوله الفُرج، وسبل الرجاء والأمل؟ وكذلك الياء ضعيفة بالاستفال والرخاوة، والاستفال ضدّ الاستعلاء، ويقول ابن الجزرى (فى النشر ٢٠٢/١): «وأسفل المستفلة الياء». ولهذا حذّر القشيرى من هذه الآفات، ودعا إلى كبح جماح النفس بلجام التقوى، وسوقها على خلاف الهوى، وشنّ عليها حربا لا هوادة فيها، يصارعها فى معركة ضارية لا تهدأ ولا تلين وكان القشيرى خبيرا بآفاتها،مدرك لخلجاتها، حكيما بأدوائها، ولهذا ردد اسم هذه الآفات السابقة وهى: المساكنة والملاحظة، والإعجاب،والرياء والوسوسة... كثيرًا محذرًا منها ومنذرا. ولهذا قمت بإحصائية فى (رسالته) المشهورة لهذه الآفات والأمراض النفسية فأشارت (لغة الإحصاء) إلى شيوع تلك الآفات وانتشارها:

نوع المرض	عدد وروده	نوع المرض	عدد وروده
المساكنة ومشتقاتها	٢٤	الرياء ومشتقاته	١١
الوسواس ومشتقاته	١١	الملاحظة ومشتقاتها	٧
اليأس ومشتقاته	٦	الإعجاب ومشتقاته	٤

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أن (النفس) محل الأوصاف المذمومة، أليست هى التى تَنْهمَكُ فى الشهوات، وتمتنعُ عن الطاعات؟ وتعتاد الشهوة والملذات! وصدق رسول ﷺ حين قال فى دعائه «... لا تكلْنى إلى نفسى طرفة عين» ولهذا كان أول قدم فى القصد إلى الله الخروج عن النفس، وكسْر شوكتها بالتبرّى عن حولها، وانسلاخها عن اختيارها.

وإذا كانت الآفات السابقة قد انتشرتْ وذاعت فى رسالة القشيرى كما رأيت فى الإحصاء، فتلك إشارة منه إلى شيوعها وذيوعها فى المجتمعات وبين الناس كذلك، لأنها آفات وأمراض، ومن خصائص هذه الآفات وتلك الأمراض: الانتشار والذيوع، والعدوى، والشيوع. إذا وضح هذا عرفت سر انتشار قرنائها ومثيلاتها كذلك، وهى: أصوات المدّ واللّين: الألف والواو والياء فى الجانب الصوتى.

فقد جاء فى كتاب «بصائر ذوى التمييز [٩] فى لطائف الكتاب العزيز» ج١ص ٥٦٣ فما بعدها: أن القرآن الكريم قد اشتمل على:

٤٨٨٠٠ ألفا

٢٦٥٦٥ واوا

٢٥٩٠٩ ياء

(٩) تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى بتحقيق الأستاذ محمد النجار. القاهرة ١٩٦٤.

وبمقارنتها بالأصوات الصامتة فى القرآن تعرف مدى كثرة: الألف والواو والياء وشيوعها فى نسيج القرآن وسداه :

فالشينات ٢٢٥٣

والصادات ١٠٨١

والطاءات ٢٢٧٤

والظاءات ٨٤٩٩

ولم يقارب (الألف والواو والياء) فى الإحصاء إلا :

اللامات ٣٣٥٢٢

الميمات ٢٦١٣٥

النونات ٢٦٥٢٥

والسرّ فى هذا التقارب أن اللام والميم والنون تعدّ من الناحية الصوتية شبيهة بأصوات المدّ واللين، ونخلص من هذا بأن شيوع الألف والواو والياء فى النسيج العربى معناه شيوع مدلولاتها وهى: الإلباس، والوسواس، واليأس، والمساكنة، والملاحظة، والإعجاب، والرياء.

ويمكن أن نعلل لانتشار المساكنة وكثرتها فى رسالة القشيرى حيث وردت ٢٤ مرة، وهو عدد لم ينله مرض آخر بأن السرّ فى ذلك: أن المساكنة من أكثر الآفات شيوعا فى الطريق الصوفى، فمَن منّا يتجرّد منها، ومَنْ منّا يسلم من مساكنة ماله، أو ولده أو صاحبه؟

وبهذا أمكننا فى ضوء تلك الإحصاءات بين الجانبين أن نؤكد الرباط الصوتي الصوفى ونقويه، ونزيده توثيقًا وبيانًا، وإحكاما ونظاما.

وليس بدعا ما عرضناه فى تلك المحاولة وأثبتناه،فقد نجد فى تراثنا العربى اللغوى نتفا تقوى ما نذهب إليه، ففى سيبويه (٢١٨/٢) يرى فى

المصادر التى جاءت على الفعلان أنها تأتى للاضطراب والحركة نحو: الغليان والغثيان، فقابلوا بتوالى حركات المثال (يقصد البناء) توالى حركات الأفعال، كما يرى ابن جنّى فى الخصائص (١٥٢/٢ فما بعدها): أن أقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قوة الفعل، وضرب أمثلة لمساوقة الصيغة للمعانى، فمن ذلك :

(أ) خضم وقضم: فالخضْم لأكل الرطب،والقضم للصلب اليابس، وفى النهاية لابن الأثير (باب القاف مع الضاد) حديث أبى ذر ﷺ: تأكلون خضْما ونأكل قضْما. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

(ب) والنضْح - بالحاء غير معجمة - ما كان رشا خفيفا. والنضخ - بالخاء - ما كثر حتى يبل. فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه.

(ج) ولك أن تنقل الفعل إلى باب (نصر ينصر) للمفاخرة والمبالغة، وذلك مطرد عند رجال التصريف، كما تنقل الفعل إلى باب (علم يعلم) إذا أردت الدلالة على التغير خلوا وامتلاء وجودا أو عدما، وتنقل الفعل إلى باب (كرم يكرم) إذا أردت الدلالة على الأوصاف الخلقية،والطبائع والغرائز إذا كان لها رسوخ ومكث، ويعلل الضم فيها، لانضمام الطبيعة إلى الذات عند صدور هذه الأفعال منها، كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها (اللسان العربى مجلد ١٠ ج١ ص٦٩) فإذا قلت: لؤم: دلت على الكثرة والدوام والثبات وهى تمثل أعلى درجة من هذه الصفة، وتنقل الفعل إلى باب (فعل يفعل) بكسر العين فيهما إذا أردت الدلالة على التقسيم والتجزئة مثل: ورث يرث.

(د) ينفر - بالضم من النفار والاشمئزاز، وينفر - بالكسر من نفر الحجاج من عرفات (المزهر ١/ ٢٠٨).

والإنسان فى عالمه إما مؤثر وإما متؤثر، أو إما أن يقوم بالحركة بنفسه وإما تحصل له من غيره ممن يعيش معه أو من عناصر الطبيعة من: رعد ومطر ونار... (والعربى لما رأى فى عالمه أبعادًا ثلاثة بنى لغته على ثلاث حركات أيضًا :

١ ـ الفتح : وهو ما صدر عن إرادتك مثل : ضرب خرج قطع أكل..

٢ ـ الكسر : وهو ما صدر عن العالم الخارجى مثل: مرض حزن عطش سقم. فالفعل مكسور العين وقد دل على كل ما يحصل للفاعل بدون إرادة منه.

٣ ـ الضم : وهو يشير إلى التجمع والكثرة والثبات مثل : حسن كبر.. وهو يشير إلى حصول الشىء للفاعل بكثرة ودوام (اللسان العربى).

إذن الحركات قصيرها وممطولها لا يرجع عامل الاستحسان والاستخشان، أو الثقل والخفة فيها أو اختلاف الدلالة عليها إلى عوامل ظاهرية فحسب وإنما ترتبط بعوامل أخفى وأدق: صوتية عضلية فيزيائية كيميائية نفسانية، وهى التى تجعل الصيغة تؤثر حركة على أخرى. وكلما ازدادت الحركة شبها بالمعنى كانت أدل عليه، وأشهد بالغرض منه.

ومن هنا كانت قفزتنا ولفتتنا حين جعلنا رحما وثيقة بين عالم الأصوات فى حركات المدّ واللين وبين عالم الأرواح والأسرار، حيث كنا نتعامل مع حركات المدّ: الواو والألف والياء ملاحظين أنغامها وأجراسها ورنينها وتفاعلاتها على اعتبار أنها تمثل خلية تنمو وتتطور، وترسل وتتقبل وتنبسط وتتحجر. كما ظهر أن تلك الحركات عندما تختلف على الصيغة فإنها تؤلف نمطا منسجما يتواكب مع المعانى. وهذه المساوقة بين الحركات ومعانيها تعد نمطا فريدا لسياسة الحروف والحركات فى العربية، وهى فى ذلك لا مثيل لها فى اللغات، حيث تمتاز بحساسية وطواعيه للتعبير عما يدور فى النفس من خلجات وأفكار.

- ٤ -

ويتجلّى لك من نص القشيرى السابق: «مَنْ سلم اسمه من ألف الإلباس وواو الوسواس، وياء اليأس ـ فقد صح اسمه، وحق له الإعراب وهو البيان».

١ ـ أنه جسّم هذه الآفات، وأبرزها عن طريق النغم فى موازاة فقراتها وتساويها، وإلزامها حرفا موسيقيًا واحدًا.وهو السين، وهو صوت رخو مهموس، فكأن القشيرى (يهمس) فى أذنك ليحرك خلجات نفسك، وخطرات قلبك، ودقائق مشاعرك، ورقائق أحاسيسك، فتقطع العوائق، وتمحو العلائق، وتتخلى عن الآفات والمفاسد، وتتحلى بالفضائل والمحامد، وتنفّذ الأوامر الإلهية فى دقّة وورع، فيتم لك اكتشاف أبعاد نفسك، وتنطلق من مرحلة إلى أخرى حيث انتظار الفيض، والتطلع إلى الرضى، ويكون ظاهرك مع الخلق، وباطنك مع الحق.

٢ ـ أن القشيرى استغلّ أصوات اللين والمدّ وما سما، (حروف العلة) فحمّلها معانى نفسية، وجوانب أخلاقية دقيقة، وكلّها غير مرغوب فيها؛ لأنها معلولة منحرفة كحروف العلة.

وإنما آثر حروف (العلة) فى نَصيَّةٌ أول الملحق؛ لأنها (عرَضٌ) أما الأصوات الساكنة فهى (الجوهر) والأصل، وحروف العلة إذن أقرب إلى العلل والآفات والأمراض: كالإعجاب والرياء، والمساكنة والملاحظة، والإلباس والوسواس واليأس. ولذا كان النحاة يصفون هذه الأصوات ـ نظرا لما كان يتوارد عليها من : الحذف والقلب والإعلال، والإدغام والإبدال ـ بالاعتلال.

٣ ـ أن هذه الأصوات اللينة الممدودة المعلولة ـ يرتبط بعضها ببعض فهى متدرجة متداخلة صوتيا؛ لأن ثلاثتها يرتكز على الشفتين، ضمًا وانفراجا، وعلى اللسان صعودا وهبوطا، وكذلك نلمح هذا التدرج والتداخل فى الآفات والأمراض النفسية، والخلقية التى تحدثنا عنها آنفا. من ذلك:

بثر (بالفتح) وجهه: أخرج بثورا . وبثر (بالكسر) وجهه حصلت له بثور. وبثر (بالضم) وجهه. أصبح ذا بثور. فهناك تدرج واضح فى المعانى بين الصيغة الواحدة حين تقاصفت عليها الحركات والتى هى أبعاض من حروف المدّ.

ولهذا لم يستعمل القشيرى الأصوات الصامتة: لأن كل حرف صامت لا صلة له بصاحبه، فالفاء غير القاف، والحاء غير الخاء...

٤ ـ وأهم خاصية لحروف المدّ واللين (المعلولة) الجهر وقوة الوضوح السمعى إذا قيستْ بالأصوات الصامتة، ولما كانت أوضح فى السمع كان الانحراف فى نطقها نابيا فى الأسماع، وكذلك تلك الآفات والأمراض فهى نابية مرفوضة، حيث إن أصحابها لم يكبحوا جماح نفوسهم، ولم يحاربوا أهواءهم وأطماعهم، واستداموا المنى والمطالبات ورتعوا فى مرابض الشهوات.

٥ ـ أن زيادة حروف المدّ واللين: الألف والواو والياء (العلة) فى الصيغة تخرجها عن أصولها؛ ولهذا عَدّوا الصيغ الآتية من ضرورات الشعر، لأنها خرجت عن الأصل، وأقبح الضرائر عندهم، الزيادة المؤدية إلى ما ليس أصلا فى كلامهم :

أ ـ كقول الفرزدق :

تَنْفِى يداها الحصى فى كلّ هاجرة نَفْى الدراهيم تَنْقَادُ الصَّيــارِيف

والأصل: الدراهم والصيارف (كتاب سيبويه: ١/ ١٠،ديوان الفرزدق ٢/ ٥٧٠ شرح البرقوقى. القاهرة، شرح أبيات سيبويه ٩ للنحاس. حلب ١٩٧٤).

ب ـ وقول ابن هرمة فى رثاء ولده :

فأنت من الغوائل حين تُرْمَى ومن ذمّ الرجال بمنتزاحِ

والأصل : بمنتزح

ج ـ وقول عنترة :

ينباعُ من ذِفرى غضوبٍ جَسْرة　　زيّافــةٍ مثــلِ الفنيـق المُكْــدَمِ

والأصل: ينبع. (٢٢ ديوان عنترة: التجارية. القاهرة،الخصائص ١٢١/٣)

وكما مطلت الكسرة والفتحة،وجدناهم يمدّون الضمة حتى تصبح واوا، فمن مطلها وزيادتها فى الاسم :

أ ـ وليلــةٍ خــامــدة خمــودا　　طخْياء تُغْشِى الجَدْى والفُرقُودا

والأصل: الفرقد. (الصاحبى ١٩٣. السلفية. القاهرة).

ومن مطلها فى الفعل :

ب ـ وإننى حَوْثما يثْنِى الهوى بصرى　　من حيثُ ما سلكوا أدنو فأنظور

والأصل: أنظر. (خزانة الأدب ١/ ٥٨، ٤٧٧/٣ و٥٤٠ بولاق، الهمع ١٥٦/٢).

ج ـ (لو أنّ عمْرًا همّ أن يَرْقودا)

والأصل: يرقد (الصاحبى ١٩٣).

فهذه الأسماء والأفعال لمّا زيدت عليها حروف المد واللين (العلة) أخرجتها عن أصلها وألحقتها بالضرائر، وليست الآفات والأمراض النفسية والخلقية التى ذكرها القشيرى مِنْ: الإعجاب ، والرياء،والمساكنة، والملاحظة، والوسواس، والإلباس،والياس، إلا عللا وزيادات وعوارض وقوادح طارئة، تخرج العبد عن أصله؛ لأن الأصل أن يكون العبد متخلّصا منها فى الطريق الصوفى، فإذا لحقته خرج عن أصل العبودية الصحيحة، وكذلك عندما لحقت حروف العلة تلك الصيغ أخرجتها عن أصلها، وانحرفت بها عن طريق العربية السّديدة. وقد كان المعرّى كذلك يمقت الفضول والتزيّد ـ فى الحروف والأناسىّ جميعا ـ ويدعو الله أن يجنبه

ذلك فلا يجعله كالحروف الزائدة؛ لأنها ـ فيما يرى ـ فضولية غير أصيلة. «فأما واو عمرو ـ فأعوذ بك ـ ربّ الأشياء ـ إنما هى صورة لا جرس (لا صوت) لها ولا غناء ـ مشبهها لا يحسب مِن النسَمَات» (رسالة الهناء. أبوالعلاء المعرى. آخرها هامش).

٦ ـ والقشيرى جرى فى تقسيم حروف المد واللين مجرى النحاة مع خلاف يسير، فهو يذكر: ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس، فيضيف الألف والواو والياء إلى الآفات التى تعترض طريق العبد فى الطريق الصوفى، لكن النحاة تضيفها إلى جزئيات النحو ومسائله، وقضاياه، وأبوابه وفصوله. فيقولون:

ـ ألف الأصل، ألف الوصل، ألف القطع، ألف الترنم، الف الإشباع، ألف التعجب، ألف التعريف، الف التسوية، ألف العوض، الف التفخيم، ألف التقرير، ألف الإيجاب، ألف التخيير. (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٢/٦ط المجلس الأعلى. القاهرة ١٩٦٤). وانظر: (كتاب معانى الحروف ص ١٤٣ لأبى الحسن الرمانى بتحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبى ط نهضة مصر).

كما يقولون :

ـ واو الحال، واو الاستئناف، واو القسم، واو النسق. (كتاب الأزهية فى علم الحروف ٢٤٠ تأليف أبى الحسن على بن عيسى الرمانى بتحقيق عبدالمعين الملّوحى. دمشق١٩٧١). وانظر: (بصائر ذوى التمييز ١٤٥/٥ تحقيق الأستاذ الطحاوى ١٩٧٠ القاهرة).

كما يقولون أيضا :

ـ ياء الوقف، ياء التصغير، ياء النداء.

فتقسيم القشيرى اشبه بتقسيم النحاة إلا أن القشيرى يوضح بهذه

الحروف جوانب سلوكية، ويكشف بها آفاقا مرضية، والنحاة يقصدون منها جوانب: نحوية، لسانية، أسلوبية.

وأخيرا: فقد رأيت أن القشيرى حمّل أصوات المدّ واللين (العلة) دلالات ومعانى دقيقة، فاستشف من الحروف رموزا هى أقرب إلى وحْى الأصوات، واستوحى منها دقائق المعانى ورقائقها، على أن الخلاف قد دبّ بين القدماء من علماء اليونان والعربية فى الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها، وفى مناسبة الحروف لصوت الأحداث [10]، كما انعكست آراء هؤلاء على المحدثين من علماء الشرق والغرب، فمنهم مَنْ عارض هذا الربط، ومنهم من أيّده، وأرى أن الألفاظ بمرور الزمن تكتسب قدرا أكبر من الرمزية، وهم لهذا يعتزون بها، وينقبون عما تتضمنه من أسرار، وينسبون لها فوق ما لها فى الحقيقة والواقع (انظر دلالة الألفاظ: الفصل الثالث والرابع. دكتور أنيس ط٣)، ولقد كان القشيرى بارعا حيث مدته قدرته بظلال من الدلالات استوحاها من تجربته العلمية، وحياته الباطنية، ورحلاته النفسية، فقد استشفّ من أصوات الواو والياء والألف دلالات لاتراها إلاّ نفسه، وظلالا وألوانًا لا تفسرها غير ريشته. وهو بذلك أشبه بالفنان الذى يرى فى الصورة ما لا يراه غيره، أو الشاعر الذى يرى أن الحركة فى قصيدته ذات ألوان.

أما حديث (ابن جنىّ) اللغوى عن الواو والياء والألف فهو حديث العالم الذى لايهمه فيها إلا الجانب العلمى الصوتى.

وقد يهمّ بعض العلماء من الحروف جوانب أخرى فمثلا: ابن مسرّة ٣١٩ هـ. يربط بين حروف (الألف والواو والياء) التى هى حروف العلة وبين

(١٠) انظر الخصائص لابن جنى ٢/١٥٢ ـ ١٦٨.١/٦٤ ـ ٦٦ «باب فى امساس الألفاظ أشباه المعانى» والخصائص ٣/٢٦٤ ـ ٢٦٩ «باب فى قوة اللفظ لقوة المعنى». والخصائص ٢/ ١٤٥ ـ ١٥٢ «باب فى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى».

النفس فى مراتبها الثلاث: النفس الناطقة، والنفس الحيوانية، والنفس النباتية، واستغلال الشكل الكتابى لهذه الحروف فى تأييد هذه الفكرة» الألف قائمة هكذا (ا) والياء ساجدة هكذا (ى) والواو منحنية هكذا (و).

ويضيف ابن مسرة إلى ذلك قوله «وكذلك نجد هذه القوى النفسانية الثلاث فى الخلق، وذلك أن الحيوان الذى له نفس ناطقة منتصب القامة، مثل الألف، وما له نفس حيوانية فقط فهو راكع منحن مثل الواو، وما له نفس نباتية فهو ساجد فى هيئته؛ لأن رأسه مما يلى الأرض فقط كالنّبَات كلّه (من مؤلفات ابن مسرة المفقودة - ص ٥٤ فصلة من مجلة كلية التربية جامعة طرابلس. للدكتور كمال جعفر).

أما المعرى فله مداعبات وملاعبات مع الألفاظ والحروف [١١]، يصورها ويسبح فيها خياله ويتمثل حياتها، وقد يجرى حوارا بين أصواتها وحروفها، فيشبّهُ نفسه أو غيره بها ومن ذلك قوله:

والناس - بين حياتهم ومماتهم - مثل الحروف: محرّكٌ ومسكّنُ

ويتفجّع لفقد بصره، ويقابل بين نفسه وبين (معتل العين) فيقول:

اعْلِلتُ علّة (قال) وهى قديمة أعْيا الأطبّـة كُلَّهـم إبراؤُهـا

كما يرجو المعرى ربه ألا يكون معتلا كـ «واو يقوم» ولا مبدلا كـ «واو موقن» تبدل من الياء. بل يذهب المعرى إلى أكثر من ذلك، فهو يرى أن الحروف تستشعر خوف اللّه تعالى. (آخر رسالة الهناء (هامش) لأبى العلاء المعرى بشرح كامل كيلانى. بيروت). والصوفية وإن اتفقوا على ضرورة دراسة الحروف إلا أنهم يختلفون هدفا وغاية، ويتشعّبون فى مذاهبها طرائق قددا.

---

(١١) من هذه المداعبات مثلا قول بعضهم: رحم الله عبدا راح يبحث عن النقط ليضعها فوق الحروف، فلما وجد النقط وعاد بها لم يجد الحروف!.

وقد وقفت على أن غاية القشيرى منها تتمثل فى تصحيح السلوك الإنسانى، وربطها بمذهبه فى التخلق، فكانت بمثابة علامات ونذر فى الطريق الصوفى، فمَن سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس. فقد صحّ اسمه، لعدم تأثير الأطماع والشهوات فيه، وتخلصه من الشواغل والعوائق، ونبذه الآفات والمفاسد.

ولما كانت حروف المدّ واللين: الواو والياء والألف لها قيمة مهمة فى الجانب الصوفى فقد آثرتُ تسميتها «صوفية الحركات» أو «أخلاقية الحركات» وهى كذلك لاتقل خطرا عنها فى الجوانب: الصوتية، والصرفية، والنحوية.

فمن وظائفها فى الجانب الصوتى: الجهر وقوة السمع، ومكانتها فى العروض العربى حيث سجلتْ فى موازين الشعر (اللغة العربية: معناها ومبناها ص ٧١ دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية.القاهرة).

وفى الجانب الصرفى: نراها مناطا لتقليب صيغ الاشتقاق، وهى تمثل عنصرا أساسيا فى تأليف الصيغ المتفرعة، فالصور الصرفية المأخوذة من (قَتَل) ما كان لها أن توجد بدون حروف المد واللين (العلة): قاتّل قتيل، قتول، مقتول، قتال....

وأنها تمثل عنصرا مهما فى كل من : النبر فى الجانب الصرفى، والتنغيم فى الجانب النحوى، رد على ذلك أنها تكوّن قمم المقاطع العربية.

وفى النهاية تشكّل علامة إعراب فرعية فى أبواب: المثنى، وجمع المذكر، وما ألحق بهما، والأسماء الستة.

(٣)
بين المبانى والمعانى فى النحو

«مَن وقف مع حسّ المبانى كان محجوبا عن اللّه»
«ومَن وقف مع حسّ المعانى كان عارفا باللّه»

-١-

كان الإعراب ولا يزال أصلا من أصول النحو. إلا أن الإعراب طغى عليه حتى انصرف النحو عن أصوله الأخرى إلى هذا الإعراب يفلسفه ويعلله. وعرّفوا الإعراب بأنه: تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا، فالإعراب يتكون من عنصرين:

أولهما : العامل وهو المؤثر.

وثانيهما : الأثر.

وقد اختلف علماء العربية أمام حركات الإعراب، وهل هى دالة على المعانى أم لا؟

وأول من أشار إلى ذلك الخليل بن أحمد حين قال: إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليتوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن لا زيادة فيه [١٢]،وقد اشتد الجدل بين تلاميذ الخليل، فمن قائل: بأنها دالة على المعانى من فاعلية ومفعولية وإضافية [١٣]، ومن قائل [١٤] بأن حركات الإعراب ليست لها بالمعنى علاقة مفهومة، فلا مدلول لها ولا معنى. وصاحب هذا الرأى: قطرب، أبو على محمد بن المستنير ت ٢٠٦هـ.

---

(١٢) كتاب سيبويه ٢/٣١٥.

(١٣) الإيضاح للزجاجى ٦٩ تحقيق: مازن المبارك،دار العروبة،لمع الأدلة. لابن الأنبارى ١٠٩ تحقيق: سعيد الأفغانى،دار الفكر، الأشباه والنظائر: للسيوطى١/٧٦ فما بعدها. حيدر آباد.

(١٤) الإيضاح للزجاجى ٧٠،الأشباه والنظائر ١/٧٩.

وهو تلميذ سيبويه، ويختصر أبوالبقاء العكبرى ت ٦١٦هـ. رأى قطرب فيقول: لم يدخل الإعراب لعلة، وإنما دخل تخفيفا على اللسان (١٥).

ويذهب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه (١٦) إلى أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعرا ونثرا، ويستند فى ذلك إلى قواعد العربية فى الوقف، فالحركات لا تعدو أن تكون فى كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض.

أما جمهور النحاة فقد أسرفوا على أنفسهم حين أغرقوا ظاهرة الإعراب فى متاهات المنطق والفلسفة، فالحركات آثار، وكل أثر لابدّ له من مؤثر، وليس هذا المؤثر غير (العامل)، وجعلوا للعامل أقساما وقواعد.

وكثيرا ما ينسى النحاة (المعنى) بالحرص على نظرية العامل(١٧) حتى جعلوا الإعراب حكما لفظيا خالصا يتبع لفظ العامل وأثره (١٨). وأصبحت كل نظرة فى أبواب النحو ومسائله وقضاياه لابد أن تطل من نافذة (العامل).

على أننا لا ننكر أن يكون الإعراب جزءًا من النحو، وليس كل النحو، كما أن الإعراب وحده ليس دليل المعانى كما توهم النحاة، وكذلك العلامة الإعرابية لا تعدو أن تكون واحدة من القرائن الدالة على المعنى، فإذا بنينا المعنى النحوى عليها، وبنينا النحو كله على أساسه فقد رجحنا دون مرجّح، على أن الحركة الإعرابية قد أهدرت عند أمن اللبس فى القرآن الكريم والتراث، وحين أهدرتْ كانت هناك قرائن أخرى تحافظ على المعنى (١٩).

(١٥) المسائل الخلافية للعكبرى. ورقة ١٠١ خط دار الكتب المصرية رقم ٢٨.

(١٦) من أسرار اللغة ٢٠٨ ط ٢.

(١٧) من ذلك: أنهم قدروا (أدعوا أو أنادى) عبد الله. فى قول العرب: ياعبد الله. حيث رأوه منصوبا بفعل مضمر، فهم تعسفوا فى تقدير (عامل) ينصبه بناء على أن كل منصوب لابد له من ناصب، وبذلك انحرف الأسلوب على أيدى النحاة، حتى صار الداء خبرا بعد أن كان إنشاء فسار فى طريق لايريده المتكلم، وغاب عنهم أن المتكلم لا يحذف أو يذكر أويصل أو يفصل إلا إذا كان مرد ذلك الى حالته النفسية، وهى جزء من الاسلوب: انظر: الرد على النحاة ص ٩٠.
لكن علماء البلاغة كانوا يلاحظون مثل هذه الأساليب وغيرها ومطابقتها للمقام والحالة النفسية للمتكلم.

(١٨) احياء نحو. ابراهيم مصطفى. فى أماكن متفرقة.

(١٩) القرائن النحوية. بحث فاز بالدرجة الأولى للمكتب الدائم للتعريب. دكتور تمام حسان.

ومن أجل هذا انحرف النحو العربى عن وظيفته، وتنكب منهج النحاة سبيل (المعانى) حتى اتسمت الدراسات النحوية بسمة الاتجاه إلى (المبانى). ولم يكن قصدها إلى (المعنى) إلا فى المنزلة الثانية من عنايتهم، فلم يهتموا كثيرا بالمعانى التركيبية، ولم يفطنوا إلى أهمية الظواهر السياقية فى تحديد المعنى النحوى، ففصلوا دراسة (المعانى) عن النحو وألحقوها داخل علم من علوم البلاغة يسمى (علم المعانى) فقطعوا أوصالها، وأىّ شىء يبقى للنحو إذا درستْ قضاياه ومسائله بمعزل عن تلك (المعانى)؟

وإحقاقا للحق لم يتنبه أحد إلى تناول هذه المعانى فى النحو غير رجلين: أولهما ابن جنىّ، وثانيهما عبد القاهر الجرجانى:

أما الأول [20] فيرى:«أن العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى».

ويقول أيضًا [21] : «فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه،وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسيرالمعنى، تركت تفسير المعنى على ماهو عليه، وصَحّحت طريق الإعراب.

وأما الثانى فقد رسم طريقا جديدا للبحث النحوى، حيث تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام (نظما) وأن رعاية هذا النظم هى السبيل إلى الإبانة والإفهام،وأنه ليس شىء من هذا النظم إلا وبيانه إلى علم النحو، يقول عبد القاهر موضحا فكرته فى كتابه دلائل الإعجاز [22] : «واعلم أنه ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو... فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان

(٢٠) المحتسب ٢/٢١١ ط المجلس الأعلى. القاهرة.

(٢١) فى كتابه الخصائص ٢٩٢ ط الهلال.

(٢٢) ٦١ ط الثانية.

خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو(معنى من معانى النحو) قد أصيب به موضعه، ووضع فى حقه.....»

فعبد القاهر لا يهتم بالنحو لذاته ولا لإعرابه، بل لوضعه وترتيبه من: تقديم وتأخير وتوكيد وشرط، ونفى واستفهام، وذكر وحذف، فإذا انتقلت الجملة من الاستفهام النحوى إلى التوبيخ، ومن التوبيخ إلى التعجب، ومن الإنشاء إلى الخبر وبالعكس كان ذلك هو صلب النحو، واسمه الحقيقى: علم معانى النحو. فعبد القاهر سنّ سنة فى الدراسات النحوية تجاوز بها علامات الإعراب إلى ما وراءها من وضع الكلمة فى الجملة، وموضع الجملة مع الجمل. ولكن هذه العلامات المضيئة من مصباح هذين العالمين قد أطفأتها جحافل الظلام بسبب انتصار الجمود الذى خيم على العقول حتى همدتْ، والأفكار حتى خمدتْ، كما أن اكثر علماء العربية آنذاك كانوا واقفين من اللغة عند ظاهر لفظها، لا يتجاوزونه ليذوقوا ما ذاق عبدالقاهر من حسّ لغوى مرهف، فارتد النحو سريعا ليبحث فى (المبانى) والقوالب التى لا روح فيها ولاحياة، ارتد ليبحث عن أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء!! (٢٣).

وبذلك صار الإعراب وهو دليل المعانى يدرس بمعزل عن تلك (المعانى). ومن ذلك أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصّل:

لا يُبعِد الله التلبُّبَ والـــ غارات إذ قال الخميس: نَعَم

فقال: نعم، حرف جواب. وليس بصحيح لأنه لم يراع المعنى. ونعم: واحدالأنعام، وهو خبر لمحذوف تقديره: هذه نَعَم.

(٢٣) من ذلك أن كثيرا من المؤلفات النحوية قد صنفت على حسب الآثار الإعرابية، وكان ملاك ترتيب الأبواب النحوية يرجع إلى التشابه فى شكل الحركة الإعرابية وإهمال ما سواها من الظواهر المعنوية المهمة التى ينبغى أن تلاحظ آثارها فى مجال التصنيف، ويكاد الترتيب المتبع فى التاليف بين النحاة يلتزم: بالمقدمات النحوية العامة، ثم ذكر الأبواب النحوية مرتبة على حسب حركتها الإعرابية، المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات.

انظر: تقويم الفكر النحوى ١٤١. بتصرف، د/ على أبوالمكارم. دار الثقافة. بيروت.

ومن ذلك إعراب (حيث) فى قوله تعالى: «اللّه أعلم حيث يجعل رسالته»، فالمتبادر أن (حيث) ظرفُ مكان،لأنه المعروف فى استعمالاتها، وهو فاسد فى المعنى، إذ المعنى أنه تعالى يعلم المكان المستحق للرسالة،لا أن علمه فى المكان، فهو مفعول به، لا مفعول فيه، وناصبها (يعلم) محذوفا مدلولا عليه بـ (أعلم). لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به (مغنى اللبيب ٢/٥٨٢، ٥٣١) تحقيق محيى الدين.

وإذا لم تكن مهمة النحوى دراسة معانى الكلام إلا تبعا،فقد انحصرت مهمته فى بيان العلاقات التى تتصل بالبنية اللغوية، ولهذا يستطيع النحوى إعراب جملة: فَعَّل فَاعِلِ فِعْلا فعيلا فى المفعل المفاعلِ، لأنه يجد فيها كلاما تاما من حيث العلاقات البنيوية، وإن كانت لا تحمل معنى. أما فى نحو (المعانى) فلا إعراب لهذه الجملة عنده لأنها لا تحمل معنى، وغاية ما يسعى إليه نحو المعانى، هى(المعانى) ذاتها،لا (المبانى)، أوالجوهر لا العرض، أو المركز لا الهامش.

وإذا كان علماء النحو قد اشترطوا لصحة الإعراب معرفة المعنى، إلا أنهم لم ينظروا إلى المعانى على أنهّا غايات فى نفسها، بل إنها وسيلة للكشف عن العلاقة البنيوية، وليس الإعراب عندهم إلا الكشف عن تلك العلاقات البنيوية.

ولما كان الإعراب فى حقيقته فرع المعنى، كان المعنى هو الذى يوجه الإعراب. من ذلك قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعا من المثانى» إن كان المراد بالمثانى القرآن. فـ (من) للتبعيض، وإن كان المراد به الفاتحة فـ(من) لبيان الجنس. (الإتقان فى علوم القرآن ١/١٨٠ مصطفى الحلبى ط٣).

فإذا جعلت الإعراب يوجّه المعنى، كما إذا علقت (إلى) بـ(تكتبوه) فى قوله تعالى: «ولاتسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله» أفسدت المعنى، لاقتضائه استمرار الكتابة إلى أجل الدّين، والصحيح أنه متعلق بمحذوف حال أى: مستقرًا فى الذمة إلى أجله. (مغنى اللبيب ٢/٥٣٠ تحقيق محيى الدين).

- ٢ -

وفى نحو (المبانى) يُعَدّ الإنسان لاحنا إذا خالف قواعد نحو العبارة، لأن نحو العبارة نحو (مبان)، بخلاف الصوفى فإنه لا يعدّ لاحنا إذا خالف قواعد هذا النحو العبارى، لأن نحو الإشارة نحو (معان)، كما أن للصوفى إشاراته التى تعصمه من هذا الخطأ وذلك الزلل، وإن بدا أنه لحن، وقد لحّنوا أبا حنيفة - وكان فى الفتيا ولطف النظر واحد زمانه، وسأله رجل فقال له: ما تقول فى رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله. أتقيده به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قُبيْس[٣٤]؛لأنه كان يتكلم على مستوى نحو (المبانى)، لكن لو قالها إنسان فى مقام آخر، كما إذا قالها صوفى فى ذروة صفائه لا يُعَدّ لاحنا، لأنه ينطق بها من فوق مناطق عليا، وهيهات أن تصل إليها معيارية النحاة.

والعبد يفهم من (المعانى) على قدر مقامه عندالله، وليست المعانى عملا عقليا يرتكز على المهارة والذكاء،وإنما هى فضل إلهى ،ولا تتاح إلا لمن أوتى حظا من صفاء البصيرة. والصوفى لايشغله ظاهر اللفظ ومبناه، وحسنه ومغناه، بل يمرق منه إلى بواطن المعانى وما وراءها. من ذلك:

أ - أنه قرىء على الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قول القائل:

لو كان لى مُسْعِدٌ بالراح يُسْعدنى ... لما انتظرتُ لشرب الراح إفطارا

الراح شىء عجيب أنت شاربُــه ... فاشربْ ولو حملتْك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء صافية ... كنْ فى الجنان ودعْنى أسكن النارا

فقال أحد الحاضرين: لا تجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب. فالشيخ لم يكتف بمعنى (المبانى)

(٣٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٢١٢ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

أو بالمنطوق، أو بظاهر النص كما يقول الأصوليون، بل تخطى المعنى الحَرْفِي،وضم إليه معنى المقام. أى ما يسمى: بروح النص، وكان الصوفية يفرقون بين المعنى المقالى، والمعنى المقامى، ويغوصون وراء المعنى الدلالى، وهذا هو معنى: المقام،وللأسف لم يستطع نحو (المبانى) أن يفهم المقال فى ضوء المقام، ولهذا كانوا يطلقون على أصحاب هذا النحو:

(أهل صناعة النحو) فهو مرتبط بطابع الصناعة، بل ذهبوا إلى ما وراء الصناعة. واستمع معى إلى أبى على الفارسى وهو يتحدث عن (نحو) علىّ بن عيسى الرمانى، إذ يقول: لو كان النحو ما يقوله الرمانى لم يكن معنا منه شىء، ولو كان النحو ما نقوله لم يكن معه منه شىء [٢٥]. فقد تأثر النحو بروح الفلسفة، ولهذا ضاق الناس بطريقة النحاة، وطالبوا بتهذيب النحو وإصلاحه، أو تركه حتى قال القاسم بن مخيمرة [٢٦].

«النحو أوله شغْل وآخره بَغْى».

ب ـ ومن هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول: (يا سعتر برى) ففهم كل منهم مخاطبة عن الله تعالى يخاطب بها فى سرّه. فسمع الأول: (اسْعَ تَر برّى) وسمع الثانى: (السّاعة ترى بِرّى) وسمع الثالث: (ما أوسَع بِرِى) فالمسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه: «تُسقى بماء واحد ونفضّل بعضهَا على بعض فى الأكُل»..

فأما الذى سمع: اسع تَرَ بِرّى فمريد دلّ على النهوض إلى الله بالأعمال، يستقبل الطريق بالجدّ، فقيل له: اسْعَ إلينا بصدق المعاملة تَر بِرّنا بوجود المواصلة.

وأما الثانى: فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقاتُ فخاف أن تفوته المواصلة، فقيل له ترويحا على قلبه لما أحرقه نار الشغف: الساعة ترى بِرّى.

---

(٢٥) نزهة الألبا ٣١٠ لابن الأنبارى. ط حجر ١٢٩٤هـ.

(٢٦) صبح الأعشى ١/ ١٧١.

وأما الآخر: فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع برّى [٢٧] !

فالصوفى استخرج من الكلمة دلالات وقضايا فائقة رائقة، وأخذ من أحرفها علوما،ومن حركاتها وسكناتها فهوما، ولم يعوّل على المعنى الحرفى، أو ظاهر النص، لأنه يعتبرهما مدعاة لقصور الفهم.

ومن الذين تَحَجّروا على (المبانى وظاهر النص) ما حدث لليهود وكانوا يُعَوّلون على المعنى الحرفى كثيرا: لأنهم طلاب مادة،فقد فهموا من قوله سبحانه: «إنّ ربّكم اللّهُ الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام» [٢٨] أن اللّه قد خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع بعد أن تعب من العمل الشديد المضنى فى الأيام الستة،ولكن القرآن سخر منهم لهذا الفهم الحرفى المادى حيث نزل فيهم قوله سبحانه: «ولقد خلقنا السموات والأرَض وما بينهما فى ستةِ أيام وما مَسَّنا من لُغُوب» [٢٩].

ومن ذلك أن اليهود أيضًا حينما سمعوا الآية: «مَنْ ذا الذى يُقْرِضُ اللّه قرضًا حَسَنا» [٣٠] قالوا: «إنّ اللّه فقيرٌ ونحنُ أغنياء» [٣١] فهم لم يفهموا (المقام) فهما حقيقيا، بل استغلوا معنى (المقال) للمراوغة، ولكن أبا الدّحداح ﷺ كان فاهما (للمقام والمعانى) عندما عقب بقوله: «إن اللّه كريم استقرض منا ما أعطانا» [٣٢].

ولم يتنبهّ نحاة (المبانى) إلى معنى المقام،وإنما الذى تنبهّ إليه بحق هم علماء البلاغة ورجال التفسير، والتصوف. ويذكر الدكتور تمام فى كتابه

(٢٧) منية الفقير المتجرد: ص ٩.

(٢٨) الأعراف ٥٤.

(٢٩) ق ٣٨. وانظر تفسير القرطبى.المجلد ١٧ ص ٢٣ فما بعدها. دار الكتاب العربى. القاهرة ١٩٦٧م.

(٣٠) البقرة ٢٤٥. والحديد/ ١١.

(٣١) آل عمران: ١٨١.

(٣٢) اللغة العربية معناها ومبناها ٣٣٨ دكتور تمام حسان.

السابق ٢٣٩. أن أحد المستشرقين سمع أحد الدراويش فى إحدى طرقات القاهرة يصيح (مدد !) فقال المستشرق: أىّ نوع من المدد يريده ذلك الرجل؟ فالمستشرق هنا عرف المعنى المعجمى للكلمة، ولكن غاب عنه ما وراءها من (المقام).

ويرى الدكتور تمام: أن الوقوف على المعنى المعجمى، وعلى المستوى الوظيفى: الصوتى والصرفى والنحوى ـ لا يعطينا إلا معنى (المقال)، أو: المعنى الحرفى، وهو معنى فارغ من محتواه الاجتماعى والتاريخى.

ج ـ ومن هذا ما روى عن أبى بكر رضي الله عنه أنه طرق الباب على رسول الله ﷺ، فسأل الخادم، مَنِ الطارق؟ فقال: أبا بكر، فهنا آثر أبو بكر النصب والفتح واللغة الفصحى فى نحو (المبانى) تأباها،لأن استعمالها بالواو، وتعليل ذلك: أنه استعمل (الفتح) فى هذا المقام إشارة منه أن (يفتح) له ذلك الباب، أو (نصبه) بالألف (لانتصابه) فى مقام الخلافة، وإنما آثر الفتح، لأنه أخف الحركات وألطفها، والباب المطروق أسمى الأبواب وأشرفها [٣٣].

فأبو بكر لم يلحن، لأنه وافق مقتضى عالم الحقائق فيما نطق به فى الظاهر، لكنّ نحو (المبانى) المعيارى يلحنه،لأنه لم ير إلاّ (مبانى) النحو، فهو محجوب لم يشاهد حقائق (المعانى) ودواعى الحق، ولو شاهدها أو رعاها ما خالفها.

د ـ وقد ينصب الصوفى المخفوض، أو ينخفض المنصوب، أو يرى الفاعل فينطق به مفعولا. فيظنه السامع لحن أو أخطأ. والحق أنه لم يلحن أنه ولم يخطئ؛ لأنه يدور مع حقائق (المعانى).

ففى الحالة الأولى: نصب المخفوض لما تعطيه حقيقته من الفتح، والانتصاب للحق.

(٣٣) منية الفقير ص ٨.

وفى الثانية: خفض المنصوب لما تعطيه حقيقته من أنه بالخفض أحق.

وفى الثالثة: جعل الفاعل مفعولا، لأنه رأى ألا فاعل إلا الله، فهو وحده المستحق (للرفع) دون غيره، وهذا حكم الفاعل.

فحقائق (المعانى) هى التى أجرتْ على لسانه هذا الأسلوب المخالف لما عليه نحو (المبانى).

هـ - وإليك اتجاهين مختلفين فى نحو (المبانى) عن نحو (المعانى). وهما يدوران حول قضيتى (المبتدأ) و (الزمن) فى النحو التالى:

أولاً: المبتدأ:

وهو عند الصوفية قائم بذاته، ولايحتاج إلى خبر،فإذا قلت: (هو) كان حاضرًا لا غائبًا، وتاما مفيدا عندهم، وفى نحو (المبانى): (هو) يمثل ضميرًا غائبا ناقصا لا معنى له إلا بوجود الخبر الذى هو جزء متمم للفائدة، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، بعكس الحال فى نحو (المعانى).

ثانيًا: الزمان:

وكذلك (الزمان) يختلف باختلاف النحوين، فالزمان فى نحو المبانى:

ماض وحال ومستقبل. أما عند نحاة (المعانى) وهم الصوفية فلا زمان عندهم.

أما موقف القرآن الكريم من الزمان: فكان يتحدث حينا عن نظام الزمان البشرى المألوف كقوله سبحانه: «إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عَشَر شهرًا فى كتاب الله... منها أربعة حُرُم» [٣٤] فهو يتحدث عن أشهر السنة بما فيها الأشهر الحرم، وكقوله سبحانه: « هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا وقَدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب» [٣٥]. فهنا يتحدث

(٣٤) ٣٦ من التوبة.

(٣٥) يونس ٥.

عن الزمان الذى يقاس بدوران الكواكب، وحينا آخر يتحدث عن نظام الزمان الآلهى، أو (اللا زمان) فهو آنٌ أبدىٌ، وحاضرٌ سرمدىٌ يعلو فوق جميع اللحظات، ولا يخضع للتغير أو التطور كقوله سبحانه: «إنما قولُنا لشىء إذا أردْناهُ أنْ نقول له: «كُنْ فيكون» [٣٦]. كن: فكان كل شىء، فهنا أسقط الماضى والحاضر والمستقبل بضربة واحدة بحيث لا يكون قائما سوى (اللا زمان الآلهى) الذى هو جزء من الأزل [٣٧]. فأمره وفعله لا يحتاجان إلى وقت أو زمان أرضى.

والصوفى وإن كان يعيش فى زمان، إلاّ أنه فى لحظة إشراقه استطاع أن يلتقط الزمان الإلهى،أو (اللازمان أوالأزل)، ولهذا قالوا فى تعريف الصوفى: « هو من لا ماضى له ولا مستقبل» فلا يشغله وقت سابقٌ أو لاحقٌ عما هو عليه فى الوقت، فالزمان عندهم مجردٌ من النسبية التى جردوا أنفسهم منها، ولأن الصوفى مستغرق فى شهود الموقّت عن مراعاة جميع الأوقات، وكذلك تلاشت عنده أبعاد المكان أيضا، ومعنى هذا أنهم قد سبقوا الحضارات حين دعوا إلى التخلص من عقدتى الزمان والمكان، وتحرّر النفس الإنسانية من أسرهما.

... ولكن أىّ الاتجاهين أجدى للنحوى: المبانى أو المعانى؟ والذى أراه أن الذى يتحدث على مستوى (المبانى) لابد وأن يلتزم قواعد نحو المبانى، وهى القواعد الظاهرية، ولها سلطتها وقوانينها التى توجب وتجيز وتمنع، وقد لخصها ابن مالك النحوى فى ألفيته المشهورة بقوله:

فما أبيح افعل ودع ما لم يبح

والحق أن بعض قواعد وقوانين نحو (المبانى) قد ضاق بها النحاة أنفسهم، وهذا (دماذ) صاحب أبى عبيدة يروى عنه انه قرأ من النحو إلى

---

(٣٦) النحل : ٤٠

(٣٧) بتصرف من: الزمان د. إمام عبدالفتاح. مجلة الثقافة العربية عدد ٤ إبريل ١٩٧٦.

باب الفاء والواو، فلما استمع إلى قول الخليل وأصحابه: إن ما بعدهما ينتصب بـ (أن) مضمرة وجوبا نبا فهمه عن ذلك وكتب إلى المازنى يشكو إليه ما لقيه من عنت فى أبيات ختمها بقوله:

لقد كدت يا بكر من طول ما أفكّر فى بابه أنْ أجَنّ [٣٨].

أقول: ولم لا يُجَن، وهذا ابن العريف القرطبى ت ٣٦٧ قد وضع لولد أبى عامر المنصور مسألة فيها من العربية مائتا ألف وجه، واثنان وسبعون ألف وجه، وثمانية وتسعون وجها [٣٩]. وما كان أيضا من ملك النحاة ت ٥٦٨ حيث استشكل عشر مسائل وسماها: «المسائل العشر المتعبات إلى الحشر» [٤٠].

... وإن كنت تتحدث على مستوى (المعانى) فالتزم بآداب وسلوك نحو (المعانى) من : حسن الخدمة، وحفظ الحرمة،وتعظيم النعمة، وعليك أن تكون منتصبا إلى مجارى الأقدار بالرضى، مستسلما لله فى أمره ونهيه، مستغرقا فى شهوده، غائبا فى وجوده، تقابل عِزّ الربوبية بذّل العبودية، وشعارك: ألا يراك مولاك حيث ينهاك، وألا يفتقدك حيث أمرك. فإذا أصلحت لسانك دون أن تصلح جنانك، فذلك فسق وضلال. وهذا طابع عصرنا الذى نعيشه، فمحاولاتنا فى معاهد العلم ومدارسه لإصلاح ألسنتنا، ونصيب القلوب من الإصلاح أقل بكثير من نصيب الألسنة. ولعل هذا ما يعنيه الرسول ﷺ بقوله: «فُسّاق أمتى قرّاؤها» [٤١].

(٣٨) أخبار النحويين البصريين ٧٧ للسيرافى. نشر كرينكو. وبكر هذا هو أبو عثمان بكر المازنى شيخ نحاة البصرة فى عصره.

(٣٩) بغية الوعاة للسيوطى ٢٣٠ط أولى. السعادة. مصر ١٣٢٦هـ.

(٤٠) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٤١) وقريب من هذا مقالة عيسى عليه السلام «إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين»؟ وفى هذا المعنى يقول عمر رضي الله عنه «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة: المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقا عليما؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل».

وإن أصلحت جنانك دون أن تصلح لسانك فذلك كمال دون الكمال، وإن أصلحتهما معا فهذا كمال الكمال.

وكذلك كل جمال فنى رائع يحصل من : المبانى والمعانى معا، (ومبانى)

التصوف كانت يوما مّا فى الأعماق ثم دفعت إلى السطح، فهى لذلك وثيقة الصلة (بالمعانى) التى هى أساس التفكير ومستودع الإلهام، والمعانى تظهر من خلال المبانى،والأشباح تعظم بشرف الأرواح، ولون الماء لون إنائه.

على أن (المبانى) وحدها لا تستطيع أن تحرث فى حقل التصوف وإلاّ باءت بالفشل والعقم، لأنها تعنى بالشكل والمظهر، لا اللبّاب والجوهر. وصاحب المبانى يعتمد على عقله، وصاحب المعانى يعتمد على ذوقه وكشفه، وهذا أبو على الفارسى النحوى قد كان كثيرًا ما يتردد فى التوجيه النحوى بين المبانى والمعانى، أو بين النحو والذوق الأدبى،وكان يقول «قسمة الأعشى» يريد بيته المشهور:

فقال ثكل وغدر أنت بينهما　　　فاخترْ وما فيهما حظٌ لمختار

وكثيرًا ما كان المعنى والإعراب يتجاذبان الأسلوب، فالمعنى يدعو إلى آمر، والإعراب يمنعه، من ذلك:

أ ـ قوله تعالى: «إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر» فالمعنى يقتضى أن يتعلق الظرف بالمصدر (رجع)، أى أنه على رجعه فى ذلك اليوم لقادر. لكن الإعراب يمنع منه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله. والقاعدة: أن يؤول الإعراب،وأن نتمسّك بالمعنى ونتقبله. فنجعل العامل فعلا مقدرا دلّ عليه المصدر تقديره: يُرْجِعُهُ.

ب ـ ومما يصور تشاحن المبانى والمعانى قولهم: هذا تفسير معنى، وهذا تفسير إعراب. فقد ورد فى الكافية لابن مالك: ومن الاستثناء بـ(ليس) قول النبى عليه السلام: يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب.

والتقدير الذى يقتضيه (الإعراب): ليس بعض خلقه الخيانة والكذب، والتقدير الذى يقتضيه (المعنى) : يطبع على كل خلق إلا الخيانة والكذب. (الأشباه والنظائر للسيوطى ٢/ ١٧٦).

والفرق بينهما أن تقدير الإعراب لابد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وتقدير المعنى لا تضرّه مخالفة ذلك:

ففى قوله تعالى: «وثمودا فما أبقى» يمكن أن تعرب (ثمودا) مفعولا مقدما، وهذا يتفق والمعنى، ولكنه فى صناعة النحو يمتنع؛ لأن لـ (مَا) النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، ولذلك رأى النحاة أن يكون معطوفا على (عادًا) أو ينصب مفعولا به على تقدير: وأهلك ثمودا.

ومما يؤكد قوة المعانى على المبانى أن أساليب كثيرة لم تلتزم بقواعد النحاة، ولم يجد النحاة مندوحة لقبول تلك الأساليب فى نظرهم إلا بحملها على المعانى، و(الحمل على المعنى) مصطلح يكثر دورانه فى قضايا النحو العربى، وتلك الأساليب المخالفة لم تلبث أن ثبتتْ أقدامها، حتى أصبحت من سنن العرب، ويرى ابن جنى أنه أسلوب يدل على «غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح» (الخصائص ٢/ ٤١١) ويشير ابن الحاجب كما نقل عنه السيوطى فى الأشباه والنظائر١/٢١٢ إلى قوة هذه الأساليب بقوله: إذا حمل على المعنى ضعف الحمل بعده على اللفظ؛ لأن المعنى أقوى ويظهر (الحمل على المعنى) فى نماذج نذكر منها:

١ ـ ذكر الواحد والمراد به الجمع.

٢ ـ ذكر الجمع والمراد به ما دونه.

٣ ـ معاملة المثنى معاملة الجمع.

٤ ـ تذكير المؤنث، وتأنيث المذكر.

٥ ـ اتصال الفعل بحرف (ليس) مما يتعدى به؛ لأنه فى معنى فعل يتعدى به.

على أن الخلاف قد دبّ بين نقاد اليونان والعرب حول الألفاظ والمعانى، فمنهم من يرى جانب المعنى، ومنهم من يرى جانب اللفظ، وآخرون يذهبون إلى مساواة الألفاظ بالمعانى [٤٢] على أننى أرجح جانب المعانى؛ لأن المعانى أشرف من الألفاظ، والألفاظ أوضع من المعانى،ومن أجل هذا اتهم متّى بن يونس ٣٢٨هـ النحاة بأنهم يبحثون عن الألفاظ [٤٣] وعماد البلاغة عند الجاحظ: ألا تكثر الألفاظ وتقلّ المعانى. ويقول ابن جنى [٤٤] فى (باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى»: «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحموّا حواشيها وهذبوها،وصقلوا غُروبها وأرهفوها،فلا تَريَنّ أن العناية إذا ذاك إنما هى بالألفاظ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى وتنويه وتشريف». فإذا كانت العرب تدبّج ألفاظها وتعنى بها، فذلك من أجل المعانى التى وراءها،وبمثل تلك النظرة كان ينظر عبد القاهر الجرجانى حيث كان لا يرى الجمال إلا فى المعانى وفى ذلك يقول: «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا، أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحَسَنٌ أنيق،وعذّب سائغ، وخاوبٌ رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوى، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده»[٤٥]. فمزايا الكلام التى بها يسمو ويتفاضل تأتى من حيث المعانى، وليست من حيث تسمع بأذنك، بل حين تسمع بقلبك، وتستّشفّ بروحك.

---

(٤٢) انظر: الخصائص لابن جنى ١/٢٢٥، ٢١٧ ط دار الكتب المصرية، دلائل الإعجاز للجرجانى ٥١ ط الثانية. القاهرة، بلاغة أرسطو ٢٥٥ فما بعدها. د. إبراهيم سلامة،ط. الثانية.

(٤٣) بلاغة أرسطو ٢٥٥ د. إبراهيم سلامة.

(٤٤) فى الخصائص ١/ ٢١٧ ط دار الكتب المصرية.

(٤٥) أسرار البلاغة ٢، ٣ ط ١٩٢٥م.

والمعانى هى المقاييس الحقيقية التى تقاس بها الاشاء، وكانت شهادة المعنى دائما أصدق من شهادة الحس، وفى هذا يشير الشيخ أبو مدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى شىء من ذلك :

فقل للذى ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق (معنى) شراب الهوى دعنًا

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا تراقصت الأشباح يا جاهل (المعنى)

اما تنظر الطير المقفّص يا فتى إذا ذكر الأوطان حنّ إلى المغنى

إلى أن قال:

كذلك أرواح المحبين يا فتى تهزّزها الأشواق للعالم الأسنى

أنلزمها بالصبر وهى مشوقة وهل يستطيع الصبر مَن شاهد (المعنى)

(منية الفقير المتجرد ص ٦١)

ولهذا كان سجن المعانى أشقّ من سجن المبانى، وكان تعبير القرآن رائعا عن سجن المعانى وهو يصور واقعة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول ﷺ حيث «ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وضاقت عليهم أنفسهم» (التوبة ١١٨). فالأرض حولهم فضاء يمشون ويأكلون ويشربون ولكنهم فى سجن المعانى مقيدون. فلا المسلمون يكلمونهم، ولا نساؤهم تقربهم، والأرض تضيق عليهم، ونفوسهم كذلك تضيق بهم من الضجر والحرج؛ لأنهم فى سجن بغير حدود أو سدود، سجن معنوى سجَن الأنفس وقيد الأرواح، وصدق ارسطو حين قال: علل الأفهام أشد منه علل الأجسام» فى مثل ذلك يقول المتنبى:

يهون علينا أن تضام جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول *

(*) ديوان المتنبى ٣/ ٢٨٦ بشرح البرقوقى.

- ٣٠ -

وكان القشيرى يتوسع فى بعض مصطلحات النحو، ويخلع عليها معانى أخرى جديدة حتى أضحت قواعد هذا النحو صورة لعقيدته، وتطورت هذه القواعد النحوية عنده إلى مدلولات تختلف كل الاختلاف أو بعضه عما يفهم منها نحويا، وكان ينفذ من وراء مبانى الجزئيات النحوية إلى معانيها الروحية ليرتقى منها إلى عوالم أخرى، وذلك يحتاج منه إلى قدرة على تكيّيف قواعد هذا النحو وهى تنتقل من مدار أرضى إلى مدار سماوى، وهذا النقل يثير الإعجاب لدقته ورقته، لأنه كان يحرك القاعدة فى نحو (المبانى) لتبحث وتصيح بأختها فى نحو (المعانى) فتذوب فيها وتتلاشى، ثم يلفها بغلالة من قلبه وروحه فتزداد حركة وحياة، وفيضا وإشراقا، لما أحدثه فيها من مذاقات لم تكنْ، وأسرارٍ لم تُعْهدْ

* من ذلك قوله فى كتابه «نحو القلوب الكبير» [٤٦].

(أ) «الحروف التى تجزم الفعل المستقبل معلومة وهى: لم ولمّا وأخواتها، والتى تنصبه معلومة: أنْ، ولنْ، وكيْ، وإذنْ.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع ما دام منفردا [٤٧] كان له أقوى الحركات، فإذا عملتْ فيه العوامل تغيّر عن استحقاق أقوى الحركات وآل إلى الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده [٤٨] فهو ينعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما ردّ إلى الضعف. فبعد ما كان باللّه مستقلا صار أسير حظ، وصريع نصيب، ثم.. بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل تجزمه فتقطع عنه الفوائد».

(٤٦) مخطوط بمكتبتى.

(٤٧) التفريد: وقوفك بالحق معك. والتفريد: مصطلح صوفى.

(٤٨) التجريد: إماطة السوى عن القلب والسر. والتجريد: مصطلح صوفى.

وقوله :

(ب) «جواب الأمر والنهى والدعاء والاستفهام والجحد والعرض والتمنى بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء.

والإشار منه: لما حصلت الفاء واسطةً بين الجواب وهذه الأشياء، أخرجِ الجوابُ عن واجب استحقاقه إلى صفة أخرى، فكذلك شرط الواسطة: تُغيِّر حكم المدخول عليه، فَمَنْ عاش مع اللّه تعالى بواسطة المعلوم تغيّر عليه حكم ما وجب له عند التفرد عن المعلوم.

أما العيش مع اللّه بلا علاقة فيبقى العبد على ما يجب من تحقيق الوصل فى الأصل».

والقشيرى فى هذين النصين يستعمل عوامل النصب والجزم وفاء السببية رموزًا ليست مقصودة لذاتها، وإنما تشيرإلى هجوم العلائق ووقوع العبد تحت تأثير الحظوظ، والخنوع فى أوطان الجموح فى الطريق الصوفى، ويصور الحياة حين تتجرد من أوشاب الضعف، وتسمو فوق دنيا الحسّ. وقد وجد أن المظهر الخارجى للقواعد النحوية فى هذين النصين نموذج ناقص لعالم الحقائق الكامل، فحولهما إلى مفاهيم صوفية رائعة، حتى كاد هذا النحو ـ الجديد الفريد ـ يتوغل فى النفوس والأرواح جميعا، ليحلّ المعقّد من قضايا البشر على الأرض بعد أن أفلستْ الحضارات الوافدة ـ وهى تشق غبار السنين ـ وناءت بكلكلها ـ وهى ترزخ تحت معاول الذل والهوان ـ فلم تجد طريقا، ولم تقدّم حلاً !

أليس يدعوك (نحو المعانى) إلى التحررّ والتجرّد عن رقّ الأشياء، وإسقاط العلاقات والعائقات! والتخلص من تأثير المطالبات والإرادات، لتكون فى أقوى حالاتك، وأسمى نعوتك، فتصبح عبدا واقفا مع اللّه باللّه، لا إشراف لأحد عليه، ولا سبيل لمخلوق إليه، قد صفّى عن شهود الخلق

نفسه، وسلم من تأثير الأطماع فيه ! أما مَنْ التجأ لمخلوق فقد سقط في مهواة من الغلط، وأحاطت به وافدات المطامع والخواطر.

ثم لاحظ معي كيف ربط القشيري بين مصطلحي (التجرّد) في النحو، و (التجريد والتفريد) في التصوف، وكيف لمح هذا الربط الدقيق الرقيق فأعطى الحركات [٤٩] ألوانا، والمذاقات أنغاما، وجعلها تدور في أفلاك مُهَيّمة مُتَيّمة.

وتعال معي لتَتَسَمَّع عبور جزئيات (نحو المباني) على جسور (نحو المعاني) وقد صاحبتها لغة الرمز وذلك حيث يقول:

(ج) «وحروف القسم تجرّ المقسم به بإضمار فعل.... وبعض هذه الحروف أكثر تصرّفا، وأعم دخولاً كالباء، وبعضها أقل: كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير. والكل حروف القسم.

والإشارة منه: الجميع من جملة الخدم، ولكنْ منهم مَنْ يدخل الدار ويتمكّن في الصدر، ومنهم مَن حَدّه أن يحضر الباب ويقف من البعد«قد عَلِم كل أناس مَشْربَهُم» [٥٠].

فالقشيري جسّد لك هذه الحروف، وكأنّها تتحرك وتحسّ، فمنها السابق ومنها اللاحق، ومنها المقبول ومنها المطروح، ومنها مَنْ ينتظر،ومنها مَن يترقّب، ومنها مَن تتعثر قدمُه، ومنها مَن تسرع به، فحروف القسم رموز ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أناسيّ تتفاوت معادنُها، وتختلفُ منازلُها، فمنهم مَن ينادى على الباب، ومنهم مَن يناجيِ على بساط القرب، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع الواجد بساط القربة، ولا يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده.

---

(٤٩) حركات الفعل المضارع في : رفعه ونصبه وجزمه ودلالة هذه الحركات على لمحات صوفية.
(٥٠) آية ٦٠ من البقرة.

فأين (نحو المبانى) من (نحو المعانى) حين يلفتك الأخير بشدة عندما (تجرّد) الفعل المضارع من النواصب والجوازم، فتذكُر(تجريد) ظاهرك عن الأغراض، وباطنك عن الأعواض، وسرّك عن الملاحظات، فلا ترى غَيْرًا،ولا تراعِى خَلْقا، متفردًا بالله، متجردًا له.

أما (نحو المبانى) وأصحابه، فاستمع إلى رأس أئمتهم بعد سيبويه، وهو: أبوالحسن الأخفش ت ٢١١هـ. حين يسأله الجاحظ قائلا: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله، وليست هى من كتب الدين. ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه،قلّتْ حاجتهم إلىّ فيها،وإنما كانت غايتى المنالة[٥١]. فهذا رجل على رأس النحاة يشيع فى كتبه النحوية الغموض والإبهام حتى يلتمس الناس تفسيرها منه رغبة فى المال، فغرضه من علمه: كسبٌ مادىّ، وربحٌ دنيوىّ !

ومن أجل هذا برم الناس من النحو والنحاة، وهذا أعرابى يقف على حلقة أبى زيد فظن أبو زيد انه يريد أن يسأل فى النحو، فقال الأعرابى مرتجلاً:

لستُ للنحو جئتكم	لا. ولا فيه أرغبُ !
أنا مالى ولامرئ	أبد الدهر يضْربُ
خلّ زيدًا لشأنه	حيث ما شاء يذهبُ

وها هو نحوى كبير يعترف بالضجر والضيق،من الشوائب التى عكرت صفو النحو، وما ناله من تعصب النحاة، وتزمتهم المقيت، وتكسبهم به. ويتساءل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ت ٢٩١ هـ. عن عاقبة أمره ومصيره أمام الله بعد أن اشتغل بهذا النحو. قال ثعلب:

(٥١) الحيوان ١/ ٩١ للجاحظ، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.

«اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعرى ماذا يكون حالى فى الآخرة[٥٢] وكأنى بثعلب يضيق (بنحو المبانى) ويتطلع إلى نَحْو آخر!

وهذا النحو الذى يتطلع إليه ثعلب ورفاقه هو ما نحن بسبيله فى عملنا هذا.

(د) والقشيرى يستغلّ جميع الإشارات والرموز التى تحمل فى ثناياها مضامين المعنى وتصوره تصويرا بديعا مركزًا. وهى كثيرة، منها ما هو بصرى أو سمعى أو صوتى، وحسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى نصٍّ واحد به، أخذ رمزه وإيحاءه من الخط والكتابة. يقول: «ومن الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه: كالواو الملحقة بعمرو فى الخط، لتكون فرقا بين: عمرو، وعمر، وهذا الإلحاق لا يدوم عند الإستغناء عنه...

والإشارة منه: أن من الناس مَن يلحق بالطريق لأجل الغير، ثم يُطْرحُ... وأنشدوا:

أيّها المدّعى سُلَيمَى هواها   لستَ منها ولا قلامة ظُفْرِ

إنما أنت فى هواها كواو   ألحقتْ فى الهجاء ظلْما بعمرِو

فالقشيرى يشير إلى أن زيادة الإلحاق لا تفيد معنى ولا تَطَّرد، وإنما جىء بها فى المثال الذى ذكره لتكون فارقا خطيا فى حالات خاصة[٥٣] ثم تحذف؛ لأن تلك الزيادة الملحقة يستغنى عنها، وكان المعرى يدعو الله ألا يجعله كالحروف الزائدة؛ لأنها فضولية غير أصيلة وفى ذلك يقول:

(٥٢) نزهة الألباء ٢٩٨. ابن الأنبارى ط ١٢٩٤هـ.

(٥٣) تزاد الواو فى اسم (عمرو) إذا كان مرفوعا أو مجرورا تمييزا له عن اسم (عمر) الممنوع من الصرف، وتزاد هذه الواو بشرط: أن يكون علما، لم يضف لضمير ولم يقع فى قافية، ولم يصغر، ولا محلى بأل، ولا منسوبا، ولا منصوبا منونا.

«فأما واو عمرو فأعوذ بك ـ ربّ الأشياء ـ إنما هى صورة لا جرس لها ولا غناء، مشبهها لا يحسب من النسمات» [٥٤].

ومثل الإلحاق فى ذلك (همزة الوصل) فهى تلحق الأسماء والأفعال فى أحوال مخصوصة [٥٥]، وهى تثبت فى ابتداء الكلام، وتسقط فى الوصل، وهى كالإلحاق تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

وحال كثير من الناس ـ كظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل ـ ينتسبون للطريقة ظاهرا، ومآلهم فى النهاية: السقوط والطرح؛ إذ لم يكن فى نيتّهم يقين، وفى سلوكهم صدق، وفى عهودهم وفاء.

ومن خلال هذه النصوص وغيرها ترى: أن (نحو المبانى) مولع بالتفصيل كما رأيت فى ظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل على سبيل المثال، و(نحو المعانى) يتّسم بالإجمال واللمح وشمولية النظرة، كما أن المعانى فى نحو المبانى مكشوفة، ودلالات نحو المعانى مستورة مكنونة؛ ولهذا كانت أقدر على أن تهزالمشاعر، وتُهَيّم الأرواح، لما فيها من ظلال وإيحاء. وهيهات أن يصل الإنسان إليها إلاّ ذوقا، ولا تزور إلاّ من هام بها عشقا وشوقا؛ من أجل ذلك كان لغتها الرمز، والصوفى لا يرضى السّفور أبدا، ويرى الجمال فى السّترة والحجاب، أليس يَتَسَمَّعُ إلى مناجاة السرائر، وما تكنّه الأرواح وترقبه الخواطر،حتى كأنّ حراما أن تتجلى معانيهم سافرة لا نقاب لها، وبادية لا حجاب دونها.

كلماتنا فى الحب تقتل حُبنا إن الحروف تموت حين تقالُ

(٥٤) رسالة الهناء. آخرها. هامش).

(٥٥) تزداد همزة الوصل: ١ ـ سماعا: فى : أل، وفى الأسماء العشرة (ابن، ابنة، ابنم، اسم، امرؤ، امرأة، است، اثنان، اثنتان، ايمن.

٢ـ وتزاد قياسا: فى المصادر التسعة وما تصرف منها من فعلى الأمر والماضى ـ وهى الثلاثة الخماسية (افتعال،انفعال،افعلا) والستة السداسية (استفعال افعنلال افعيلال افعوال افعيلالا افعلالا).

واخيراً :

رأينا الكلمة فى (نحو المعانى) تتميز بالصدق، كما يتميز معناها بالخلود (ونحن المعانى) هادف أبدًا، لحمته وسداه: معرفة اللّه. وهى: غاية الغايات، ثم إعلاء ما فى الوجود من حق، وتزكية ما فيه من خير، وتجلية ما وراءه من تذوق وكشف.

وسبحانك اللّهم وبحمدك ، أشهد ألاّ إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك،

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان فى علوم القرآن.

للسيوطى، مصطفى الحلبى، ط٣. القاهرة.

- إحياء النحو.

الأستاذ إبراهيم مصطفى. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة

- أخبار النحويين البصريين،

للسيرافى، نشر كرينكو.

- أسباب حدوث الحروف.

لابن سينا .ط. السلفية. القاهرة.

- أسرار البلاغة.

لعبد القاهر الجرجانى ١٩٢٥م.

- أسرار العربية.

لابن الأنبارى. تحقيق: محمد بهجة البيطار. مطبوعات المجمع العلمى العربى. دمشق.

- الإسلام وتحديات العصر

دكتور حسن صعب. بيروت. ط٢.

- الإسلام يتحدى

وحيد الدين خان. تعريب: ظفر الإسلام خان. مراجعة وتحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين. بيروت.

- الأشباه والنظائر

للسيوطى. حيدر آباد الدكن. ط ١٣١٦هـ.

- أصوات اللغة عند ابن سينا.

أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الجلسة السابعة.
- الأصوات اللغوية.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط٢ . القاهرة.
- إعراب القراءات الشواذ.
للعكبرى. مخطوط بدار الكتب المصرية. تفسير رقم ١١٩٩ .
- الأعلام.
الزركلى.
- الألسنة العربية
ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
- الأنساب
للسمعانى. ليدن
- الإنصاف فى مسائل الخلاف
لابن الأنبارى. تحقيق محمد محيى الدين. ط السعادة الطبعة الرابعة. القاهرة.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل.
القاضى البيضاوى.
- الإيضاح فى علل النحو.
للزجاجى. تحقيق: مازن المبارك. مكتبة دار العروبة. القاهرة.
- البداية والنهاية
لابن كثير. ط . السعادة. مصر.
- البسملة بين أهل الإشارة والعبارة
دكتور إبراهيم بسيونى. دار الكاتب العربى. القاهرة.
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز.
الفيروزآبادى. القاهرة.
- بغية الوعاة
للسيوطى. ط أولى. مصر.

- بلاغة أرسطو.
دكتور إبراهيم سلامة ط الثانية.
- تاريخ الأدب العربى.
بروكلمان (الأصل الألمانى).
- تاريخ بغداد
الخطيب البغدادى. ط السعادة.
- تاريخ ابن الأثير
طبعة الاستقامة. مصر.
- تبيين كذب المفترى.
لابن عساكر. ط ليدن.
- التحبير فى التذكير
عبد الكريم القشيرى. تحقيق إبراهيم بسيونى. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر. القاهرة.
- تحقيق ديوان ابن الاردخل.
بابكر الجازولى. مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم.
- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا
دكتور محمد كمال جعفر. دار الكتب الجامعية ١٩٧٠.
- التعريفات
للجرجانى.ط مصطفى الحلبى ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م.
- تقويم الفكر النحوى
دكتور على أبو المكارم. دار الثقافة. بيروت.
- تهذيب اللغة
للأزهرى. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.ط. المؤسسة المصرية
- جمهرة أنساب العرب.
لابن حزم. دارالمعارف. القاهرة.

- جواهر القرآن

لأبى حامد الغزالى. ط٢ - ١٩٣٣

- حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل.

للشيخ محمد الخضرى.ط الكستلية.

- حاشية الصبان على شرح الأشمونى

للشيخ الصبان ط أولى ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

- حلية الأولياء

أبونعيم الأصفهانى.ط السعادة.

- الحيوان

للجاحظ. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.

- خزانة الأدب

للبغدادى . ط. بولاق.

- الخصائص

لابن جنى. تحقيق (أستاذنا) الشيخ محمد النجار. ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة.

- دائرة المعارف الإسلامية.

(الترجمة العربية)

- دراسات فى علم اللغة. القسم الأول.

دكتور كمال بشر. ط دار المعارف. القاهرة.

- دلائل الإعجاز

عبد القاهر الجرجانى ط الثانية.

- دلالة الألفاظ.

أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط٣ - ١٩٧٢ . القاهرة.

- دمية القصر وعصرة أهل العصر.

الباخرزى. ط أولى. حلب ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠م.

- ديوان عنترة.
المطبعة التجارية. القاهرة.
- الرسائل القشيرية.
تحقيق الدكتور فير. نشرة المعهد المركزى. باكستان.
- رسائل متبادلة:
بينى وبين الدكتور عرفه مصطفى (بألمانيا الغربية).
- الرسالة القشيرية
عبد الكريم القشيرى.ط ١٣٦٧هـ - ١٩٥٧م، وطبعات أخرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وزميله، وغيرها.
- رسالة الهناء
أبوالعلاء المعرى. تحقيق كامل كيلانى. بيروت.
- روح القدس فى مناصحة النفس.
لابن عربى. مصور عن جامعة أستانبول. بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٢٣٧ تصوف.
- سر صناعة الإعراب.
لابن جنى. الجزء الأول. ط١ - ١٩٥٤م تحقيق مصطفى السقا وزملائه ط مصطفى الحلبى. القاهرة.
- شذرات الذهب.
لابن العماد الحنبلى. ط القاهرة وط بيروت.
- شرح أبيات سيبويه
للنحاس المصرى. حلب ١٩٧٤م.
- شرح أسماء الله الحسنى.
تحقيق الأستاذ الحلوانى. ط١ - ١٩٦٩م القاهرة.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.
تحقيق محيى الدين عبد الحميد.

- شرح التصريح على التوضيح وبهامشه حاشية الشيخ يس بن زين الدين تأليف خالد الأزهرى. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

- شرح الكافية.

لمحمد بن الحسن الرضى الاستراباذى ١٣٧٥هـ. مصر.

- شرح المفصل.

لابن يعيش. المطبعة المنيرية. القاهرة.

- شروح سقط الزند.

لأبى العلاء المعرى. القسم الرابع. الدار القومية ١٩٦٤م.

- شواهد الشافية.

شرح عبد القادر البغدادى. ط حجازى. بمصر ١٣٥٩هـ.

- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها.

لابن فارس. السلفية بالقاهرة - ١٩١٠م.

- صحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٣.

- طبقات الشافعية الكبرى

الإمام السبكى.ط أولى. الحسينية. مصر، وطبعة أخرى نشرها: عيسى الحلبى.

- طبقات الصوفية

لأبى عبد الرحمن السلمى. تحقيق نور الدين شريبة. ط٢ - ١٩٦٩م.

- الطبقات الكبرى

الشعرانى ١٩٣٩م.

- طبقات المفسرين

الإمام السيوطى.

- العربية الفصحى.

هنرى فليش. تعريب دكتور عبد الصبور شاهين. الكاثوليكية. بيروت.

ـ عقائد المفكرين فى القرن العشرين.
العقاد. الأنجلو المصرية.
ـ علم القلوب.
أبو طالب المكى. تحقيق: عبد القادر عطا. ط. أولى ١٩٦٤.
ـ علم اللغة
دكتور على عبد الواحد وافى. القاهرة.
ـ علم اللغة العام. القسم الثانى.
دكتور كمال بشر. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٠م.
ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى.
ـ الفتوة.
لابن عمار البغدادى. تحقيق: دكتور فؤاد حسنين. القاهرة ١٩٥٩م.
ـ فى الفلسفة والأخلاق.
دكتور كمال جعفر. دار الكتب الجامعية . القاهرة ١٩٦٨م.
ـ فى اللهجات العربية.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ط الثانية.
ـ القرائن النحوية.
دكتور تمام حسان. بحث نال الجائزة الأولى من مكتب التعريب بالرياط.
ـ القشيرى «الإمام» دكتور إبراهيم بسيونى. مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
ـ قوت القلوب فى معاملة المحبوب.
أبو طالب المكى. ط الحلبى.
ـ الكتاب.
سيبويه. ط أولى ـ بولاق. مصر.
ـ كتاب الأزهية فى علم الحروف.
على بن محمد النحوى الهروى ـ تحقيق الملوحى ـ دمشق ١٩٧١.

- كتاب الحروف.

الخليل بن أحمد الفراهيدى. تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب.

- كتاب الرد على النحاة

لابن مضاء القرطبى. تحقيق: الدكتور شوقى ضيف. ط الفكرالعربى ١٩٤٧ القاهرة.

- كتاب المصاحف

لابن أبى داود السجستانى. صححه أرثر جفرى.ط أولى. الرحمانية ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م.

- كتاب معانى الحروف.

لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى. تحقيق الدكتور عبدالفتاح شلبى. نهضة مصر. القاهرة.

- كشف الظنون.

حاجى خليفة.ط أولى. دار سعادات.

- لطائف الإشارات.

للقشيرى. تحقيق: الدكتور إبراهيم بسيونى. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة، وتنشر لأول مرة فى ستة أجزاء.

- لطائف الاشارات لفنون القراءات.

للإمام شهاب الدين القسطلانى ج١ تحقيق الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين،القاهرة ١٩٧٢.

- اللغة بين المعيارية والوصفية

لأستاذنا الدكتور تمام حسان (الأنجلو) القاهرة.

- اللغة العربية: معناها ومبناها.

لأستاذنا دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية بالقاهرة.

- اللمع.

السراج. دار الكتب الحديثة. القاهرة.

ـ لمع الأدلة.

لابن الأنبارى. تحقيق سعيد الأفغانى. دارالفكر.

ـ اللهجات العربية فى التراث.

دكتور أحمد علم الدين الجندى. تصوير الهيئة العامة للكتاب. مصر.

ـ مجلة الراى الليبية.

ـ مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة.

ـ المحتسب.

ابن جنى. تحقيق أستاذنا على النجدى ناصف، والدكتور عبد الفتاح شلبى وأستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار. ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.

ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل

النسفى

ـ المدخل إلى التصوف الإسلامى.

السيد الفيضى (المنوفى) ط الدار القومية. مصر.

ـ مذاهب التفسير الإسلامى

المستشرق جولد تسهر. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. القاهرة

مرآة الجنان

لليافعى.

ـ المزهر فى علوم اللغة.

السيوطى. ط. إحياء الكتب العربية. القاهرة.

ـ المسائل الخلافية.

العكبرى. دار الكتب المصرية، مخطوط رقم ٢٨.

ـ المسائل فى أعمال القلوب والجوارح.

الحارث بن أسد المحاسبى. تحقيق: عبد القادرعطا. ط١ ـ ١٩٢٩م.

- معجم ألفاظ القرآن الكريم
مجمع اللغة العربية. ط أولى. الأميرية - القاهرة.
- المعراج.
القشيرى. تحقيق: الدكتور على حسن عبد القادر. دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- مغنى اللبيب.
ابن هشام الأنصارى ط. مصطفى محمد ١٣٥٦هـ. وأخرى بتحقيق محيى الدين ط. المدنى القاهرة.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة.
طاش كبرى زاده.
- مقدمة ابن خلدون.
تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى.
- مقدمة لطائف الإشارات.
حسن عباس زكى.
- من أسرار اللغة.
أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط الأنجلو. الطبعة الرابعة وغيرها.
- من بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.
أستاذنا الدكتور إبراهيم سلامة. الأنجلو المصرية.
- من مؤلفات ابن مسرة المفقودة.
- فصلة من مجلة كلية التربية. طرابلس. تأليف الدكتور كمال جعفر.
- منهاج العابدين، ومعه الكشف والتبيين.
أبو حامد الغزالى. ط أولى ١٩٥٤م القاهرة.
- منهاج العارفين.
أبو حامد الغزالى (طبع مع مجموعة القصور العوالى).

- منية الفقير المتجرد.
عبد القادر بن أحمد الكوهنى على متن الأجرومية، للإمام الصنهاجى. ط أولى ١٣١٩. مصر.
- نحو القلوب الكبير.
القشيرى، مخطوط رقم ١٥٩٣ تصوف بمكتبة طلعت. دار الكتب المصرية.
- نحو القلوب.
لمؤلف مجهول، مخطوط رقم ١١٦ مجاميع بدار الكتب المصرية.
- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء.
ابن الأنبارى. ط. نهضة مصر. تحقيق أبى الفضل إبراهيم.
- نشأة التصوف الإسلامى.
دكتور إبراهيم بسيونى. دار المعارف. القاهرة.
- هدية العارفين.
إسماعيل باشا البغدادى. إستانبول ١٩٥١م.
- همع الهوامع بشرح جمع الجوامع.
السيوطى. ط. السعادة.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
لابن خلكان. تحقيق محيى الدين عبد الحميد. مصر.

فهارس الكتاب



فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

سورة آل عمران

(سورة المائدة)

(سورة الأنعام)

(سورة فاطر)

(سورة يس)

(سورة الزمر)

(سورة الشورى)

(سورة ق)

(سورة الذاريات)

(سورة النجم)

(سورة العلق)

١	اقرأ باسم ربك الذى خلق	١٢٣
٣	اقرأ وربك الأكرم	١٢٣

(سورة الزلزلة)

٥	بأن ربك أوحى لها	٨٩

(سورة العصر)

٢	إن الإنسان لفى خسر	٦٧

(سورة النصر)

٣	فسبح بحمد ربك	٨٨

(سورة الإخلاص)

٢	الله الصمد	٤٨

(سورة الناس)

٤	من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس	١٧٥

فهرس الأحاديث النبوية(١)

(١) رتبناها حسب ورودها فى الكتاب.

فهرس القوافى

ذلها	الكامل	٤٧
مطالها	الكامل	٣٤
	***	
أجمل	مجزوء الرمل	٥٣
	(م)	
ليسلم	الطويل	١٥٥
	***	
دائما	الطويل	٧٢
	***	
المكدم	الرجز	١٨٢
	***	
نعم	الكامل	١٩٠
	(ن)	
مسكن	الكامل	١٨٥
هوان	مخلع البسيط	٣٤
عنوانها	المتقارب	٤٤
	***	
وكانا	الكامل	٤٢
الناظرونا	الوافر	١٢٣
نونا	الوافر	٧٢
هوانا	الكامل	١٤٣
دعنا	الطويل	٢٠٢
جننا	الخفيف	١٣٤
	***	
حزن	البسيط	٥٨
	***	

فهرس المصطلحات اللغوية

(صوتية، صرفية، نحوية)

فهرس المصطلحات الصوفية

فهرس المواضع والبلدان

فهرس الجماعات والطوائف والفرق

فهــرس الأعـلام



فهرس

محتويات الكتاب الأول

الفصل الثالث

الكتاب

نحو القلوب الكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد علم الدين الجندي

شارك في التحقيق

دكتور إبراهيم بسيوني



مدخل

كلانا - علم الدين الجندى وأنا - ندين بالفضل الكبير لله سبحانه - ولشيخنا وإمامنا عبدالكريم القشيرى زين الإسلام فى كل عصوره: فطوال اقترابنا منه منذ عهد بعيد ونحن نغترف من أفضاله وكراماته خيرًا من بعد خير.

وحينما أهلت ذكراه الألفية فتح الله علينا بالحصول على أربع مخطوطات - لكتاب نادر من كتبه - شهد له علماء المراجع والمصادر فى الشرق والغرب بعلو القيمة والنفاسة ، فجمعنا هذه المخطوطات من أصقاع العالم المتبعدة، ثم بدأنا منذ سنين ذات عدد نقرؤها ونعيد، ثم لنحققها، ثم لنشرحها فتحصل فى آخر الأمر كتاب يحتل فى الثقافة الرفيعة شأنا كبيرًا.

ولعل أهم ما فيه هو هذه النظرة الابتكارية التى إنماز بها الشيخ، إذ جعل النحو الظاهرى بعناوينه الكبرى والصغرى وتفاصيله ثم أدق تفاصيله مناطًا لاستخراج كنوز ثمينة من علوم أرباب الأحوال، وإذا بنا أمام علم ثالث جديد كل الجدة هو «نحو القلوب»، وللقشيرى فى هذا كتابان، أحدهما صغير سبق لـ «علم الدين الجندى» أن أصدره، وهذا الكبير الذى بين يدى القارئ.

ولسنا نخشى شيئًا أكثر مما يصاب القارئ للوهلة الأولى بصدمة ثقافية تنأى به عن الكتاب ، وهذا شىء ملاحظ كثيرًا فى أول تعامل المرء

مع كتاب تراثى رفيع المستوى، لكنه ـ وهذا شيء نؤكده تأكيداً ـ سيجد نفسه مع قليل من الصبر فى روضة أنيقة، بديعة الزهر حلوة الثمر.

فالقشيرى معروف فى الشرق والغرب على السواء بأنه صاحب قولة الحق المستنيرة المعتدلة، وأن أعماله تمتد لتشمل علوم الكلام والتوحيد والتفسير والحديث والتصوف والتربية والأخلاق... فضلا عن اللغة والأدب إذ هو شاعر، ومتذوق بصير.

والله وحده يعلم كم من الجهود بذلنا حتى نخفف الأحمال الباهظة لهذا الكتاب فيصبح ميسور الفهم والمنال لدى الناس وبصفة خاصة لدى الباحثين الذين يقتربون من هذه المناطق، ويعرفون وعورة الدروب المؤدية إليها... بحيث يمكن القول إنه لا غنى عنه للمتأدبين الأصلاء.

وكل الذى يسعدنا الآن أن يطل القشيرى على الناس فى حلة من حلله الرائعة، وأن يتقبل الناس هذا العمل الجليل أحسن القبول إن شاء الله.

والله الموفق وعليه الاعتماد ومنه التيسير،

د. أحمد علم الدين الجندى

د. إبراهيم بسيونى

القاهرة فى رجب من عام ١٤١٤ هـ

تعريف بالكتاب وصاحبه

أولا . الاتجاه الإشاري فى منهجه بعامة

للإمام عبدالكريم القشيرى منهج فى التأليف ينماز بخصائص جمة، ولكننا نتوقف هنا عند خصيصة تهمنا ونحن نقدم هذا الكتاب: فنحن طوال عشرتنا ومعايشتنا معه من خلال مصنفاته نلحظ أنه يميل إلى استنباط الإشارة المحكمة ابتداء بالقرآن الكريم فى لطائف الإشارات ومرورًا بالتحبير والمعراج والترتيب.. وغيرها.

هذا الخط الإشارى ينبنى على أن المعانى الظاهرة فى القرآن وفى العلوم العقلية والنقلية المعتمدة على اللغة والفقه والأصول والتفسير ونحوها لها معان باطنة لطيفة تخفى على الذهن العادى ولكنها تتاح للمتحققين وقبل أن نتعرف مقاصده البعيدة من هذا الاتجاه وهذه الجهود نعرض عرضًا سريعًا لبعض مصنفاته للتدليل على تعشقه لهذا المنهج من ناحية وليكون تقبله فى كتابنا الجديد الذى نقدمه الآن أمرًا معتادًا . من ناحية أخرى.

فالتحبير فى التذكير ـ كما يتضح من عنوانه كتاب معد للاستفادة منه فى «الذكر» ، ورأى الشيخ أن أسماء الله الحسنى وصفاته هى أليق الموضوعات للذاكرين. ورأى أيضًا أن يخرج بها عن نطاقها فى علم الكلام والجدل إلى نطاق جديد . فبينما كانت قضية نفى الصفات وإثباتها موضع شد وجذب بين المعتزلة والأشاعرة، وبينما شغلت قضية صفة واحدة وهى «الكلام» حيزًا ضخمًا من التاريخ الإسلامى بل قامت لأجلها فتن وفتحت سجون وعذب مفكرون إذا هى هنا على يد القشيرى فى «تحبيره» قلبًا

نابضًا بالحياة، منعشًا للفكر والذكر على السواء. ويتلخص منهجه فى ذلك فى خطوات ثابتة، فهو بعد أن يعالج الصفة «كالجبار» مثلا من ناحية اللغة حيث يصرفه إلى «جبر الكسر» أو «إلى نخلة جبارة» أى لا تنالها الأيدى أو إلى «الجبروت» والجبروت فى حق الخلق مذموم، وفى حق الله محمود.. يبدأ باتخاذ كل معنى بداية لمعارف مخصوصة تتلاءم وكل وصف، ثم يرتب على كل صنف من المعرفة سلوكيات مخصوصة أيضًا ويبدأ على النحو التالى «ومن آداب من عرف ذلك أن يفعل كذا وكذا..».

معنى هذا أن منهجه اتخذ من موضوع نظرى جاف اشتجر حوله الخلاف بداية لعلم عملى تطبيقى له جدوى، ويمكن أن يكون أساسًا ركينا فى الحياة الروحية للإنسان. فكأن القضية باختصار قد خرجت من نطاق محدود إلى نطاق غير محدود بمقدار ما تتسع آفاق الذكر أمام بصر الإنسان وبصيرته.. وهو بلا شك اتجاه مبتكر استفاد منه الغزالى بعد نصف قرن وهو يضع كتابًا حول نفس الموضوع وهو «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» إذ اتبع المنهج ذاته وتبنى الغايات ذاتها.

وفى كتابه «المعراج» يتخذ من قصة الإسراء والمعراج إشارات عجيبة، الهدف منها إعلاء قدر المصطفى هذه المعجزة بطريق مقنع ممتع وهو يتابع كل نقلة من نقلاتها.

أما «لطائف الإشارات» فهو كما يتضح من اسمه يعتمد على استنباط الإشارة من النص القرآنى بحيث يضيف إلى تفاسيرنا التقليدية المنكبة على الاشتغال بالعبارة: نحوًا وصرفًا واشتقاقًا ولغة وفقهًا وأخبارًا - أشياء جديدة تغيب كثيرًا عن أفهامنا. وهو فى مقدمة كتابه يعترف أن هذه ميزة لا يتمتع بها سائر الناس وأنها وقف على أصفياء الله وأوليائه: «.. أودع سبحانه صدور العلماء معرفة القرآن الكريم وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله، ورزقهم الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه، ووعده ووعيده». ثم

يستطرد مفصلا شأن هؤلاء المرادين لهذه المهمة «.. وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفى رموزه، بما لوح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا ـ بما خصوا به من أنوار الغيب ـ على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلهمهم بما يكرمهم.. فهم عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون.. والحكم إليه فى جميع ما يأتون ويذرون».

ومن عجيب الأمر أن يطول النفس الإشارى عند الشيخ حتى يتمكن من تفسير القرآن الكريم كله سورة سورة وآية آية، بل أحيانًا يحلل الآية الواحدة إلى كلماتها ، ويصل الأمر ذروته عند البسملة فيفسرها واحدة بعد الآخرى ـ وهى التى تتكرر فى مفتتح كل السور بنفس ألفاظها ـ تفسيرًا متجددًا يليق بالجو العام لكل سورة على حدة،، والإشارات المنطلقة من كل بسملة بدورها تتجدد على نحو مذهل.

غير أن مقدرته هذه تجد تفسيرًا لها فى سيرته... كما سنرى، فقد انكب على العلوم العقلية والنقلية ما وسعه ، وتثقف على أيدى كبار الشيوخ أمثال الإسفرايينى والباقلانى وابن فورك والدقاق وغيرهم من أئمة نيسابور فى أزهى عصورها كما أنه قبل ذلك وبعده أديب.. له شعر خاص وله أسلوب أدبى ممتاز، ومن هنا تذوقه للشعر خارج البيئة الصوفية والمجلوب للاستشهاد به على الموضوعات الصوفية يأخذ بدوره الطعم الإشارى المعهود، فنحس أن هذا الشعر المنقول عن المتنبى أو صريع الغوانى أو العذريين قد ارتدى ثوبًا جديدًا حين ضم إلى الخمريات أو الغزليات الإلهية أو نحوها بحيث تعجز عن تمييزه فى السياق الإشارى. وكتابنا هذا لا يخرج عن ذلك كما سيتضح بعد قليل..

والسؤال الذى يطرح نفسه لماذا هذا الاهتمام بالخط الإشارى عند الشيخ فى معظم تصانيفه؟

نرجئ الجواب على هذا السؤال إلى الفقرة التالية بعد أن نضم إلى تصانيفه الإشارية هذا الكتاب الجديد.

ثانيا . الاتجاه الإشارى فى «نحو القلوب الكبير»

نعلم أن علم النحو هو العلم بالقواعد التى نضبط بها أواخر الألفاظ حتى يسلم الكلام وتتحقق الفائدة المرجوة منه فنأمن وقوع «اللسان» فى اللحن والخطأ. وهو علم وضعى شارك فيه أفذاذ من علماء المشرق والمغرب. هذا هو المفهوم السائد الذى عرفه الناس والفوه.

وجاء الشيخ.. فأراد أن يكسب له وللطريقة بل للتدين عمومًا نصيرًا جديدًا يؤيد به حقائق تتصل «بالقلوب» لا «باللسان» وحده.

النحو علم مستقل، والتصوف بدوره علم مستقل، أما الجمع بينهما فى صعيد واحد فهو علم جديد يمكن أن نسميه:

علم النحو الصوفى أو «نحو القلوب».

وقد بدأ الشيخ جهده فى هذا الخصوص فوضع كتابًا صغيرًا خطط فيه لفكرته الأساس ، واختار نماذج قليلة لتوضيح «اكتشافه» ولكنه ما لبث أن صنف هذا الكتاب الكبير ليشمل ستين فصلا تكاد تستغرق كل موضوعات النحو المألوفة. وخضعت كلها للإشارة وعلم الباطن.

ولكى نتصور البداية العقلية لهذا الأساس علينا أن نردد فيما بيننا وبين أنفسنا مصطلحات النحو التقليدية مع استحضار التصورات الدينية فى ذات الوقت فالاسم المبتدأ، وخبره، والفاعل، والفعل، والمفعول، والمرفوع والمنصوب والمخفوض والوقف والسكون والجزم... إلخ هذه الألفاظ ذات الدلالات المعروفة، ولسوف يحدث بالقطع ـ من قبيل تداعى المعانى ـ أن نصرف هذه الدلالات ذات الرائحة النحوية الصرفة إلى دلالات عميقة كل

العمق فى المفهوم الدينى. فليس من شك فى أننا فى الوعى أو فى اللا وعى سنحس بنوع من اللقاء المعنوى الحميم بين الله والمبتدأ، وبين الخالق والفاعل، وبين الكون والمفعول ، وبين من هو (مرفوع) فى القيمة وآخر (مخفوض)، وبين من تؤثر فيه العوامل ومن لا يتأثر.. هكذا بالتداعى بين المعانى المشتركة، تمكن القشيرى أن يضع أساس هذا العلم الجديد «نحو القلوب».

فإذا كانت الفكرة بسيطة فى بدايتها فهى عند رجل كالقشيرى يتحالف مع الإشارة، ويؤمن بها ويعمل لها ـ ؛كما أوضحنا... الفكرة هنا تأخذ مداها البعيد، وتتسع وتدق وتحتد وتكبر لتلد فى النهاية هذا الوليد الغض «نحو القلوب».

وأشهد أننا ونحن نتعامل مع هذا الكتاب لم نجد عنده من البداية إلى النهاية افتعالا أو تكلفًا، بل العكس هو الصحيح فإننا كنا نسمح لأنفسنا أحيانا أن نتابع الفكرة الكبرى للباب النحوى، ونتسرب مع التفاصيل والتفاريع كما تذكره مطولات النحو فأدهش إذ أجد إمكان سريان الفكرة الإشارية إلى مستوى الأعماق البعيدة فى أغوار الموضوع.. وقد نوهنا فى الشروح بذلك ونحن شديدو الإعجاب بالرجل حتى لقد حدثنا أنفسنا كثيرًا أنه يتمتع بميزة أكبر من الفطنة والذكاء ودقة النظر.. إنها نفح روحى عميق يلهمه هذه الفتوحات .. ونحن نقول لأنفسنا: إن السر فى ذلك كله أنه لا يقترب من هذا العمل إلا بيد متوضئة!

ولسنا نبالغ فيما نذهب إليه فإنا لا مصلحة لنا فى المبالغة ، بل إننا نقترب من هذا العمل العلمى ونحن مجردون من كل الأهواء الشخصية.. ولسوف يحس القارئ ـ إن شاء الله ـ بقيمة هذا الصنيع وتقديره حق قدره. يكفى للتدليل على ذلك قياس النتائج بمحصولها النهائى، فالشيخ قد جرب الإشارة مع معظم أبواب النحو فلم يتخل إلا عن بابى «البديل»

و«التوكيد» تقريبًا وفى كنف ذلك استطاع أن يلم بأطراف التجربة الصوفية كلها بأدق دقائقها - كما يتضح من المتن ومن الشروح... فماذا ننتظر من الرجل لإثبات نجاحه أكثر من ذلك؟ أليست الحقيقة واحدة مهما اختلفت المعارف؟ ومع أن الشيخ كان يكتفى وهو يورد فقرات النحو الظاهرى بسطور قلائل يراها جديرة بالاهتمام لإطلاق الإشارة نحو هدف محدد يفصح عنه أو يلغز.. إلا أن هذا القدر من النحو الظاهرى يكفى الآن كى نقتحم به محاولة تيسير النحو، وتخفيفه من أثقاله التى ينوء بها شبابنا فيزورون عن النحو وعما يتصل بالنحو إذ تنقبض نفوسهم من مناهجه وطرق عرضه ووسائل تطبيقه.. نتصور أنه يمكن الاستفادة من تجربة الشيخ فى هذا التخليص كى نعيد تقديم هذا العلم بعد تنقيته من طول ومشقة لا جدوى منهما، ونكتفى بما يمكن أن نسميه الحد الأدنى والضرورى من النحو، ذلك القدر الذى يعلق بالأذهان ولا يكون قابلا للنسيان عبر الأزمان.. بل يظل نافعًا فى أمورنا الحياتية عند التحدث وعند الخطاب وعند القراءة والكتابة.. تلك فائدة محققة من هذا الكتاب. ومع ذلك فإن هذا ليس الهدف من تأليف الكتاب.. فلم يكن فى الواقع يطمح إلى زيادة كتب النحو كتابًا جديدًا فهو يعلم أن مكتبة النحو متخمة.. إنما كان يهدف حسب خطه الفكرى فى كل مصنفاته أن يحول العلم إلى عمل، والنظرية إلى تطبيق ، والمبادئ إلى سلوك.. هذا جزء أساسى فى تخطيط تصنيفه.. فكيف تم له ذلك؟

استحضر الشيخ فى ذهنه الجزئية التى يريد أن يتناولها فى فصل «النحو» وانتقى من كل التراكمات النحوية الكثيرة ما يكفى لسلامة «اللسان» من الخطأ واللحن، وأوجز ذلك فى عبارات مركزة كأنه يصوغ دستورًا ذا مواد محددة ضابطة، بلا حشو ولا استطراد. ثم صاغ لأجل أهل «القلب» - ما يناظر ذلك تمامًا - شيئًا نافعًا فى العلوم الصوفية من الناحيتين النظرية والعملية. وخرج من هذا التنظير بشىء ممتع مقنع

للمريدين والسالكين والواصلين. وظل هكذا ينتقل بين الستين فصلا من فصول النحو واضعًا نصب عينيه أن يضيف جديدًا فى كل فصل، بحيث يكون استجماع هذين المحصولين المتوازيين فى نحو اللسان ونحو القلب ثروة ثمينة فى نهاية الأمر.

وكأنى بالشيخ بعد كل هذه الجهود يريد أن يقول للمريد:

هأنت بعد هذا قد أدركت أن كل صغيرة وكبيرة فى علم من العلوم العقلية التى يتحمس لها أهلها لها أصل عندك فى علوم الصوفية، وبكلمات أخرى: فإن علوم الصوفية ليست بدعة.. وإنما هى مستمدة من أصول مألوفة تعارف الناس على احترامها وتقديرها.. وهكذا.. ما يصدق على النحو يصدق على الفقه التفسير والأصول والكلام.. وكل العلوم التى فى خدمة الشريعة.

وبالتالى.. فإن الشريعة والحقيقة تتلاقيان، فهما وجهان لشىء واحد، فالحقيقة بيت والشريعة بابه، ولا دخول للبيت إلا من الباب، فأى تقصير فى أحدهما على حساب الآخر «فغير مأمول وغير محصول» ولو وصلت فى الكرامة حتى طرت فى الهواء أو مشيت فوق الماء فسننظر أولا فى موقفك من الشريعة، وأى تقصير لك فيها ولو فى هينة منها يذهب بك وبكرامتك أدراج الريح!

ذلكم هو المقصد الأسمى والأسنى لهذا الإمام الجليل من كل منهجه الإشارى، اعتراف كامل بفكرة الظاهر والباطن، وإتاحة الفرصة أمامهما ليتبادلا النفع.. نفع العابدين والسالكين.. بل المتدينين بصفة عامة، والذائقين بخاصة. وإذا كان توضيح الأمور «الحقيقة» بواسطة علوم «الشريعة» هدفًا، وإذا كان «الحب الإلهى» هو جوهر هذه «الحقيقة»..

فكأن هذا الكتاب فى الواقع إنما جاء لتصنيع فكرة هذا الحب، وبيان

أشواقه ومكابداته، وتفتيح الأبصار والبصائر أمامه كى يقوم بدوره العاطفى النبيل فى تجميل الحياة أمامنا، وتنظيم مجتمعاتنا..

وتستطيع أن تتمثل قيمة هذا الدور لو تخيلت الناس وقد أقاموا علاقاتهم الحياتية على أساس محبة الله ومحبة بعضهم بعضًا.. تلك المحبة التى تعطى للوجود طعمًا، وللتحرر مذاقاً.. وبدونها تصبح الحياة أشبه بغابة موحشة تمتلئ بالصخور الرخامية الباردة وتعج بالوحوش الكاسرة!

وهكذا تحول النحو - ذلك العلم الجاف الذى يشق على الدارسين - إلى واحة وارفة ذات مياه وظلا - ونسائم وخيرات، فيها ينتعش القلب والروح والسر، ويزدهر الجمال والجلال، وتنمو العاطفة المشبوبة صاعدة نحو «المنعم» شاكرة له مثنية عليه، وعلى نعمه (ظاهرة) و (باطنة).

ثالثا - خطتنا فى الشروح

لو ترك القارئ - فى مواجهة مع المتن وحده بدون الشروح لأخافه الإيجاز المركز والإشارة المبهمة وربما أزاحه بعيدًا دون أن يعطيه قدره الحقيقى. وربما أيضًا يكون فى ذات الوقت له عذره، فالشيخ لم يكتب كتابه لأى قارئ، وإنما للمريدين، وليس لكل المريدين بل لمن لهم خبرة بحقائق علم النحو من ناحية وبقضايا علم القلوب من ناحية ثالثة وبالقدرة على تنظير هذه بتلك حتى يتم الاستمتاع والاقتناع.. ونتصور أنهم قلائل - من حيث العدد - فى كل زمان ومكان.

فإذا جئنا نحن الآن فى هذا العصر ووضعنا فى غاياتنا أن ندنو بالكتاب من أكبر عدد من الناس كى نعرفهم - وهذه مهمتنا الأساس - بالشيخ وأفضاله فإن ذلك يلقى علينا عند شرح الكتاب مهام ثقيلة.. نعترف أننا تخوفنا من حملها فى بداية الاقتراب من هذا العمل.

لم تكن المهمة سهلة.. لأن استنباط الإشارة من العبارة أمانة علمية يلزم الوفاء بها قدر الوسع، ثم إن صياغة الشرح تحتاج إلى أسلوب واضح يتيسر للكافة فهمه. وقد تكون مهمة الشراح فى الزمن القديم أسهل منها فى عصرنا، لأنهم كانوا جميعًا - المؤلفون وشراحهم يعيشون فى زمن واحد أو متقارب ، وكانت أنماط الثقافة فى عصورهم غير بعيدة عما يصدر من مصنفات، وللناس اعتياد على ذلك كله. أما نحن فهناك ما يشبه القطيعة بين تراثنا القديم وبين ثقافاتنا الحاضرة.. ونزعم أن النتيجة - إن شاء الله - كانت لصالحنا، فقد أصبح ممكنا أن يوصف هذا العمل بأنه من نماذج الأعمال القديمة المعروضة فى أسلوب معاصر بعيدًا عن الإعنات والمشقة.. ونزعم كذلك أن خبرتنا بالشيخ خلال مصنفاته قد ربت لدينا حسا حتى بما يريد أن يقوله لا لما يقوله فقط.. فتلك أجل الثمار التى جنيناها من طول خدمتنا له.

ومع ذلك كله فيبقى الأمر من الناحية العلمية المحضة أن الشروح تنبنى على التذوق والذوق شىء ليس فى الكتب، فمن حق القارئ الواعى أن يتقبل ما ذهبنا إليه، وأن يرفضه، وأن يقدم جديدًا فى فهمه.. وفى جميع الأحوال نحن نتقبل النتائج بصدر رحب. فيكفينا أن نشغل أفهام الناس بشيخنا، وأن نجعله منطلق تفكيرنا.. فذلك حسبنا.

والعمل رمزى إشارى.. وكلاهما ملغز، وربما يدفع ذلك إلى الهيام فى أودية شتى، فكان رائدنا أن نتفهم بداية الدرب فى كل فصل، ثم ننطلق فى حدود مرسومة دون استطراد أو إملال أو افتعال أو مخاطرة.

ونحن الذين رقمنا الفصول ووضعنا لها العناوين.. ولم يكن ذلك بالمتن، كما أننا قمنا بوضع علامات الترقيم وترتيب الأسطر بحيث تغدو مفهومة عند قراءتها الأولى.. وليس هناك شىء من ذلك فى المتن أيضًا.

والكتاب يتكون من ستين فصلا تستوعب موضوعات النحو التقليدية ماعدا التوكيد والبدل.

وليس بالضرورة - كما يرى الشيخ - أن يكون الفصل ذا أصل كبير، فقد يجد فى شىء صغير (كواو عمرو) أو ألف الوصل أو دخول (ما) فى كثير من أبواب النحو ملحظًا يستحق إشارة نافعة ومهمة فيغتنمه.

ولاحظنا أيضًا أن الشيخ - وهو بصدد التركيز - قد تجنب المسائل التى يشتجر حولها الخلاف عادة بين النحاة، فاجتهد أن يختار على نحو انتقائى الثوابت التى لا خلاف حولها تاركًا ذلك لمن يريد أن يمخر عباب النحو فى مظانه .. فالمهمة هنا مختلفة إذ إن ذلك شىء لا يعنيه.

وفى معظم الأحيان كان استخراجنا لمفهوم الإشارة محددًا بحدود العبارة، ولكننا كنا نجد أنفسنا أحيانًا أمام عبارات لها صفة التعميم بحيث يمكن أن يدخل تحت العام خصوصيات كثيرة، فكنا نقدم الاحتمالات التأويلية الممكنة، ونساير كل احتمال إلى آخر مداه.. لأن الحدس بواحد فقط غير مأمون العاقبة.

ونحاول فى الشروح تقديم أنماط شتى لأسلوب العرض، فأحيانا نجد الموقف يتطلب بسطة فى قضايا من علم الكلام، أو من علم النفس أو الشعر، أو القصص، أو الأسانيد عن الشيوخ.. ونحو ذلك وقد اخترنا هذا التلوين فى وسائل العرض لمقتضيات الأمر من ناحية ولمحاولة التخفيف عن القارئ ودفع السأم عنه من ناحية أخرى.

ونلجأ إلى تفريعات فى «نحو الظاهر» تتطلبها الإشارة كى يزداد التنظير إحكامًا، ونتجنب ذلك إذا لم تدع إليه الضرورة، وسيجد القارئ الذى يعنيه أمر النحو الظاهر فقط أننا وفينا الكيل ولم نطفف.. إذا وازن بين كفة العبارة وكفة الإشارة.

ولم نشغل أنفسنا بقضية تحقيق انتماء الشيخ نحويًا إلى مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد أو المغرب لأن ذلك ليس فى حسابنا هنا، وربما تصدى لذلك باحث غيرنا، لأننا وجدنا الشيخ يهتم بالقواسم المشتركة بين

النحاة، ولا يطمح أن، يكون امتدادًا للمطولات أو طرفًا فى الخلافات. ولكن ذلك لم يمنع أن ننبه أحيانًا إلى ما نلاحظه على منهجه، وعلى مصطلحه لأننا شعرنا أن معايشة المسائل العقائدية والمفاهيم الصوفية قد أورثه رؤية خاصة لمعنى (الفاعلية) و (الابتداء) و (الرفع والنصب والخفض والجزم والسكون) ... إلخ فالجرس اللغوى للفظة يقع فى سمعه وعقله ووجدانه موقعًا متفردًا بحكم الخلفية الثقافية التى يحملها، وهكذا تحولت معطيات النحو إلى مردودات له، وتم التفاعل بين المفكر وموضوع تفكيره فكانت الثمرة ثراء البحوث النحوية بظهور تفسيرات جديدة، ربما كانت عونًا على فهم جديد لمشاكل نحو الظاهر.. وقد نبهنا إلى ذلك فى شروحنا فى مواضع شتى.

وقد أدت الأقواس « » و ( ) أدوارًا مهمة فى الشروح، فالأولى للقرآن والحديث والأسانيد ، والثانية لما له أهمية فى عملية التنظير والمقايسة.

ونعتذر إذا لم يتم ذلك عند الطبع على وجه الكمال.

وأخيرًا. فإنه للوهلة الأولى قد يحسب القارئ أننا قد وقعنا فى ورطة التكرار فى الشروح، ولكن ليس فى الأمر تكرار مطلقًا، فطبيعة الموضوع تفرض أن يطل الشىء برأسه فى أبواب النحو أكثر من مرة أو من مرتين.. خذ مثلا (المرفوع) ومعناها فى العبارة (والإشارة)، فهذا الاصطلاح يتكرر بلفظه فى المبنى والمعرب وفى الاسم وفى المبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن الفاعل ونائب الفاعل... فإذا كان الأصل أن (المرفوع) له الرفعة لأنه ليس فضلة وأنه أساس أو عمدة أو.. أو.. فاستحق (الضم) الذى هو أثقل الحركات، لأن المهام تتلاءم مع أصحابها ... إلى آخر ذلك فإن من المتوقع أن يكرر الشيخ ذات الملاحظة فى المتن وفى الإشارة . وقد تغلبنا على هذه المشكلة - خوفًا على القارئ من الملالة - فكنا نسعى إلى التماس جديد نضيفه فى هذه المواقف التى تكاد تتشابه، بحيث بدا الأمر وكأنه لا تكرار، وكانت ذخيرتنا فى ذلك المقتطفات التى نستجلبها من كتب الشيخ الأخرى

أو من أقوال الشيوخ أو من شعر الإنشاء والإنشاد عند الصوفية.. المهم عندنا أن نضيف جديدًا يفيد ويمتع.

رابعًا ـ صاحب الكتاب

هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة بن محمد القشيرى، وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الإسلام وشهرته القشيرى وأمه سلمية. وكان ميلاده فى (استوا) إحدى قرى مدينة نيسابور، وتلقى تعليمه الأول ودراساته الدينية فى قريته.

وهو عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه. فهو بهذه العروبة التى تجرى فى دمائه من أحسن الردود على من يتهمون التصوف بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة، عن العرب والعروبة.

ترك القشيرى قريته استوا وذهب إلى نيسابور ليتعلم الحساب كى يشارك مع لفيف من أهل قريته فى إصلاح موازين الاقتصاد بها بعد ما اختلت نتيجة ثقل الخراج المفروض عليها.

ولكنه فى نيسابور غير مسار حياته للمرة الأولى، وذلك حينما وجد نفسه فى بيئة علمية خصبة شدت كل اهتمامه، ودعته للانغماس فيها، والتزود بزاد العلم فى المعقول والمنقول، تلقى الفقه على يدى الإمام العظيم الإسفراييني وأصول الفقه على ابن فورك، والمذهب الشافعى على يدى أبى بكر الطوسى. وإلى جانب ذلك غشى مجالس اللغة والأدب والنحو والعروض وكتب دروسها، كما قرأ مصنفات الباقلانى.

ومعنى هذا أنه تسلح بسلاح الثقافة المألوفة فى عصره عند أوثق أربابها، ومعنى هذا أيضًا أنه قبل أن يلج حومة التصوف كان معدًا أحسن إعداد لفهم الشريعة والحقيقة وما يتصل بهما من معارف وضعية وهذا أيضًا من أحسن الردود على من يتهمون الصوفية وكتاب التصوف

بالجهل والشطط والبعد عن الجادة، وأنهم يأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم!

وتلعب الصدفة وحدها لتغيير حياته للمرة الثانية..

فقد كان ذات ليلة يحضر مجلس الشيخ أبى على الدقاق الذى كان يتحدث فى «علم القلوب» ومذهب أصحاب الأحوال والمذاقات والمواجيد، والشريعة والحقيقة وما بينهما من تواصل واتصال.. إلخ وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه على نحو عجيب غريب. ولم يستطع بعد ذلك مفارقة هذا المجلس وصاحبه.. وهو يستمع على الدوام إلى هاتف فى أعماقه: إنك لهذا خلقت!

وحينما اقترب من الشيخ وبسط له بعض حاله، وشكا إليه أنه يعجز عن التوفيق بين مجلسه ومجالس العلوم العقلية والنقلية أشار عليه الشيخ أن يواصل إتقان هذه العلوم إلى درجة الاكتمال..

ومن هذه النصيحة نعرف عنصرًا مهمًا فى المذهب الصوفى للشيخ القشيرى فيما بعد: هو وجوب تصحيح البداية وتكريس الإيمان بقدر الوسع من الثقافة المنقولة والمعقولة قبل الولوج إلى عالم التصوف حتى يكون البنيان سليم الأساس.

ومن هنا نعرف أيضًا ـ بالنسبة لكتابنا هذا ـ أن صاحبه جدير بحمل أمانة علم «كالنحو» ، فهو متقن له أشد الإتقان، ومتمكن من أصوله وفروعه بقدر يسمح له أن يوظفه لخدمة أرباب الحقائق على نحو مأمون.

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ .. وبادله الشيخ حبًا بحب، وأولاه عنايته ورعايته، وأعجب بسجاياه حتى جاء وقت رضى أن يزوجه بابنته الوحيدة فاطمة التى أنجب منها القشيرى ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحوال كما أنجب ابنته (أمة الرحيم) أم عبدالغافر الفارسى صاحب تاريخ نيسابور الشهير.

وكان أثر الدقاق فى القشيرى بعيدًا جدًا، وآية ذلك أن اسمه لا يغيب عنه فى مصنفاته مشفوعًا بالتقدير وبالترحم.

وكان زواجه موفقًا وحياته الأسرية مستقرة.. الأمر الذى ساعده على أن يكون مفكرًا سوى المزاج، بعيدًا عن التعقيدات والصراعات، واضح الرؤية، مستمسكًا بآداب وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر جلية فى كل مصنفاته.

ثم يأتى التحول الثالث.. وهو هذه المرة يتمثل فى قوة غاشمة ظالمة من خارج محيطه العائلى والعلمى والاجتماعى. ذلك أن القشيرى - شأن الأشاعرة جميعًا - نكبوا ذات يوم نكبة داهمة، وكان ذلك حينما نجح الوزير اللعين الكندرى فى استصدار أمر من السلطان (طغول) بسب المبتدعة فأجاز له السلطان، وإذا بالكندرى يضيف اسم أبى الحسن الأشعرى إلى المبتدعة، ويجرى ذلك على منابر نيسابور فى وقت واحد. وحدثت فتنة هوجاء، وهاج الناس، وشارك الجيش فى الصدام .. وتعرض القشيرى وأصحابه للإهانة والضرب والتعذيب، وكان صدى هذه الفتنة لدى السلطان - حين تلقاه فاترًا، فخاب أمل الأشاعرة ، ووجدوا أنه من الخير ترك الأهل والديار والنزوح إلى بعيد خارج الوطن.

وهو يشير إلى هذا الذى حدث له من بعيد فى بعض مواضع من كتابه هذا خصوصًا فى فصوله الأخيرة - وقد نوهنا بذلك فى موضعه من الشروح.

واستقر المقام بالمنفيين إلى جوار المصطفى الحبيب صلوات الله عليه وسلامه، وظلوا على هذه الحال عشر سنوات كاملة.

وجاء وقت.. اتفق فيه الجمع على أن يحسموا خلاف الرأى بينهم فى العودة أو المنفى عن طريق اختيار واحد منهم يقول كلمته وتكون هى كلمة

الجمع التى لا نقاش فيها.. وتم ذلك، وكان المختار لهذه الكلمة الحاسمة المسموعة.. القشيرى.. ولا أحد غيره.

وقف القشيرى يخطب فى الناس ولا يدرى بماذا يشير.. وإذا به فجأة ينكشف له بفراسته على البعد أن (الكندرى) قد انتهى عهده وسقط النظام كله وجاء (ألب أرسلان).. فهتف فرحا:

يا أهل خراسان بلادكم بلادكم إنى لأرى خصمكم يقطع الآن إربا إربا ويرسل كل عضو منه إلى ناحية بعيدة.. هيا هيا إلى خراسان!

ويقول السبكى فى طبقات الشافعية: وضبط اليوم والتاريخ والساعة وإذا بدعاء الشيخ يستجاب وتتحقق الأمانى.

وعاد القشيرى إلى وطنه نيسابور وقضى السنوات الأخيرة من عمره من ٤٤٥ هـ إلى ٤٥٥ فى هدوء واستقرار وتتالت مصنفاته ، وكثر تلاميذه، وعمت بركاته.

ودفن إلى جوار شيخه الدقاق فى مدينته الحبيبة نيسابور فى عام ٤٦٥ هـ رحمه الله رحمة واسعة.

خامساً ـ توثيق الكتاب ونسخه

أتيح وأنا أنقب عن آثار الشيخ إبان إعداد لأطروحة الدكتوراه أن أجد فى كثير من كتب الببليوجرافيا والمصادر التى تحدثت عنه أن له كتابين أحدهما باسم: نحو القلوب الصغير والآخر باسم نحو القلوب الكبير (تذكرة النوادر وكشف الظنون ومفتاح السعادة وطبقات الشافعية فضلا عن بروكلمان) كما أشاروا إلى أن الأول صغير الحجم وتوجد منه نسخ قليلة مبعثرة فى أرجاء العالم، أما بالنسبة للثانى فهو (سفر نفيس جليل القدر غير أنه مفقود).

وتحدث مصادفة عجيبة.. إذ أعثر ضمن سلاسل المجاميع على واحدة برقم (١١٦) في دار الكتب بباب الخلق على كتيب يتألف من خمس ورقات مجهولة النسب فلا نعرف صاحبها ولا ناسخها ولكن بالقراءة المتأنية وجدنا تعويلات على الإمام القشيرى وكيف أنه يرى كذا وكذا. وتدور هذه الآراء حول إخراج النحو الظاهرى إلى نحو التصوف، والمقارنة بين الظواهر النحوية والمسائل القلبية. فاكتفينا من الكتاب بهذه النصوص القليلة المسندة لإبراز فكرة الشيخ في الموضوع برمته: التنظير بين النحويين وأدخلنا ذلك في حسابنا عند وصف منهجه في التأليف بعامة.

وفي وقت متسع لاحق أمكن الحصول على بيانات كافية عن معظم ما يعرفه الناس عن مخطوطه «الصغير».

فهو غالبًا ما يبدأ على هذا النحو:

كتاب نحو القلوب الصغير:

للأستاذ أبى القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها .... (المتن).

نذكر ذلك هنا حتى نعاون الباحثين على التمييز بين الكتابين، كما ننوه بإشارات خفيفة عن كل مانعلم عن مخطوطات خمس للصغير حتى يزداد التيقن من توثيق الكبير.. الذى سنتحدث عنه بعد قليل.

مخطوطات «نحو القلوب الصغير»:

١ ـ مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم ١٩٦ تصوف تقع في ١٢ صفحة،

والصفحة ١٢ سطرًا والناسخ يرد اسمه فى الصفحة الأولى وهو محمد ابن حسنى الشابى التونسى.

٢ ـ مخطوطة بمكتبة طلعت رقم ٢٤٢ مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٥٥ من ورقة ١٧ ـ ٢٢ وكتبت بخط حسين رضا الوزير فى آخر ربيع الآخر عام ١٢١٩ . ومتوسط سطور الصفحة ١٠ أسطر، وخطها فارسى مضبوط، وتقع فى مجموعة أنيقة تسمى (علبة الآداب) وفيها رسالتان إحداهما نحو القلوب الصغير للقشيرى والأخرى رسالة فى اللغة لأحد العلماء.

٣ ـ مخطوطة حديثة العهد بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٤٥٥ ب مساحتها ٢٠٠× ١٤٥ مم مربع. وتقع فى ست صفحات بكل صفحة خمسة أسطر، وعناوينها بالمداد الأحمر، وعلى صفحتها الأولى اسم الناسخ وهو: محمود الجبالى.

٤ ـ مخطوطة للناسخ السابق، على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود ومؤرخة بالثالث من رمضان ١٣٤٤ الموافق ١٧ مارس ١٩٣٦ وهى خالية من الترقيم.

٥ ـ مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة رقم ٢٦ مجاميع وتقع فى ثلاث ورقات ضمت سبع رسائل خطية بالنسخ الجميل ومطرزة الصفحات بإطار من الخطوط السوداء المذهبة.

وقد حقق هذا الكتاب الدكتور أحمد علم الدين الجندى . وطبع فى مدينة تونس ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م.

مخطوطات «نحو القلوب الكبير»

تتفق جميع النسخ التى بين أيدينا على أن البداية الحقة للكتاب هى:

«النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام.

يقال: نحوت نحوه أى قصدت قصده، فنحو القلب القصد إلى حميد القول... إلخ».

أما الاختلاف فيقع فيما بين البسملة وهذه البداية، وهو خلاف لا يؤثر، لأنه راجع إلى الناسخ الذى يكرم الكتاب أو صاحبه حسبما يرى، أو ربما لصاحب النسخة أو أحد قرائها.

وإليك النسخ ومصادرها وكلمة قصيرة عن كل منهما، ولكنها كافية فى التعريف بها وتوثيقها.

١ . نسخة:

برقم ١٥٩٣ تصوف مكتبة طلعت ونرمز لها بالرمز (ط) وهى ضمن مجموعة ، وتأتى تالية لكتاب بعنوان:

«شرح محاسن المجالس والرفيق المؤانس».

للشيخ الإمام ابن العريف الصوفى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ونفع به آمين ويليه بعد ذلك كتابنا (نحو القلوب للإمام القشيرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وتسير ديباجته على هذا النسق:

كتاب نحو القلوب . تأليف الأستاذ الإمام الأوحد، والشيخ القدوة:

جمال الإسلام أبى القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن محمد بن طلحة القشيرى النيسابورى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى رحمه الله وبه ثقتى:

النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام....

٢ . نسخة تركية:

وقد رمزنا إليها بالرمز (ب) إشارة إلى (بورصة) وهى قرية صغيرة تقع على مقربة من البحر الأسود فى تركيا . والنسخة محفوظة بمكتبة خراججى أو غلو زاده» برقم ١٠٩ .

وهى تأتى تالية لكتاب بعنوان «مفتاح التنزيل فى خلاصة التأويل» لأبى الفضل محمد بن محمد بن أبى القاسم البقالى وهى خالية من التنقيط ورديئة الخط، ومضغوطة الحروف وبالتالى فهى عسيرة فى القراءة، وفيها بعض سقوط فى المتن، ولكنها أفادت فيما يمكن أن يكون فى غيرها من اشتباه أو حذف ، وتقع فى إحدى عشرة ورقة من الحجم الكبير.

٣ - النسخة التونسية:

وقد رمزنا لها بالحرف (ت)

وهى أكثر وضوحًا من سابقتيها وتبدأ على النحو التالى:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، قال الإمام المحقق الجليل أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى تغمده الله برحمته آمين:

النحو هو القصد إلى صواب الكلام....

٤ . النسخة السورية:

ونرمز لها بالرمز س

وديباجتها بعد البسملة والحمدلة: قال الأستاذ الإمام زين الإسلام وناصر السنة، وناصح الأمة أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى رحمه الله رحمة واسعة:

«النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام»

٥ . نسخة الإسكندرية:

ونرمز لها بالرمز ك

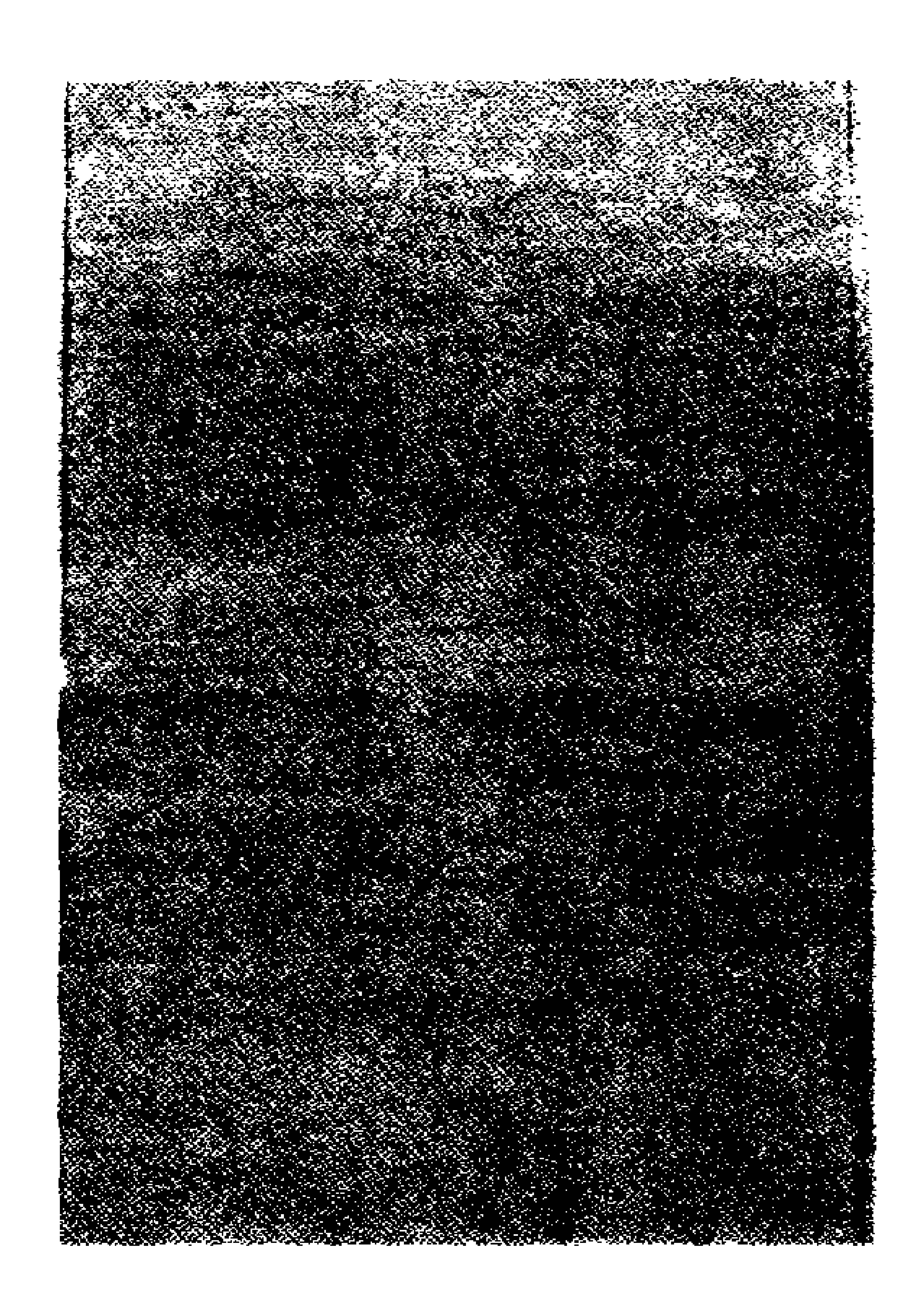
وتحمل صفحتها الأولى رقم ورود الكتاب إلى كتبخانة الإسكندرية التابعة لمجلسها البلدى شارع محرم وهو ٧٦٣٢ والرقم المسلسل ٢١٢٩ د وعلى الصفحة ذاتها نقرأ هذه الكلمات:

«الأصول فى نحو أرباب القلوب تصنيف الإمام العالم الأستاذ أبى القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى ﵁ وأرضاه.

وتبدأ الصفحة التالية بالبسملة ثم الحمدلة ثم الصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين ثم: قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم القشيرى رحمه الله تعالى: النحو هو القصد إلى صواب الكلام....

وهكذا يتأكد لنا توثيق الكتاب من ناحية وتمييزه عن «الصغير» من ناحية أخرى، وتتأكد لنا نسبته إلى صاحبه، وقد تضافرت النسخ بعضها مع بعض فى توضيح المتن، ونحمد الله أن كثرتها قد جنبتنا الكثير من الصعاب وحالت دون ظهور المشتبهات.

ولم نحاول أن نغرق الهوامش فى أثناء التحقيق بتعليقات طويلة حتى لا نرهق القارئ، وأحلنا ذلك على باب الشروح.



الصفحة الأولى من النسخة التركية «طلعت» تصوف رقم ١٥٩٣ ونرمز لها بحرف (ط)

مقدمة النسخة التركية «طلعت» تصوف رقم ٢٩٥١ ونرمز لها بحرف (ط)



مقدمة النسخة التونسية ونرمز لها بحرف (ت)

مقدمة النسخة السورية ونرمز لها بحرف (س)

القسم الأول

تحقيق الكتاب

النسخة	الرمز
نسخة (طلعت)	ط
النسخة التركية (بورصة)	ب
النسخة التونسية :	ت
نسخة الإسكندرية:	ك
النسخة السورية	س

تنبيه: يرجع إلى الفهارس طلبًا لمعرفة الصفحة المطلوبة لشرح المتن عند نقطة بعينها.

ومع ذلك فإن المتن معاد فى قسم الشروح تسهيلا على القارئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه ثقتى)[1]

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى ـ رحمه الله:

فصل [١]

النحو (فى اللغة)[2] هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحوت نحوه أى قصدت قصده (وهذا النوع فى العربية يسمى نحوًا لأنه القصد إلى صواب الكلام)[3].

فنحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب[4] وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة، فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب[5]، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع(.) [6] الواجد بساط القربة(..).

---

(١) لم ترد فى بقية النسخ، ولا نستبعد وجودها فى الأصل جريًا على عادة الإمام القشيرى فى إرداف البسملة بدعاء من هذا القبيل (انظر اللطائف مثلا حيث تتلو البسملة عبارة: رب يسر).

(٢) لم ترد فى بقية النسخ.

(٣) لم ترد فى بقية النسخ

(٤) هكذا أيضًا فى ك و ت ولكنها فى س ه(باللب) ونحن نرجح (بالقلب) لأن الشيخ فى بقية مصنفاته يتحدث فى هذا السياق عن ذكر اللسان وذكر القلب.

(٥) فى س (الاقتراب) وهى وإن كانت تراعى الفاصلة إلا أننا آثرنا التقيد بمصطلحين للأحوال: (البعد والقرب).

(٦) بفتح الميم وفتح الباء، فى س (مرتع) وكلاهما مقبول فى السياق.

(.) بفتح الميم والباء. (..) بضم القاف.

فصل [٢] :

الكلام اسم، وفعل ، وحرف جاء لمعنى:

وفى نحو (القلوب)[١]: الاسم هو الله[٢] والفعل ما كان من الله، والحرف إما[٣] يختص بالاسم فيوجب له حكمًا، أو يختص بالفعل فيقتضى له نسبة، وكما أن الحرف[٤] إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذى هو العلم (مثلا) يوجب الله حكم العالم.. وكذلك القدرة والحياة[٥] وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب[٦] والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم[٧] فى الخلق.

---

(١) وردت (القلب) فى بقية النسخ.
(٢) أردف لفظ الجلالة بـ (تعالى) فى س.
(٣) جاءت (ما) فى س و ت والصواب ما أثبتناه فى المتن.
(٤) فى س (الحروف) والسياق يقتضى الأفراد.
(٥) فى س (إلى سائر) وهى مقبولة فى السياق أيضًا.
(٦) فى س (أ و).
(٧) هكذا فى بقية النسخ ما عدا (ت) فهى (الكسب)، والصواب أن تكون (الاسم) لأن الكسب للعباد وليس لله الذى هو (الاسم) كما قال فى مفتتح الفقرة (الاسم هو الله).

فصل [٣]:

والاسم فى نحو القلب ما كان مخبرًا عنه فى مخاطبة الحق[١]، والفعل ما كان خبرًا فى مخاطبة العبد مع الحق.

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب.

فصل [٤]:

والكلام المفيد ما كان اسمًا واسمًا[٢]، أو فعلاً واسمًا وما عداه من الأقسام غير مفيد.

وفى نحو [٣] القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب[٠][٤] به الحق، وما سواه فلغو.

ويقال [٥]: المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة[٦] عن المصنوعات.. هذا هو التقسيم الحاوى لجميع المعانى، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذى هو مفيد.

---

(١) مشطوبة فى ك ثم صححها الناسخ (الحق) وهذا هو الصواب.

(٢) فى ك (اسمان) وهى خطأ ـ كما لا يخفى.

(٣) فى ك (وفى نطق) القلب.

(٤) يمكن بناء على مقدمة الفقرة فى مسألة الخطاب، وبناء على ما سيأتى من توضيح فى الفقرة التالية. أن نضبطها (يخاطب) بكسر الطاء وفتحها، فالعبد يخاطب الحق بالصلاة والنجوى والذكر والدعاء ونحو ذلك، والحق سبحانه يخاطب العبد بالوحى إن كان نبيًا وبالكشوفات إن كان وليًا.

(٠) بفتح الطاء.

(٥) ننبه إلى أن قوله (ويقال) لا يعنى إيرادًا لرأى باحث غير المصنف، وإنما هى عادة عند الشيخ حينما يرى رأيًا جديدًا يختلف عن الوجه الذى ذكره.

(٦) يقصد بها (تعبيرًا) عن المصنوعات.

الإعراب والبناء

فصل [٥] :

الكلام ينقسم إلى معرب ومبنى، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف[١] العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون.

ونطق[٢] القلب إما بلفظ[٣] يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة[٤] أذن[.] فيها الحق تصريف الخلق[..] فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك[٥]، والثانى ما تناجى به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع، والثانى حال فرق.

---

(١) فى ت (باختلاف) وهى مقبولة ايضًا.

(٢) فى ت (ويكون بالقلب) اى ويكون الإعراب والبناء فى نحو القلب.

(٣) فى س (نطق القلب ينقسم إما ..) وفى ك (ونطق القلب إما لفظ).

(٤) فى ك (ماله) وهى غير ذات معنى أما فى ت فهى (حالة) ونحن نؤيد قالة أو حالة على أساس ان الأذن بالقول فى حال الفرق ـ أى عند الرد إلى حال العبودية والتصريف حتى يستكمل العبد ما تتطلبه الشريعة منه وهو فى حال جمع الجمع ـ يربط القالة بالحالة.

(.) بفتح الهمزة وكسر الذال.

(..) بفتح الخاء وسكون اللام.

(٥) هذه هى الصواب، وقد استعملها القشيرى فى (رسالته ولهذا فنحن نستبعد ما جاء فى ك (بلا تكلف منكر) فالراء زائدة فى الخط.

فصل [٦] :

وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام ، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات[١] والمنى. وهو نعت العباد[٠] وأصحاب الأوراد والاجتهاد.

وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء[٢] منك شيء. وهذا نعت أصحاب الانكسار[٣]، وأرباب الخضوع والافتقار.

وقد يكون[٤] برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق.

وقد يكون برفع يدك عن الحرام ثم برفع ما تضمره من إثبات الأنام[٥] ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات[٦]. ثم ترفع الحاجات عن إحكام المحبة حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله[٧].

---

(١) هكذا في كل النسخ ما عدا ت فقد سقطت عبارة (وقد يكون بان ترفع قلبك عن اتباع الشهوات).

(٠) بضم العين وتشديد الباء.

(٢) سقطت (لا) في ت والسياق يتطلبها.

(٣) في ت (الأذكار) وربما تقبلها السياق أيضًا.

(٤) وقد يكون وقد يكون) مكررة هكذا في ك ولا ضرورة لهذا التكرار.

(٥) هكذا في ك أيضًا ولكنها في س و ت (الاثام) والصواب ما أثبتناه لأن السياق يتطلب تجنب العبد تعويله في الاحتياج على الغير، والمقصود هو نفي هذه الغيرية فالتصوف حسب احد تعريفاته: قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق.

(٦) في س (الحالات) والأصوب حسب السياق ما أثبتناه.

(٧) ارجع في (احكام المحبة) إلى رسالة القشيري ص ١٥٨.

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن[1] على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب فى محل الشهود بحسن[2] الإطراق، ثم بانتصاب . السر بوصف الانفراد.

والتنقى[3] عن دقائق الافتراق.

وقد يكون العبد منصوبًا لجريان[4] حكم المقادير من غير أن يكون[5] له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار[6]، أو منه فيه اشتغال[7]، ولما يلقى به استثقال ، ولما ينتظره استقبال، ولا لما يوعد[8] به استعجال.

ليس لهؤلاء فيهم حظ ولا نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم فهم غياث(.) الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل[9] وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس فى ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح ـ لكل من طالبك[10] بشىء ليس فى الشرع له نكر(..) من غير رد ولا نزاع[11]، ولا إبرام لا استكراه.

---

(١) هكذا فى بقية النسخ ولكنها فى س (البدل) هى خطأ من الناسخ.

(٢) هكذا فى ط و س ولكنها فى ت و ك (لحسن).

(٣) جاءت فى س بدون نقط على التاء والنون، وهى بتشديد القاف وكسرها.

(٤) فى ط (بجريان) وهى مقبولة فى السياق أيضًا.

(٥) فى س يوجد بياض بعد يكون.. إلى (ولا له).

(٦) بدون نقط فى ك.

(٧) بدون نقط فى ك.

(٨) وهى فى س و ت (يدعو) وقد آثرنا ((يوعد) حسب تذوقنا الخاص للسياق. وهى بفتح العين.

(.) بكسر الغين.

(٩) سقطت (الذل) فى ط و وردت فى بقية النسخ.

(١٠) جاء بعدها فى ط (أو يدوسك بقدميه).

(١١) جاء بعدها فى ط (ولا استشمار بعار).

(..) بضم النون وسكون الكاف.

وهكذا[1] العارف يستقل[2] أعقاب(.)[3] الكافة مستحقرا لقدره(..) [4] مستقذرًا لنفسه وفعله فى عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام[5] الحقيقة من غير إخلال بشىء - من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى(...)، فإن الأمانى، والمعانى متضادة[6] فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات[7] بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء[8] الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة[9].

---

(١) جاءت فى ط و ت (وكذلك).

(٢) هكذا فى س و (استقل = مضى وارتحل) ويكون المعنى ارتحل فى أعقاب الناس لتواضعه، وكره التصدر والتقدم طلبًا للصيت والشهرة.

(٣) هكذا فى النسخ الثلاث أما فى ط فقد جاءت بدون الف، وأعقاب جمع عقب وهى هنا تعرب ظرف زمان فيكون المعنى كما جاء فى الهامش السابق أن العارف يؤثر السير خلف الناس تخفيًا وانكسارًا، حتى يظل دائمًا مستشعرًا الخمول فى كنف إرادة مولاه.

(٤) مشتبهة فى ط و واضحة فى بقية النسخ.

(٥) سقطت (أحكام) فى س ووردت فى بقية النسخ، والسياق يتطلب إثباتها.

(٦) مشتبهة فى ط و واضحة فى بقية النسخ.

(٧) فى س (الاختبارات) بالباء والصحيح كما أثبتناها وكما وردت فى بقية النسخ لأن المقصود هو سقوط اختيار العبد وتفويض الأمر كله لله، فلا يكون للعبد من نفسه فى نفسه إرادة أو (اختيار).

(٨) هكذا فى النسخ الثلاث ولكنها فى ت (انتماء) والأصوب (ابتغاء) لأن المقصود الا يلتمس العبد الترخص بل يلجأ إلى الأشق - وذلك واحد من أصول مذهب الشيخ رضوان الله عليه.

(٩) ربما تبدو الكلمتان (الشرك والردة) مثيرتين للفزع ها هنا، ولكن هذا - كما ذكرنا فى الهامش السابق - أصل عند الشيخ فى كل مصنفاته.

انظر مثلا الرسالة ص ٢٠٢ (فإن نقض العهد فى طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر) و (ومن لجأ إلى الرخص فقد فسخ عقده مع الله).

(.) بفتح الباء. (..) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء.

(...) بضم الميم وفتح النون.

فصل [٧] :

وجوه البناء فى النحو [١] أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون، وللبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام:

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها[٢] من الكروب بمفاتحات[٣] الغيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت(٤) الالتقاء، وسكون البواطن سكونها( ) إلى الحق بنعت الاستئناس[٥] على وصف الدوام فى عموم الأحوال.

وفى المعرب والمبنى إشارات أخر[٦]:

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل.

والمبنى ما يكون على صيغة[٧] واحدة.. وكذلك صفات العبد منها ما يقبل التغير والتأثير[٨] . وهى ما كان مجموعا[٩] بتصرفه(٠) وتكلفه(٠٠)، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهى موضوعات الحق - سبحانه - فيه من أخلاقه، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من

(١) (فى النحو) موجودة فى س وغير موجودة فى النسخ الثلاث ولا ضرر من إثباتها حتى يتضح التنظير بين نحو الظاهر ونحو الباطن.

(٢) فى س (تثبيتها) وهى مرفوضة فى السياق.

(٣) هكذا فى س و ط وهى فى ك (بفاتحات) وفى ت (بمفاتيح).

(٤) فى ك (بمفاجأة) وفى س (ومقاساة). (٠) بضم النون.

(٥) فى ك (الإياس) وربما كانت الإيناس، وهى بهذا الاحتمال الأخير مقبولة فى السياق أيضاً.

(٦) سقطت (أخر) من ت.

(٧) فى ت (صفة) وهى مقبولة فى السياق - وإن كانت (صيغة) أكثر دقة فى وصف المبنى.

(٨) فى ت (والتلاشى) وهى غير مرفوضة فى السياق إذا ناظرنا بين ما يستطيع المرء (حذفه) من الأخلاق الرديئة وبين (حذف) حرف العلة . فكلاهما يحدث الخلاص منه (والتلاشى) له.

(٩) وردت (مجموعات) فى ط و ك.

(٠) بتشديد الراء وكسر الفاء.

(٠٠) بتشديد اللام وكسر الفاء.

أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقى نفذ[1] بالرد[2] قضاؤه، ولم ينفعه كده(.) وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه، فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه(..).

ومن أقسام البناء ما يبنى على الكسر، فصاحبه أبدًا مكسور لا ينجبر[3] كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط أمره، صباحه بلاء، ورواحه شقاء[4] ، وجده منكوس، وحظه مبخوس، ونجمه منحوس[5]، وقصده معكوس.. إن ورد نهرًا غيض ماؤه، وإن وجد درًا(...) قرب فقده.

ومن ذلك ما بنى على الفتح فصاحبه لا يزول نعيمه، ولا يبرح مقيمه، يسطع من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، ولا يتكدر بغيبته[6] مشربه، ولا يتغير . بطول حجبته[7] مذهبه.

الصدر له فرغ وإن أبطأ فى حضوره، والشمس ظلام عند تلألئ نوره(....)، والبدر يخجل[8] لفجأة[9] ظهوره.

---

(١) مشتبهة فى ط و واضحة فى بقية النسخ.

(٢) فى ت (بالوعد) وهى غير مقبولة فى السياق، لأن الشقى مردود لا موعود . وهى بتشديد الدال.

(٣) هكذا فى النسخ الثلاث وهى فى ط (لا يجبر) وهى مقبولة أيضًا .

(٤) هكذا فى النسخ الثلاث ولكنها فى ك (سماء) بدون نقط.

(٥) (وحظه منجوس ونجمه منجوس) ساقطة فى س.

(٦) فى ت (لغيبته).

(٧) فى ك (حجته) وهى مرفوضة فى السياق لأن المقصود هو احتجاب أنوار الكشف بعض الوقت.

(٨) هكذا فى النسخ ما عدا ت فهى (خجل) والسياق لا يرفضها إذ تنسجم عبارة (البدر خجل) مع (الشمس ظلام) التى سبقت.

(٩) مشتبهة فى ط لأن الرسم فيها بدون نقط، والفجأة اصطلاح صوفى (انظر باب ألفاظ تدور بين هذه الطائفة بالرسالة القشيرية).

(.) بتشديد الدال.

(..) بضم الميم.

(...) بكسر الراء.

(....) بضم الدال وتشديد الراء.

ومن ذلك ما بنى على الضم[1]، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار[2]، غير[3] معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار، فالعتب[4] عنه [5] مرفوع، والعذر[6] عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه - فى الشرع[7] - فعل فيتوجه عليه تضيف... هؤلاء باسر[8] القدرة، مشكل بين الورى حديثهم(.)، ملتبس على الكافة أمرهم.

ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، وعن قصده مصروف، لا يغنى عند جده(..)، ولا يسعده جده(...)، يطول به الزمان، وتتوالى عليه الحدثان، وهو من أوله حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة[9] الانتقاص.

كذلك الأحكام[10]: مختلفة الأقسام، متفاوتة الأدوار.

---

(١) هكذا فى ك وهى فى بقية النسخ على (الرفع) ونحن نرجع ما اثبتناه لأن البناء يكون على الضم، كما يتفق هذا مع السياق الذى يسير عليه المصنف حيث عرض فيما سبق للمبنى على (الكسر) وعلى (الفتح) وسيتحدث بعدئذ عن المبنى على (السكون).

(٢) فى ك (الإحسان) وهى مرفوضة لأن التكلف الإنسانى مرجعه إلى (الاختيار).

(٣) (غير) ساقطة فى ت.

(٤) فى ط (فالغيب) وهى مرفوضة.

(٥) سقطت (عنه) فى س.

(٦) فى ط (والوزن) والمعنى يرفضها.

(٧) هنا مساحة كبيرة من السقوط فى ت.

(٨) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ والمعنى يتقبلها.

(٩) فى النسخ (سورة) ولكننا رأينا أن (صورة) البق، وربما كانت (سورة) بفتح السين وسكون الواو.

(١٠) كذلك الأحكام... إلخ تتصل بالسبب كله وهى غير موجودة فى ب.

(.) بضم الثاء.

(..) بكسر الجيم وتشديد الدال.

(...) بفتح الجيم.

فصل [٨] :

الأسماء على ضربين: اسم معرفة، واسم نكرة.

وفى الإشارة: الخلق كذلك، فمن صاحب(.) معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حد(..) ووصف. فالاسم النكرة يصير معرفة ـ ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة[١] للعبد فوق العرفان.. قال المشايخ: ما رجع من (...) رجع إلا من الطريق[٢]، أما من وصل فما رجع.

(١) فى ط مشتبهة وهى واضحة فى ك وس.

(٢) المقصود أن الارتداد عن الطريق يكون للمبتدئين الذين وصلوا إلى بعض أجزاء هذا الطريق، أما الذين أتاح لهم الحق سبحانه اجتياز كل عقباته، وتمرسوا بكل مقاماته، وتذوقوا جل أحواله ولاحت لهم فى مرحلة ما أنوار الوصول وكشوفات العرفان فإنهم لا يعودون ولا يرتدون.

(.) بالكسر مع التنوين.

(..) بتشديد الدال مع التنوين.

(...) بفتح الميم.

فصل [٩] :

الاسم المفرد إذا ثنيته(.) الحقته[1] ألفا فى حال الرفع، وياء فى حالى النصب والجر ونونًا بعد الألف والياء.

ونون التثنية مكسورة، وهى تسقط عند الإضافة.

والإشارة من ذلك: أن الواحد لا تثنيه له من لفظ الواحد، و (الاثنان) لا واحد له من لفظه، فلا يقال من (الواحد) واحدان، ولا من (اثنين) اثن، وهذا محال فى التقدير[2].

كذلك الذى هو (واحد) فى الحقيقة[3] يستحيل أن تزول عنه وحدانيته. تقديرًا ووجودًا. والذى يصح أن يكون (اثنين) فمن المحال أن يصير فردًا لا ثانى له. تقديرًا . قال الله تعالى:

«ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون(..)» [4] الآية.

---

(١) فى س (الحقت به).

(٢) (وهذا محال فى التقدير) موجودة فى ط و ك وغير موجودة فى س.

(٣) المقصود هو المولى سبحانه وتعالى.

(٤) سقطت (شيء) فى س وهذا خطأ (الآية ٤٩ سورة الذاريات) أما الأخرى فهى قوله تعالى: (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) آية ٤٠ سورة هود.

(.) بتشديد النون وسكون الياء.

(..) بتشديد الكاف وفتحها.

فصل [١٠]:

وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير:

فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء ـ كذلك العبد مادام بقلبه مفرداً(٠) مجرداً(٠) فهو فى أسمى نعوته(١). فإذا حصلت علاقة المواصلات(٢) وقع فى التلوين فمرة ومرة.

ونون التثنية أبداً مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح.

ونون التثنية تسقط عند الإضافة، لأنها بدل من التنوين فى الواحد، والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة فالصفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة ـ فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه(٣) الأنس(٠٠) فالهيبة كالمقابل(٤)، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل(٥)... وعلى هذا النحو جميع أوصافه.

---

(١) فى ط (نحوام) وربما كانت (نجواه) ويكون المعنى أن تكون نجواه تفريداً وتجريداً للحق سبحانه.

(٠) بتشديد الراء وكسرها.

(٢) لأن الأصل فى التجريد والتفريد إسقاط العلاقات والعائقات فهى آفات الطريق وإذا وجد شيئاً من ذلك فهو نقص فى التوحيد، فلا اثنينية فى التوحيد، لأن التوحيد إسقاط السوى.

(٣) مكررة مرتين فى س.

(٠٠) بضم الهمزة.

(٤) فى س (كالقالب) والمعنى قد لا يتقبلها لأن المقصود ان تكون الهيبة كالمقابل أى كالمغلوب عندما يكون الأنس غالباً.

(٥) فى س (كالزايل) وفى ك والياء بدون نقط وفى ط توجد واو برأس صغيرة جداً.

فصل [١١]:

الجمع بين ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير[1].

وفى الإشارة كذلك: ما يسميه[2] القوم[3] الجمع على قسمين: جمع سلم صاحبه، وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع.

وجمع صاحبه مكسور[4] الصحة، وهو ما لا يحفظ[٠] على مدعيه[٠٠] آداب[5] العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وأقسام جمع نحو القلوب: أن كلا الجمعين[6] فى الخطاب ـ فى مسائل النحو ـ صحيح، أما فى نحو القلوب فأحدهما صواب والثانى غير صواب.

الإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد كذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر[٠٠٠] من الحجبة.

وجمع التكسير ما تكسر فيه لفظ الواحد: كذلك المدخول[7] من جمع القوم ما ينول[8] عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود[9] الشريعة.

(١) هكذا فى ط و ك ولكنها فى س (جمع تكسير وجمع سلامة) ولكن النسق الذى سارت عليه الفقرة فيما بعد يقتضى ما أثبتناه.

(٢) مشتبهة فى ط.

(٣) سقطت (القوم) فى ط والمقصود الصوفية.

(٤) فى ط (مكسور) والخطأ واضح.

(٠) بفتح الياء.

(٠٠) بتشديد الدال.

(٥) فى ط (اذن) وفى س (آداب) وهى وإن كانت مقبولة إلا أننا رجحنا (أدب) الموجودة فى ك للتشابه فى عدد الحروف بينها وبين (أذن) مما يجعلنا نقترب من الأصل.

(٦) هكذا فى س ولكنها فى ك (إن كل الجمع).

(٧) أى الذى فيه (دخل) أى شبهة وارتياب على أية صورة.

(٨) فى ط (يدول) والتصحيف واضح.

(٩) فى ك (ممدود) والأرجح استعمال (حدود الشريعة) كما جرت عادة الشيخ.

(٠٠٠) بتشديد السين مع كسرها.

فصل [١٢]:

إذا جمعت اسمًا مذكرًا جمع السلامة فيما يعقل[1] الحقت بآخره واوًا فى حال الرفع، وياء فى حالى النصب والخفض، ونونًا بعد الواو أو الياء ـ وهى مفتوحة، وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع فى كل هذا التلوين والتغيير[2].. فمرة ومرة، من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل ـ كذلك صاحب الجمع زال[3] حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق فى وديان[4] التقريب، ومرة ينصبه فى نعت الإبعاد.. وهو محو عن الاختيار «وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود»[5].

خرج الشلبى يومًا فى زى رث(٭) فقيل له فى ذلك فقال:

فيومًا ترانا فى الحرير نجره(٭٭)	ويومًا ترانا فى الحديد عوابسا
ويومًا ترانا والثريد نلته(٭٭)	ويومًا ترانا نأكل الخبز يابسًا[6]

وكان النبى ﷺ يقول مرة:

«إنى لست كأحدكم. إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى»[7].

وقال مرة: «أنا ابن امرأة تأكل القديد»[8].

---

(١) فى س (يفعل) وهى غير صحيحة إذ المقصود أن الجمع السالم للعقلاء أو لوصف العقلاء.

(٢) فى س (والتنهر) وهى مقبولة وقد سبقت فى فصل سابق ولكننا هنا آثرنا ما جاء فى بقية النسخ (التغيير) لتنسجم مع (التلوين).

(٣) فى ك (وجدان) وفى ط (واحدان).

(٤) فى ك (نحو) وهى خطأ.

(٥) آية ١٨ سورة الكهف.

(٦) انظر: حياة الشبلى فى كتب الطبقات.

(٧) رواه مالك والشيخان والترمذى عن أنس.

(٨) (كانت تأكل) رواه الحاكم من حديث جرير، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٭) بتشديد الثاء.

(٭٭) بتشديد الراء والتاء.

ومرة حكم لعشرة بالجنة، ومرة يقول: «إنه ليغان على قلبي»[1].

وجمع السلامة له قياس[2]، وجمع التكسير كثير الفنون مختلف القياس شكل[3] المباني[4].

كذلك من حفظ(٠) بوصف العلم فهو ـ مقامًا ـ سيد(٠٠) وقته وإمام زمانه. والذي هو في هذه الطريقة جمع تكسير فصاحب بلاء لا يهتدي إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور في الحقيقة أمره، وهو في عين التشريف. ومن هو على جانب من هذا الحديث[5] يظنه من أهل التكليف.

ألوانها شتى الفنون وإنما ... تسقى(٠٠٠) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحال مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله جوامع[6] القياس، ولا تشرف(٠٠٠) على غوامض نعته ثواقب التقدير[7].

---

(١) عن أغر مزينة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة. أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وفي رواية لمسلم: «توبوا إلى ربكم، فو الله إني لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى في اليوم مائة مرة».

(٢) في ط (ليس) له قياس وهذه الزيادة خطأ من الناسخ.

(٣) في ك و ط (مشكل) بضم الميم وسكون الشين وهي صواب أيضًا: فهي مثل (شكل) في المعنى، بفتح الشين وكسر الكاف.

(٤) هكذا في ك و ط وهي في س (مجوزات) القياس. والكلمتان وإن اختلفتا في الرسم إلا أن الفهم الدقيق لأحوال جمع التكسير وصوره المتعددة التي تستعصي في بعض الأحيان على القياس.

(٥) يقصد بـ (من هو على جانب من هذا الحديث) أي الذي له صلة بهذا العلم، علم التصوف بمقاماته وأحواله وكشوفاته ومعارفه.. إلخ.

(٠) بضم الحاء وكسر الفاء. (٠٠) بضم الدال. (٠٠٠) بضم التاء.

(٦) كذا في ط و ك وهي في س (التدبير) ومع أنه كان من الواجب أن نختارها على أساس أن المتصوفة يرون التقدير لله والتدبير للعبد إلا أننا آثرنا هنا اختيار (التقدير) في ضوء تذوقنا للعبارة أن المقصود هو: إعطاء الناس (قدرًا) لمثل صاحب هذه الحال لا يكون صائبًا ـ لجهلهم بشأنه ـ مهما كانت (تقديراتهم) ثاقبة. (٠٠٠) بضم التاء.

(٧) (والتقدير) في هذا المجال اصطلاح نحوي مقبول ووارد. فإن تعريف جمع التكسير كما يذكره النحاة: هو الاسم الدال على أكثر من اثنين بتغيير ظاهر أو (مقدر).. وربما كان هذا التنظير الدقيق من مرامي الشيخ.

فصل [١٣]:

من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالألف، وكسرها بالباء، وهى ستة أسماء: أبوك وأخوك وهنوك وحموك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خص(٭) عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله:

قال أحدهم: ليس كل بشر بشرًا[١].

أى بأين حكمه حكم من سواه، وانفرد عنهم فى معناه[٢].

فصل [١٤]:

الأفعال على ضربين: لازم ومتعد(٭)[٣].

وفى الإشارة كذلك: أفعال العبد على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدى ما تتعدى خيراته إلى الغير.

والفعل المتعدى على أقسام: منها ما يتعدى(٭٭) إلى مفعول واحد، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

---

(١) بشر ـ الأولى بفتح الباء والشين. والثانية بكسر الباء وسكون الشين والمقصود (ببشر) هنا هو (بشر الحافى) بكسر فسكون فقد وردت هذه العبارة عنه فى بعض التراجم التى تحدثت عنه وانظر. ترجمة بشر الحافى فى الرسالة القشيرية ط: الحلبى.

(٢) (باين حكمه... إلخ) هذا السطر غير موجود فى ط و ك وجاء فى س، وهو يضيف أو يوضح المعنى أن بشرًا وإن استوى مع بقية أقرانه من البشر إلا أنه مختلف عنهم فى جوهره، ومباين لهم فى الحظوة والمكانة.

(٭) بضم الخاء.

(٣) فى ط (متعد ولازم) ونسق الكلام بعد ذلك يقتضى البدء باللازم.

(٭) بتشديد الدال وكسرها.

(٭٭) بتشديد الدال وفتحها.

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته[١] إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ: لو أن وليًا من أولياء الله اجتاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد.

وفى الأثر: لو أن محزونًا[٢] بكى فى أمة[...] لرحم الله تلك الأمة[٣].

فصل [١٥]:

خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون، ونصبها وجزمها[٤] بسقوط النون وهى: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وأنت[٥] تفعلين.

وفى الإشارة كذلك: من الأفعال ما يكون مخصوصًا، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها، فيؤتى بها بشرط قران[.] ينضم إليها[٦]: كرمى الجمار مثلاً: لا يكون طاعة إلا فى الحج، كما أن السعى بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا فى الحج والعمرة، فمن قيض[..] لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولى لنفع له منه حتى إذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر[...] لذلك الشخص[٧].

---

(١) فى ط (أفعاله).

(٢) ك تشبه ان تكون (مجذوبًا) وليس فى مصنفات القشيرى - فى حدود علمنا - استعمال لهذه اللفظة.

(٣) فى س يقع ترتيب الأثر قبل مقولة الشيوخ، وفى ب يوجد الأثر ولا توجد مقولة الشيوخ. وعلى كل حال فالمقولة «لو أن محزونًا...» لسفيان بن عيينة. الرسالة القشيرية ص ٧١.

(...) بضم الهمزة وتشديد الميم.

(٤) فى ك (وحذفها) وهى خطأ من الناسخ ومصححه فى الهامش تصحيح مراجعة.

(٥) ورد ضمير المخاطبة فى ط و ك ولم يرد فى س.

(٦) ى س (فهى يؤتى بها لأصول تنضم إليها) ويمكن تقبلها على أساس أن الفعل أصل. وأما ثبوت النون او حذفها فزيادة، وقارنته قرانًا أى صاحبته، وقرن بين الحج والعمرة يقرن قرانا أى جمع بينهما والمقصود من (شرط القرآن) هنا شرط مصاحبته الألف والواو والياء فهذا هو الأصل فى تركيب الأمثلة الخمسة التى هى موضوع الفصل.

(٧) ابتداء من (فمن قيض إلى نهاية الفصل) ساقط فى ك و ط و ب وثابت فى س.

(.) بكسر القاف.

(..) بضم القاف وتشديد الياء.

(...) بفتح القاف وسكون الدال.

فصل [١٦]:

الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف[١].

الإشارة: كذلك أفعال المكلفين على أقسام[٢]: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة. وحروف العلة ثلاثة:

الواو والألف والياء، وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة[٣].

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل[٤] الأفعال ألطف[٥] وبعضها أبدى[٠][٦].

ومن الأفعال ما يكون حرف العلة فى أوله وهو المثال، كذلك من أفعال العبد ما كانت العلة فى أوله وهو ألا يكون الدخول فيه على حد الإخلاص[٧].

ومنها ما هو أجوف.. وهو الذى حشوه حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والغفلة[٨].

---

(١) (ومضاعف) موجودة فى س و ب وغير موجودة فى بقية النسخ وهى مقبولة بل ضرورية إذ أن القشيرى يتحدث بعد ذلك عن الصحيح والمعتل.

(٢) هكذا فى س وهى فى بقية النسخ (قسمين).

(٣) فى ك (والساكن) وهى خطأ من الناسخ.

(٤) فى س (على) وهى خطأ من الناسخ.

(٥) أى أخفى.

(٦) فى ط و ك (أجلى) وكلاهما بمعنى.

(٧) (ومن الأفعال.... الإخلاص) موجود فى ب بعد المضعف وغير موجود فى النسخ الأخرى، وقد آثرنا وضعهما هنا فى المقدمة حسب الترتيب المألوف فى كتب النحو.

(٨) (كالغيبة والغفلة) موجودتان فى ب وغير موجودتين فى بقية النسخ.

(٠) بسكون الباء وفتح الدال.

ومنها ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعقبه آفة، فإن قبول القرب[1] موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين[2]، كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الاعجاب.

ومن الأفعال ما هو مضعف[*]، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان[3] فادغم أحدهما فى الآخر، كذلك من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره، أو ضوعف عليه وزره، وذلك ما اجتمع فيه حق[**] الحق وحق الخلق فضوعف حكمه فى الأجر والوزر[***].

فصل [١٧]:

الإدغام الإخفاء، فالحرفان فى التقدير موجودان وإن كانا على اللسان بوصف الانفراد. وفى هذا إشارة إلى ما يقوله القوم فى وصف الجمع وجمع الجمع[4].

والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز[5] فى بعض أحوال التصريف[6].. كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد[*] فى بعض الأحايين إلى عين الفرق.

---

(١) فى ك (العدل) وهى خطأ من الناسخ، وربما كانت (العمل) لأن الأعمال بخواتيمها كما يريد السياق، والقرب، بضم القاف.

(٢) فى ك (مقرنتين ومفترقتين) وتاء التأنيث فيهما زائدة لأن الكلام عن الحرفين.

(*) بتشديد العين.

(٣) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ.

(**) بتشديد القاف.

(***) بكسر الواو وسكون الزاى.

(٤) فى ك (وعين جمع الجمع) انظر القسم الثالث من هذا الكتاب.

(٥) فى ط (بروز) بدون نقط ولكنها واضحة فى ك و س.

(٦) فى ك و ط (فى بعض الأحوال) فقط.

(*) بتشديد الدال.

ومن أقسام الفعل المهموز(··).. والهمزة مد[1](···) فى الحلق(····).. كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول.

فصل [١٨]:

الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدرًا[2] للإخبار عنه، مجردًا عن العوامل اللفظية.

وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب. فكذلك من سلم من تأثير الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم، ومن أسرته(·) المنى والمطالبات تسفل(··) فى الأعقاب، ووقع فى صف النعال[3].

فصل [١٩]:

العوامل على قسمين: لفظى ومعنوى، فالاسم المبتدأ: العامل فيه معنى الابتداء، وهو غير لفظى، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

---

(١) هكذا فى ك و ط وهى فى س (أثر) وفى ب (نبر) وكلاهما مقبول فى السياق ولكننا آثرنا (مد) فالمد زيادة وعندئذ يقوى الانسجام فى التنظير بين النحو والإشارة.

(··) بضم الزاى.

(···) بتشديد الدال من التنوين.

(····) بسكون اللام.

(٢) بتشديد الدال. فى ط (مرصدًا) ولا معنى لها، فإن المبتدأ حقه التصدير. وكذلك بدليل ما سيأتى (سلم له صدر الخطاب).

(٣) مشتبهة فى ط و ك، وهى هنا تعطى معنى انحدار قيمة العبد إلى مرتبة (النعال) التى تخلع قبل الدخول على بساط القرب على عتبات الأبواب (للقشيرى تصور لدرجات الداخلين يتضح فى الشروح من هذا الكتاب).

(·) بسكون التاء وضم الهاء.

(··) بتشديد الفاء.

كذلك فى الإشارة: العامل فى العبد[١] نوعان: ظاهر يهتدى إليه كل أحد، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة، قال الجنيد[٢] رحمه الله: «من أراد أن يضع سرًّا(٠) عند أحد فليضعه عند رويم[٣]، فإنه صحبنا كذا وكذا سنة[٤] وفى قلبه حبّ(٠٠) إلينا[٥] ولم نبصره فيه».

فصل [٢٠]:

ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع ـ وهو أقوى الحركات ـ لمصادفته حل لجام التكلم[٦] كذلك فى الإشارة من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من الإرادات قوى فى حاله فخُصّ(٠٠٠) بأقوى الأثقال[٧]، وحُمِّل(٠٠٠٠) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة، فأقواهم حالاً يخص بأثقل الأمور، قال الله تعالى لنبيه ﷺ:

«إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً»[٨].

---

(١) (فى العبد) غير مذكورة فى ط و ك.

(٢) الجنيد هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق، وكان أبوه زجاجًا ولذا قيل له القواديرى، وكان فقيهًا على مذهب أبى ثور صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى والقصاب ومات سنة سبع وتسعين ومائتين من الهجرة.

(٣) هو أبو محمد رويم بن أحمد بغدادى النشأة وكان فقيهًا على مذهب داود توفى سنة ٣٠٣هـ.

(٤) فى س (كذا سنة) فقط.

(٥) فى ب و س (الدنيا) وهى خطأ فى النسخ لأن السياق يتطلب أنه أحب الجنيد ومجلس علمه حبًا مكتومًا، وقد سبق الشاهد دليلاً على العامل الخفى.

(راجع قضية الإفصاح والكتمان عند الصوفية فى كتاب نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف لإبراهيم بسيونى).

(٠) بتشديد الراء.

(٠٠) بتشديد الباء.

(٦) (حل لجام التكلم) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ.

(٧) ابتداء من (كذلك فى الإشارة... حتى الأثقال) موجود فى س وغير موجود فى بقية النسخ.

(٨) آية ٥ سورة المزمل.

(٠٠٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٠٠٠٠) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم.

وقال ﷺ: «الناس كإبل (هائمة)[1] لا تكاد تجد فيها راحلة»[2].

وكان الشبلى يقول: «أشعر(٠٠٠) أنى مأخوذ[3] بجرائم الخلق»(٠٠٠٠).

فصل [٢١]:

لابد للمبتدأ من الخبر[4].. والخبر ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلابد مما تتم به فائدة الخطاب وإلا كان لغوًا[5].

كذلك الابتداء فى العرفان، فلابد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء، فإذا حصل الابتداء بالطاعات فلابد من تمامها: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الأمور بخواتيمها»[6].

وكذلك على لسان الجمع: إذا حصل منه (سبحانه)[7] ابتداء القسمة[8]

إن الكريم إذا حباك بوده(٠)	ستر القبيح وأظهر[9] الإحسانا
وكذا الملول إذا أراد قطيعة	ستر المليح وقال كان وكانا[10]

---

(١) بياض فى س.

(٢) والحديث غير موجود فى بقية النسخ أى أنه فى س وحدها وبعده إضافة. الراحلة هى الناقة التى يحمل عليها ما يعجز عنها كل إبل.

ورواية الشيخان والترمذى: «إنما الناس كالإبل الهائمة، لا تكاد تجد فيها راحلة».

(٣) هكذا فى ك و ط و هى فى س (المؤاخذ).

(٠٠٠) بسكون الشين وضم العين والراء.

(٠٠٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام

(٤) وفى ط (لابد للمبتدأ فى الأسماء من الأخبار) والمعنى واحد.

(٥) (وإلا كان لغوًا) موجودة فى س وغير موجودة فى بقية النسخ والسياق يتدعم بها.

(٦) ولهذا جرت عادة الألسنة بقولها «واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين».

(٧) (سبحانه) زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح المقصود.

(٨) فى ك (القسَم) ويمكن تقبلها بشرط كسر القاف حتى تكون صيغة جمع.

(٩) هكذا فى ط و هى فى ك و س (وأكمل) وقد رشحنا (وأظهر) لتقابل (ستر).

(١٠) البيت الثانى غير موجود إلا فى ب وإن كانت (المليح) قد وردت خطأ (القبيح).

(٠) بتشديد الدال وكسرها.

بالرحمة فلابد في الانتهاء والمآل من المنة والنعمة، وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذلك قيل:

فصل [٢٢]:

خبر(١) المبتدأ على أقسام وبالكل(٢) تحصل فائدة الخطاب.

كذلك لو سلكت للحق طريقًا، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك سواء كان سلوكك سبيل العبادة، أو طريق الإرادة(٣)، أو طريق العلم، أو طريق الزهد فإن قدر(٠)(٤) الأمور بالاستقامة فيها، فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة(٥) إلا بإتمامه.

تجرد(٠٠) إلى الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد(٠٠)(٦)

فصل [٢٣]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيد(٠٠٠) منطلق. ويكون جملة إما فعلاً وفاعلاً، أو شرطًا وجزاء(٧)، أو ظرفًا.. وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

---

(١) من هنا تبدأ النسخة ت بعد المساحة الساقطة منها.

(٢) هكذا في النسخ الأربع وهي في س (وبالجميع).

(٣) (أو طريق الإرادة) غير موجودة في ط وموجودة في بقية النسخ وهي ضرورية حسبما جرت عادة القشيري في هذا المجال.

(٤) في ط زحفت الدال على الراء فأصبح الرسم (قلد) ولا معنى لها. أما في ك فهي (قلة) والخطأ واضح من الناسخ أما في ت فهي (قلب) أي هناك نقطة تحت المد.. ومن كل ذلك رشحنا (قدر) الواضحة في س لأنها ملائمة للمقصود في نظرنا.

(٥) سقطت (الفائدة) في ت.

(٦) هذا البيت موجود في ب وغير موجود في بقية النسخ، ومع أنه يحتمل أن يكون زيادة من عند الناسخ لتوضيح الأمر لنفسه إلا أن السياق لا يرفضه، ويقوي ذلك كلامه عن (التجرد) في الفصل القادم.

(٠) بسكون الدال.

(٠٠) بتشديد الراء وفتحها.

(٠٠٠) برفع المبتدأ والخبر.

(٧) واضحة في س و ك و ت و ب ومشتبهة في (ط).

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم فيه كما كنت بالأمس[1]. وقد[2] لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضفها[00] إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة.

فصل [٢٤]:

الفاعل مرفوع[3]، وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ، وقيل: لقوة حاله خص[0] بأقوى الحركات.

وقيل: للفرق بينه وبين المفعول ـ والرفع[4] أقوى الحركات.

وفي الإشارة: استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى، لأنه الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره قدرة على الاختراع. ولأن الابتداء في الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفعة[5] والعظمة له.

فصل [٢٥]:

المفعول منصوب، والنصب أخف من الرفع، والمفعول أنقص رتبة من الفاعل فخص[0] بما هو الأخف من الحركات.

---

(١) أي من حيث التجرد لذلك الأمر، ولكن تبقى بعد ذلك إضافات جديدة لكي يستمر الطموح إلى الاتمام.

(٢) هكذا في النسخ الأربع وهي في ت (وهنا لا تحصل).

(٠٠) بضم التاء.

(٣) في ت و س (رفع). بضم الراء وكسر الفاء.

(٤) (والرفع أقوى الحركات) زيادة في س.

(٥) في س (الرتبة) وفي بقية النسخ (الرفعة) وهي أليق بالسياق إذ الكلام يدور حول الرفع.

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

كذلك الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص، لأنهم فى أسر القدرة وتصريف القبضة.

وقيل:

فاصبر لمر(٠٠) العنساء فقد خلقت(٠٠٠)ممر(٠٠٠٠) القضاء(١)

فصل [٢٦]:

المفعول على أقسام: مفعول مطلق، ومفعول به، ومفعول له، ومفعول فيه، ومفعول معه.

كذلك المفعولات على أقسام: فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعول بها، تجرى عليها أحكامه ـ سبحانه ـ فى النفع والضر. والمكلفون مفعول لهم، خلق(٢) لأجلهم الجنة والنار. وأحوال(٣) المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصى والطاعات فيها. والبلاء مفعول معه لأن بنى آدم خلقوا(٤) والبلاء والعناء معهم. قال الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد»(٥).

ويصح أن يقال: الأرزاق مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله ولى(٠) إلا وهو مكفى(٠٠) الشغل، قال الله تعالى:

---

(١) هذا البيت غير موجود إلا فى ب.

(٠٠) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء.

(٠٠٠) بضم الخاء وسكون القاف.

(٠٠٠٠) بفتح الميم وتشديد الراء.

(٢) بفتح الخاء واللام، سقطت (خلق) من ط وهى موجودة فى بقية النسخ، ومن الضرورى إثباتها حيث ترتبط بقضية كلامية مهمة هى (هل الجنة والنار حادثتان أم غير حادثتين؟).

(٣) هى فى س (أفعال) ونرجح ما أثبتنا لقربها إلى السياق.

(٤) هذه العبارة موجودة فى ط هكذا: (والبلاء مفعول معه لأبناء آدم، تلقوا العناء والبلاء معهم).

(٥) آية ٤ سورة البلد.

(٠) بفتح الواو وكسر اللام.

(٠٠) بفتح الميم وسكون الكاف.

«وهو يتولى(٠٠٠) الصالحين»(١).

فصل [٢٧]:

ما لم يسم فاعله مرفوع، لأنه لم يذكر فاعله فأقيم المفعول مقام الفاعل، فأعرب إعراب الفاعل، لأن الفعل لابد له من فاعل، فيقال: ضرب(٠) زيد.

الإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا(٠٠) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة(٢) الفاعل فيضيفون الكائنات إليهم، لأن العلم - بأن هذه الحوادث لابد لها من محدث على الجملة - ضرورة.

فإذ(٣) لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين، فواحد أقام الطبع مقام الفاعل في التوهم، وآخر النجم، وآخر الفلك، وآخر الجد(٠٠٠) والبخت(٠٠٠٠)، وآخر الدولة(٤) وآخر(٥) الدهر وآخر زيداً، وآخر عمرواً...

فكما أن إعراب الرفع للذي لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك توهم(٠٠٠٠٠) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له.

---

(٠٠٠) بتشديد اللام المفتوحة.

(١) آية ١٩٦ سورة الأعراف.

(٢) في ط (زينة).

(٣) في ط (فإذا) والصواب ما أثبتناه لأنها بمعنى (فحيث).

(٤) سقطت في ط وموجودة في بقية النسخ (بتشديد الدال وضمها وفتح الواو).

(٥) غير مذكورة في ب وتوجد واو العطف فقط قبل لفظة (الدهر).

(٠) بضم الضاد وكسر الراء.

(٠٠) بفتح النون.

(٠٠٠) بفتح الجيم.

(٠٠٠٠) بسكون الخاء.

(٠٠٠٠٠) بضم التاء وتشديد الهاء وكسرها.

فصل [٢٨]:

المضاف إليه له الخفض، تقول: دار زيد(٭).

والإشارة: أن الخفض أضعف الحركات: عندما كان الاسم مفردًا، كان له أقوى الحركات، فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات. كذلك العبد مادام مجردًا فله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات[1].

فصل [٢٩]:

كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال ألفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائمًا...

فهذه مشبهة(٭) بأفعال وليست بأفعال محضة. والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول به نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادى(٭٭) عليها[2] أنها[3] ليست بأفعال محضة، فكذلك من تشبه بقوم يجرى مجراهم، ويحكم له - في الظاهر - بحكمهم ولكن ينادى عليه بأنه متشبه(٭٭٭) بهم وليس منهم حقًا.

(١) فى س (إلى أضعف الحركات والحالات) ونظن أن الحركات هنا زائدة. وهى غير موجودة فى بقية النسخ، وقد آثرنا الاكتفاء (بالحالات) لأن انتقال الشيخ إلى الإشارة يتطلب التنويه بما فى الطريق من (أحوال)، وبتعبير آخر نؤثر أن تبقى (الحركات) لنحو الظاهر وتبقى (الحالات) لنحو القلوب.

(٭) بتنوين الدال بالكسر.

(٢) فى ت (ولكن ينادى عليه).

(٣) (فيقال ليست بأفعال محضة) هكذا فى ت، ولا خلاف فى المعنى.

(٭) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها.

(٭٭) بضم الياء.

(٭٭٭) بتشديد الباء وكسرها.

قال الشاعر فى هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع فى خدود

تبين(٠٠٠٠) من بكى ممن تباكى(١)

فصل [٣٠]:

الحروف التى تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة(٢) وهى: إن وأن وكأن ولكن وليت ولعل.

وعمل هذه الحروف ـ فى الحقيقة ـ فى الأسماء دون الأخبار(٣)، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون فيه، فهذه الحروف أشبهت كان وأخواتها التى تعمل فى الاسم والخبر جميعًا، ولما كانت هذه الحروف مشبهة(٠) بالمشبه ضعفت عنه فى العمل فعملت فى الاسم دون الخبر(٤).

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق(٥) وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف فى التأثير، وأخس(٦) فى المقدار.

---

(١) فى س (اشتبكت دموع)، وجاء الشطر الأول للبيت فى ك على هذا النحو (إذا غرقت عيون فى دموع..).

(٠٠٠٠) بتشديد الياء وفتحها.

(٢) (معدودة محصورة) هكذا فى س، وفى ط و ك (محصورة) فقط ولم ترد (معدودة) ولا (محصورة) فى ت.

(٣) (دون الأخبار) سقطت فى ك ولكن جاء بها (لأن الأخبار) ويبدو أنه اشتبه على الناسخ رسم (دون) فظن هناك تكرارًا، ولكن السياق يتطلب الإثبات على نحو ما جاء فى بقية النسخ، إذ يقصد القشيرى إلى أن عمل الحروف الناسخة أقل قوة من عمل الأفعال الناسخة، وهذا ركن أساسى فى استنباط الإشارة (انظر الشرح والدراسة فى هذا الكتاب).

(٤) وقع تكرار فى بعض النسخ فى هذه العبارة مما جعلها منبهمة وقد قومناها على نحو مفهوم.

(٥) فى ك (الحق) ثم حدث تصويب لها.

(٦) فى ك (احسن) وهى خطأ من الناسخ، وهى فى س (أخف) وربما يتقبلها السياق.

(٠) بتشديد الباء وفتحها.

فصل [٣١]:

الفعل الماضي مبني على الفتح نحو: ضرب، والفتح أخف الحركات، فلما كان الماضي بمضيه[1] له أضعف الحالات خص(٠) بأضعف الحركات.

والإشارة: أضعفهم استحقاقًا أبخسهم نصيبًا.

قال الشيوخ: «إن لله عبادًا لم يرهم أهلاً لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته»[2].

فصل [٣٢]:

الفعل المضارع مرفوع لمضارعته الاسم، فصل استحقاق الإعراب للاسم.

والإشارة: من(٠) تشبه بقوم فهو منهم، ومن[3] أحب قومًا حشر معهم.

وقال الشيوخ: هم القوم لا يشقى بهم جليس[4].

وقالوا: من(٠) تحقق بحاله (لم يمل)(٠٠)[5] عنه حاضروه.

فصل [٣٣]:

الحروف التي تجزم الفعل المستقبل معلومة[6] وهي:

لم ولما وأخواتهما. والتي تنصبه معلومة وهي:

---

(١) مشتبهة في ك وواضحة في بقية النسخ. (بتشديد الياء وكسرها).

(٢) غير واضحة في ط.

(٠) بضم الخاء.

(٣) (ومن أحب قومًا حشر معهم) موجودة في ب وغير موجودة في بقية النسخ.

(٤) هكذا في ب وهي في بقية النسخ (لا يشقى جليسهم) والمعنى واحد.

(٥) حال إلى مكان آخر يحول حولا وحولا بكسر الحاء وفتح الواو أي تحول، وهي في س (لم يهل) بالميم.

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بضم الياء وفتح الحاء وسكون اللام.

(٦) مذكورة عند أرباب العلوم تقديمًا للكلام في ذلك عند أرباب القلوب.

أن ولن وكى وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع مادام منفردًا كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات، وآل[1] إلى حال الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده[2] فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد إلى الضعف، فبعدما كان بالله مستقلاً[3] صار أسير حظ وصريع[4] نصيب[5]، ثم... بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل فبه تجزمه فتتقطع عنه الفوائد.

فصل [٣٤]:

الأمر مبنى على السكون، نحو قولهم: اذهب. والنهى مجزوم نحو: لا تفعل.

والإشارة: السكون يشير إلى الدوام، كما أن الحركة تعنى[6] الزوال، فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهى مجزوم إذ النهى عن الشىء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت(٠) به. وتقف عما نهيت عنه.

---

(١) فى س تشبه (قال) وهى خطأ من الناسخ.

(٢) فى ت (تجره) بسقوط الدال، والدال واضحة فى بقية النسخ وهذا هو الصواب.

(٣) فى ت (مشتغلاً) والمعنى وإن كان يتقبلها، إلا أن الكلام عن (الاستقلال) بالله عن (الغير والسوى).

(٤) فى ك و ت (سريع) بالسين وهى خطأ.

(٥) بعد (نصيب) حدث سقوط هائل فى ك امتد إلى منتصف الفصل الثامن والثلاثين عند قوله:
(استشهدوا بهذا البيت:
عجبت لسعى الدهر....)
ومن حسن الحظ أن يكتمل النقص فى بقية النسخ.

(٦) فى س و ت (عين) وهى فى ط (تمنى).

(٠) بضم الهمزة وكسر الميم.

وجواب الأمر وجواب النهى مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهى لسان الاعتراض، وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر أو النهى، فنعت المعارضة من المأمور والمنهى مجزوم. وغير[1] الانقياد والخضوع منهما معدوم.

فصل [٣٥]:

النعت تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعًا فالنعت مرفوع، وإن كان منصوبًا أو مخفوضًا فالنعت مثله[2].

والإشارة من الاسم إلى السر[3]، ومن النعت إلى الوصف[4]، وإن ما[5] يلوح على الظاهر ما يلقى به عن[6] السر. سألوا: من[٠] العارف؟ فقال: «لون الماء من لون إنائه»[7].

وأنشدوا:

كيفما دارت الزجاجة درنا[٠٠]

يحسب الجاهلون أنا جننا[٠٠٠]

---

(١) هكذا فى س ولكنها فى ت و ط (وعن) والمعنى يرفضها ويتقبل (غير بناء على خبر المبتدأ (معدوم) فيكون المعنى أنه لا حيلة للمأمور أو المنهى فيما أمر به أو نهى (٠٠) عنه، وينعدم منهما أى شىء غير الامتثال.

(٢) فى س (كمثلى) وربما كانت (كمثله).

(٣) فى ت (الشىء) وهى خطأ من الناسخ بدليل ما بعدها.

(٤) فى س (النفس) وهى مرفوضة إذ المطلوب (وصف) السر والوصف يتبع الاسم، انظر آخر الفقرة. (حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه).

(٥) فى س (وإنما) وقد آثرنا أن نجعلها (إن ما) لأن ذلك يظهر المقصود ويقويه.

(٦) كذا فى ت و ط و هى فى س (من) والمعنى لا يرفضها، فالمهم فى الأمر أن الظواهر تنم عن السرائر.

(٧) هذه العبارة للجنيد (انظر رسالة القشيرى ص ١٥٦).

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بضم الدال.

(٠٠٠) بضم الجيم وكسر النون الأولى.

ولما كان النعت تابعًا كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه.

فصل [٣٦]:

الشرط والجزاء مجزومان، وللشرط والجزاء حروف نحو: إن(٭) ومن(٭٭)... وما أشبههما نحو قولك: إن تضرب أضرب.

والإشارة: الجزاء لا(٭٭٭) يستحق إلا بحصول الشرط سواء بسواء كذلك في الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن وفيت(٭٭٭٭) بالشرط استوجبت الجزاء، لذا قالوا[١]:

إن وجدنا لما ادعيت شهودًا

لم تجد عندنا لحق جحودًا

وقال الله عز وجل: «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم»[٢].

فصل [٣٧]:

حروف العطف عشرة: الفاء والواو وثم وأخواتها. وحكم المعطوف في الإعراب حكم المعطوف عليه.

---

(١) لا يوجد في ب بعد (قالوا) هذا البيت الشعري ولا الآية الكريمة إنما يوجد بيتان آخران هما:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

تنام الليل ثم تروم عزا ... يغوص البحر من طلب اللآلي

وربما كان البيتان في الأصل، أو هما زيادة من الناسخ لتذكير نفسه بالمقصود.

(٢) آية ٤٠ سورة البقرة.

(٭) بكسر الهمزة وسكون النون.

(٭٭) بفتح الميم.

(٭٭٭) بضم الياء.

(٭٭٭٭) بفتح الفاء وسكون الياء.

الإشارة: لما اشتركا فى المعنى تشاكلاً فى صورة الإعراب كذلك: من صحب قومًا، ووافقهم(١)، وانخرط فى سلكهم، وعد(٠) من زمرتهم فما استقبلهم استقبله(٢)، وما يفتح لهم به يفرد(٠٠)(٣) له منه نصيب.

وفى الأثر: «جلساؤكم شركاؤكم».

فصل [٣٨]:

همزة الوصل تلحق بالأسماء والأفعال فى أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أن العبد ينصب(٠) لمقام ـ والمقصود(٤) غيره، فإذا زال ذلك المعنى، وحصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه، وهذه محنة للأكباد مفتتة(٠٠)، وفى معناه استشهدوا(٥) بهذا البيت:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وقال غيره:

سكنوا فى ديارهم ثم قالوا ... مالك ـ اليوم ـ عندنا من جواب

أطمعونا حتى إذا ما طمعنا ... وجرت بيننا عرى الأسباب(٦)

(١) هكذا فى ت و س وهى فى ط (ووافاهم) ولا ضير منها فى السياق أيضًا.

(٢) يوجد بعدها فى س و ت زيادة هى (وما استعملهم استعمله) وربما كانت فى الأصل على معنى: وما اثر فيهم من (عامل) يمتد تأثيره إليه بوصفه مشاركًا لهم فى السراء والضراء.

(٣) فى ت (يفوز) ونرجح أنها ربما كانت (يفرز) أى يستخلص له ـ مما رزقوا ـ نصيب.

(٠) بضم العين وتشديد الدال وفتحها.

(٠٠) بضم الياء.

(٤) فى س (والمراد) ولا بأس بها فى المعنى.

(٥) من هنا تعود النسخة ك بعد السقوط الهائل الذى بدا فى الفصل (٣٣) هامش رقم (٦).

(٦) فى ط يأتى الشطر الثانى هكذا: (وجرى فى نفوسنا الأسباب).

(٠) بضم الياء.

(٠٠) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرها.

وقد يمتحنون[1] بالتغافل عنهم، فبعد طول الغيبة ينشدون:

أدرجت(٭٭٭) فى أثواب نسيانكم   حتى كأننى ألف الوصل

ولما لم تكن ألف الوصل[2] أصلية لم تبق على دوام الأوقات، كذلك من لم تسبق قسمته بالجميل[3] فإلى محتوم[4] الأزل يئول[5] أمره.

فصل [٣٩]:

الحروف التى تخفض الأسماء[6] محصورة نحو: من وإلى وفى والباء الزائدة والكاف الزائدة.. وأخواتها، وهذه الحروف تدخل على الأسماء وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب[7] الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر والخضوع والوضع، فمن(٭) داخله الطمع والحرص والتمنى والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبت(٭٭) له ضعة[8] الحال ونقصان الرتبة وخساسة المنزلة.

---

(١) سقطت فى ت.

(٭٭٭) بضم الهمزة وسكون الجيم.

(٢) فى ك (صحة) ألف الوصل وهى خطأ من الناسخ، وهى ط ألف (الوصال) وفى ط (صاحبه) وكلاهما خطأ أيضًا.

(٣) فى ت (بالجهل) وهى خطأ من الناسخ.

(٤) فى س (المحكوم).

(٥) فى ط (يصير) وتحتها (يئول) فهى زيادة تفسيرية من الناسخ.

(٦) هناك فى س و ت زيادة بعدها وهى (وترفع الأخبار) وهى خطأ من الناسخ.

(٧) وهى فى س هكذا ولكنها فى بقية النسخ (الأسماء) ولكن بناء على تذوقنا لأسلوب القشيرى نؤثر (الأسباب).

(٨) هى هكذا فى ك و هى أيضًا هكذا فى ط وإن كان يقابلها فى الهامش (صغر) ويمكن أن تقرأ بكسر الصاد وفتح الغين، أما فى ت فهى (ضعف) وهى مقبولة فى السياق ولكننا آثرنا (ضعة) لتتمشى مع ما بعدها من (النقصان) و (الخساسة).

(٭) بفتح الميم.

(٭٭) بفتح الهمزة وسكون التاء.

فصل [٤٠]:

ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغير الإعراب وهى مثل: إنما، وكأنما وليتما، ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو فى حال ما دخل عليه مثله فى حال تجرده عنها.

دخل أحدهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاء(٠)(١) فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى ولكنه رآه لا يؤثر فيه شيء من ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت(٢) فقال: «فديت(٠٠)(٣) من لا تؤثر فيه الجبال والرواسى»!

فقال ذلك الشيخ: «يا فلان، إنا قد جردنا(٤) عن رق(٠٠٠) الأشياء فى الأزل».

فصل [٤١]:

جواب الأمر والنهى والدعاء والاستفهام والجحد والعرض(٥) والتمنى - بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء(٦).

---

(١) مشتبهة فى ط و هى فى ك و ت (ماء اسن) وهى فى س (ملاء) وهى التى أثبتناها لأن السياق يقتضيها. فضلاً عن أن القصة واردة بكاملها فى الرسالة (ص ٣٥) والشيخ فى القصة هو أبو بكر القحطى وكان ابنه هو الذى (يتعاطى ما يتعاطاه الشباب مع أقرانه).

(٢) (من الوقت) سقطت فى ط و ك و ت. ومثبتة فى س. وقد أوردناها فى المتن تمشياً مع أسلوب القشيرى فى هذا الصدد (انظر اصطلاح الوقت فى رسالته) وانظر أيضاً قسم الشرح والدراسة من هذا الكتاب.

(٣) مشتبهة فى ط وهى فى ك (قدمت).

(٤) هكذا فى ك، وهى فى ت (حررنا) وفى ط (تحررنا) وهما مقبولان فى السياق.. فالتحرر والتجرد هنا بمعنى واحد.. خاصة وأن (التحرر) نقيض (الرق) ولكننا فى النهاية آثرنا التجرد اعتماداً على حرف الجر (عن)، أما التحرر فكان يتطلب (من).

(٠) بفتح الميم وتنوين الهاء المكسورة.

(٠٠) بفتح الفاء وضم التاء.

(٠٠٠) بتشديد القاف وكسرها.

(٥) والعرض بفتح العين وسكون الراء لم ترد فى (ط) ووردت فى بقية النسخ وهى لازمة.

(٦) اخطأ الناسخ فى س فقال (وبحذف الفاء منصوب) لأن الجواب فى هذه الأحوال حقه الجزم.

الإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج(*) الجواب عن واجب استحقاقه إلى[1] صفة أخرى[2]. فكذلك شرط الواسطة: تغير(**) حكم المدخول[3] عليه. فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير عليه حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما[4] العيش مع الله بلا علاقة فيبقى(***) العبد على ما يجب[5] ـ من تحقيق الوصل ـ فى الأصل.

فصل [٤٢]:

المنادى على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك من كان من العباد مفردًا ينادى(****) على وصف غير وصف ما ينادى(*****) وهو مضاف.

وكذلك من كان بوصف النكرة. والمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على

(١) فى ط (إلا) وهى خطأ من الناسخ.

(٢) سقطت (أخرى) فى ت.

(٣) هكذا فى ت و هى فى ط (المدلول) وفى س (الدخول) والصواب ما أثبتناه.

(٤) أضفنا (أما) من عندنا ليتماسك المعنى ويزيد وضوحًا.

(٥) هكذا فى النسخ جميعها ما عدا س فهى مشتبهة فضلاً عن أنها ذات نقطة تحت الجيم (يجب)، وهى على هذا تكون مرفوضة لأن مذهب القشيرى الأشعرى يرى أنه لا (وجوب) على الله سبحانه.

(*) بضم الهمزة.

(**) بفتح التاء والغين وتشديد الياء وضمها.

(***) بضم الياء وكسر القاف.

(****) بفتح الدال.

(*****) بضم الياء وفتح الدال.

الضمة ـ والضمة أقوى الحركات.. وكذلك من كان أبدًا بنعت التفريد كان فى[1] أعلى الحالات وأقوى الصفات[2].

والمنادى المضاف منصوب، وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو فى أضعف الحالات ـ كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص(...) بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم(....) برقم آخر.

فصل [٤٣]:

ويقع فى النداء الترخيم، وهو حذف بعض الاسم[3] من آخره على جهة الإيجاز، ولذلك فى مسائل النحو شرح.

الإشارة: إلى أنه قد يكون فى نحو القلب ترخيم المنادى، وهو أن ينادى(*) بالإشارة، فيحذف(**) بعض(***) التفسير[4] ويقتصر على ما هو المعلوم بين الأحباب.. قال عز وجل لنبيه:

«يس»[5]، جاء فى بعض التفاسير أن معناه: ياسيد، وذلك على سنتهم فى الحذف[6] والاختصار كما قال قائلهم:

---

(١) فى س (على) أعلى.

(٢) (أقوى الصفات) سقطت فى ك و ت.

(...) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(....) بضم الواو وكسر السين.

(٣) فى س (الأمم) وهى خطأ فى النسخ.

(٤) يقصد هنا الايضاح.

(٥) لم يرد الاستشهاد بالآية الكريمة إلا فى النسخة س.

(٦) فى ط (الستر) وهى مقبولة فى السياق أيضًا، لأن المقصود (بالحذف والاختصار) حسب رأى الشيخ هو التخاطب بين الأحباب بلغة يفهمونها دون سواهم إمعانًا فى كتم الأسرار. ويؤيد ذلك ما يقوله فى لطائف الإشارات فى السياق نفسه «على سنة الأحباب فى (ستر) الحال وإخفاء الأمر على الأجنبى من القصة» لطائف الإشارات جـ ١ ص ٦٦.

(*) بفتح الدال

(**) بضم الهاء والفاء

(***) بضم الضاد

قلت لها: قفى فقالت: قاف[1]:

والاقتصار ـ على شطر[2] الكلام ـ فى مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام.. ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظرف[*] امتحان[3] الحبيب بالوصف.

فصل [٤٤]:

من الأفعال ما ليس[4] يتصرف تصرفًا تامًا مثل:

نعم[*] وبئس وعسى ولذلك أبواب فى النحو وأحكام.

والإشارة منه: أن من الأفعال ما ليس بتام، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده، وبعضها به وإليه، فمن ذلك فتح[**] الجفن، والإصغاء[5]، إذ الإدراك ـ وهو البصر[6] والسمع ـ ليس بمكتسب للعبد، فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن خلق الله الإدراك على مجرى العادة... فذاك فعل ناقص التصرف فيه، فيرد[***] به الأمر والنهى، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

فصل [٤٥]:

ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة كقولهم: «ما»

---

(١) قالت قاف ـ أى أنى واقفة. فاستغنى بالحرف عن الجملة. وفى س (لى قاف).

(٢) فى ك (شرط) وهى خطأ فى النسخ.

(٣) الحاء تبدو فى س كالهاء وربما كان القصد أن الخروج على هذه القاعدة (امتهان).

(*) بتشديد الظاء وفتحها.

(٤) فى س (ما لا يتصرف) وهى صحيحة أيضًا.

(٥) فى ك و ط (النظر والاستماع) وفى ت (النطق والاستماع) وهناك خطأ من الناسخ فى (النطق) لأن نسق الكلام يسير حتى فى النسخة ذاتها على (الرؤية والاستماع).

(٦) فى ك (النظر) وهى مقبولة أيضًا.

(*) بكسر النون وسكون العين.

(**) بفتح الفاء وضم الحاء.

(***) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال.

فيكون صلة ويكون للنفى ويكون بمعنى الذى، وبمعنى من(°).. وغيره.

ويكون مشبهًا(°°) بالمشبه بالفعل(١) فيقولون ما زيد قائمًا. إذ يشبهونه بليس. وقوم يرفعون خبره، وقوم ينصبونه.

ويتبين الفرق بين «ما» «وليس» فى تقديم الخبر وذلك لنقصان «ما» عن «ليس».. كذلك الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأو(°°°) المتحقق(٢).

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

وفى قريب منه(٣) قالوا:

فذر(°°°°) عينيك وشانيهما
أصبحت مشغولاً بمشغول

والمشغول بالمشغول أشدهم محنة، كذلك المتشبه(°°°°°) بالمتشبه أضعفهم حالة.

فصل [٤٦]:

الاسم المنفى بـ (لا) مبنى على الفتح(٤)، لأن «لا» نقيض(٥) «إن»، فلما كانت «إن» - التى للتحقيق - تنصب الاسم فالمنفى بـ «لا» يبنى على

(١) المشبه بالفعل هو كان وأخواتها والمراد هنا (ليس) على وجه التحديد.
(٢) فى ط (لا يبلغ شيئًا كالمتحقق) ولكن الذى اخترناه أكثر دقة للوفاء بالمراد.
(٣) ابتداء من (وفى قريب منه) إلى آخر الفصل ورد فى س وحدها دون بقية النسخ.
(°) بفتح الميم.
(°°) بتشديد الباء وفتحها.
(°°°) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو.
(°°°°) بسكون الراء.
(°°°°°) بتشديد الباء وكسرها وضم الهاء.
(٤) فى س و ك و ت على (الفتحة).
(٥) فى س (نقيضة).

الفتح.... وهذا باب فى النحو يجرى(*) على المعنى(١) حكم نقيضه.

والإشارة أنه يوجد فى الأحوال ذلك: فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر تكون بترك العتاب، وحقيقة الود(٢) تكون بالتجنى وكثرة العتاب.. وأنشدوا:

ترك(**) العتاب - إذا استحق(٣) أخ

منك العتاب - ذريعة(***) الهجر

وأنشدوا:

ولما غدت عيسهم للنوى	وظلت بأحداجها ترتك(****)(٤)
ضحكت من البين مستعجبًا	وشر الشدائد ما يضحك

وقيل: إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف عليه السلام بكى، فقيل له فى ذلك، فقال: ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور.

فصل [٤٧]:

ومن الألفاظ التى تقع على معان مختلفة: «كم»، فإنه يكون بمعنى

(١) فى ب (المبنى) والصواب (المعنى) لأن القاعدة يراد لها العموم فى النحو.

(٢) وحقيقة الود... العتاب) مذكور فى س و ت وحدهما، وهى فى ت وحدها (وحقيقة المحنة)، وربما كانت (المحبة).

(٣) فى ط (استخراج) وهى خطأ من الناسخ.

(٤) البيت الأول ساقط فى س.

والحدج بكسر الحاء وسكون الدال: الحمل. ومن مراكب النساء يشبه المحفة، والجمع أحداج وحدوج. والراتكة من النوق التى تمشى وكأن برجليها قيداً وتضرب بيديها، فإذا لاحظتها وجدت فى مسيرتها اهتزازًا.

(*) بضم الياء.

(**) بسكون الراء وضم الكاف.

(***) بضم التاء.

(****) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف.

الاستفهام فينصب[1]. ويكون بمعنى «رب» فيخفض. والفرق[2] بين «كم» و«رب» اختصاص «كم» بالتكثير «ورب» بالتقليل، ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة[3].

والإشارة: كذلك من الناس من هو فى صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمارة تتميز[4] المقادير، فالزاهد فى صورة الواجد، لكن[٠] هذا قصده ـ من الحق ـ عطاؤه، وهذا موجب استقلاله بقاؤه[5].

وقد يجمع الطريق[6] سالكين[٠٠] ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قصر[٠٠٠] مملوك له، وآخر إلى حجرة بكراء[٠٠٠٠].

فصل [٤٨]:

حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أى يمينى[7] بالله أو حلفت بالله[8].

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفًا وأعم دخولاً[9] كالباء، وبعضها أقل كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير... والكل حروف للقسم.

---

(١) (فينصب) موجودة فى س وغير موجودة فى ط و ت و ك.

(٢) (والفرق.... بالتقليل) سقطت فى س.

(٣) فى ط (والعلاقة) والصواب (والعلامة) بالميم لأن المقصود علامة الإعراب فى الاستعمالين.

(٤) فى ط (تتمادى) وربما كانت (تتمايز) أو (تتماز).

(٥) فى ط (نقاؤه) وربما قبلت فى السياق على أساس أنه (النقاء) من طلب الأعواض و (العطاء).

(٦) يقصد الطريق الصوفى.

(٠) بتشديد النون.

(٠٠) بسكون الباء.

(٠٠٠) بفتح القاف وسكون الصاد.

(٠٠٠٠) بكسر الباء والكاف.

(٧) فى ط (مينى) وفى ك (يمنع) وكلاهما خطأ فى النسخ.

(٨) (أو حلفت بالله) موجودة فى س وت وهى ضرورية لتوضيح قوله فيما سبق (بإضمار فعل).

(٩) فى ط وك و ت (فعلاً) وقد آثرنا (دخولاً) لأن السياق أكثر قبولاً لها حيث إن التنظير يراعى فيما بعد مراتب القوم وهم (يدخلون) الدار.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من(*) يدخل الدار ويتمكن في الصدر، ومنهم من حده(**) أن يحضر الباب ويقف من البعد، قال تعالى: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾(1).

فصل [٤٩]:

الظروف على ضربين(2): ظرف زمان وظرف مكان، وكلاهما منصوب، لأنهما مفعول فيهما.

وفي نحو القلب: الظرف أيضًا على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان، فالزمان هو الوقت، والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان في نحو القلب مختلف باختلاف(3) ما فيه، فإن كان الذي في الوقت وفاق(*) الأمر فظرف صاحبه على الضمة، لأن الضمة أقوى الحركات.

وإن كان الذي في الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور - لأن الكسر أرق(4) الحركات. وإن(5) كان الذي في الوقت المباحات(**) فظرف صاحبه مفتوح - لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان: فإن كان الحق - سبحانه - بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب، وإن كان صاحبه برقم(6) الحظ(7) فظرفه مكسور. فإن لون الماء لون(***) إنائه(8).

(*) بفتح الميم.

(**) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمها.

(1) آية ٦٠ البقرة، ١٦٠ الأعراف.

(2) في س (على قسمين).

(3) في ط (لاختلاف)

(4) في س (لأن الكسر مادون الحركات).

(5) (وإن كان الذي في الوقت المباحات..... الحالات) وردت في س ولم ترد في بقية النسخ، وترجح وجودها في الأصل لكي تتم أنواع الظرف.

(6) هكذا في النسخ ما عدا س فهي (بنعت).

(7) بحظوظ نفسه وليس بحقوق مولاه.

(*) بفتح القاف.

(**) بضم التاء.

(***) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون.

(8) سقطت عبارة (فإن لون الماء......) من س وهي شاهد قوي يوضح المعنى جدًا.

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

فصل [٥٠]:

من أبواب النحو(١) الاستثناء، وهو إخراج بعض ما تناوله اللفظ - بدليل(٢) متصل - منه(٣).

نحو: جاء القوم إلا زيدًا، وغير ذلك.

فلو لم يعقب(٠) لفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضى للمستثنى دخوله فى جملة الأشياء المخبر عنها.

والإشارة: أنه قد يجمع الوقت(٠٠) والطريقة قومًا لو لم يتعقب ما يميز(٠٠٠) البعض(٤) لاشترك الجميع فى الحال، ولكن جاء الحكم فأخرج البعض من الكل:

إن الأحبة شمروا(٠٠٠٠) وبقينا(٥).

كذلك قال الشيوخ: إن فى كل عصر ووقت(٦) يدخل فى هذه الطريقة من لا نهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان، ويبقى(٧) القليل منهم، ولقد قال الشيوخ: هم الأكثرون - وإن قلوا، ومواضع الأنس(٠٠٠٠) حيث حلوا(٠٠٠٠٠٠).

---

(١) لم ترد (من أبواب النحو) فى س. (٢) فى س (بلفظ) بدلاً من (بدليل).

(٣) فى ط (فيه) والأصوب ما اثبتناه على أساس أن الاستثناء (إخراج من...).

(٤) ابتداء من (البعض) إلى (الحكم) ساقط فى س وموجود فى بقية النسخ وسلامة السياق تقتضيه.

(٥) كتبناها منفردة لأنها شطر من بيت، وربما كانت بيتًا كاملاً. (٦) سقطت (ووقت) فى س.

(٧) مشتبهة فى س.

(٠) بضم الياء وتشديد القاف وفتحها.

(٠٠) بضم التاء.

(٠٠٠) بتشديد الياء وكسرها.

(٠٠٠٠) بتشديد الميم وفتحها.

(٠٠٠٠٠) بضم الهمز.

(٠٠٠٠٠٠) بضم اللام وتشديدها.

وينقسم الاستثناء إلى قسمين: استثناء الشىء من غير جنسه، ويقال له الاستثناء المنقطع.

واستثناء من جنسه.

وفى الإشارة: من كان ضداً(٠) غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان محرماً(١) للقوم.. فإن نفى(٠٠)(٢) عنهم، وأخرج من بين جملتهم فالحسرة أشد، والحياة أصعب(٣).

فصل [٥١]:

من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه. كالواو الملحقة بعمرو فى الخط لتكون فرقًا بين عمرو وعمر(٠).. وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه ـ وهو مثل همزة الوصل فيما ذكرنا من قبل.

والإشارة: أن من الناس من(٠٠) يلحق بالطريق(٤) لأجل الغير، ثم يطرح(٠٠٠).

---

(١) بضم الميم وكسر الراء، أى يشعر (بالحرمة) والتجلة لهم وربما كانت (محترمًا) يقول القشيرى فى ذلك: (ومن شرط المريد إذا زار شيخًا أن يدخل عليه بالحرمة وينظر إليه بالحشمة) الرسالة ص ٢٠١.

(٢) القشيرى هنا متأثر بما حدث له وللإمام البيهقى من نفى وتشريد على يدى الكندرى، فأصابهما ولفيف من الأئمة بمحنة عظيمة.

(انظر الشرح، وانظر سيرة القشيرى عند بسيونى فى الإمام القشيرى وآثاره وتصوفه ط مجمع البحوث الإسلامية).

(٣) فى س (فالمحنة أصعب والحسرة أشد) وهى مقبولة أيضًا.

(٠) بتشديد الدال وفتحها.

(٠٠) بضم النون وكسر الفاء.

(٤) فى ت (بالطريقة) وهى صحيحة أيضًا والمقصود الطريق الصوفى.

(٠) بضم العين وفتح الميم.

(٠٠) بفتح الميم.

(٠٠٠) بسكون الطاء وفتح الراء.

وقد قال الشيوخ: إن الله قيض لهؤلاء القوم أحد رجلين: إما مؤمنًا موافقًا(١) وإما منافقًا مسخرًا (٠).

وأنشدوا:

أيها المدعى سليمى هواها	لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت فى هواها كواو	الحقت(٠٠) فى الهجاء ظلمًا بعمرو

فصل [٥٢]:

الأسماء على ضربين: منها ما ينصرف ـ وهو الاسم المتمكن، فالذى ينصرف يجرى بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخلق(٠)، منهم من(٠٠) هو مجدود(٢) فى القسمة، يحظى بكل النعم(٣)، من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال، وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق. يجرون على البساط كما يريدون: «ولا يرهق وجوههم(٠٠٠) قتر ولا ذلة»(٤).

ومنهم من هو منحوس الحظ، إن قبل بالنهار أذيق(٥) بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم(٦) الاتفاق تجرع(٠٠٠٠) بالغد كأس الصد.

(١) فى س بعدها (موافقًا موفقًا).
(٠) بتشديد الخاء وفتحها.
(٠٠) بضم الهمز.
(٢) فى ك (محدود) والصحيح ما أثبتناه.
(٣) هكذا فى ط وهى فى س (نعيم).
(٤) آية ٢٦ سورة يونس.
(٥) مشتبهة فى ط.
(٦) فى ك (بحكم) والمعنى يتقبلها، وربما كانت العبارة كلها فى الأصل (وإن وافى بالليل حكم الاتفاق.... إلخ).
(٠) بفتح الخاء وسكون اللام.
(٠٠) بفتح الميم.
(٠٠٠) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية.
(٠٠٠٠) بتشديد الراء وفتحها.

فصل [٥٣]:

إذا صغرت(٠) اسما ثلاثيًا زدت ياء فيه وضممت أوله، فتقول فى تصغير حجر حجير. كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد فى الرتبة زاد له شاغلا(٠٠)، فيتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلا ورفعة على أشكاله(١)، وهو فى الحقيقة إذلال له، ونقصان لحاله ... وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

(١) فى ط و ت (أشكالا به) والمعنى يتقبلها حيث إن النعم الممنوحة له فى هذه الحالة من قبيل الامتحان والابتلاء.

(٠) بتشديد الغين وفتحها. (٠٠) بضم الشين.

فصل [٥٤]:

يقال فى التعجب :ما أحسن زيداً!

وأحسن بزيد!

وزيد ما أحسنه!

فتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول:

ما أحسن زيداً ! أى: أى شىء حسن (٠) زيدا.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا[١] دخل التعجب على الاسم خص بالفتح الذى هو أضعف الحركات، كذلك إذا دخل الإعجاب على المرء آل إلى أضعف[٢] الحالات، فإن الإعجاب أشد(..) [٣] الآفات.

(١) (فإذا دخل التعجب.... الحركات) مستدركة فى هامش ت.
(٢) فى ك (ضعف) وهى خطأ من الناسخ.
(٣) فى ك (ابتداء) وفى بقية النسخ (أشد) وهذه هى الأقرب.
(.) بتشديد السين.
(..) بتشديد الدال وضمها.

فصل [٥٥]:

الحال منصوب.. تقول: جاء زيد فرحًا، ففرحًا نصب على الحال، واستحق[١] النصب لأنه مفعول. والحال تأتى بعد تمام الكلام، فلما أتى بعد تمام الكلام[٢] صار كالمستغنى(.) عنه، فنصب(..).

والإشارة المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق، ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص، لأن المخلوق مستغنى (...) عنه، قال تعالى:

«والله الغنى وأنتم الفقراء»[٣].

وأنشدوا وبعين مفتقر (....) إليك نظرتى   فحقرتنى ورميت بى من حالق

والحال لا يكون إلا نكرة. (ولذلك)[٤] فإن صاحب الحال من القول يجب الا ينظر (.....)

أحاله، لأنه إذا عرف حاله لا حظها، وإذا لاحظها أعجب بها، وإذا أعجب بها تلاشت. وكان الأستاذ ابو على الدقاق[٥] يقول: «أخص الأحوال[٦] ما استترت[٧] عن صاحبها».

---

(١) فى ت (واستحسن) وهى خطأ من الناسخ.

(٢) (فلما أتى بعد تمام الكلام) زيادة فى ت وهى مقبولة.

(٣) آية ٣٨ سورة محمد.

(٤) زيادة من عندنا ليتماسك السياق.

(٥) أبو على الدقاق شيخ القشيرى وصهره: كان لسان وقته وأمام عصره أخذ عن النصر اباذى، وله كرامات ظاهرة (الكواكب الدرية للمناوى).

(٦) فى س (الأوقات) والسياق يتقبل (الأحوال ليتضح).

(٧) فى ك مشتبهة وربما كانت (سترت).

(.) بفتح النون.

(..) بضم النون وكسر الصاد.

(...) بتنوين النون.

(....) بتنوين الراء وكسرها.

(.....) بفتح الياء.

فصل [٥٦]:

التمييز[1] يوجب النصب، تقول: عشرون درهما .. تشبيها بالمفعول حيث[2] أتى بعد تمام الكلام.

والإشارة: أن المفعول - لنقصانه عن الفاعل - خص[3] بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة.

(١) سقطت (التمييز) من ك.
(٢) فى ص (متى) وهى مقبولة أيضاً.
(٣) بضم الخاء وتشديد الصاد.

فصل [٥٧]:

الهاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث.. تقول: ثلاثة رجال، وخمس نسوة، وتضيف العدد هاهنا إلى المعدود.

واعتبر هذا نوعًا من المعادلة[١]، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخفف من المؤنث زيدت الهاء فى لفظ عدده فقالوا: ثلاثة رجال - والإنصاف فى كل شىء عزيز[٢]، فإن كان فى أحد ضعف يجب أن يقوى[.] بغيره، وإن كان شىء قوة[..] حمل[...] ما يحتمله، ولهذا أمر فى الشريعة بمواساة الفقراء، وكذلك تحميل العاقلة فى الدية[٣].

وقد [٤] يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم أحد عشر رجلا، والتفسير يأتى بعد تمام الكلام فأشبه ما ذكرنا (من المفعول)[٥].

---

(١) فى ت (المتادات) وفى ك (المماداة) وهما لا معنى لهما فى السياق إذ انصرف السياق إلى (الإنصاف) فى (المعادلة).

(٢) فى ك (عشرون) (وربما كانت (عشر) ثم ضم إليها فى الكتاب الواو والنون اللتين فى (وان) بعدها).

(٣) ارجع إلى كتاب المقول ص ١٨١ فى موطأ مالك جـ٢ ومن أمثلة ما يمكن إيراده هنا قوله: الكبير والصغير إذا قتلا رجلا جميعًا عمدًا، أن على الكبير أن يقتل وعلى الصغير نصف الدية.

(٤) (وقد يفسر .. ذكرنا) سقط هذا فى س وموجود فى بقية النسخ.

(٥) (من المفعول) زيادة من عندنا تعويجًا على ماذكرناه فى الأبواب السابقة.

(.) بتشديد الواو وفتحها. (..) بتنوين التاء المرفوعة.

(...) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

فصل [٥٨]:

من الأسماء ما هو اسم موصول[١] لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومن(.) والذى واى.

والإشارة: كذلك من الناس من لا[٢] يستقل بتدبيره، ولا يكون له بد(..)[٣] من غيره، ثم إن أراد الله[٤] به خيراً سد(...) عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق[٥] شهود الحق - سبحانه.

وإن أراد به سوءاً فالحال[٦] بالضد [٧] [٨].

(١) وردت (موصوف) فى ب وهى خطأ من الناسخ.
(٢) سقطت (لا) فى س والسياق يتطلبها.
(٣) فى ط (يد) بالياء وهى مرفوضة.
(٤) فى ك (عز وجل) بدلا من لفظ الجلالة.
(٥) سقطت طريق من ت.
(٦) فى ك (فالمال) ونرجح أنها (المآل) بالمد، وعندئذ فهى مقبولة.
(٧) فى ك (بالضد) أى غير كاملة الرسم، وهى فى ت (الضد) بدون الباء، وهى مقبولة.
(٨) السطران الأخيران بكاملهما ساقطان فى ب. وبدونهما لا تكتمل الإشارة المستنبطة.
(.) بفتح الميم. (..) بضم الباء وتشديد الدال مع التنوين.
(...) بفتح السين وتشديد الدال.

فصل [٥٩]:

إذا نسبت اسمًا إلى اسم زدت فى آخره ياء مشددة وأقر[٠][١] الأول بحاله، تقول فى النسب إلى جعفر جعفرى، وإلى عمر عمرى ... وكذلك حروفه وأقسامه.

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه، وإنما ينسب الشىء إلى الشىء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل إلى ماذا ينسب[٠٠]؟ إن كان رجل ينسب إلى الدنيا يقال له[٢] دنياوى(٣) فقيمته الدنيا[٤].

وإن كان الغالب عليه حديث[٥] الآخر نسب إلى الآخرة، فقيمته الآخرة.

كذلك جميع ما هو الغالب عليه، فلينظر[٠٠٠] كل [٦] غالبه(٧) يعرف[٠٠٠٠] قدره [٠٠٠٠٠].

---

(١) أى (وابقى) أو (وابقى) وهى فى ك (وامر).
(٢) فى س (يقال فلان دنياوى).
(٣) فى س (دنيوى).
(٤) (فقيمته الدنيا) فى س وليست موجودة فى بقية النسخ.
(٥) سقطت (حديث) فى س.
(٦) سقطت (كل) فى ت.
(٧) هى فى س (عالمه) بفتح اللام، وهى مقبولة على أساس أن الحديث عن الدنيا والآخرة، ولكننا رشحنا (غالبه) على أساس أن الكلام عما (يغالب) على المرء.
(٠) بضم الهمز وكسر القاف وتشديد الراء.
(٠٠) بضم الياء.
(٠٠٠) بسكون الراء.
(٠٠٠٠) بسكون الفاء.
(٠٠٠٠٠) بسكون الدال وفتح الراء.

فصل [٦٠]:

الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير، وأقسام الجمع تكثر [١]. كذلك أحكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج[٢]، وأمثال تجتمع، ثم يخبر[-] عن المجتمعات باسم واحد.

والإشارة: الإنسان[٣] اسم شامل[٤] لجملة مخصوصة لها بنية[..] مشهورة. فمن [...] كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل، ومن[٥] كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير، وباختلاف أحكامه، اختلاف مقداره ومقامه.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، فهذه فصول في نحو القلوب أنشأناها على وجه الإيجاز، وبالله توفيق الخلق أجمعين، وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[٦].

---

(١) في ط (تكسر) وربما كانت (تكسير) فالفصل كله يتحدث عن جمع التكسير.

(٢) في ط وحدها (تزدري) ولا معنى لها، وربما قصد من (تزدوج) اشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن كل جعلنا زوجين اثنين﴾ بداية للتكاثر والتناسل.

(٣) واضحة في س ومشتبهة في بقية النسخ، وقد رجحنا (الإنسان) فمهما تعددت الأشكال والألوان فماهية الإنسانية تجمعها.

(٤) (اسم شامل) سقطت في س وموجودة في بقية النسخ وهي مهمة في توضيح السياق.

(٥) في ت (وان) وهي مقبولة أيضاً.

(٦) تنتهي س عند (والمآب)، وتنتهي ط بهذه النهاية كلها أي ابتداء من (فهذه فصول .... وسلم) أما فتنتهي بسطر مشطوب وتتوقف عند كلمة (ومقامه) أما فيؤرخ الناسخ لعمله (بشعبان المبارك - دامت بركته - لسنة ثمان وسبعمائة من الهجرة.

(-) بضم الياء وفتح الباء.

(..) بكسر الباء وسكون النون.

(...) بفتح الفاء والميم.

القسم الثانى

شرح الكتاب ودراسته

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل [١]:

النحو بين الظاهر والباطن

(الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى - رحمه الله:

النحو (فى اللغة) هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحو تنحوه، أى قصدت قصده.

(وهذا النوع فى العربية يسمى نحواً لأنه القصد إلى صواب الكلام).

وأما نحو القلب فهو: القصد إلى حميد القول بالقلب، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة: فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب).

التعريف عند أهل العبارة

كثيرًا ما تزخر مطولات النحو فى بداياتها بتعريفات شتى للنحو تعبر عن اهتمام أصحابها بشيء أو بأشياء دون غيرها، فيبقى التعريف غالبًا قاصرًا عن بلوغ وصفه بالجامع المانع. ومع أن الشيخ لا يريد إضافة كتاب جديد فى نحو أهل الظاهر إلا أنه أفاد فائدة عظيمة حين اختار هنا تعريفًا انتقائيًا يكفى للدلالة على المهمة الأساس من ناحية، ويكفى ـ رغم اختصاره ـ ليكون مدخلا للإشارات التى يستنبطها الشيخ فى كنفه. ولكى ندرك اتجاهه فى هذه الخصوص نرانا مضطرين إلى فتح الباب أمام بعض التعريفات المشهورة لنتبين أن الشيخ قد اختار من جملة الآراء المعتمدة هناك الركيزة الثابتة المحددة المعالم التى رآها كافية لتحديد ماهية هذا العلم من ناحية، وتستلزم فى الوقت ذاته الانطلاق منها إلى معارف فى علوم (أخرى) لها طابعها الخاص ولكنها تتكامل ضروريًا لخدمة السياق - من ناحية أخرى. وهذا التصور لعلم النحو يمنع من التداخلات .. كما أنه يكفى لإطلاق الإشارة - للغرض المنشود من وضع هذا الكتاب.

ولكى نوضح الأمر .. فإن التعريف بـ (صواب الكلام) يدعو على الفور إلى سؤال. وهل كل صواب الكلام يحقق المقاصد؟ والجواب لابد أن يكون هذا الكلام الصائب موافقًا لمقتضى الحال - وهنا يبرز دور علم البلاغة؟ هل استوفى هذا الكلام الصواب المقاييس الفنية الدلالية والصوتية؟ وهنا يبرز دور العلوم النقدية ... وهكذا.

نعود فنقول: فى الوقت الحاضر يكفى الشيخ أن يختار مادة كافية للتنظير. فصواب الكلام فى نحو الظاهر قضية يحكمها العقل والمنطق اللذان يشرعان قواعد ضابطة تتحكم فى أواخر الألفاظ .. من هنا يصح له أن ينطلق نحو الإشارة ليبدأ حواره وتنظيره.

ولنتوقف قليلا مع نحو الظاهر فى المطولات، ولنلحظ قصور بعض التعريفات عن إدراك القاسم المشترك الأعظم للتعريف بالماهية.

يرى الجرجانى: «أن النحو علم بقوانين تعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما. فهو علم بأصول تعرف بها صحة الكلام وفساده»(١).

أما ابن دريد فيذهب إلى : «نحوت الشىء أنحوه إذا قصدته»(٢).

على حين يذهب صاحب اللسان إلى أن: نحا الشىء ينحوه إذا حرفه. والنحو يسمى كذلك لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب»(٣).

ويقول ابن سيده : «الانتحاء اعتماد الإبل فى سيرها على الجانب الأيسر، ثم صار الانتحاء الميل والاعتماد فى كل وجه»(٤).

ويتجه ابن جنى إلى أن «النحو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير والتكثير والإضافة والنسب.. إلى غيره».

وفى شرح الأشمونى على الألفية يقول: «إن النحو: هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى أحكام أجزائه التى ائتلف منها»(٥).

ويعلق الصبان على الأشمونى بأنه «علم يبحث فيه عن أحوال آخر الكلمة».

(١) التعريفات ص ٢١٤.
(٢) الجمهرة جـ٢ ص١٩٧.
(٣) اللسان مادة ن ح و.
(٤) الخصائص جـ١ ص ٣٤ ط دار الكتب.
(٥) الأشمونى جـ١ ص ١٥.

وننهى هذا الموضوع برأى للسكاكى حيث يقول: «النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلمة[٦].

التعريف عند أهل الإشارة

هو القصد إلى حميد القول بالقلب فى المناداة والمناجاة ونتوقف عند كل لفظ فى التعريف لنلقى الضوء على المرامى البعيدة للشيخ من هذا العلم، ومن التنظير وبين نحو العبارة.

حميد القول بالقلب: ونبدأ بملاحظات لها أهميتها فى الصياغة:

١ ـ حميد هنا يقابلها صواب هناك.

٢ ـ استخدام القشيرى هنا لفظ «القول» وتجنب لفظ «الكلام».

٣ ـ القلب هنا يناظره اللسان هناك.

معنى هذا أننا أمام متناظرين : صواب الكلام باللسان هناك، وحميد القول بالقلب هنا .. وهذا تنظير دقيق، لأنه إذا كان الأول علمًا مكتسبًا وضعيًا يقعد القواعد الضابطة لحفظ الكلام ـ مفردًا ومركبًا ـ من الخطأ والوقوع فى الفساد، فإن الثانى نطق بالقلب غايته ذكر الله سبحانه بالقول الحميد من خلال المناداة والمناجاة.

فإذا كان «اللسان» فى نحو الظاهر هو عمدة الأمر، ومناط الأمل. فإنه فى نحو القلب يأتى فى درجة ادنى من ملكات أخرى هى القلب والروح (٠) وسر السر .. على نحو ما نفصل فى مواضع مختلفة من الشروح. وآية ذلك ما يقوله الشبلى:

---

(٦) مفتاح العلوم ص ٤١.

(٠) بتشديد الراء.

ذكـرتك - لا أني نـسـيـتك لحـظـة

وأضـعـف مـا فـى الـذكـر ذكـر لسـانى

ويقول الجنيد: «التوحيد قول القلب»:

وينظر الشيخ زكريا الأنصارى إلى ما يجرى على اللسان عنده هذه الطائفة بأنه من قبيل المجاز، أما الحقيقة فهى لهذا الكلام النفسى الذى ينطق به القلب. ولماذا نذهب بعيدًا والدين يرشدنا إلى أن «الأعمال بالنيات» والنيات - بطبيعة الحال - موضعها القلب، وهى إذا انعقدت على شىء دفعت بالبدن كله إلى ممارسة الفعل .. فهى الأسبق وهى الأخطر.

لماذا تجنب الشيخ استخدام لفظ «الكلام» فى نحو القلب؟

هذا سؤال يطرح نفسه..

القشيرى عالم من علماء الكلام، وهو يدرك أن «الكلام» على الحقيقة صفة إلهية قديمة قدم الذات كالوحدانية والسمع والبصر والإرادة والعلم والحياة.

ونحن لو تتبعنا دوران مادة (ك ل م) فى القرآن الكريم لوجدناها تتحدث فى غالبية المواضع التى وصلت إلى الخمسين موضعًا إما عن الله سبحانه أو عن إنسان فى موقف غير عادى مألوف، أو أن يكون مأذونًا به من الرب سبحانه، أو للموتى .. ونحو ذلك من المواقف غير المألوفة فى الطبيعة. لأجل هذا احترز القشيرى فى استخدامه لفظ البديل واختار قول القلب أو نطق القلب.. ولا ضير على أهل النحو التقليدى أن يستعملوا اللفظ كما جرت أعرافهم .. أما هنا فالدقة واجبة.. لأ ن التوجه هنا نحو المولى سبحانه، وظاهرة انتقاء الكلمات هنا بعناية فائقة ملمح من ملامح التأليف فى هذا الكتاب .. لأن الاحتشام مطلوب فى مقام الملوك!

هنا .. فى كثير من الأحيان يكون الصمت أولى من الكلام، بل تكون العبادة تأملا مديدًا فى أرجاء الكون ـ يقول الحلاج:

فلما رآنى الوجد انك حاضرى
شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجود بغير تكلم
ولاحظت معلومًا بغير عيان(٧)

ويقول القشيرى: «إذا ورد كشف خرست العبارات عند ذلك، وإنما يؤثر أرباب المجاهدات السكوت .. لأنهم علموا ما فى الكلام من الآفات وحظ النفس، والميل إلى التميز عن الأشكال»(٨).

والفصاحة هنا مخبأة، وليست مكشوفة يزهو بها اللسان:

سر الفصاحة كامن فى المعدن
لخصائص الأرواح لا للألسن(٩)

المیل عن القصد فى الحالين:

اشترك النحوان فى لفظ «القصد»، وأوضحنا ذلك وشرائطه فيما سبق.. والآن نبحث مدى ما يحدث إذا أصيب كل منهما بما يبتعد به عن القصد.

الميل عن القصد فى نحو الظاهر يؤدى إلى اللحن ... وهو خطأ، أما فيما يختص بنحو القلوب .. فهو خطيئة، لأن المسألة هنا تتصل بأذكار للمولى سبحانه، استمع مثلا إلى قول القشيرى عند الآية الكريمة:

(٧) تاريخ بغداد المجلد ١٤ ص ٣٩٠.
(٨) الرسالة ص ٦٣.
(٩) قوانين حكم الإشراق ط الشروق.

«ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون».

(سبحان من تعرف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم(·) أنه هو وبأى وصف هو، وما الواجب فى وصفه وما الجائز فى نعته وما الممتنع فى حقه وحكمه، فإن العقول محجوبة عند الهجوم بذواتها لما يصح إطلاقه فى وصفه.. وأما قوله: «الذين يلحدون» فالإلحاد الميل عن القصد وذلك إما بالزيادة أو بالنقصان، فأهل التمثيل زادوا فألحدوا وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا»[١٠].

والقشيرى يقصد أن الممثلة والمشبهة فسروا القرآن على ظاهره فتصوروا لله أيد وأرجلا ووجها وعيونًا .. إلخ لذلك قبحهم الله.

وأما المعطلة فهم الذين جردوا الذات من الصفات ـ إشارة إلى بعض المعتزلة - حتى لا تكون هناك إلا الذات زاعمين أن ذلك هو التوحيد المطلوب فى حقه تعالى.

بين المناداة والمناجاة:

قبل أن نفهم معانيهما الاصطلاحية توضح الجانب اللغوى لهما فإن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الاصطلاح واللغة.

المناداة من النداء .. وهو رفع الصوت وظهوره. وأصل النداء من الندى أى الرطوبة. ويقال صوت ندى أى رفيع.

وناداه مناداة أى صاح به.

والمنتدى مجلس القوم وموضع حديثهم.

(·) بتشديد الراء.

(١٠) لطائف الإشارات تحقيق د. بسيونى جـ ١ ص ٥٩١.

أما المناجاة: فهي واحدة من النجوي أي الحديث الخفي، وناحيته أى ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض، ومن النجاة أى تعاونه على ما فيه خلاصه.

وتتجو بسرك من أن يطلع عليه أحد.

قال تعالى:

﴿ألم تر ان الله يعلم ما فى السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم...»

فالنجو السر بين اثنين، وكذا ناجيته.

أما فى الاصطلاح:

فالمناداة: الصلاة المطلوبة من كافة المسلمين، فهى فى جوهرها تبدأ بالنداء (الآذان) وينادى المصلى ربه طوال قيامه وركوعه وسجوده. فإذا زدنا الاصطلاح تحديداً وجدنا أن المقصود بها هنا «المقامات». فالتصوف مقامات وأحوال.

المقامات هي تلك الجهود الكسبية التى يمارسها العبد في المراحل الأولي من الرحلة الصوفية كالتوبة والزهد والورع والتوكل والصبر والرضا. وإذا كانت (المقامات) كلها من الجهود فإن (الأحوال) من عين الجود، أى من فضل الله وبه.. وسنتحدث عنهما كثيرًا جدًا فى هذا الكتاب.. ولهذا نكتفى هنا بهذا القدر.

فنسمح لأنفسنا أن نقول إن الشيخ هنا يريد أن يحدد تعريف النحو بقوله: «وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب بالمناداة والمناجاة».

وهذه هى القاعدة الأساس للوصول إلى التوحيد - كما سنرى، ذلك لأن المناجاة تبدأ من طرف العبد ثم يأتى وقت يكون الرضا الإلهى قد وصل إليه، فتجرى الأمور فى المناجاة على شكل خطاب وجواب، أى من

إلهية تنثال على عبده من الرجاء والخوف والأنس و الهيبة والبسط والقبض .. إلخ.

ويجب أن يلتزم العبد أدب (السكون) والصمت عندما تتجلى (الهيبة) فلا يكون منه أو فيه حس ولا خبر[١١]. لأنه لم يعد هناك إلا (واحد).

وإذا كانت المناداة محددة بمواقيت ومنازل ومراتب، فإن المناجاة لا تخضع لشيء من ذلك لأنها مرتهنة بأفضال الله فى البداية وفى الإيقاف وفى الاستمرار .. وأحيانًا - وهذه نكبة عظمى على أصحابها - يصدر الأمر بزوالها فترة تطول وقد تقصر .. وقد تتلاشى!

ومع أننا سنعود إلى حديث «المناداة والمناجاة» فى فصل قادم إلا أننا نشعر بضرورة الإفاضة هنا فى هذا الموضوع حتى يكتمل فهم الفصول التالية مباشرة.

وقد اجتمعت المناداة والمناجاة فى قوله تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام:

«وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا».

ويفسرها القشيرى هكذا: «للنجوى مزية على النداء، وجمع لموسى الوصفين، النداء فى بدايته، والنجوى والسماع فى نهايته، فوقفه الحق وناداه، وفى جميع الحالين تولاه»[١٢].

ومن العبارة الأخيرة يتضح صواب ما استنبطناه من إشارة الشيخ هنا فى هذا الفصل: فالمقصود بالمناداة والمناجاة: المقامات والأحوال.

والأحوال تعنى أن العبد فى كنف مولاه، هو الذى يسبغ عليه بمقدار استحقاقه، فعلى قدر الجهود يكون الجود.

(١١) ترتيب السلوك للإمام القشيرى تحقيق بسيونى.
(١٢) اللطائف جـ٢ ص ٤٣٢.

والمناجاة وسيلة الصادقين إذا اشتدت بهم؛ البلوى فهم يفزعون إلى الوقوف عند محلها على نحو ما يفصل الحلاج واصفًا هذا الحضور الدائم.

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسى

ولاهممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالا منك فى الكاس

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم

إلا وأنت حديثى بين جلاسى[١٣]

هذه الملازمة أصبحت مبعث راحتهم ومناط آمالهم بل هى شفاؤهم وعلاجهم.

إذا ما تمنى الناس روحًا [٠] وراحة

تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا

وهم فى سبيل تحقق هذه المناجاة يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وتراهم - رغم علو أقدارهم - ينزلون فى السؤال والدعاء منزلة العصاة، ويقفون موقف المعتذر، ويخاطبون بلسان الاستغفار والتنصل:

وما رمت[٠٠] الدخول عليه حتى

حللت محله العبد الذليل

(١٣) ديوان الحلاج المقطعة رقم ٣١.

(٠) بسكون الواو.

(٠٠) بضم التاء.

وهذه رابعة - بعد أن ملأت الليل كله بالدعاء والاستغفار - يعلو صراخها قائلة: «ما أحوج استغفارى إلى استغفار» ذلك لأنها قد تشعر فى بعض الأوقات بدبيب خفى يتسرب إلى أعطافها فيجعلها تشعر أن عملها هو الذى أوصلها إلى شىء ما، فهى تسرع لكى تطارد هذا الدبيب الخفى، وتسقط عن نفسها التدبير، وتمتلئ بحقائق وأفضال التنوير. فالفضل الإلهى - وحده - هو مناط الرجاء فى الوصول، وعمل الإنسان - وإن كان مطلوبًا وضروريًا - إلا أنه أهل المناجاة ليس ذا بال. لا يكفى عمل العبد، بل لأن الحبيب هناك ينتظر الوجوه الناضرة التى ستبقى إلى ربها ناظرة. تقول ريحانة - وهى زاهدة عظيمة الشأن عاصرت إبراهيم بن أدهم:

بوجهك لا تعذبنى فإنى
أؤمل أن أفوز بخير دار
وأنت مجاور الأبرار فيها
ولولا أنت ما طاب المزار(٠)

فإذا ما سارت المناجاة فى طريقها على هذا النحو ضمنت للعبد ألا يتسرب إليه - وهو يحث خطاه - نسيان أو طغيان، أو تنتابه غفلة أو عصيان، ويكون المنتهى كما قلنا منذ قليل الوصول إلى التوحيد: «فإذا كوشف العبد بالتوحيد شهد أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمتنقل(٠٠) إياه من وصف إلى وصف - واحد لا يشاركه قسيم ولا يضارعه نديم. ومن علم أنه بالله علم أنه لله. فإذا علم أنه لله لم يبق فيه نصيب لغير الله، فهو مستسلم لحكم الله، لا معترض على تقدير الله، ولا معارض لاختيار الله، ولا معرض عن اعتناق أمر الله»(١٤).

(٠) بسكون الراء.
(٠٠) بضم الميم وتشديد القاف وكسرها.
(١٤) اللطائف المجلد الثانى.

وليكن بعد ذلك ما يكون، فإذا كانت المثوبة فيها، وإلا فمرحى بعقوبة المحبوب لحبيبه:

اريـــــد، لا أريـــــدك لـــلـــثـــواب
ولـــكـــنى اريـــدك لـــلـــعـــقـــاب
فـــكل مـــآربى قـــد نـــلت مـــنـــهـــا
ســـوى مـــلـــذوذ وجـــدى بـــالـــعـــذاب

الوجد والواجد:

يفرق الشيخ فى رسالته بين (التواجد والوجد والوجود) فالتواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد، إذ لو كان لكان واجدًا. وباب (تفاعل) أكثره على إظهار الصفة والتكلف.

أما (الوجد) فهو يصادف قلبك، ويرد عليك من حزن أو طرب بلا تعمد أو تكلف. والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه (والمواجيد جمع وجد على غير قياس كما يرى الشيخ زكريا فى هامش الرسالة) عند الموضع ذاته.

أما (الوجود) فهو الارتقاء عن الوجد، إذ لا يكون (وجود) الحق إلا بعد خمود البشرية كما يخمد ضوء العين فى ضوء الشمس، ولا تكون الغلبة إلا لضوء الشمس كذلك تخمد البشرية عند ظهور سلطان الحقيقة[١٥].

فالتواجد بداية، والوجد واسطة والوجود نهاية. وترتيبها كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحر.. اللهم اجعلنا من الغارقين!

فالمسألة على الترتيب التالى: قصود ثم ورود ثم شهود. ويحسن أن

(١٥) الرسالة ص ٣٦.

نضيف هنا رأى الكلاباذى فى الوجد: الوجد بشارات الحق بالترقى إلى مقامات المشاهدة، ونحس ذلك عن قرب من قول الجنيد (والحظ(.) المناجاة والوجد فى النص):

وتحققتك فى سرى
(فناجاك) لسانى
فاجتمعنا لمعان
وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك(..) التعـ
ـظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك(...) الوجد
من الأحشاء دانى (١٦)

وقبل أن نغادر هذا الموقع علينا أن ننبه إلى:

مقصود الشيخ بالباب والبساط كما جاء فى المتن، فنقول إن ممارستنا الطويلة لأسلوبه فى مصنفاته تكشف عن تصوره أن مراحل الدخول والتمكين تتدرج من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة(....) (انظر مثلا لطائف الإشارات»(١٧) وهو تصور يراد به إفهام المريدين والمتذوقين.. لا أكثر حتى يعرف كل منهم موقعه فى الخدمة، فلا ينبهر ولا يتجاوز .. بل يتأدب ويقف عند حده.

(.) بسكون اللام وفتح الحاء.

(..) بتشديد الياء وفتحها.

(...) بتشديد الياء وفتحها.

(١٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٢٥.

(١٧) لطائف الإشارات المجلد الثانى ص ١٥.

(....) بضم السين وتشديدها.

فصل [٢]:

أقسام الكلام ـ اسم ـ فعل ـ حرف

(الكلام اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى:

وفى نحو (القلوب): الاسم هو الله والفعل ما كان من الله، والحرف إما يختص بالاسم فيوجب له حكمًا، أو يختص بالفعل فيقتضى له نسبة، وكما أن الحرف إذا دخل على الاسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذى هو العلم يوجب لله حكم العالِم(٠) .. وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم فى الخلق).

---

(٠) بكسر اللام.

ربما يشعر القارئ غير المتمرس بأسلوب القشيرى بشىء من عسر الفهم لهذا الفصل، وقد يسرع فيتهم الشيخ بالإلغاز، والحقيقة تخالف ذلك، فالشيخ هنا يضع دستورًا للذكر الصوفى وأبعاده إذا ارتبط بالتفكر فى الأسماء والصفات الحسنى .. على النحو التالى:

١- (الله) هو اسم الذات، وهو للتعلق دون التخلق، أى ليس لأحد من المخلوقين أن يتسمى به، وكذلك (الرحمن) «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن».

٢- صفات الذات، وهى تلك الصفات القديمة التى قامت بها الذات الإلهية منذ الأزل وهى: القدم والقدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر.

٣- صفات الفعل، وهى تلك الصفات المعبرة عن فعله سبحانه فى الكون: كالخالق الوهاب والرزاق والمحيى والمميت والهادى والمنعم .. ونحوها، فهى تتجلى فى الكون والعباد، وتنعكس آثار التجليات حسبما تقتضى الصفة من المعانى، فليس فى الكون والطبيعة إلا مخلوق بيد الخالق، مرزوق من قبل الرازق، حى(.) أحياه المحيى .. إلخ.

وما دام الفاعل فى الكون هو (الله) وحده، فإن الاسم - على الحقيقة - اسمه، قال تعالى معلمًا نبيه ﷺ كيفية الذكر: «واذكر اسم ربك» ، وقال تعالى مذكرًا نبيه ﷺ رد (..) كل فعل لفاعله الأصيل. «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وقال: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم».

وقد اجتمع اسم الذات واسم الفعل فى أول آية نزلت من القرآن الكريم: «اقرأ باسم ربك ... الذى خلق» الأولى عن الذات، والثانية عن الصفات، وهكذا فإنه إذا كان الاسم - على الحقيقة - هو (الله) فإن

(.) بتشديد الياء.

(..) بتشديد الدال وفتحها.

الفاعل على الحقيقة هو سبحانه والفعل على الحقيقة له سبحانه، فإذا صرفنا إلى الإنسان فعلا فى الكون فهذا من قبيل التسمية النسبية باعتبار الإنسان العلة القريبة أو السبب القريب، أما لو تغاضينا عن هذه النسبية لأرجعنا الأمر كله الله، «فكل شىء له وبه ومنه وإليه» - كما يقول القشيرى. وأرجو القارئ أن يعيد قراءة هذه الجملة الأخيرة ليتضح له كيف تقوم (الحروف) بدور (الرباطات) كى تؤدى المعنى المراد الذى ينبغى استحضاره فى كل لحظة. والمتصوفة بطبعهم يتذوقون هذا جيدًا فتراهم لا يحثون المريدين على القول: هذه لى أو منى أو بى.. ونحوها. لأنها فى نظرهم تشير إلى دعوى النفس وأن العبد يأتى منه شىء، والمفروض أن يتخلص أحدهم من كل دعوى وادعاء، لأن الدعوى والادعاء فى نظرهم من قبيل الشرك الخفى[1]، فالمريد ـ على الحقيقة ـ من ليس له إرادة، لأن: الإرادة بالكلية لله وحده، ولهذا فإن لفظ «الحقّ» أكثر الأوصاف جريانا على ألسنة الطائفة. وبهذا التوضيح تظهر لنا أهمية الرؤية الصوفية للموضوع من كل جوانبه. وهم يحرصون على هذه الرؤية فى سلوكهم ونصائحهم ووصاياهم لأنفسهم وفى تفسيراتهم الإشارية لكتاب الله الكريم.

ونشعر أن هذه النظرة الخاصة التى يتفرد بها الصوفية عن غيرهم من المفكرين كالمتكلمين والفلاسفة مثلا بحاجة إلى متابعة وتأصيل. ففى رأينا أن ذلك من أجل (.) الإضافات التى تقدمها الحقيقة للشريعة كى يندعما فى نهاية الأمر، على عكس ما يظن البعض بدافع الجهل أو الغرض أو المرض من وجود تنافر بينهما، وذلك الاتهام الموجه للصوفية زور وبهتان.

ولنبدأ بتوضيح ذلك فيما يختص (بالذكر الصوفى): أطواره ومذاقاته ـ وعندئذ سيصبح معنى الفقرة واضحًا. إذا ما خلا الصوفى إلى ربه، ولزم

(١) انظر (التحبير فى التذكير) تحقيق بسيونى. طبعة عالم الفكر.

(.) بتشديد اللام وكسرها.

الصمت، وبدأ التأمل المديد والتفكر والتدبر.. انطلق بلا حدود فى سياحة لا نهائية، وأخذ يقفز ببصيرته متنقلا فى أرجاء الكون والطبيعة والإنسان، يتابع عظمة الخالق المدبر الوهاب المنعم.. فيما خلق ودبر ووهب وأنعم....، وهنا تكون الطبيعة أقرب إليه مما بعد الطبيعة، والمتاح أقرب من البعيد المنال. معنى هذا بكلمات أخرى تتفق مع كتابنا هنا: أن العبد يبدأ بمتابعة تجليات صفات (الفعل) الإلهى للفاعل (الحق) سبحانه.

ولكن التركيز ينتهى بهذه السياحة التأملية عند (صفة) واحدة فقط ولتكن (صفة) (المنعم) مثلا، وهنا تنحصر الدائرة فى : إنعام الله.. ما أكثر نعم الله على عباده فى السماء وفى الفضاء وفى الماء وعلى الأرض وتحت الأرض.. أشياء لا تقع تحت حصر ولا حد .. ثم إنعام المنعم على الإنسان نفسه.. أفضال متلاحقة مع كل نفس يتردد فى الصدر، بل إن هذا النفس فى حد ذاته نعمة كبرى لأنه الحياة نفسها، بل هناك نعم أخرى تغيب عن وعى الكثيرين، وليست من قبيل المنح بل من قبيل المنع، ولو تفكر الإنسان نعرف أن نعم المنع أكثر عددًا من نعم المنح، فمثلا: أنا هنا فى هذا المكان، وكنت أزمع أن أصل إلى المكان الفلانى، ولكن شيئًا ما صعب على الانتقال إلى هناك، فأصابنى الجزع والضيق، ثم ما لبثت حتى جاءت الأخبار بوقوع حادثة هناك أو فى الطريق إلى هناك.. حمدًا لله.. لقد نجوت من الكارثة! إن الإنسان بطبعه يفرح لما يصيبه من نعمة المنح.. كالصحة والولد والمال ولكنه قليلا ما يفطن إلى ما جنبه ربه من ويلات.. وإذًا فينبغى عند أهل الصفوة الشكر لله فى كل حال مهما كانت الحال: منحًا أو منعًا.

ونعود إلى هذا العبد الذاكر فنجده قد مضى فى الدروب إلى نقطة أبعد، إنه يتذكر (مصدر) هذه النعم، إنه (المنعم)، (ذاته)، ويتلبث وقتًا طويلاً غارقًا فى هذا (الوصف). ويبقى كذلك ما شاء له الله أن يبقى فى الذكر والتأمل والتفكر .. ما معنى هذا كله؟

معناه أن (صفات الفعل) تؤخذ هنا لا كما تؤخذ عند الفلاسفة أو المتكلمين حيث يثيرون جدلا نظريًا فيه مهارات العقل ولكن فيه برودة الرخام، مناهج من التفكير لا تجدى فى إنعاش الوجدان وتدفئة العاطفة.

إنها هنا أسلوب حياة، فالجماليات تؤدى إلى (الجميل) سبحانه، والجلاليات توصل إلى (الجليل) سبحانه، والأرزاق تنتهى إلى (الرازق) سبحانه، والبدائع التى لا حصر لها تتصل (بالبديع) سبحانه .. وهكذا يرتبط الذكر بالسلوك. فإذا تحقق ذلك على وجوه تتضمنها تعاليم الصوفية وأورادهم انثالت الأنوار على خاطر المتأمل الذاكر المتفكر، وانفتحت له المغاليق، وحملته أجنحة نورانية إلى عوالم شفيفة لا قبل له بها، وسمع وأبصر من وراء الغيب ما لم يخطر على قلبى أو أذن أو عين، وعلى الجملة أصبح كل شىء (للحق)، وأصبح (الفاعل) الحقيقى (لفعل) هذا الإنسان الواصل المتصل هو (الحق)، هو السند وهو الوكيل، وهو القائم وهو المتصرف، لقد ذابت الإرادة الإنسانية فى الإرادة الإلهية، ولم يعد هناك إلا واحد .. له الأمر كل الأمر. وعندما يصل الذاكر إلى هذا الموقع «يجد له حلاوة فى فيه وفى حلقه، ويجد منبع هذه الحلاوة فى أصول أسنانه فيطبق فاه على هذا الشراب وهو حينئذ لا يخاف إلا من حائل يحول بينه وبين هذا الشراب الذى يمتد إلى كل الجوارح»[٢].

نماذج للذكر ومبناه:

يقول النورى متذكرًا وذاكرًا (قدرة القادر):

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً
إلى (صفة) فيها بدائع فاطر
ولا تعط حظ النفس منها لما بها
وكن ناظراً بالحق قدرة قادر[٣]

---

(٢) ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى، تحقيق بسيونى ص ٣٥.
(٣) طبقات السلمى ص ١٥٥.

ويتحدث ذو النون المصرى عن استحضارهم الدائم (لصفة الفعل) فيقول: «ما هممت بمعصية فذكرت (جلال) الله إلا استحييت منه»[٤].

وقالوا: «الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية (المنعم)»[٥].

ويقول القشيرى عند قوله تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» : «إن كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك وهو المال فمتى تصل إلى (البار) وأنت تؤثر حظوظك؟»[٦].

وتتضح أهمية احتلال قضية (الذات وصفات الذات وصفات الفعل) فى تفسيرهم الإشارى على نحو أخاذ فى منهج القشيرى فى «لطائفه».

فيقول: «خوف[٠] العوام بأفعاله فقال (واتقوا يومًا) و (اتقوا النار) موصولتين بوصفى العزيز ذى الانتقام، وخوف الخواص بصفاته: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال: (وما تكون فى شأن ... إلا كنا عليكم شهودًا)، وأما خاص الخاص فخوفهم بنفسه (ويحذركم الله نفسه)».

ويكاد القشيرى فى أحد المواضع يضع صياغة لورد من أوراد الصوفية ينبنى على ترديد (الاسم) الذى هو (الله) بصورة تهز مجامع القلب، وترتفع بالخواطر إلى آفاق بعيدة كل البعد، سامية كل السمو .. استمع إليه فى كنف بسملة (آل عمران):

و(الله) لفظ لو قرع أسماع أهل المعرفة لم تذهب (فهومهم[٠٠]) ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه، وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب، فإذا قال بلسانه (الله) أو سمع بآذانه شهد بقلبه

(٤) التعرف للكلاباذى ص ٨٢.
(٥) التعرف للكلاباذى ص ١١٩.
(٦) اللطائف جـ١ ص ٢٧٠.
(٠) بفتح الخاء وتشديد الواو وفتحها.
(٠٠) بضم الفاء والميم.

(الله). وكما لا تدل هذه (الكلمة) على معنى سوى (الله) لا يكون مشهود قائلها إلا (الله)، فيقول بلسانه: (الله) ويعلم بفؤاده (الله)، ويعرف بقلبه (الله)، ويحب بروحه (الله)، ويشهد بسره (الله)، ويتعلق بظاهره بين يدى (الله) ويتحقق بسره (الله) ويخلو بأحواله (الله) وفى لله، فلا يكون فيه نصيب لغير (الله)، وإذا أشرف على أن يصير محوًا فى (الله) (لله) (بالله) تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقول (الرحمن الرحيم) استبقاء لمهجتهم أن تتلف، وإرادة(٠) فى قلوبهم أن تتقى، فالتلطف سنة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية»(٧).

فإذا تم انشغال الذاكر باسم الله الأعظم دون سواه على هذا النحو أفاء الله عليه من أنواره وخيراته ففى حديث قدسى «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»(٨).

ونتابع القشيرى وهو يوصل - تحت ظلال القرآن الكريم - هذه القاعدة الأساسية فى (دستور الذكر) فنجده عند قوله تعالى.

«ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون».

يقول: «رزق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، وحقيقة الشكر على هذه النعم تكون بالغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المنعم».

وعند تفسير لفظة (السائحون) التى جاءت فى سورة التوبة يقول: «السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلبًا للاستبصار،

---

(٧) بسملة آل عمران اللطائف جـ١ ص ٢٢٩ ومعنى (المحو) فى الله حسب المنهج القشيرى المحو فى إرادة الله فقد جلت الصمدية عن ان ينمحى احد فيها وسنعود لتوضيح هذا المعنى فى مواضع كثيرة من شروحنا هنا.

(٠) بفتحتين على التاء.

(٨) التعرف ص ١٢٤.

ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر فى جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكمة خالقها بما يرون من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوت فيجدون روح(.) الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقق بشهود الحق»(٩) وهو يرتب درجات أهل الذكر فى الوصول إلى الله على هذا النحو:

«الترقى من شهود آياته إلى إثبات ذاته - سبحانه، فالتحقق بالآيات التى هى (أفعاله) ومراعاة ذلك وهى الأولى، ثم إثبات صفاته وهى الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وذلك غاية الوصول» وهو يتناول المعنى نفسه من حيث (المدد) الإلهى المنثال على الذاكرين طبقًا لمراتبهم فيقول: «تعرف سبحانه إلى الخلق بآياته الظاهرة على قدرته وأفعاله، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التى هى جماله وجلاله .... فشتان بين قوم وقوم» بل نراه وهو يستخرج لطائفه من معجزات الأنبياء عليهم السلام يطبق المنهج ذاته، فهو يتدرج مع معجزة موسى عليه السلام مثلا بحيث يجعلنا نلاحظ أن ما حدث لعصاه سبق ما حدث ليده وهى تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، «لأن العصا - وإن كانت معه من زمن - إلا أن يده أخص(..) به لأنها عضو له، فكاشفه أولا برسم من رسمه، ثم أشهده من ذاته فى ذاته ما عرف أنه أولى به منه. فلما رأى انقلاب وصف(...) فى يده علم (....) أنه ليس بشىء من أمره بيده».

وهنا نلحظ كيف تتصل المكاشفة أولا بالصفات ثم بالذات، ونلحظ ثانيًا التأديب الإلهى لنبيه حتى لا يصيبه الغرور، وأنه ينبغى عليه أن يرد

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص ٦٧.
(.) بسكون الواو.
(..) بتشديد الصاد وضمها.
(...) بتنوين الفاء وكسرها.
(....) بفتح العين وكسر اللام.

كل شىء سبحانه. ونلحظ أخيراً التدرج من الفرق إلى الجمع ـ حسب المنهج الصوفى فى الأحوال. دقة فى الفهم والتدرج نلحظها على المستوى العام فى كل مصنفات شيخنا ـ رضوان الله عليه.

فصل [٣]:

تتمة فى

الاسم والفعل والحرف

(والاسم فى نحو القلب ما يكون مخبرًا عنه فى مخاطبة الحق، والفعل ما كان خبرًا فى مخاطبة العبد مع الحق.

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب).

* * *

فصل [٤]:

الكلام المفيد

(والكلام المفيد ما كان اسمًا واسمًا، أو فعلا واسمًا وما عداه من الأقسام غير مفيد.

كذلك فى نحو القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب[.] به الحق، وما سواه فلغو.

ويقال [١]: إن المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة عن المصنوعات .. هذا هو التقسيم الحاوى لجميع المعانى، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذى هو مفيد).

رأينا أن نضم الفصلين حتى يكتمل المراد، ويتضح ما قد يبدو فى أولهما من غموض فى ضوء ثانيهما.

ولنبدأ ـ كالعادة ـ برأى أصحاب نحو العبارة فى معنى كل قسم من أقسام الكلام، ثم نشرح القصد عندهم من (الكلام المفيد) وبعدئذ نفرغ

(.) بفتح الطاء.

(١) هذه عادة القشيرى عندما يسوق رأيا جديدًا، وليس معناها بالضرورة إيراد رأى لآخرين.

لرأى شيخنا فى مذهبه الإشارى المستنبط من ذلك، ولهذا فإننا لن ندخل فى تفصيلات كثيرة بل سنكتف الاهتمام على ما هو مهم فى استنباط الإشارة.

فالاسم ما دل على معنى فى نفسه، غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين أى ذات: (الله) أو اسم معنى (القدرة) والاسم أصل لأنه يستغنى بنفسه عن الفعل، والفعل فرع عن الاسم. والاسم أخف من الفعل، فهو أى الاسم يستتر فى الفعل، والفعل لا يستتر فى الاسم، ولهذا نجد صاحب الإنصاف يجعل المصدر أصلا لأن المصدر اسم (مستغن بنفسه ولا يفتقر إلى غيره، وما هو كذلك يكون أصلا لما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره)[٢].

أما الفعل (فهو ما دل على معنى فى نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو لابد من الاسم وإلا لم يكن كلاماً)[٣].

وأخيراً.. فإن الحرف ما دل على معنى فى غيره. فإذا اختص بالأسماء عمل فيها الجر، وسمت بحروف الجر لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء أى تضيفها وتوصل إليها. وذهب الكوفيون إلى تسميتها بحروف الإضافة، وهذا العمل يناظره فى نحو القلب قول الشيخ (إن الحروف رباطات) وقد أوضحنا بعض هذا المراد فيما سبق وسنزيد الأمر إيضاحاً بعد قليل.

ونتتقل إلى الإشارة:

فغير خاف مدى التوفيق الذى ناله القشيرى وهو يصرف (الاسم) من البداية إلى (الله) سبحانه. فهو بهذا قد جعله أصلا لا فرعًا.

---

(٢) الإنصاف ٢٣٧/١.

(٣) الكتاب لسيبويه ٦/١.

وهو غير مشتق من شيء سبقه[٤] لأنه لم يسبق بما يشتق منه، وهو قد جعله متحرراً من الزمانية بل فوق الزمانية، وبهذا ازداد اقتناعنا بتصوره لأسبقية (الاسم). ولم يكتف بذلك بل جعلنا نثير قضية استتار الاسم فى الفعل.. وهذه فى الحقيقة ذات دلالات عميقة، (فالله) خارج عن الكون بذاته لأن المطلق متسام عن التداخل فى النسبى ولكنه داخل فيه بصفاته أى بتجلياته فى الخلق والنعمة والرحمة والجمال والجلال والإحياء والإماتة - .. إلخ كما سبق أن شرحنا.

أما (الفعل) فهو تعبير عن الكون وما فى الكون أى عن الخلوقات، وما يجرى عليها من تصاريف إلهية مرتهنة بأزمان ومرتهنة بمقادير ومرتهنة قبل ذلك كله بعلم أزلى قديم يقدره (الاسم) بحكمته، فالملك ملكه، وله أن (يفعل) فيه ما يشاء (وقتما) يشاء، وهذا هو ارتباط (الفعل) بالزمانية، وإن شئت الدقة بالزمنية.

ومما سبق نفهم قول النحاة (الاسم يستتر فى الفعل) فالحق خارج عن الكون بذاته متصل فيه بصفاته ... الخالقية والإبداع والرازقية والإحياء والإماتة والهداية.. إلخ.

أما الحروف فهى (رباطات تتم بها فوائد نطق القلب) فإذا قال الله سبحانه: منى ولى وبى.. تحققت الفائدة لأن الربط هنا على الأصل، لأن الإضافة منسوبة - حقًا وحقيقة - إلى من [٠] يجب أن تضاف إليه [٥].

أما إذا قال العبد: منى ولى وبى لم تتحقق الفائدة لأن الربط هنا على غير أصله، بل هنا بلغة الصوفية دعوى نفس، أى ادعاء نسبة. فلا فاعل

(٤) انظر كتابنا (البسملة بين أهل العبارة وأهل الإشارة). ط الدار القومية.

(٠) بفتح الميم.

(٥) انظر: نحو القلوب الصغير. للقشيرى ص ٨٧ و١٣٨ تحقيق: أحمد علم الدين الجندى.

فى الكون غير الله، وليس لأى غير أو سوى حق فى الفاعلية أو الملكية.. إن فى ذلك عدوانًا، فهو بهذا (لغو وليس فيه فائدة عن نحاة القلوب. ولو طلب إلينا أن نجمع كل هذه المعانى التى يريدها الشيخ من وراء الأقسام الثلاثة لقلنا فى كلمة واحدة: التوحيد، هو الهدف البعيد المرجو تحقيقه، وأما وسيلته فهى المناداة والمناجاة، ويكون الشيخ فى فصول كتابه الأولى قد حدد (•) الإطار العام الذى يعمل فيه نحو الإشارة (توحيد المحبوب)..

وينتقل الشيخ بعدئذ إلى الجملة فيقول: (والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً أو فعلا واسماً، وما عداه من الأقسام غير مفيد).

أى هناك نوعان للجملة: جملة اسمية من مبتدأ وخبر

وجملة فعلية من فعل وفاعل

وتتحقق الفائدة من الإسناد الحاصل بين طرفى كل منهما.

ويختلف النحاة فيما بينهم فى أسبقية كل منهم عن الأخرى، وإذن القضية تطرح بشكل آخر أيهما أسبق الاسم أم الفعل، ويشتد الخلاف بينهم لشغل مساحات كبيرة من مصنفاتهم.

وفى رأينا هذا الخلاف يمكن أن ينفض لو أدخلنا فى الاعتبار المتكلم ورغبته، فهو وحده الذى يعرف ما يريد إبرازه، فلو كان قاصدًا للثبات واللزوم استخدم الجملة الاسمية لخلو الاسم من الزمن، ولو كان قاصداً إلى التحول والتغير استخدم الجملة الفعلية لتحمل الفعل للزمن.. ولسوف نعود إلى معالجة هذا الموضوع فى فصول قادمة من الكتاب إن شاء الله.

وحينما تنقل القضية إلى نحو القلوب فإنها تتكيف بحسب المناخ الصوفى وتصبح (الفائدة) و (اللغو) و (مقتضى الحال أو المناسبة) ذات دلالات سلوكية ومعرفية لخصها الشيخ فى:

(•) بفتح الأول وتشديد الثانى.

(نحو القلوب فيه مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله) وبهذا التلخيص يكون الشيخ قد أرسى فى حزم قاطع القواعد الأساسية للموضوع كله.. وبهذا فتح لنا الباب للشرح والدراسة:

يميز الصوفية بين شيئين: حقوق الله، وحظوظ العبد. فلو أراد العبد أن تتحقق له (الفائدة) فى هذه الرحلة السنية، وأن يخطو أول خطوة فى (القصد) إلى الله على نحو سديد فإن عليه أن يرفع هذا الشعار نصب عينيه من أول الطريق إلى منتهاه: مراعاة حقوق الله بأقصى ما فى استطاعته، والتجافى عن حظوظ النفس والدنيا والهوى بأقصى ما فى استطاعته. وأى تحيف(٠) فى هذا ينذر بخراب كل شىء، وكل غفلة عنه ينبغى تداركها على الفور، وإلا ولج الشيطان من أضيق المنافذ، وبدد كل محصول. ولم تعد هناك (فائدة) ترجى حتى على مرأى العين!

إن النفس - فى اصطلاح القوم مركز المعلولات : كالحسد والكذب والرياء والخيانة والإعجاب والمساكنة والكبر.. ونحو ذلك . والقلب مركز المحمودات المنجيات من كل ذلك. والصراع من البداية قائم بين الطرفين قصداً إلى تنقية القلب - خلال المقامات - من كل الكدورات وتنحية قطاع الطريق وتجنب آفات العلائق .. وهكذا يستشرف القلب المنيب السليم من مرحلة (الروح) التى هى مركز المحبة، لأنها جبلت منذ يوم الميثاق على الاعتراف بربوبية الرب «ألست بربكم؟ قالوا: بلى»، وعلى حبه، وعلى العودة إليه مبرأة من كل كدر. وهذه (الروح) بدورها تنقى خلال الأحوال: كالرجاء والخوف، والأنس والهيبة، والبسط والقبض ، والفناء والبقاء... إلخ لتستعد للاستشراف من منطقة أعظم ارتفاعًا فى المعراج الروحى هى (السر) ثم (سر السر) حيث البصيرة الكاشفة، وحيث الأنوار المتتالية، وحيث المشاهدة والعرفان.. وأخيرًا فوق قمة القمم: التوحيد. وهكذا نعود

---

(٠) بتشديد الياء وضمها.

إلى التوحيد مرة أخرى حتى يزداد القارئ تمكنًا من إدراك غاية الغايات عند أهل الصفاء.

هذه فى اختصار علامات على الطريق نضعها فى بداية شروحنا، ولنا إليها عودات كثيرات فى ثنايا الكتاب حسبما تقتضيه الأحوال. وبهذا نستطيع الآن أن نميز بين (المفيد) و(غير المفيد) فى نحو القوم. ولكى يكون موقفنا سليمًا نبدأ من البداية الصحيحة، فإذا استعرنا لغة أهل نحو الظاهر فإن (الابتداء) هنا هو (بالله).

إنها بداية تختلف بالقطع عن سائر العلوم، فعلى حين تحتاج تلك العلوم إلى مهارات عقلية أو رياضية أو فنية أو لغوية... إلى آخر ما نعرف من الاستعدادات الإنسانية المعينة على التخصص فى لون من ألوان المعرفة - فإن البداية هنا هى بهذا (الاسم) الكريم .. ونحن نبنى تصورنا للبداية على هذا النحو على أساس موضوعى علمى مستمد من طبيعة العلوم الصوفية فى أصولها ووسائلها وغاياتها.

فـ (الله) هو الذى يجتبى العبد المراد لكى يشق الطريق إليه. و (الله) هو الكفيل - حتى فى المقامات التى هى جهود كسبية كالتوبة والصبر والتوكل - بتوفيق التائب إلى توبته والصابر على صبره والمتوكل فى توكله. فالله فى البداية هو الوسيلة .. وفى النهاية هو الغاية.

و (الله) هو صاحب الأمر فى تقليب قلب العبد فى (الأحوال)... الثنائيات التى لا تكاد تحصر، بل هى كما يرى أبو عبد الله الأنصارى الهروى بعدد أنفاس الخلق(٠).

و(الله) هو الحفيظ لعبده حتى وهو فى أعلى درجات الوصول. فهو الذى يرده مثلا إلى حال (الفرق الثانى) وهو فى قمة الجمع وجمع الجمع

(٠) بفتح الأول وسكون الثانى.

كى يؤدى الفرائض التى تتطلبها الشريعة، لأن الحقيقة ما جاءت لتنال من الشريعة، بل هى مؤيدة لها، عاصمة لها، ناصرة لها. ذلكم هو (الكلام المفيد) فى عرف أرباب القلوب.

ذلكم هو (خبر المبتدأ) الذى يحقق (الفائدة) عند أصحاب المواجيد. وهى عندهم ليست نزهة لينة بل هى معركة شاقة مضنية ربما استغرقت العمر كله.. ولكن أو ليست الآمال الكبيرة فى حاجة إلى قلوب كبيرة وهمم كبيرة! وأى غاية أعظم وأروع من انتصار الإنسان على نفسه، ودنوه من الأنوار الكاشفة لبصيرته، وصعوده إلى زمان فوق الزمان، ومكان فوق المكان!

ولكن: أحقًا يستطيع القلب الإنسانى خوض هذه المعركة، وتحقيق هذه (الفوائد) الجليلة؟

قلنا من قبل إن القلب مناط الأمل فى الانتصار على النفس، ونضيف هنا شيئًا آخر.. إن القلب وريث (العقل) فى المعرفة، ذلك لأن العقل بطبيعة اتصاله بالحواس والمادة وتحقيق المعرفة عن طريقهما سيجد نفسه فى لحظة ما لا يستطيع الخوض فى غيب بعد غيب، وهذه طبيعة تختلف عن طبيعته. فالحصان ليس مخلوقًا ليركض فوق ثبج الماء، والسفينة ليست مصنوعة لتمخر فوق اليابسة - كما يقول الصوفى الفارسى جلال الدين الرومى.

القلب مزود بطاقات الذوق والعاطفة والاستشفاف والتركيز فى (الواحد). وهذه أمور لا قبل للعقل بها، ونكتفى هنا بذلك، ونورد بعض أقوال الشيوخ فيما نحن بصدده.

فابن القيم يعبر عن استطاعة لقلب إغاثة العبد بأخذ ما هو (مفيد) وطرح ما هو (غير مفيد) فيقول:

«فى القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، ولهذا كان (الكمال) والصلاح باستعمال هاتين القوتين فيما (ينفعه) ويعود بصلاحه وسعادته، فكما له باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل. واستعمال قوة الإرادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل»[6].

ويبدأ القلب رحلته بالتيقظ، والاعتزام على نبذ الماضى والفرار من دواعى الدنيا والشيطان - كما أوضحنا. «فإذا صح صدق فراره منهما - كالصبى الذى يفزع مما يفزع منه الصبيان، فلا يهتدى إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوته إلى نفسها، وضمته إلى نحرها وألصقت خده بخدها - كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ورجوعه إليه عن مخالفته آواه إلى كنف قربته، وتداركه بحسن لطفه»[7].

ويعبر سمنون المحب - وهو من أجلة شيوخ الصوفية عن هذه اللحظات.. لحظات بداية التعلق بمحبوبه الأسنى فيقول:

وكن فؤادى خاليًا قبل حبكم
وكان بذكر الخلق(٠) يلهو ويمرح

فلما دعا قلبى هواك أجابه
فلست آراه عن فنائك يبرح

وإن كان شىء فى البلاد بأسرها
إذا غبت عن عينى بعينى يملح

فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل
فلست أرى قلبى لغيرك يصلح[8]

---

(٦) إغاثة اللهفان لابن القيم ص ١٢.

(٧) اللطائف ص ٢١٠.

(٨) تاريخ بغداد المجلد التاسع ص ٢٣٧.

(٠) بسكون اللام.

بقى أن نوضح الرأى فيما هو (غير مفيد): السهو والحشو واللغو والبعد والكفر: وقد وردت كلها بمعانيها عند شيخنا فى تفسيره لقوله تعالى: «والذين هم عن اللغو معرضون»

فيقول: «ما يشغل عن الله تعالى فهو سهو، وما ليس لله فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله. أو بمعقول مع الله فهو لغو، وما هو غير الحق سبحانه فهو كفر، وما ليس بتقريظ الله ومدحه من كلام خلقه والتعريج على شىء مما سبق ذكره فهو بعد(..) وهجر»(٩).

الخلاصة عن تمام (الفائدة) وحصول (المفيد):

كما أنه فى نحو الظاهر تتم (الفائدة) بإسناد الخبر إلى المبتدأ أو (بإسناد) الفعل إلى فعل يتقدمه.. هنا أيضًا تتبنى الطريقة على أسس مفيدة. وتضر(٠) بها وبصاحبها أشياء غير مفيدة، وكلها تدور حول (الذكر) الذى هو عماد هذا الطريق من بدايته وفى وسطه وعند غايته. (فالمناداة والمناجاة) تأتلف من أذكار وأدعية، ومقامات وأحوال موضوعها جميعًا (الاسم) الأعلى وصفات (الذات) وصفات (الفعل) ولا ينبغى أن تخرج عن هذا بحال من الأحول فالإسناد كله لله.

(الله) سبحانه هو المبتدأ وهو الخبر وهو الفاعل. وتجلياته فى الكون هى (أفعاله) وأفضاله، والعلاقة به يجب أن ترتبط على أساس أنه (الحق الواحد المحبوب). ولنضرب من أقوال الشيخ ونظراته أمثلة للتطبيق ننهى بها هذا الفصل.

(..) بضم الباء وسكون العين.

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٦٧.

(٠) بفتح التاء وضم الضاد.

الخطاب والجواب «إذا (خاطب) العبد الحق سبحانه بلسان (نجواه) إما سائلا أو داعيًا أو مثنيًا أو شاكرًا أو متنصلا(..) او مبتهلا قام فى محل (التفرقة). وإذا أصغى بسره إلى ما (يناجيه) به مولاه، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه او عرفه (...) معناه، أو لوح لقلبه وأراه، فهو يشاهد الجمع»[10].

وعند هذه اللحظات النادرة يكون الحال «اقتراب (حال النهيبة) وعنده يلزم العبد السكون التام ولا يأتى منه شىء كى تتحقق الفوائد[11].

وليس هناك أوضح من وصف المناجاة وما تحتويه من خطاب وجواب من ذلك.

ولكنها حال نفيسة لا تتاح إلا (لمن يخرجون من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية)[12].

وهى فى الواقع إشارة: (وعلامة صدق الواصل أن يسمع من الحق بسره ثم ينطق - أى العبد - بلفظة[13] وآية هذا الصدق فى التوجه أن يحفظ الله (لسانه) عن كل ما ينال منه، وهل تعرف لغة الأحباب غير ذلك؟

أما القشيرى ذلك المفسر الإشارى فيجد فى قصة يوسف ما يماثل هذا الموقف فعند قوله تعالى: «ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» وإثر هذا التمدح نودى فى سره: «ولا حين هممت!» (فأجاب) على الفور: «وما أبرئ نفسى»[14] وهذا نمط فى الهمس لا يعرفه إلا المحبون.

(..) بضم الميم. (...) بتشديد الراء.

(١٠) الرسالة حال الجمع.

(١١) ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى ص ٦١.

(١٢) اللمع للسراج ص ٤٩.

(١٣) اللطائف جـ٢ ص ٣٨٢.

(١٤) اللطائف جـ٢ ص ١٩٠.

فصل [٥]:

الإعراب والبناء

يقول الشيخ عن نحو الظاهر :

(الكلام ينقسم إلى معرب ومبنى، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون).

ويستكمل الشيخ حديثه عن نحو الظاهر فى بداية الفصل السادس فيقول:

(وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم).

فى الإعراب والبناء

عند نحاة الظاهر

تمهيد:

تقتضى سلامة المنهج أن نفصل الكلام فى الإعراب والبناء فى نحو العبارة على حدة إذا فرغنا من ذلك دخلنا إلى نحو الإشارة. وقد اتبعنا هذا المنهج حتى يصبح هذا الملمح بمثابة مرجع لكل بقية فصول الكتاب فنتحاشى بقدر الإمكان الوقوع فى التكرار، لأن هذه الفصول تعتمد فى الأساس على البناء والإعراب.

والواقع أننا نستمده من دراسة أعدت فى عام ١٩٧١ لتكون بين أيدى طلاب بكالوريوس اللغة العربية. لم نكن نتصور أن نجدها تطل برأسها مرة أخرى فى كتاب عن التصوف، وهذا إن دل على شيء فإنما يثبت هذه النظرية التى ننادى بها دائمًا فى الجامعة وفى المؤتمرات وفى الصحف وأدوات الإعلام أن التصوف فى صميمه لغة وأدب وفن.. هكذا يجب أن يؤخذ، وهكذا عليه أن تترعرع الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية فى كنف التصوف والمتصوفة.

ونعاهد القارئ أن نبسط له الموضوع تبسيطًا يجمع بين الوفاء العلمى بأطراف الموضوع المهمة وبين التيسير المتجنب للتعقيدات والتفريعات.. وبكلمة أخرى الحصول على قدر ثقافى ضرورى لا غنى عنه للقارئ الذى يحتاج إلى ذلك.

* * *

(الإعراب) فى اللغة الإظهار والإبانة، وفى اصطلاح النحاة هو هذا التغير الحادث فى أواخر الكلمة تبعًا لاختلاف العوامل الداخلية عليها لفظًا أو تقديرًا. وبهذا يكون الإعراب إعرابًا أى تبيينًا للمعانى المختلفة

التى يقصدها المتكلم، وهذا مأخوذ من قولهم: أعرب الرجل عن مراده أى أوضحه وبينه. ومن قوله ﷺ : «الثيب تعرب عن نفسها» أى تبين وتوضح.

وارتباط التغير بالإعراب يجيىء من قولهم: عربت معدة الناقة أى تغيرت(.).

أما البناء لغة فهو وضع الشىء على جهة يراد بها الثبات واللزوم. واصطلاحًا: لزوم آخر الكلمة حالة واحدة لغير عامل ولا اعتلال.

وللإعراب والبناء علامات أو ألقاب. وقد آثر الشيخ أن يسميها (وجوهًا).

فالمعرب من أقسام الكلام هو الاسم، ومن الأفعال الفعل المضارع. والمبنى هو قلة من الأسماء، والفعلان الماضى والأمر. وكذلك الحروف.

والحق أن (الإعراب ضرورة تقتضيها أغراض المتكلمين والتمييز بين المعانى. فلو قال قائل: ما أحسن زيدًا غير معرب أو ضرب عمر زيد غير معرب فإننا لا نستطيع أن نقف على مراده.

أما إذا قال ما أحسن زيد(..) ، أو ما أحسن زيد (...)، أو ما أحسن زيدًا أبان الإعراب عن المعنى الذى يريده.

وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها، فهم يفرقون بالحركات وغيرها عن المعانى)[1].

و(هذا الإعراب يفيد فى الأدلة على المعانى ويجعلهم يتسعون فى كلامهم، ويتصرفون بالتقديم أو بالتأخير عن احتياجاتهم[2]).

---

(١) الصاحبى لابن فارس (ط المؤيد سنة ١٣٢٨) ص ١٦١.

(.) بتشديد الياء وبالفتح.

(..) بتنوين الدال مع الضم.

(...) بتنوين الدال والكسر.

(٢) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٦٩ وما بعدها.

١- وعلامات الرفع أربع الضمة (وهى الأصل) والواو والألف والنون.

٢- وعلامات النصب خمس هى الفتحة (وهى الأصل) والألف والياء والكسرة وحذف النون.

٣- وعلامات الجر ثلاث هى الكسرة (وهى الأصل) والياء والفتحة.

٤- وعلامات الجزم ثلاث هى السكون (وهو الأصل) وحذف الآخر وحذف النون.

والفعل المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب، والجزم بالسكون أو بحذف حرف العلة أو بحذف النون فى الأفعال الخمسة جزمًا ونصبًا.

والاسم المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب والجر.

وتنقسم هذه الوجوه إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم تشترك فيه الأسماء والأفعال: وهو الرفع والنصب.

٢- وقسم تختص به الأسماء وهو الجر.

٣- وقسم تختص به الأفعال وهو الجزم.

وقد استعمل شيخنا مصطلح «الخفض» - وهو مصطلح كوفى - بدل الجر عند البصريين وهو حين لجأ إلى هذا المصطلح لم يفعل ذلك مجاراة للكوفيين، وإنما قصد - كما نظن - ليقابل به المخفوض قدرًا فى نحو الإشارة - على نحو ما سنرى فى موضعه.

يقول الشيخ فى المتن: (والمبنى ان يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون) فآخر المبنى على حالة واحدة لا تتغير مهما غيرت العوامل المتقدمة عليه.

وعلامات البناء الأصلية هى الكسر (هؤلاء) والضم (حيث وكتبوا) والفتح (كتب واين) والسكون (أكتب ولم).

وهناك علامات فرعية تنوب عن الأصلية.

وهناك ملحوظة لها أهميتها فى الإشارة بعد قليل: أن المعرب والمبنى يشتركان فى ظاهرة واحدة أنهما يتعلقان بآخر اللفظة لا بصدرها أو أحشائها.

الحركات بين دلالات الصوت والمعنى:

كرس الشيخ رحمه الله نصيبًا كبيرًا من عنايته عند وضع هذا الكتاب على الربط بين صوتيات الحركات والوظائف المعنوية التى تؤديها فى نحو الظاهر، ثم الانطلاق بعدئذ إلى التنظير بينها وبما يقابلها فى نحو الباطن.

ويمكن استخدام هذه المحاولة فى تفسير ظواهر لغوية ونحوية كانت العادة تجرى على قبولها بلا إمعان فى مناقشتها، وإنما يغلب أن يعاد بها إلى السماع عن العرب، ولكن البحوث الحديثة تحاول إخضاعها للتفسير على طريقتها الخاصة.. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الشيخ حين التفت فى كتابه هذا إلى هذا الجانب فإنما يعد رائدًا فى خوض مجال غير مطروق اللهم إلا على استحياء، وليس هذا بمستغرب على متذوق إشارى، له تفسير ضخم يعتمد فيما يعتمد عند استنباط الإشارة على ما بين الجرس والمعنى... وقد أبدينا إعجابنا به فى مواضع جمة من «لطائفة» ومن كتابه (نحو(*) القلوب الصغير)، ونبهنا إلى ضرورة الالتفات إلى ذلك عند معالجة النص الأدبى وتحسس المواضع الفنية فيه.

وننبه إلى بعض الالتفاتات الصوتية المهمة ذات الأثر البعيد: ـ

١- الضم والكسر ثقيلان، والضم أثقل لأنه فى حاجة إلى جهد عضلى

(*) حققه وعلق عليه ونشره: د. أحمد علم الدين الجندى ط تونس ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

أكثر من الكسر إذ يتم بتحريك أقصى اللسان بينما يتم الكسر بتحريك أدنى اللسان ـ وهو أيسر.

٢- السكون - وهو الأصل - ويسمى وقفًا فيه خفة لأنه يدل على توقف الحركة بين الاتجاه إلى أعلى والاتجاه إلى أسفل فكأنه اللاحركة.

أو أن السكون يدل على القطع أى قطع الصوت، ويتجلى هذا القطع بوضوح عند حذف حرف العلة وقطع الاستمرار الصوتى: لم يدع لم يسع، لم يجر.

٣- والألف التى هى الاستمرار الصوتى الممتد للفتحة - أخف الحروف.

ويستنتج سيبويه أن (الفتحة والألف كانتا أخف عليهم، ألا تراهم يفرون إلى الألف من الياء والواو إذا كانت العين قبل واحدة منهما مفتوحة، وفروا إليها فى قولهم قد رضى(.) ونهى)(٣).

ولخفة الفتحة أعطيت لما هو كثير فى الاسم، وأعطيت الضمة لما هو قليل. فالفعل لا يحتاج إلى أكثر من فاعل واحد بينما يتطلب مفعولا وأحيانا اثنين أو ثلاثة.

ويمكن أن يقال إن الرفع أعطى لما هو عمدة فى الكلام، والعمد ماكان أحد ركنى الإسناد كالمبتدأ وخبره والفاعل ونائبه. وعلى هذا يمكن القول إن الضمة علم الإسناد، ويؤسس بعض النحاة على ذلك أن الرفع أول الإعراب(٤).

(٣) الكتاب لسيبويه ٢/ ٢٩٠ .

(.) بضم الأول وفتح الثانى.

(٤) الإيضاح ١٢٤.

أما الجر فهو لا يخرج عن نطاق الإضافة، ولهذا يمكن أن يكون علمًا لها. أما النصب فعلامة على كون الكلمة فضلة، والفضلة ما ليس أحد ركنى الإسناد كالمفاعيل والحال والتمييز والمستثنى، ولهذا فالفتحة علم ماليس بإسناد ولا إضافة.

وإلى شىء من ذلك يذهب إبراهيم مصطفى[٥] فى استقراءاته مذهبًا بعيدًا حيث يقصر الحركة على اثنتين فقط هى الضمة بوصفها علم الإسناد والكسرة بوصفها علم الإضافة، أما الفتحة فيجعلها علامة استراحة واسترخاء، ففى رأيه أن العرب كانوا يستريحون بها كما نفعل نحن فى لهجتنا المصرية حين نستريح بالسكون: رحت له[..]، وجيت من الجامعة[...].

ولو تابعنا القشيرى فى مصنفاته لأدهشنا أن نجده يوظف التقلب بين الحركات للحرف الواحد فى الكلمة نحو آفاق عجيبة. انظر مثلا:

(العزيز من صفاته سبحانه وهو إما من عز[.] يعز أو من يعز أو يعز أى بكسر العين أو فتحها أو ضمها.. ويترتب على فهم كل واحدة آداب وسلوك فإن قلنا إنه من يعز بكسر فالمعنى ....)[٦].

---

(٥) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى.

(٦) التحبير فى التذكير للقشيرى تحقيق د. بسيونى. طبعة عالم الفكر.

(.) بتشديد الزاى.

(..) بسكون الهاء.

(...) بسكون الهاء.

كيف تمت معرفة المعربات ومعرفة المبنيات؟

هذا سؤال يفرض نفسه، وله أهمية خاصة فى نحو القلوب أيضًا الشىء البدهى أن العرب اضطرت إلى الإعراب لأن ذلك ضرورة فرضها العجز عن الوقوف بالساكن على أواخر الكلمات، ولهذا استعانت بالصوت لتميز معانى الكلمات وأدوارها فى سياق التحدث والخطاب، ثم تطور الأمر ونضج، وأخذت المسألة شكلها الأخير عبر عصور طويلة. أما بالنسبة لنا فقد أصبح (السماع) عن العرب هو الفيصل فى التمييز بين المعربات والمبنيات، وليس لنا الحق فى تبديل أى قرار فى هذا السماع ـ وهذه نقطة لها أهميتها فى الإشارة كما سيتضح.

ولكن هذا لم يمنع الباحثين نتيجة الاستقراء من التماس تفاسير لهذه الظواهر.

فالاسم معظمه معرب، وذلك لكثرة دورانه فى الاستعمال فى مواقع مختلفة من الجملة، وفى معان متنوعة ليست فى قدرة الفعل، وعلى هذا يمكن أن يقال دون حرج إن الاسم معرب على الأصل ومن هنا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل عن علة إعرابه.

أما الفعل فهو ـ من هذا الناحية ـ أولى بالبناء، ولهذا بنى الماضى والأمر، وفيما يتصل بالمضارع فهو كما يتضح من اسمه يضارع الاسم، إذ يتنقل فى حرية لا حدود لها عبر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، فلم يكن هناك مفر من إعرابه لتوضيح أبعاد هذه الحركة الطليقة. وأما الحرف فهو مبنى دائمًا، وهذا بدهى، لأن الحرف لا يعتوره من المعانى ما يحتاج معه إلى إعراب، بل إن مشابهة الاسم للحرف كافية فى رأى ابن مالك لبنائه:

والاسم منه معرب ومبنى	لشبه من الحروف مدنى
كالشبه الوضعى فى اسمى (جئتنا)	والمعنوى فى متى وفى هنا

فإذا عدنا إلى الموضوع فالنظر إليه بمنظار جديد: وهو مدى نصيب كل من الاسم والفعل من الثقل والخفة - وهى رؤية لا تخلو من أهمية فى استنباط الإشارة - لرأينا الزجاجى يعلل لثقل الفعل ولخفة الاسم على النحو التالى:

«إذا ذكر الاسم دل على مسمى تحته نحو: رجل وفرس.. ولا يطول فكر السامع فيه، أما الفعل فإذا ذكر لم يكن بد من الفكر فى فاعله لأنه لا ينفك منه، ويستحيل وجوده من غير فاعل. وقال آخرون: إنما خف الاسم لأنه لا يدل إلا على مسمى تحته، وثقل الفعل لدلالته على الفاعل والمفعول والمفعولين والثلاثة والمصدر والظرفين من الزمان والمكان.

وقال الكسائى والفراء: الاسم أخف من الفعل لأن الاسم يستتر فى الفعل والفعل لا يستتر فى الاسم»[٧].

وقال أكثر الكوفيين: «لم تخفض الأفعال لثقلها، ولم تجزم الأسماء لخفتها ليعتدل الكلام»[٨].

معنى هذا فى تصورنا: أننا بإزاء مجتمع حى(٠) يتألف من الأسماء والأفعال والحروف، وأن لكل منها دورًا يؤديه من نطاق هذا المجتمع، وهنا يكتسب أهميته من كثرة دورانه فى الاستعمال أو توسطه أو ندرته، فتعلو قيمته كلما مست(٠٠) الحاجة إليه، وكلما تبوأ فى الجملة العربية لا مكانًا فقط بل مكانة أيضًا، وكما تخيل أفلاطون مدينته من طبقات: أعلاها فى القمة المفكرون (وهم من عنصر الذهب) والجيش وهم (من الحديد)

(٧) الإيضاح للزجاج ص ١٠٠ - ١٠١.

(٨) المرجع السابق ص ١٠٦.

(٠) بتشديد الياء والتنوين.

(٠٠) بتشديد السين.

وهكذا إلى أن نصل إلى الرقيق (وهم من المعادن الخسيسة) لأنهم خدام المجتمع يمكن أن نتخيل فى ضوء هذا الفهم الأفلاطونى مجتمع الألفاظ العربية، فمن الأسماء ما هو عمدة كما ذكرنا، وذلك حين يكون عضواً فى التركيب الإسنادى فهذا حقه (الرفع) ومنها ما لا يقوم بذاته بل يسبقه الحرف وهذا نصيبه (الخفض) أما الفضلة الذى يمكن الاستغناء عنه دون حدوث ارتباك ملحوظ فهذا حقه (النصب).

وسنرى بعد قليل.. كيف استخدم الشيخ رضوان الله عليه هذه النظرة فى مواقف السلوك والعرفان حسب الطريق الصوفى، ثم توظيف ذلك فى مدارج السالكين الذاكرين إلى أن يصل إلى مراتب الموحدين المحبين.

بقيت فى خاتمة هذا الملمح عن الإعراب والبناء حاشية موجزة لا تخلو أيضًا من ملحظ فى الإشارة عند الشيخ:

وهى أن الإعراب على ثلاثة أقسام:

١ - لفظى وهو أثر ظاهر - وهذا هو الأصل.

٢ - تقديرى وهو أثر غير ظاهر، وتكون الحركة مقدرة لأنها غير ملحوظة ويكون فى الاسم المقصور مثل (ليلى) وفى المنقوص مثل (القاضى)، وفى المضاف لياء المتكلم، وفى المضارع المعتل الآخر.

٣ - محلى وذلك حين يقع أحد المبنيات موقع المرفوع أو المنصوب أو المجرور أو المجزوم فيكون رفعه أو نصبه أو جره اعتباريًا، ويسمى الإعراب المحلى مثل: فاز من [...] توكل على الله: من: فاعل مبنى على السكون فى محل رفع.

والآن..

(..) انظر: نحو القلوب الصغير للقشيرى، تحقيق. احمد علم الدين الجندى ص٧٩ فما بعدها، ص ١٢٧ - ١٣٠. الدار العربية للكتاب.

(...) بفتح الميم.

نعود إلى الفصلين الخامس والسادس.. لنتحدث هذه المرة عن الإشارة:
يقول الشيخ فى الفصل الخامس:

(ونطق القلب إما بلفظ يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة أذن فيها الحق تصريف الخلق، فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك، والثانى ما تناجى به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع والثانى حال فرق).

نطق القلب فى نحو الإشارة يناظر (الكلام المفيد) فى نحو العبارة. وكما أن هناك عند العباريين متكلمًا وكلامًا فعند الإشاريين السالك والطريق.. فلنتناول الثلاثة بالإيضاح والدراسة:

أولاً ـ الصوفى السالك:

وضح مما سبق أن استقراء كلمات العربية يشير إلى أن هذه الكلمات لا تخضع جميعها بدرجة متساوية لنظام إعرابى واحد، بل منها ما يخضع ويسمى معربًا. ومنها ما لا يخضع ويسمى مبنيًا.

ثم إن المعربات تلتقى فى داخل النظام الإعرابى على هيئة فصائل لها إعرابها الخاص. وهكذا أيضًا يلتقى المريدون حول الشيوخ حسب مناهج وطرق.

وكما أن النحاة يرون أنفسهم فى مواطن كثيرة وقد توقفوا أمام، آحاد من الألفاظ يلزم لدراستها وضع نظام مستقل بكل منها بينما ينحاز عن بقية الأتراب (مثلا: باب المنصوبات فصل ظرف الزمان وظرف المكان) كذلك أن السالكين لطريق التصوف.. فهم جميعًا سائرون على درب الرحلة إلى الحق، ولكنهم ليسوا فى لحظة واحدة على درجة متساوية فى الاستعداد الفطرى ولا فى التخليق ولا فى التذوق ولا فى التحقق، ولا فى مدى تذويب الإرادة الإنسانية فى الإرادة العليا، ولا مدى الصبر والمثابرة

علـى الـبلاء والـفـقـد، ولا فى الجـنـوح إلى الـتـخـفى أو الـظـهـور ولا فى الاستمساك بالطاعة أو التواضع، ولا فى التوبة أو الزهد.. والخلاصة أنهم ـ كأية مجموعة بشرية تمارس نشاطًا ما ـ مختلفون فيما بينهم. ومع ذلك فهم يلتقون مثنى وثلاث ورباع وخماس ـ كما تلتقى فصول المعربات أو المبنيات فى نحو الظاهر فى تجمعات تكثر أو تقل.

ولهذا يجب على الشيوخ بادئ ذى بدء أن يتفهموا هذه الفروق الفردية حينما يكلفون الجماعة بواجب أو حفظ ورد (.) ونحو ذلك، كما ينبغى مراعاة العدل فى الإثابة والعقوبة، فمنهم من يصلحه الإشفاق ومنهم من لا يصلحه إلا التعنيف، ومنهم من يأتى منه شىء إذا قرب(..) بعبارة مشجعة... وأخيرًا منهم من يلزم إبعاده (وحذفه) على الفور. وبكلمات أخرى منهم (المرفوع) و(المنصوب) و(المخفوض).. لأنه إذا صح ذلك فى (الألفاظ) فهو فى مجتمع (الإنسان) أولى.

ثانيا ـ الطريق الصوفى ذاته:

إذ كان (الكلام المفيد) فى نحو العبارة لا تتحقق منه نتائج إلا إذا استوقف (أواخر) ألفاظه النهايات الصحيحة والسليمة فكذلك الطريق الصوفى، فإن المريد لن تتحقق له (فائدة) إلا إذا سلك سبيله مرحلة بعد مرحلة خلال المقامات والأحوال، ولا يتسنى له الانتقال نقلة جديدة إلا إذا استوفى شرائط ما هو عليه فى (الآن) أو على حد تعبيرهم فى (الوقت) فالصوفى ابن وقته، معنى هذا أنه كما لا تتحقق فائدة من الكلام إلا إذا كان كله صحيحًا، وأن الفائدة المحققة مرجأة إلى الوصول إلى (تمام) الكلام. كذلك فإن العبرة فى الطريق (بالخواتيم)؛ لأن أى خلل فى جزئية

(.) بكسر الأول وسكون الثانى.

(..) بضم الأول وتشديد وكسر الثانى.

ولو هينة قد ينسف الجهد كله، ويفسد مجمل النظام، مثال ذلك ما يراه القشيرى فى لجوء المريد إلى الرخصة، لأن الرخصة للكافة والمستضعفين، أما القوم فليس لهم شغل إلا مولاهم.

- فمن استرخص فقد فسخ عقده مع الله - على حد تعبيره فى «الرسالة».

ثالثًا - نطق القلب:

عندما يصل العبد الواجد إلى مرتبة (الوجود) التى هى حسب مصطلحه أعلى قدرًا من حالتى التواجد ثم الوجد تكون الإرادة الإنسانية قد ذابت بالكلية فىَّ الإرادة الإلهية. وهنا تتتالى الأنوار من طوالع إلى لوامع إلى متوع النهار وتشرق شمس الشموس، وهذه حالة لها من الانبهار ما قد يوقع فى أخطار. لأن (القلب إذا نطق) عندئذ بما يسمع وبما يشاهد فقد يتجاوز (اللسان) حدود (نطق القلب). ولكن رحمة الله بعبده تحفظه من الوقوع فى الاستشكال. ومن كان صادقًا فى توجهه حفظه الله بمقدار صدقه عن الوقوع فى المظنة، وهذا هو ما عناه الشيخ فى المتن بقوله «بلفظ يراعى فيه توقيف الحق» وبقوله: «فتقف عند ذلك بلا تكلف منك». وهذه الحالة تعرف عند أرباب الطريق بحال الجمع ويناظر القشيرى بينها وبين (المبنى) وبين (المبنى) فى نحو الظاهر.

ولكن العبد قد يرد(٠) من الجمع إلى (الفرق) فيسمح له بأن يعبر عن الوجد الذى يغمره بكلمات تجرى على لسانه قصدًا للمناجاة والدعاء والابتهال والتنصل والاستغفار، ويكون فى هذه الحالة أشبه (بالمعرب).

(٠) بضم الأول وفتح الثانى.

فما هو بتوقيف الحق يشبه (المبنى) وما هو مأذون به من لدن الحق يشبه (المعرب). وكما تختلف المبنيات والمعربات بحسب أواخرها نتيجة مواقعها فى التركيب اللفظى تختلف أحوال الواجدين بحسب أنصبتهم وبحسب جهودهم وصدقهم، وبالتالى تختلف (خواتيم الرحلة بين عبد وعبد وسيقوم القشيرى بشرح ذلك كله من الفصول التالية).

ونكتفى هنا بالوقوف مع القارئ عند حدود المناجاة المسموح بها، وبضرب أمثلة مفيدة ومقتضبة لها. وسبيلنا إلى ذلك تعقب الموضوع خلال مصنفاته، يقول فى لطائفه (ومن آداب المناجاة أن تعلم وأنت بين يدى مولاك من أنت؟ ومن تناجى؟ ومن الرقيب عليك؟ ومن القريب منك؟[٩].

ثم استمع إليه وهو يقول فى كنف:

«ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء».

«أى بما شاء من معلوماته، والمعنى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه، فأى طمع فى الإحاطة بذاته وحقه سبحانه؟ وأنى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عزه أحد، ولا يدركه أحد»[١٠].

وهذا كلام مهم جدًا وواضح جدًا، لأنه يخرس كل المزاعم ويحذف كل التجاوزات، ويغلق الباب على من يتطاول فى حق الصمدانية تحت أى ادعاء، وهو أخيرًا يدافع عن الصوفية أمام أعدائهم، لأنه يرسم الحدود لمنتهى طموحاتهم.

وقد حفظت لنا المصادر أمثلة كثيرة من المناجاة، ولكنا نكتفى هنا بمثلين فقط:

---

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص٥٥٠.
(١٠) اللطائف الجزء الأول ص٢٠٩.

الأولى: فى حلية الأولياء[11] تستغرق نحو خمس صفحات، وهى لعون ابن عبدالله بن عتبة (تابعى)، ونكتفى هنا ببعض سطورها:

ـ ويحى[.] إن حجبت[..] يوم القيامة عن ربى فلم يزكنى ولم ينظر إلى[...] ولم يكلمنى، فأعوذ بنور ربى من خطيئتى.

ـ يا نفس لم تكرهين الموت؟ لم لا تذعنين وتحبين الحياة؟ لم لا تصنعين؟ تقولين فى الدنيا قول الزاهدين وتعلمين فيها عمل الراغبين!

ـ ويحى.. كيف أغفل ولا يغفل عنى؟! ويحى.. وهل أضرت غفلتى أحدًا سواى، ويحى، كأنه قد تصرم[....] أجلى ثم أعاد ربى خلقى[.....] كما بدأنى.

ـ بأى وجه ألقاك؟ وبأى قدم أقف بين يديك؟ وبأى لسان أناطقك؟ وبأى عين أنظر إليك؟ فامنن على [......] بطاعتك وبترك معاصيك.. أبدًا ما أبقيتنى.. سبحانك فاقبل توبتى واستجب دعوتى..

ـ رب لا تسلطها على.. رب إن نفسى لم ترحمنى فارحمتى رب إنى أعذرها ولا تعذرنى.. إنه إن يك خيرًا أخذلها ولا تخذلنى، وإن يك شرًا أحبها وتحبنى، رب.. فعافنى منها وعافها منى حتى لا أظلمها ولا تظلمنى، وأصلحنى لها وأصلحها لى فلا أهلكها ولا تهلكنى، ولا تكلنى إليها ولا تكلها إلى..

وإذا صح أن تكون هذه المناجاة لأرباب المقامات، فلنستمع إلى مناجاة أليق بأرباب الأحوال، وهى لشهيدة الحب الإلهى رابعة العدوية:

(11) حلية الأولياء ـ لأبى نعيم الأصفهانى جـ4 ص 255 ـ 280.
(.) بسكون الياء.
(..) بضم الأول والتاء.
(...) بتشديد الياء.
(....) بتشديد الراء وفتحها.
(.....) بتسكين اللام.
(......) بتشديد الياء.

إلهى.. أغرقنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك.

إلهى.. أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه.. وهذا مقامى بين يديك.

إلهى.. هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر.. فليت شعرى أقبلت(.) منى ليلتى فأهنأ؟ أم رددتها على فأعزى(..).. فوعزتك هذا دابى ما أحييتنى وأعنتنى، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك.

إلهى.. اجعل الجنة لأحبائك والنار لأعدائك أما أنا فحسبى أنت!

والآن. وبعد التنظير بين المبنيات والمعربات فى كلا النحوين نتوقف عند بعض آراء القشيرى فى بقية مصنفاته لنعرف مدى التغيرات الطارئة على العبد السالك. ومن الذى يقوم بها على الحقيقة، ونترك للقارئ أن يناظر بين الموقف العبارى والموقف الإشارى وهو يقرأ هذه الآراء:

« العبد مادام فى الترقى فصاحب تلوين، يصح فى نعته الزيادة والنقص فى الأحوال، فإذا وصل إلى (الحق) بانخناس البشرية مكنه الحق بألا يرده إلى معولات النفس فهو متمكن فى حالة على حسب (محله) واستحقاقه، ثم ما يتحفه الحق سبحانه فى كل نفس(...) فلاحد لمقدوراته فهو فى الزيادات متلون بل ملون(..) وفى أصل حاله متمكن»[١٢].

ويقول فى موضع آخر: «ما يكون كسبًا للعبد فى إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل(....) الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان (على مقتضى ما يجد فيه من البسط) فهو جمع،

(.) بفتح التاء.

(..) بتشديد الزاى وفتحها.

(...) بفتح الأول والثانى.

(١٢) الرسالة ص٤٥.

(....) بكسر الأول وفتح الثانى

فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع، ولابد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقه (.) له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له».

ويحرص الصوفية ـ مع كل ذلك التقسيم بين ما للرب وما للعبد ـ أن ينسبوا كل شيء لله سبحانه، فهو وحده سبحانه القائم بالفضل حتى فى الجهود الكسبية، وهو وحده الذى (ينطق (..) قلبه) بما يقتضيه (الوقت).. ولنستمع إلى ذلك:

يقول يحيى بن معاذ:

«اللهم إنى أتقرب إليك، وبك أدل عليك»[١٣].

يقول ذو النون:

«عرفت ربى بربى. ولولا ربى ما عرفت ربى»[١٤].

ويقول أبو يزيد: «إنى لا أفهم عنك إلا بك».

ويقول الكلاباذى:

«لا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه»[١٥].

وهذا بالضبط ما عناه الشيخ فى المتن: «إلا بإذن من الحق».

وقوله: «وأن تسمع بقلبك وتقف عند ذلك بتكلف منك» فكل شيء منه وبه وله ـ وسبحانه، وهذه هى جبرية الحب، وما أروعها من جبرية! إنها كل السعادة.

---

(١٣) اللمع للسراج ص٣٢١.

(١٤) الرسالة ص١٥٦.

(.) بضم الأول وفتح الثانى وتشديد الثالث وفتحه.

(..) بضم الهاء وكسر الطاء.

(١٥) التعرف للكلاباذى ص٣٧.

فإذا انتقلنا إلى نحو الإشارة فى الفصل السادس نجد:

(وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام.

فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا . وهو نعت الزهاد....).

أقسام الإعراب فى نحو القلوب

أولاً ـ الرفع

ملاحظة على المنهج:

تستوقفنا قبل الدخول فى الشرح والدراسة ملحوظتان مهمتان فى تعبير الشيخ:

١ ـ أنه استعمل لفظة «وجوه» بالنسبة لنحو العبارة واستعمل لفظة «أقسام» فى نحو الإشارة، وفى رأينا أنه كان موفقًا إلى حد بعيد، لأن كلمة أقسام مرتبطة بالقسمة، والقسمة مرتبطة باجتباء الله سبحانه وهذه بداية ينبغى أن يتفهمها كل من له صلة بالتصوف العلمى، فإن البداية هنا تختلف عن بقية العلوم، إن لله عبادًا يختارهم من بين خلقه لكى يكونوا أحباءه، وييسر لهم سبيله، ويوفقهم فى أعمالهم، ويسدد كل خطاهم.. إنهم مرادون لا مريدون.

٢ ـ إن الشيخ تجاوز نهائيًا عن كل حديث عن «النفس» دخل بنا إلى (رفع القلب) مرة واحدة، وهذا توفيق فى التعبير نحمده له، لأن (النفس) مركز المعلومات و(القلب) مركز المعلومات، ولو كانت النفس قد انتصرت لما كان هناك صوفى ولا تصوف ولا بداية لطريق بأى شكل من الأشكال، إنما

هو يفترض هنا أن (القلب) قد انتصر فى معركته مع النفس، وبدأ الكلام فى (رفع) هذا القلب.

ويمكن تلخيص الهدف الأول من هذه الفقرة فى أنه يطالب العبد بالوقوف إلى جانب قلبه، ومؤازرته بعد هذا النصر، لأن الشيخ وهو الخبير المجرب يعلم أن هذا النصر محفوف بالخطر فى مراحل البداية، فالإنسان بشر، والحنين إلى الماضى وما تركه وراء ظهره من أعراض الدنيا ومتاعها قد يتجاذبه من حين إلى حين، فالمطلوب الآن معاونة (رفع) القلب فى مقامات الزهد والتواضع والصبر والتوكل والرضا، لأجل اقتلاع كل بقايا النفس من جذورها. ولعل القارئ يحس بالارتباط القوى بين ما تكلمنا عنه من (ثقل الرفع) فى نحو العبارة بين (ثقل الرفع) فى نحو الإشارة، فالمعركة هنا ضارية مستمرة، والطريق وعر، والنضال متوقد.. إن البداية الصحيحة تؤدى إلى النتائج الصحيحة، ولهذا.. فإن اليقظة فى (رفع) القلب لا بد أن تبلغ حدتها على الدوام، لتأخذ بالعبد نحو المنجيات ويعيدًا بعيدًا عن المهلكات.

وكما استحق الفاعل والمبتدأ والخبر وكل منها (عمدة) فى الجملة مرتبة (الرفع) استحق المريد هنا أثقل (الحركات)، لأن المهام الكبيرة تحتاج إلى الكبار، هذا هو المريد قد تهيأ للرحلة.. فماذا يطلب منه الشيخ؟

(أن ترفع قلبك عن الدنيا . وهو نعت الزهاد)

يفطن الشيخ إلى أن الزهد أوسط المقامات، فطبقًا لأكثر الآراء ذيوعًا فى البحوث الصوفية فإن بدايتها مقام التوبة ثم الورع ثم الزهد، ويأتى بعد الزهد: الصبر والتوكل والرضا.. معنى هذا أن الإنسان حينما يكون زاهدًا فإنه قد تجاوز منتصف الطريق، واستعد لنصفه الثانى، فهو قد

تمرس بالتجربة، وعرف مقاساتها ومكابدتها، وهو يستعد الآن للمزيد، ولكن.. ما هذا الزهد؟

إذا كان الزهد فى الحرام واجبًا بحكم الشريعة، فإن الزهد هنا ينصرف إلى معظم الحلال.

يقول القشيرى: «الحلال ما كان مأذونا فيه. والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلا وليس استحقاقًا، والحلال الصافى ما لم ينس(٠) الله فيه وهو الذى لا يكون صاحبه عن شهود ربه ـ عند أخذه ـ غافلا»(١٦).

وهذا توضيح مهم، لأن الباحث عن السلام الداخلى فى أعماقه ينظر نظرة اشتباه إلى معظم حلال هذه الدنيا، وإذا كان الله سبحانه قد سمى الدنيا بأسرها متاعًا قليلا.. فأى زهد يكون فى هذا القليل؟ لابد إذًا من التشدد، ومن الجدية فى تمييز الأشياء، يروى عن الحارث المحاسبى أنه «كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس إصبعه عرق»(١٧) والحارث هذا «تنازل عن ثلاثين ألف دينار هى ميراثه من أبيه لأنه غير مطمئن إلى كل هذا المال»(١٨).

ولندع القشيرى وشيوخ الطريق يزيدون هذا المعنى تأكيدًا:

«فإن الأكل على الغفلة حرام فى شريعة الإرادة»(١٩).

ويسأل الشبلى فى زهد الدنيا فيجيب «ويلكم.. أى مقدار لأقل من جناح بعوضة حتى يزهد(٠٠) فيها»(٢٠).

(١٦) اللطائف المجلد الأول ص٦٣٩.
(١٧) الرسالة ص٥٩.
(١٨) التعرف ص١٧٥.
(١٩) اللطائف المجلد الأول ص٤٤٤.
(٠) بضم الياء.
(٢٠) مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الثالث ص٨١.
(٠٠) بضم الياء وفتح الهاء.

ويبين مالك بن دينار أثر قوة هذا الزهد فى طرد الشيطان فيقول:

«إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتل(.) فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإن من يغلب شهوات الدنيا يفرق(..) الشيطان من ظله».

ولا نريد أن نغرق القارئ فى هذا البحر الزاخر من أسانيد الشيوخ ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن الحلال ليس هو ما لا يعصى (...) الله فيه وحسب بل هو ما لا ينسى الله فيه قط.. أو ليس الزهد بعد كل ذلك (رفع وارتفاع)؟!

«وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى. وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد».

العبادة من العبودية، وبمقدار شعور العبد بعبوديته يتعالى الرب فى ألوهيته، وليس أشرف لمقام العبودية من أن النبى صلوات الله وسلامه قد وصف بها وهو فى أعلى مقام له من هذه الدنيا، وكل ذلك ليلة الإسراء.

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام..».

وقوله تعالى: **«فأوحى إلى عبده ما أوحى»**.

ولو أتيح لرضيع ينطق وهو ما زال فى المهد صبيًا لنطق كما نطق عيسى عليه السلام: «إنى عبدالله».

وفى سبيل تنمية هذا الشعور بالعبودية يقع عبء جسيم على كاهل العبد، «فهو لا يفتر عن عبادته آناء الليل والنهار، وإنه فى الظاهر بنعت

(.) بسكون الحاء.

(..) بفتح الياء وكسر الراء.

(...) بضم الياء

المجاهدات، وفى الباطن بوصف المكابدات، ويتحمل المصاعب ويركب المتاعب».

فإذا كانت الصلوات المفروضة والعبادات المطلوبة واجبة على مستوى الكافة فإن قيام الليل والناس نيام، وقراءة الأوراد والأدعية، والذكر الدائم بالقلب، وتأمل الفكر العميق فى جنبات هذا الكون.. كل أولئك ونحوه (رفع وارتفاع).

إن توديع المنى والشهوات فى معارك التخلية والتحلية ينبغى أن يأخذ شكل الاستدامة، بحيث لا تكون هناك رجعة البته إلى أيسر شىء من مغريات الدنيا، إن القلب (بارتفاعه) يمتلئ بالله، حتى لقد رأوا أن أى دبيب خفى يساوره بعدئذ هو من قبيل الشرك.. أرأيت؟ لماذا؟ لأنه يكون قد اتخذ من هواه إلهًا!

وعندما يصل القلب إلى هذه الدرجة من التشبع تتلون الحياة بعاطفة الحب الجياشة، وهذه بشرى خير وفير، استمع إلى يحيى بن معاذ وهو يغرد بلفظة «الحب» خمس مرات فى أربعة أبيات، لتشعر أنه أصبح فى خفة طائر يحلق نشيطًا فى الآفاق العليا:

طرب الحب على الحب ... مع الحب يدوم

عجبًا ممن رأينا ... ه على الحب يدوم

حول حب الله ما عشـ ... ـت مع الشوق أحوم

وبه أقعد ما عشـ ... ـت حياتى وأقوم[21]

(21) حلية الأولياء جـ١ ص ٦١.

(وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء منك شيء ـ وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار).

صحيح إن عمل الإنسان شيء مهم وأساسي.. ولكن التعويل ينبغي أن يكون دائمًا على الفضل الإلهي فالله هو الكفيل الوكيل الهادي الناصر.

فعليك أن تكون بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل ـ كما عبر سهل التستري، وعليك أن تعتقد في رسوخ أنه لا توبة إلا إذا تاب عليك، ولا هدى إلا إذا هداك.. وهكذا، أسقط(.) نفسك من حسابك، وأسلم إلى المولى كل قيادك، فالمريد ـ على الحقيقة ـ من ليست له إرادة، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد هلك، وبمقدار الشعور بالانكسار والخضوع والافتقار (يرتفع) السالك إلى منزلة يعبر عنها إبراهيم بن أدهم بقوله:

«لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه».

والواقع أن هذه النظرة إلى النفس منحتهم شجاعة أدبية في مواجهة كل ظلم اجتماعي، لأن ما هم فيه من عز في جنب الله صغر(..) له شأن الدنيا بأسرها، وساعدهم على قولة الحق في وجه السلطان الجائر. استمع مثلا إلى قول الزاهد عمرو بن عبيد لجعفر المنصور:

«اعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني أحذرك ليلة تتمخض صبحتها عن يوم القيامة.. إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها، واتق الله فإن من وراء بابك نيرانًا تأجج(...) من الجور، ما يعمل(...) فيها بكتاب الله ولا بسنة رسوله»(٢٣).

(.) بفتح الهمزة وكسر القاف.

(..) بتشديد الغين وفتحها.

(...) بتشديد الجيم الأولى وفتحها.

(٢٣) العقد الفريد جـ١ ص٢٠٧.

وقد أهلتهم هذه البسالة الناجمة عن تهوين شأن الدنيا إلى أن يكونوا بحق أشبه بضمير الأمة اليقظ.

وفى سبيل إماتة دعاوى النفس وكسر شوكتها والاعتماد أنه لا يجىء منها شىء نرى مدرسة فكرية تظهر فى نيسابور - مدينة القشيرى - فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى تعرف «بأهل الملامة» أو الملامتية، وتتلخص دعوتها فى إماتة كل ادعاء للنفس، ووضعها موضع التأنيب، وجلب الانتقاد والمذمة بدلا من استجلاب المدح والزهو.. ودون أن تقع فى شىء يخل بأدب العقيدة والشريعة بطبيعة الحال، وقد تأثر القشيرى إلى حد كبير بتعاليمها، وبخاصة عند تكوين رأيه فى «النفس»، فروى عن كثير من شيوخها أمثال أبى حفص والواسطى وغيرهما..

وتروى المراجع الصوفية فى باب كسر النفس وقتل دعاواها نماذج كثيرة نكتفى منها بالقصة المعروفة: حين عيّر (٠) أبو ذر بلالا بالسواد، فشكاه إلى المصطفى صلوات الله عليه وسلامه فقال: يا أبا ذر.. إنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شىء.

فحلف أبو ذر ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه.

ومن شبيه ذلك ما حدث للكتانى حين طلب إلى رجل كان يستثقله أن يضع رجله على خده، وألا يرفعها إلا أن يزول عنه هذا الشعور.

(وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق).

ما كان لنفسك فهو من الحظوظ، وما كان لله تعالى فهو من الحقوق.

---

(٠) بتشديد الياء.

ومطلوب منك لكى تفلح فى (رفع) قلبك أن تكون (مبتدئًا) بالتنازل عن حظوظك، وهذا (الابتداء) لا (تتم الفائدة منه) إلا (بالخبر) وهو المراعاة الدائمة لحقوق الله، وقد وضع الحارث المحاسبى كتابًا بهذا المعنى أوضح فيه كيفية هذه المراعاة.

ومنطقى أن الذى يتخلى عن حظوظ نفسه لابد أن يمتثل لتعريف التصوف الذى تبدأ به معظم مصنفاته وهو: «قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق». إن الارتماء فى أحضان الدنيا يستتبع تمريغ الكرامة، وفى هذا مهانة لا يقبلها من أراد (الارتفاع) بشخصيته عن المنصب والمال والجاه.. فكلها أعراض زائلة، أما من يتوكل على الله فهو حسبه، وهو شرف له ما بعده شرف، وهو أولا علامة الإيمان: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» والعبد إذا تعلق بالمنهج الصوفى الأصيل عاش متأملا وعاملا بالآداب المستنبطة من أوصاف الفعل الإلهى: الوكيل والرازق والعليم.. وما فى معناها، وعندئذ يفرغ قلبه لحقوق الله، وتكون عودته فى كل أموره وما يشكل عليه إلى هذه الآداب عودة سهلة ميسرة لا عناء فيها، وكما يعود الطفل إلى ثدى أمه فى دعة واطمئنان، ويعبر الجنيد عن ذلك بعبارة دقيقة: «إذا كان العبد لله كما لم يكن - أى بحظوظه - كان الله له كما لم يزل» أى وكيلا ووهابا ورزاقًا ومنعما»..

ويتدرج شيخنا بالعبد فى هذه التربية السامية على خطوات فى (الرفع): -

(أن ترفع يدك عن الحرام،

ثم ترفع ما تضمره من إثبات الأنام،

ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات،

ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله).

تعبر المراحل الأربع الأولى عن (الابتداء) فى الرفع، وتأتى الخامسة لتكون (الإخبار) المتمم الفائدة، وبتعبير آخر إذا كانت البدايات سلوكية من لدن العبد على النحو السابق فإن النتائج من لدن الحق تأتى بمثابة تتويج لهذه الجهود، وهكذا الطريق الصوفى: استيفاء فى (الحال) لكل متطلبات الوقت وثمار فى (الاستقبال) تأتى من عين الجود. والشيخ هنا يوضح طريقة التخلى عن الحظوظ الذى ذكره آنفا. بل أكثر من ذلك.. فإن الحظوظ لم تعد قاصرة على التعلق بالحياة الدنيا وإنما امتدت لتشمل كل حظوظ الدارين، أو بالتعبير الإشارى خلع النعلين، فلم تعد الهمة موجهة إلى خوف من النار أو طمع فى الجنة، وإنما ارتقى الهدف وسما أعظم ما يكون الارتقاء والسمو.. ففى هذه الدنيا لم يعد الشغل الشاغل للمحب سوى محبوبه الأسنى.. كما يقول الحلاج:

مكانك من قلبى هو القلب كله ... فليس لخلق(.) فى مكانك موضع

وحطتك(..) روحى بين جلدى وأعظمى ... فكيف ترانى إن فقدتك أصنع[٢٣]

أما فى الآخرة فيكفيك أن تسمع قول المصطفى صلوات الله عليه:

«... وأسألك لذة النظر إليك»[٢٤].

---

(٢٣) ديوان الحلاج المقطعة ٣٥.

(.) بفتح الخاء وسكون اللام.

(..) بتشديد الطاء وفتحها.

(٢٤) وردت فى دعاء طويل رواه النسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر.

هذا هو التجرد فى الحب الذى عناه الشيخ بقوله فى المتن:

(ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله).

إن (تجرد) العبد من كل الأغراض والأعواض نتيجة (الرفع)، ويمكن أن نناظر بين هذه الحالة وبين الفعل المضارع الوحيد المعرب - كما قلنا - الذى يستحق (الرفع) عند (تجرده) من المناصب أو الجازم.

(ولولا حظ العبد أن أفضال الله سبحانه معلولة بالحركات والسكنات التى يمارسها لعد(.) ذلك من قبيل ملاحظة النفس التى هى شرك(..) خفى[٢٥].

ويقول يحيى بن معاذ فى هذا التجرد الخالص:

إن ذا الحب لمن يفنى له

لا لدار ذات لهو وطرف(...)

لا ولا الفردوس - لا يألفها

لا ولا الحوراء من فوق غرف[٢٦]

وإذاً فمن علامات (إحكام المحبة) إسقاط كل مطمع، وترك الأمر كله لله، فهو وحده الذى يختار لعبده، ولن يكون إلا الخير، وهكذا تكون:

ليلى على دين قيس

فحيث مال تميل

---

(٢٥) اللطائف ص١١٧.

(٢٦) مصارع العشاق ص٢٤٧.

(.) بضم العين وتشديد الدال.

(..) بكسر الشين.

(...) بضم الطاء وفتح الراء.

وكل ما سر قيسًا
فعند ليلى جميل

خلاصة القول: إن كل ذريعة فى الوصلة قد سقطت بل سقط كل السوى، ومن بين هذه السوى نفس الإنسان وإرادته، كل شىء أصابه (المحو) ولم يبق إلا الله.

هذا هو الفناء وهذا هو البقاء.

فالمحب قد شرب من كأس المحبوب حتى فنى فى شهود أنوار من يحب، ونسرع فنوضح ذلك حتى لا ينبرى أعداء التصوف بقذف اتهاماتهم. المسألة فى غاية البساطة: إنه فناء إرادة المتوكل فى إرادة الوكيل، إنه سقوط كل الأوصاف البشرية المذمومة والبقاء بالأوصاف المحمودة. ليس هنا مثلا.. حلول أو اتحاد،.. فقد جلت الصمدانية عن كل ذلك. ليس هنا فناء طبيعى على نحو ما نجد فى الفناء الهندى.

إن المعادلة هنا تتركب فى بساطة من وصول الإرادة الإنسانية والأخلاق الذميمة إلى درجة الصفر، فتكون كل الحركات بالإرادة الإلهية وبالأخلاق الفاضلة.. وهذه هى التى لخصها المتن بقوله:

(بالله لله).

هذا هو حال (الرفع) والارتفاع الذى تطمح إليه كل سطور بل كل كلمة فى هذا الفصل من الكتاب:

ومن المناسب أن أنقل هنا تجربة صادقة دافئة.. نتابع من خلالها تدرج (الارتفاع) حسب انثيال الأنوار الإلهية الكاشفة للبصيرة: إنها تجربة سيدنا إبراهيم عليه السلام أنقلها كما وردت فى تفسير الشيخ:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ (الأنعام ٧٦ – ٧٩).

يقول الشيخ: «أحاطت بإبراهيم عليه السلام سجوف الطلب ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع (نجم) العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان قال هذا ربى. ثم يزيد فى ضيائه، فطلع له (قمر) العلم فطالعه بشرط البيان فقال هذا ربى، ثم أسفر الصبح ومتع (النهار) فطلعت شموس العرفان من برج شرفها، فلم يبق للطلب مكان ولا للتجويز حكم ولا للتهمة قرار (يا قوم إنى برىء مما تشركون) إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عقب الظهور ستر. فهو حين شاهد الكواكب والشمس والقمر لاحظ الآثار والأغيار بالله، ثم رأى الأشياء لله ومن الله. ثم طالع الأغيار محواً فقال: «إنى وجهت...» أى أفردت قصدى لله وطهرت عقدى من غير الله، وحفظت عهدى فى الله لله، وخلصت وجدى بالله، فإنى لله لله بل محو فى الله الله الله»[٢٧].

وهكذا يلحظ معنا القارئ أننا ونحن نشرح مذهب الشيخ فى المرفوعات.

أننا كنا نستحضر فى الذهن:

١ ـ المبتدأ وخبره وكيف تتم الفائدة.

٢ ـ المضارع المتجرد من الناصب والجازم.

٣ ـ وانتهينا إلى «الفاعل» ذلك العبد البادئ باجتياز الطريق، الذى ينتهى به الأمر ـ على الحقيقة ـ إلى أن يتخلى عن فاعليته ويسلم القياد إلى ربه،

---

(٢٧) اللطائف المجلد الأول ص ٤٨٥.

حيث لا تصريف إلا تصريفه «فالصوفى مقهور بتصريف الربوبية، مستور بتصرف العبودية، وهو لا يتغير ولا يتكدر»[٢٨].

وربما التفتنا إلى شيء من ذلك ونحن ندرس المجاز العقلى فى علم البلاغة،حيث تعتبر من قبيل هذا المجاز قولنا: أنبت الربيع البقل ثم نشرح ذلك بقولنا: إن الإنبات لله، ولكن التعبير هنا عن زمن الإنبات فلا فاعلية للربيع ولا للزارع. على الحقيقة، ونسب الفعل إلى الربيع بعلاقة الزمانية فقط.

ثانياً . النصب

(وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب فى محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد، والتنقى عن دقائق الافتراق، وقد يكون العبد منصوباً لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار.....).

إذا كان النصب فى نحو الظاهر ليس للعمدة فى الكلام بل للفضلة فيه، وإذا كان النصب هنالك علامة الاستئناس والراحة فى بعض الآراء لأنه حركة ولا حركة حيث هو وسط بين طرفين.. فإنه هنا يؤدى الدور نفسه، ويتجه إلى الغاية نفسها.

ونحن نتساءل: ماذا يملك (المفعول به) أمام (الفاعل) إلا الامتثال والاستجابة؟ ماذا يملك العبد أمام سيده ومولاه إلا الطاعة والوفاق وحسن الإطراق؟

---

(٢٨) الرسالة ص١٤٠.

أرأيت إلى أم موسى حينما أوحى إليها أن تقذف بالتابوت إلى اليم رضيعها، فامتثلت (منتصبة) تحقق إرادة مولاها؟ كانت النتيجة أن كبر موسى وكان من أمره ما كان.

وأى أب يمتثل (منتصبًا) لتنفيذ أمر ربه فيمسك بإحدى يديه برقبة ابنه وبالأخرى السكين ليبدأ ذبح فلذة كبده.. مثلما فعل إبراهيم؟

ثم هذا هو المصطفى صلوات الله عليه يمتثل لأمر ربه ويظل فى مكة ثلاث عشرة سنة يحتمل فيها ما لا تحتمله قوة بشرية بسبب العنت والسخرية والهذيان والإيذاء حتى جاء يوم ارتفعت فيه كلمة الحق..

وهكذا نجد الأسماء الباقيات على الزمان (نصبها) الحق لإعلاء إرادته، وتمت من بعدئذ الراحة والسكينة والقرار حينما جاء الفرج من (فتحة) الغيوب.

ولنعد إلى المتن.. فقد أصبح من اليسير تناوله بعد هذه التقدمة: سبق أن ذكرنا فى بداية شرح هذا الكتاب أن المناجاة على بساط القرب تكون بداية التحقق، وألفينا الشيخ ينبه إلى أنه غير مسموح للعبد أن يتفوه عند البسط إلا بما يأذن به الحق - سبحانه. وأن يلتزم (الموافقة) فيما ينبس به قلبه قبل أن يندفع شىء من ذلك إلى لسانه، ولهذا ينبغى توخى جانب الحذر، و(حسن الإطراق) لأن المقام مقام سماع لا مقام كلام، وهذا السلوك مفيد للمخالطين حتى لا تحدث فتنة، ومفيد للعبد نفسه حتى لا يصل به الأمر إلى الادعاء والتكبر.. وفى ذلك كل امتثال مريح يعبر عنه ذو النون بقوله:

إذا ارتحل الكرام إليك يوما

ليلتمسوك حالا بعد حال

فـــإن رحـــالـــنـــا حـــطت رضـــاء
بـــحـــكـــمك عـن حـــلـــول وارتحـــال
أنـــخـــنـــا فـى فـــنـــائك يـــا إلـــهـى
رلـــيك مـــفـــوضـــين بـلا اعـــتـلال
فـــســـنـــا(٠) كـيف شـئت ولا تـكـلـنـا
إلـى تـــدبـــيـــرنـــا يـــاذا المـــعـــالى(٢٩)

وإذا كنا قد طالبنا هنالك ـ فى كنف الشيخ ـ بالتركيز والاستغراق فى صفات الفعل الإلهى، وضربنا مثلا هنالك بصفة المنعم، فنزيد الأمر توضيحًا بالحديث عن صفة (الجمال) حتى نوضح ثمار (الوفاق وحسن الإطراق).

إن الإنسان لكى يدرك الجمال المعنوى الكامن وراء الجمال الحسى لابد أن يكون هو نفسه جميلا، بمعنى أن يكون خاليًا من الشوائب والكدورات وتعقدات الدنيا، وأن يستعد بصفاء وصدق لتقبل ما يفاء عليه إنه ساعات تأمله المديد... سيجد أن هذا الكون الواسع الفسيح حافل بالتناسق والنظام والجمال على نحو ينتهى به إلى نقطة مريحة، وهى أن من خلف كل ذلك صانعًا مبدعًا جميلاً، تنطق الجمادات والأحياء بجمال صنعه وروعة إبداعه، وعند ذلك سيسمع من الطبيعة لغة عجيبة ولكنها مفهومة لديه، ويستطيع تذوقها، والتصاعد مع ارتفاعاتها شيئًا فشيئًا، فالأفعال الجميلة من ورائها الأفكار الجميلة، وتتجمع هذه الأفكار فى الفكرة الجمالية الكلية التى تنبثق فى كل حنايا الكون.

---

(٢٩) اللمع للسراج ص٣١٨.

«ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد والتنقى عن دقائق الافتراق».

والسر عند أهل التصوف: «لطيفة مودعة فى القلب كالأرواح، وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة كما أن الأرواح محل المحبة، والقلوب محل المعارف. ومقتضى أصولهم السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب»(٣٠).

ويضيف القشيرى إلى السر سر السر أو عين السر. وأيا ما كان فإن السر وديعة الحق لدى الخلق، إنه العدسة الكاشفة التى تتلقى الأنوار المشرقة على الحنايا. وكل الرحلة مكرسة لتنقية السر من كل الأغيار، وأن تشرق فيه شمس التفريد والتوحيد، فإذا كان العبد فانيا ـ ومرة أخرى ننبه وسنظل ننبه إلى أنه فناء إرادة ـ فإن البقاء لله وحده. فالعبد كان بائن، وكائن من حيث هو شخص، بائن من حيث جوهره وبصيرته، هذا هو معنى التوحيد هنا فالنطق بالشاهدة توحيد قالة. ونطق الكون بوحدانية الخالق توحيد دلالة.. وهنا يصبح العبد العارف بالله الواصل المتصل الفانى عن نفسه الباقى بإرادة ربه موحدًا توحيد حالة. متنقيًا عن كل غير وسوى(٠) قد زالت عنه كل التناقضات. وانعكس ذلك على سلوكه وعلاقاته. ويبقى على هذه الحال (منصوبًا) لجريان حكم المقادير الإلهية. لا يبغى عنها حولا. وهكذا تحدث له (الراحة) التامة من كل مشاغل الحاضر والمستقبل، وتستقر كل ذرة فيه عند الثقة المطلقة فى الله وحده. فلا يستعجل شيئًا لأن كل شىء بحكمة وبقدر(٠) وبميقات: «لأن الفقير إذا تطلع إلى المستقبل وتجاوز ما هو عليه فى الوقت لا يجىء منه شىء»(٣١) . تلكم هى خصائص أهل الله وأوليائه:

---

(٣٠) الرسالة ص٤٨.

(٠) بتشديد الراء.

(٣١) الرسالة ص٢٠٣.

(ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم، فهم غياث[.] الخلق، قائمون للحق بالحق).

لقد سقطت حظوظهم فى الدنيا والآخرة، وتركزت همتهم فى مراعاة حقوق الله سبحانه، وعندئذ يكون للناس بمثابة البصائر الكاشفة، وتمتد بركاتهم إلى من حولهم فى المكان والزمان، وتلك هى الكرامات التى يسبغها الله على الصفوة من عباده لأجل عباده، فهم وسائل توصيل الخير إلى الكافة، ذلك لأن كرامة الولى فرع على معجزة النبى الذى يتبعه هذا الولى، لأنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد أن (توالت) طاعاته حسبما اقتضت شريعة النبى، وتفترق هذه الكرامة عن المعجزة فى أنها غير مضادة لطبائع الأشياء فهى مثلا من قبيل «إجابة دعوة، أو إظهار طعام فى أوان فاقة، أو حصول على ماء فى زمن عطش، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف ونحو ذلك»[٣٢].

وهم على ذلك أشبه (بمفاعيل) تجرى عليها أفعال (الفاعل) سبحانه، لأنهم قائمون له وبه، (منصوبون) بكل همتهم لطاعاته، ولتوصيل الخير للناس، والله أعلم حيث يضع رسالاته، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، والله سبحانه وتعالى أكرم الكرماء.

ثالثًا ـ الخفض

(وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل، وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس فى ذبائح الجهاد).

(.) بكسر الغين.

(٣٢) الرسالة ص١٧٥.

ليس أسوأ من أن يتحول (المرفوع) إلى (مخفوض)!

فهذا الذى ينبه إليه شيخنا تذكرة للذين قطعوا فى الرحلة إلى الحق ـ سبحانه ـ أشواطًا، ثم جد فى مسعاهم شىء من الوهن أو الغفلة أو الزلة فانجرفوا إلى (خفض) فى المنزلة بعد (ارتفاع)، وهذا آية على أن عبادتهم كانت على (حرف)، وما أسرع ما (جر) هذا الحرف عليهم موقفًا نكدًا، وأدوات الجر هنا تنحصر فى النفس والهوس والشيطان.. فكل واحد منها متربص بالعبد كى (يعمل) فيه بأسلوبه الخاص.. ولنستمع إلى شىء من ذلك بإمعان شديد «من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين، فإذا تاب فإنه من القبول على شك، ولا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقًا لمحبة الحق، وإلى أن يبلغ العاصى محلا يجد فى أوصافه أمارة محبة الله إياه إلى مسافة بعيدة فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الانكسار، وملازمة التنصل والاستغفار وقد قالوا: استشعار الوجل إلى الأجل»[٣٣].

ويقول الشيخ فى رسالته فى موضع آخر «سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: ذبح النفس بسيوف المخالفة»[٣٤].

قلنا من قبل إن النفس عند القوم مركز المعلولات، وإن القلب مركز المحمودات. فإذا انتصرت النفس من البداية فلا أمل فى شىء، أما إذا انتصر القلب فالمعركة لا تنتهى بانسجام، بل تبقى دواعى الخوف على هذا القلب محتدمة، لأن ارتداده عما صار إليه من (رفع وارتفاع) محتمل فى أية لحظة.

---

(٣٣) الرسالة ص ٥٢.

(٣٤) الرسالة ص ٧٧.

فالخوف من (الخفض) عمل إيجابي، لأنه بمثابة سهر على وليد محتاج إلى الرعاية والعناية، ويكون ذلك بالخجل والوجل والذل لله والخمول والخشوع.. وقد تبدو هذه الكلمات مجموعة من السلبيات في عرف الناس ولكنها هنا لأنها في جنب الله، ومكرسة للدفاع، فهي حصن الأمان والمنعة من الثالوث البغيض: النفس والهوى والشيطان، وهي كفيلة بالسباحة ضد التيار الشديد المعاكس المتلون بألوان شتى.. فلو استبسل الصوفي في الدفاع فإن رحمة الله منه قريبة على الدوام. معنى هذا بعبارة أخرى أن ذل القلب في كنف الله عز، واستشعار الخجل صمود، واستدامة الوجل أمان، وإيثار الخمول كرامة، وملازمة الخشوع أنس.. وأخيرًا.. فإن إلقاء النفس في ذبائح الجهاد بداية النجاة والخلاص.

(وقد يكون بخفض الجناح. لكل من طالبك بشيء. ليس في الشرع له نكر(.). من غير رد ولا نزاع. ولا إبرام واستكراه).

يمكن أن تنصرف الفقرة بكاملها نحو:

(أ) اتجاه عام يمس التربية الصوفية عمومًا.

(ب) اتجاه خاص يمس علاقة المريد بشيخه.

فإذا صرفناها في الاتجاه الأول فإن المطلوب أن يكون الصوفي لين الجانب، مستعدًا للصفح عن العثرات، فهو كما يصفونه أشبه بالأرض يطرح(..) عليها كل قبيح ومع ذلك لا تنتج (...) إلا كل مليح.

أو كما يصفه الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يطؤها البار والفاجر، أو كالسحاب يظل كل شيء، أو كالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

(.) بضم النون وسكون الكاف.

(..) بضم الياء.

(...) بضم الأول.

ويصفه أبو تراب النخشبى: العارف لا يكدره شىء ويصفو به كل شىء. وهكذا تلتقى نصائح الشيوخ عند كلمة لها فى العرف الصوفى عطر أخاذ وهى كلمة «الفتوة». وهى فى نظرنا أفضل النماذج للخلق الإسلامى الأصيل.

ومن آيات (الفتوة) (.) التى تتفق وما جاء فى المتن هنا: ألا يملك الصوفى شيئًا لنفسه يحسبه عن إخوانه، بل يبذل لهم بل لجميع الناس بمقدار ما فى وسعه، وألا يجادل أو يناقش فى مطلب طالما لم يكن مما ينكره الشرع، وأن يتغاضى عن العدو والصديق فى سخاء مهما شق عليه الأمر، وبذلك لا يكن خصمًا لأحد، ولا يرى لنفسه فضلا على أحد، وألا يدخر أو يعتذر.. كل ذلك من غير تبرم أو كراهية بل عن طواعية وسعادة. وعلى الجملة فهى نموذج للتربية ينبنى لى الإيثار، وعلى التنازل، وعلى العطاء.. قال تعالى:

«يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

وقال ﷺ:

«السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة».

أما إذا صرفنا الفقرة فى الاتجاه الثانى: أى عن علاقة المريد بشيخه، فإنها تقصد ألا يحاول المريد مجادلة شيخه، «لأن من قال لشيخه لم؟ لا يفلح» بل واجبه الامتثال للأمر طالما أن هذا الأمر تتضح موافقته لأحكام الشرع، وعندئذ ينبغى ترك الاعتراض على الشيوخ، وحمل ما يبدر منهم أو يبدو فيهم على وجه جميل، وتلقى أحوالهم بالإيمان من غير رد ولا نزاع،

(.) انظر ما جاء عن (الفتوة) فى كتاب: نحو القلوب الصغير للامام القشيرى، تحقيق: أحمد علم الدين الجندى.

ولا تبرم أو ضيق، فإذا كانت للمريد عينان فلتكن إحداهما ناظرة إلى الشيخ بالود والأخرى ناظرة إلى نفسه هو بالاتهام، وهكذا يكون خفض الجناح و(خفض) النفس وخفض (الأنا) من وسائل تربية المريدين وصقل إرادتهم.

ومن طريف ما يروى فى هذا السياق ما يذكره القشيرى عن صلته إبان كان مريدًا لشيخه أبى على الدقاق: «لم أدخل على الأستاذ أبى على فى وقت بدايتى إلا صائما، وكنت أغتسل قلبه، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشامًا منه أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز فى إبرة مثلا لعلى كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلسانى عن المسألة لأنه كلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتى، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا، ولا أذكر أنى فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج رحمة الله تعالى عليه من الدنيا»[٣٥].

(وهكذا العارف يستقبل أعقاب [.] الكاف مستحقرًا لقدره[..] مستقذرًا لنفسه وفعله فى عاجله وآجله).

إذا كان (الجر) فى نحو الظاهر ينتج عن (الإضافة)، فإن إضافة أى فضل هنا لنفسك هو دعوى وادعاء يرفضهما التصوف رفضًا تامًا، لأن المطلوب كما قلنا وكما سنقول: التجرد من كل علائق النفس وكبح جماحها حتى «تسقط كل الياءات»: لى وبى ومنى.. إلخ و«إن ملاك المجاهدة فطم

---

(٣٥) الرسالة ص ١٤٧.

(.) بفتح الباء.

(..) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء.

النفس من مألوفاتها، وحملها على خلاف هواها فى عموم الأوقات، فإذا استحلت(٠) شراب الرعونة فضاقت إلا عن إظهار مناقبها، والتزين لمن ينظر إليها ويلاحقها فمن الواجب (كسر) ذلك عليها، وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها بحقارة قدرها، وخساسة أصلها، وقذارة فعلها فهى سفير الشيطان فى كيان الإنسان».

وفى إحدى الوصايا يقول الشيخ للمريدين: «إذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدرًا أو قيمة أو على بسيط الأرض أحدًا دونه لم يصح له فى الإرادة قدم، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ليحصل لنفسه قدرًا، وفرق بين من يريد الله تعالى ومن يريد جاه نفسه إما فى عاجله وإما فى آجله».

على المريد إذًا ألا يفتعل لنفسه تقدماً أو تصورًا بل عليه أن يلازم التواضع والانكسار واتهام النفس.

عمل إبراهيم بن أدهم بعد أن طلق إمارة (بلخ) بستانيًا بل حارسًا لبستان، وكان صاحب البستان يضربه على رأسه فكان يزيد فى انحناءة رأسه ويقول له: اضرب.. اضرب رأسا طالما عصى الله! وترك الحارث المحاسبى ثلاثين ألف دينار ورثها عن أبيه ليحيا حياة الافتقار إلى الله والتوكل عليه)[٣٦].

فإذا تم «الافتقار إلى الله على هذا، وتم الصبر فى الله على مقاساة الذل وضع الله على رأس الفقير قلنسوة العرفان»[٣٧].

ذلكم أخيرًا.. هو التجرد التام عن كل (إضافة) فى نحو القلوب.

---

(٠) بسكون الحاء.

(٣٦) التعرف ص١٧٥.

(٣٧) اللطائف جـ٢ ص٥٦١.

رابعاً ـ الجزم

(وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشىء من آداب الشريعة).

الجزم فى نحو الظاهر (قطع) الحركة عن الكلمة، ثم جعل منه ما كان (بحذف) حرف العلة أو نون الأفعال الخمسة، وهكذا يجمع الحذف بين حذف الحركة وحذف الحرف.

ويقول المازنى: «الجزم قطع الإعراب، فمعنى جزم الفعل المستقبل قطع الإعراب عنه، وذلك لأن الفعل المستقبل إنما يعرب إذا وقع موقع اسم.... ولكنك إذا قلت: زيد لم يقم، فقد وقع الفعل موقعًا لا يقع فيه الاسم فرجع إلى أصله وهو البناء»(٣٨).

هذه المعانى فى نحو الظاهر ـ واضحة والتنظير هنا فى نحو القلوب ـ تمام الوضوح. فالقضية هنا ـ لحسن الحظ ـ **محصورة فى الفعل المضارع فقط**.

وهذا الفعل المضارع قوى.. أولا لأنه أقرب الأفعال إلى الاسم، وثانيًا لأنه سائح فى الزمنية، فهو يعبر عن الحال والاستقبال فى صورته العادية ـ أى عند التجرد من النواصب والجوازم، وهو أيضًا يعبر عن الزمن الماضى إذا دخلت عليه (لم)، فهو بكل هذه الأوصاف أفضل الأفعال للتعبير عن حالات العبد السالك المريد الزاهد العارف الواصل المتصل، والموقف هنا.. هو موقف (الجزم)، والشيخ لا يضيع وقتًا بل يدخل بنا مباشرة إلى القطع، والحذف.. ثم إلى السكون.

ونتحدث عن (القطع والحذف) فى نحو القلب، فهو قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ـ وهذا هو تعاريف معروف الكرخى

(٣٨) الايضاح للزجاجى ٩٣ ـ ٩٤.

(ت٢٠٠) للتصوف، وفى تقديرنا أن هذا التعريف المبنى على قضية القطع والحذف يجمع فى جوهره عدة تعريفات للتصوف كما اعتادت المصنفات أن تبسطها فى مقدماتها، فأنت تستطيع دون عناء كبير أن تعيد صياغة التعريفات التالية باستعمال لفظتى (القطع والحذف).

يقول سهل بن عبد الله التسترى: «الصوفى من صفا من الكدر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر»[٣٩].

ويقول أبو الحسين النورى(ت ٢٩٥):

«الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين».

ويقول أيضًا:

«التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها».

ويقول الجنيد (ت٢٩٧):

«التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس».

ويقول أيضًا:

«هو أن تكون مع الله بلا علاقة أى بلا علاقة دنيوية أو ظلمانية».

ويقول الحريرى:

«التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى».

---

(٣٩) الرسالة (تعريفات التصوف).

ويقول الشبلى: «الصوفى (منقطع) عن الخلق متصل بالحق».

وهكذا نتمثل الفعل المضارع ونحن نرقب هذا العبد الذى يصفه عند تجرده من كل (العوامل) بأنه: لا يكدره شىء ويصفو به كل شىء - يقصد الصوفى. وما هذا السكون هنا فى نحو القلب؟

استمع إلى النورى: نعت الصوفى السكون عند العدم والإيثار عند الوجود (العدم والوجود معناهما هنا الفقر والغنى).

ويعبر الشبلى بصدق مقنع عن هذا (السكون) فيقول:

«التصوف هو الجلوس مع الله بلاهم، فالصوفى لا يتبعه طلب ولا يزعجه سبب».

وهو - فى رأى الروزبارى - «الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه» ولكن.. لماذا يحترز الشيخ فى وصف هذا (السكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشىء من آداب الشريعة) كما جاء فى المتن؟

هنا نستشعر من تحذير الشيخ الا يحدث إخلال بآداب الشريعة عن طريق (السكون) وبكلمات أخرى نرانا ملتزمين بعرض قضية مهمة من قضايا التصوف لها شأن فى داخل بيئتهم وفى خارجها، بل كثيراً ما امتد الحديث عنها طوال العصور.

فبداية.. إن من علامات الامتثال لطاعة الله الا يخرج العبد قيد أنملة عما تريده الشريعة من الاحترام والاحتشام فلا تصدر عنه كلمة أو كلمات فيها رائحة المروق والخروج عن الجادة، ولا يصدر عنه فعل أو أفعال فيها تحيف - ولو ضئيل - على أدب من آداب الشريعة، فى الحالين يجب (السكون) عند الحدود الضامنة لحفظ القول والفعل فى نطاق المقبول فى

شريعة الله، ومن الظلم للتصوف والصوفية الخروج عن هذا (السكون)... وكمثال على ذلك يطالعنا القشيرى فى مستهل رسالته بعض أوصاف أولئك المنحرفين (ادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال. وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية.... فاستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا فى ميدان الغفلات، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات)[٤٠].

معنى هذا أن الإمام القشيرى قد استفاد من فكرة (السكون) عند النحاة لكى (يتوقف) هؤلاء الأعداء الدخلاء عند حدودهم، ونقوله للذين لا يحلو لهم عندما يشنون الحرب على التصوف وأهله إلا أن يلتقطوا هذه النماذج المريضة فيجعلوا من ضربها له ولهم وقود هذه الحرب الزائفة!.

ويتصل بذلك بطريق مباشر ما يعرف فى مجالس الصوفية بمجالس «السماع» حيث ينشد القوالون أشعارًا ومدائح، ويتلى القرآن الكريم وتعلوا الأصوات بالأذكار والأوراد.. إلخ.

والصوفية بطباعهم ذوو رهافة فى الحس، فكأنهم أشبه بعدسات مفتوحة فى جهاز للتصوير أو للصوت المسموع، وسرعان ما يصاب البعض بانقلاب نفسى أو تغير عضوى فيطرب ويهتز وقد يرقص ثم يبكى ثم يتشنج وأخيرًا قد يزعق ويشهق، ويرغى ويزبد.. وفى بعض الأحيان يقع مغشيًا عليه وقد تذهب روحه فى نوبة من تلك النوبات..

سمع سمنون المحب شيئًا فى مجلس السماع فأنشد:

---

(٤٠) مفتتح «الرسالة» القشيرية.

إن كان يرجـو سواك قلبـى   فكيفما شئـت فاختبرنـى

فليس لى فى سـواك حظ   لانلت(.) سـؤلى ولا التمنـى

وسريعًا ما أصابه على الفور احتباس البول ومرض(٤١).

وهنا نجد كبار القوم يلزمون (السكون) لأن أقدامهم راسخة وأفئدتهم ثابتة مع أن فى أعمق أعماقهم جيشان لا يعلم مقداره إلا العليم الخبير.... المحبوب. ولقد سئل الجنيد عن سبب هذا (السكون) وعن قلة اضطرابه عند السماع فقال:

وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر(..) السحاب»(٤٢).

ويعلق السراج على ذلك قائلا: «ألا ترى أحدهم يكون (ساكنًا) فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق، وقد يكون من هو أقوى منه (ساكنًا) فى وجده لا يظهر منه شىء من ذلك».

وفى رأينا أن المسألة كلها مسألة صدق وإخلاص، وليست من قبيل الدعوى والادعاء. فالرب سبحانه عليم بكل خلجة فى كل خلية من خلايا أبدان مخلوقاته. فإذا علم المحب أن تعامله مع الخالق لا مع المخلوقين التزم حدوده التى (يقف) عندها دون زيادة أو نقصان.

ويرتبط بهذا كله ارتباطًا وثيقًا ما يعرف فى التصوف بظاهرة «الشطح» فالشطح يظهر فى النهر إذا زاد ماؤه عن حوض مجراه، فيفيض على جانبيه، والصوفى الواجد يمتلئ قلبه بحب مولاه امتلاء لا يتسع له الصدر ولا الحنايا.. فهل يفصح أو يكتم؟

(.) بضم التاء.

(٤١) طبقات الصوفية ص٤٥ نشر الشرباصى.

(٤٢) اللمع للسراج ص ١٢٨.

(..) بفتح الأول وتشديد الثانى.

اختلف الصوفية - حتى أكابرهم - فى الإجابة عن هذا السؤال الذى يشبه المعادلة الصعبة.

والمحافظون منهم - خوفًا على شيوخ الادعاء الكاذب كما أسلفنا - يعتبرون هذه الأشياء من قبيل الأسرار فيصرحون:

«أسرارنا بكر لا يفضها وهم[*] واهم».

وينصحون «لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستورًا منك». ويحذرون «الناس جميعًا ليسوا مؤتمنين على حفظ السر بدرجات متساوية، وليس كل المؤتمنين على درجة واحدة من الفهم والوعى والإدراك... فالخير فى (السكون) وعدم الشطح».

أما غير هؤلاء من الشيوخ فإنهم يرون أن هذا الحب الكبير أجل وأعظم من أن تتسع له طاقة البشر، فالتعبير أو الإفصاح نوع من الإقرار بالضعف البشرى أمام الطوفان الإلهى الجارف الذى يهدم كل السدود... فما حيلة العبد؟

أما غير هؤلاء وأولئك فقد ذهب فى الموضوع إلى حد أبعد.. هو ستر الحب بادعاء الجنون! فعرفت البلاد الإسلامية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى آحادًا من الناس كثيرة الجولان والتطواف، لا يقر لهم قرار، سائحين هائمين، وسجلت لهم المصادر - أقوالا وأشعارًا وحكايات غاية فى الطرافة والجمال وغاية فى الدفء والروعة.

ومن الناس من رأى ستر ذلك بفعل ما يوجب الملامة.. وقد تحدثنا عنهم آنفًا حديثًا مقتضبًا.

(*) بفتح الأول وسكون الثانى.

وفى النهاية.. فإن الشيخ قد وضع لنا مقياسًا نضبط به كل ذلك وهو «**من غير إخلال بآداب الشريعة**».

ولو رفع هذا الشعار لانحسمت كل المواقف، فذلكم هو المقياس الذى يتوجه ـ أو ينبغى أن يتوجه ـ به وفى ضوئه كل (سكون) وكل (حركة).

«**ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى**(٠) **فإن الأمانى والمعانى متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإدارات والاختيارات بسيوف اليأس، ثم ليسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة**».

يمكن أن نطلق على هذه الفقرة اصطلاح:

«**جزئية من علم الفقة الصوفى**» **وهى النظرة إلى الرخصة**.

فمن المعلوم أن التصوف مشتغل أساسا بالإرادة، وأن هذه الإرادة تدخل فى امتحان بعد امتحان كى تنصقل وتتهذب حتى تصبح جديدة بالذوب فى إرادة المولى، بمعنى الخروج من علائق الدنيا، ومن كل المطالبات والاختيارات والمنى، والترفع عن الأعراض والأغراض.. كل ذلك وسيلة وهذا العبد لتحقيق الهدف الأسمى والأسنى، وإن أى شغل يبتعد بالوسيلة عن الهدف هو التناقض المرفوض، لأن معناه أن العبد ما زال بنفسه، وأن قلبه ليس فارغًا، وهنا يكون التضاد بين المبانى والمعانى، ولا يمكن الجمع بين شقيقتين على حد تعبير على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى وصفه لمن يطلب الدنيا والآخرة فى آن واحد.

إن غاية الأمر هنا ألا يكون فى القلب إلا واحد ـ سبحانه، ذلكم هو الفرق بين المعرفة العقلية والعرفان القلبى، فالمعرفة العقلية ربما كان من أسس بداياتها الثنائية فى التفكير فى معظم الأحيان فأنت حينما تتحدث

(٠) بضم الميم وفتح النون.

عن «الصدق» مثلا تستحضر «الكذب» على الفور كى تميز الشىء، عن ضده.. وهكذا، أما هذه العلاقة الثنائية فى العرفان القلبى فهى موقوتة بالمقامات، ولكن عند الدخول فى الأحوال: الحب والفناء.. فالتوحيد مهم جدًا، ومن آيات اكتمال هذا التوحيد فى السلوك إبعاد كل غير (٠) حتى لا يبقى إلا واحد.. وهذا الواحد سبحانه هو الذى يقوم فى عبده بكل التصريف وبكل أحكام القدرة، فالمريد فى الحقيقة من ليس له إرادة! وعلامة ذلك بقاء العبد ساكنًا بالله لله مع الله.

ولا نتوقع من عباد الله الذين اصطفاهم أن تكون نظرتهم إلى ممارسة الشريعة - التى هى للكافة - بنفس الدرجة وبنفس الرؤية وبنفس الجهود، فالصلاة بعدها صلاة، والصوم بعده صوم، والنوافل تؤدى وزيادة.. بمعنى أن هناك ارتقاء وتشددًا، أينما وكيفما وجد المرء إلى ذلك سبيلا.

فهل نتوقع منه أن يسترخص، أو أن يجنح إلى الأسهل؟

لنستمع إلى شيخنا وهو يجيب عن هذا التساؤل:.

«إذا أحكم المريد بينه وبين الله تعالى عقده فيجب أن يحصل من علم الشريعة - إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة - ما يؤدى به فرضه، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد أبدًا الخروج من الخلاف، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحان، ولهذا قيل:

«إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى»[٤٢].

---

(٠) بالتنوين.

(٤٢) الرسالة ص ١٩٨، ١٩٩.

بل إن الشيخ هنا ـ فى نحو القلوب الكبير ـ يعتبر هذا الفاسخ لهذا العقد مشركًا ومرتدًا!!

ذلك فى نظرنا لأنه يعود إلى هواه، ومعنى ذلك امتلاء القلب بغير الله، وهذه الغيرية فى نظرهم هى الشرك بعينه، والتماسه التسهيل على نفسه عن طريق الرخصة ـ هى فى نظرهم ـ انتكاسة وارتداد عن الاتجاه الذى اختاروه، وسنوا له رياضيات شاقة تفوق التدين العادى.

والعلاج.. هو (قطع) كل دبيب للأمانى من بداية الرحلة إلى منتهاها، و(حذف كل علة) تصيب الإرادة الصاعدة المتنامية.

ونختتم هذا الموضوع بتتمة من (لطائف الإشارات) حتى نوضح أن هذه النقطة شغلت الشيخ عبر كل مصنفاته مما يدل على أهميتها فى مذاهبه يقول فى اللطائف: (.. ومن ذلك إرسال القلب فى أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك استشعار محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه، ومن ذلك الجنوح إلى الرخص، فى طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشق».. كل ذلك عند الشيخ يأتى إشارة من قوله تعالى: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها».

ولا ينسى الشيخ فى موضع آخر من «اللطائف» أن يعايش ويشجع الذى استرخص ذات مرة: فيأخذ بيده حتى لا يدفعه الإحباط إلى مزيد من التنازلات فيهمس فى أذنه قائلا فى سماحة «المربى الواعى».. فبالجنوح إلى الاستعاذة والاستغفار يتلقى العبد التائب من ربه الاغتفار، والعودة إلى التنصل تبيح التفضل، وفى معناه قالوا:

أنـــاس أعـــرضـــوا عـــنـــا

بـلا جـــــرم ولا مـــــعـــــنـى

أســـاءوا ظـــنـــهم فـــيـــنـــا

فـــهلا أحـــســـنـــوا الـــظـــنـــا

فـــإنم كـــانـــوا لـــنـــا كـــنـــا[.]

وإن عـــادوا لـــنـــا[..] عـــدنـــا

وإن كـــانـــوا قـــد اســـتـــغـــنـــوا[...]

فـــإنـــا عـــنـــهم أغـــنـــى

فصـــل [٧]

وجوه البناء

«وجوه البناء فى النحو أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون.

والبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام.

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها من الكروب بمفاتحات الغيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت الالتقاء، وسكون البواطن سكونها[....] إلى الحق بنعت الاستئناس على وصف الدوام فى عموم الأحوال».

وضع الشيخ أيدينا فى هذه الفقرة عند تمامها على المنطقة التى يجدر أن تكون موضع اهتمامنا فى الدراسة ونعنى بها منطقة «الأحوال».

والأحوال ـ كما قلنا من قبل ـ هى هذه الثنائيات الوهبية التى تنثال على العبد من لدن الحق بعدما اجتاز منطقة «المقامات» أى الجهود الذاتية

(.) بضم الكاف وتشديد النون.

(..) بسكون الواو.

(...) بضم العين.

(....) بضم النون.

الكسبية فيصبح مستحقا للمكافآت على ما قام به. وأوضحنا فى مواضع سابقة أن أقرب الأشياء إلى مفهوم المقامات هى «المعربات» فى نحو الظاهر: الاسم، والفعل المضارع لأنها تتغير وتتلون، وتزيد وتنقص.. إلخ وبلغة الصوفية: المعربات فى مراحل التلوين. أما (المبنى) فهو أقرب إلى مراحل التمكين، لأنه موقوف بأوامر الله، وبالأحكام الخارجة عن انيته حيث يصل إلى حال السكون تحت مجارى القضاء آنسًا راضيًا بما يصار إليه بواسطة الإرادة الإلهية.. تماما كما يلازم (المبنى) شكلا واحدًا لآخره لا يريم عنه. فهو فى يد القبضة لا يملك لنفسه فى نفسه شيئًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولله ومن الله.

ونحن نعلم أن القلب بعد تصفيته من دوراته إبان معركته مع النفس يصعد فى المعراج العرفانى إلى (الروح) وهذه بدورها تتصاعد إلى (السر).

الروح موطن المحبة، والسر محل المشاهدة ـ وليس لغير الحق عليه اطلاع فـ (ضم الأسرار صونها عن الأغيار) ذلك لأن الله سبحانه إذا رضى عن عبده حرس سره أن يسنح فيه خاطر غير ما يتفضل به الحق، وأبعد عنه كل ما يعكر الصفو حتى يتم الصفاء فتكون المرآة مجلوة ومستعدة للمشاهدة والكشف، وهذه المشهودات المكشوفات تراها عين البصيرة شفيفة لطيفة.. فى حال (الجمع) حيث (تضم) (•) الإرادة الإنسانية لتذوب بالكلية فى الإرادة الإلهية وعندئذ لا يكون ـ على الحقيقة ـ متصرف ولا مريد سوى الله.

وتحدث عند هذا (الضم) و(فتحة) و(كسرة) بفعل المشيئة الإلهية، وعلى هذا يكون العبد أشبه باللفظ (المبنى) الذى لا حول له فى نفسه.

(•) بضم الأول وفتح الثانى

وأما (**فتحة القلوب بتنقيتها من الكروب بمفاتحات الغيوب**) (الفتحة) - كما ذكرنا - علامة الاستواء والراحة وهى هنا بتلك الفتوحات الإلهية التى يفتح الله بها على هذا العبد.

أجل.. فإن هذا العبد الذى كان إبان الطلب (مضارعًا معربًا) يتلون ويتغير فإنه مازال ينمو ويصاعد(.) فوق الدرج الروحى أيامًا وشهورًا وأعوامًا يتقلب بين الوجد والفقد والرجاء والخوف، والهيبة والأنس حتى يصبح (مرادًا) يبسط الله لقلبه من الدقائق والرقائق ما لم يكن يخطر له ببال.. والنتيجة أن تتجاب كروبه، ويصفو مشربه، وتنطرح عنه كل هموم السوى(..)، ويسعد بالسلام فى أعماقه، وتزداد عليه المنح والفتوحات كلما أقبل مقربًا(...) من هذا العالم اللانهائى الذى تسطع فى سماواته شمس الشموس!

وما أن تحل عليه (**بغته الشهود ومفاجآت الالتقاء**) - إن كانت فيه بقية - إلا أن يخر ساجدًا، لأنه قد أصيب بالانحناء و(الانكسار) فى قلبه أمام مشهوداته، وهذه الحال الشريفة تصل فى أرقى صورها إلى ما أصاب رسولنا المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ليلة اسرائه، فمنه تعلمنا هذا الدرس فى (الانكسار) أمام الملأ الأعلى!

وسيظل (انكسار) القلب الإنسانى والبدن البشرى جوهر الاتصال المجيد بين الأرض والسماء، بين الإنسان وعظمة العظمة.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وستظل رحلة روح الإنسان إلى غيب الغيوب باقية فى أصلاب هؤلاء الصفوة الممتازين من أتباع محمد.. فكلهم منه مقتبس، وهم يتوارثون هذه القطفة

(.) بتشديد الصاد وفتحها.

(..) بتشديد السين.

(...) بضم الميم.

النورانية فيظهر الله فى كل عصر (آحادًا) يقتدى بهم فى الصلاح والورع.. هم غياث الأرض والناس والحياة.

تتــمة

(وفى المعرب والمبنى إشارات أخر.

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل، والمبنى ما يكون على صيغة واحدة، وكذلك صفات العبد، منها ما يقبل التغيير والتأثير: وهى ما كان مجموعًا بتصرفه(.) وتكلفه(..)، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهى موضوعات الحق. سبحانه فيه.. من أخلاقه. ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه (...) ولم ينفعه كده وعناؤه. ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلكم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه».

الواقع أن هذه الفقرة متصلة اتصالا وثيقا بموضوعات علم الكلام، وقد جيء بها هنا لتوضح أمورًا تؤرق بعض الناس فى البيئة العامة، ومن الممكن أن يمتد أثرها إلى لفيف من المبتدئين والمريدين السالكين طريق المتصوف فتشغل بالهم ـ ولو إلى حين.

وجد الشيخ المربى أن يلتمس الطريق إلى ذلك بوصفه متكلمًا حتى يصحح بدايات الإيمان لدى هذه الطائفة بحيث لا يبقى العقل فيما بعد موزعًا تتقسمه سوانح مشتتة، الأمر الذى قد يعوق المسيرة.

يؤمن القشيرى بحرية الإنسان وبإرادته فى التصرف لأن الحساب فى الآخرة يرتبط بذلك، ذلكم هو (المعرب) من (الأسماء) و(الأفعال) فى عمر

(.) بتشديد الراء وكسر الفاء.

(..) بتشديد اللام وكسر الفاء.

(...) بضم الهمزة.

الإنسان على هذه الأرض، وتحدث له التغيرات بحسب (العوامل) التى تطرأ على قلبه.. هذا شىء.

والشىء الثانى - وهنا يعود القشيرى المتكلم إلى أشعريته التى لا تعرف حرية الإنسان المطلقة فى التصرف على نحو ما يراها أهل الاعتزال - فيصرح أن هذه الحرية مرتبطة بأصول تبغى معرفتها، وهى أن الإنسان ليس فاعلا ثانيًا فى الكون وإلا تعدد الفاعلون، فالفاعل على الحقيقة هو الله وحده، والله سبحانه بوصفه (العليم) قد خطط فى سابق الأزل لكل امرئ حظه ومساره الذى سيسلكه فى كل ثانية من عمره مما طال هذا العمر أو قصر، وتلك هى (أقسام) قسمت(.)، وأرزاق وضعت و(مبان) شيدت، لا قبل للعبد أن ينصرف عنها أو يحيد لأنها (لا تقبل التحويل والتبديل) ذلك لأن الملك ملكه والمالك والملك(..) أن يفعل فى ملكه ما يشاء، وأحكامه فيه لا تخضع لعلة.. ولا يمكن لعقولنا القاصرة أن تحيط بتعليل لكل حكم إلهى.. وبالتالى فهو لا يسأل عما يفعل.. فهو «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» ولهذا: «فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه ولم ينفعه كده وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه».

وقد تسبب لنا هذه النقطة بعض الحيرة لبعض الوقت، لأننا قد جررنا على أن نتوقع المكافأة حينما نصنع الجميل والنافع لغيرنا فى علاقاتنا العادية، ولكن هنا يطرح سؤال نفسه: هل طاعة العبد تلحق الإله زينًا(...)، وهل معصيته تلحقه شيئًا؟

لا هذا ولا ذاك..

(.) بضم القاف وكسر السين.

(..) بفتح الميم وكسر اللام.

(...) بفتح الأول وسكون الثانى.

ثم.. هل يصح من الناحية الأخلاقية أن نستخدم لفظ (يجب) على الله أن يثيب المطيع وأن يعاقب العاصى؟. من ذا الذى (يوجب) على الله؟ أنا أو أنت أم الناس جميعًا، كل ذلك مرفوض شكلا وموضوعًا لأنه عندئذ لن يكون إلهًا، حاشا لله.. الحق أنه (لا يسأل عما يفعل) و(هم يسألون).

إن حرية الإنسان تبقى مكفولة.. ولكن فى داخل دائرة من القيود.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ (الرحمن: ٣٣).

وعمل الإنسان وجده واجتهاده، وكده وعناؤه.. كل أولئك مطلوب ومأمور به. ولكن إذا لم يرتبط ذلك كله بالشعور الجارف المقتنع أولا بفضل الله، وأن هذا الفضل هو كل المأمول من عمل الإنسان، وبدون هذا الفضل لا يتحقق شيئا حتى لو ملأ العبد حياته بالأعمال الصالحة مقدار ماء البحر، ولو تسرب دبيب خفى إلى القلب يوهم بأن الإنسان قد بلغ بعمله وحده شأوا يستحق عليه الشكر.. فقد انهار كل شىء.

وإذًا فإن (**الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاوة والسعادة**)[1].

والخلاصة: إننا نظلم أنفسنا إذا قسنا العلاقة بين العبد والرب على العلاقة بين العبد والعبد، لأنه حتى العمل الخير الذى ينهض به العبد ما كان يمكن أن يتم لولا توفيق الله وتسديده (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[•] أى كان منك الرمى ولكن كان منا تسديد الإصابة.. التى هى جدوى الفعل وجوهر العمل.. إن فضل الله - فى الواقع - وسيلة بمقدار ما هو غاية، وذلك هو الفرق الكبير بين علاقتنا بالله وعلاقتنا مع أنفسنا، ومن الخطأ إجراء المقايسة بين العلاقتين.. وإلا وقعنا فى خطأ جسيم.

---

(١) الرسالة ص١٤٨.

(•) بفتح الميم.

استمع إلى سيد الأنام وهو يقول فيما روى عنه صلوات الله عليه: «ما منكم من أحد ينجيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: ولا أنا .. إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

وهو - صلوات الله عليه - قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقول: «لا أدى ما يفعل بى ولا بكم» ولا كان جائزًا له أن يقول فى وصف نفسه ما تعلم لقال: أعلم أنى رسول الله. وأنى معصوم، وأن ربى أدبنى فأحسن تأديبى، وأن خلقى القرآن، وأن.. وأن.. وهو لا محالة يغفر لى، ولكنه قال:

«وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم» ليعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد.

وإذا كان القشيرى يعالج الموضوع هنا فى حسم قاطع فى ضوء (أشعريته) فهو فى موضع آخر فى لطائف الإشارات يعرضها فى سماحة (صوفيته) فيفتح أبواب الآمال على مصاريعها، ويجذب القلوب والعقول إلى الرحب والسعة. استمع إليه وهو يستخرج الإشارة من قوله تعالى: «ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم»: هذه الآية توجب حسن الرجاء وقوة الأمل لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبة شيئين اثنين: الشكر والإيمان وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان. فالشكر قالة والإيمان حالة فهون(*) بهما السبيل على العبد كى يصل إلى مرفأ النجاة.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

الجنة للأتقياء من هذه الأمة معدة لهم، والرحمة للعصاة من المسلمين مدخرة لهم. الجنة لطف من الله تعالى، والرحمة وصف لله تعالى، الجنة إذا كانت فى عرض السموات والأرض فالرحمة أكبر لأنها وسعت كل شىء.

(*) بتشديد الواو وفتحها.

على أن هذا الموضوع برمته سيظل بوجهه فى ثنايا الكتاب مرات كثيرة إحساسًا من المصنف بأنه يشغل البال من حين إلى حين.

«ومن أقسام البناء ما بنى على الكسر، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط أمره. صباحه بلاء، ورواحه شقاء، وجده منكوس وحظه، منجوس ونجمه منحوس، وقصده معكوس. إن ورد نهراً غيض ماؤه، وإن وجد دراً قرب فقده».

نذكر هنا مما سبق أن شرحناه فى موضوع البناء، وكيف أنه فى نحو الظاهر يراد به وضع الشىء على جهة يراد بها الثبوت، واللزوم، وعلامة ذلك المعنى ثبات آخر الكلمة على حال واحدة لا تتغير. فكأنها أصل وملازمة للأصل.

ويقول أهل اللغة: إنه سماع عن العرب منذ نطقوا به، وبرؤية صوفية هذا حظه ونصيبه فى الوجود. وهذه (القسمة) له بدورها ذات (أقسام): مبنى على الكسر أو على الفتح أو على الضم أو على السكون.

وهذا هو صنيع الشيخ: الربط بين المبنيات وبين الأحكام السابقة فى المشيئة الإلهية منذ الأزل.

وبدأ بالمبنى على الكسر، فاضطلعت ببسط حالة فقرة تعبر عن ذلك المسكين المردود المرفوض، فهو مستبعد من دائرة القبول، مشئوم فى بدايته ونهايته، خسر الدنيا والآخرة..

لقد علم(•) من الأزل أنه سيكون من أتباع الهوى والشيطان، وكما أن إبليس اللعين سيظل ملعونا إلى الأبد فقد وقعت اللعنة على أتباعه إلى يوم البعث وغير خاف أن وضع آدم عليه السلام مختلف تمامًا، لأنه حينما تاب

(•) بضم العين وكسر اللام.

وصلحت توبته اجتباه ربه وقبله، وكذلك أبناء آدم الذين يتوبون يقبل الله توبتهم..

وهكذا اتضح الفرق بين من هو من النار، فينطفئ إذا وقع الماء عليه، وبين من هو من الطين الذى ينجبر كسره إذا نزل عليه ماء العناية . وهكذا تسقط الحجة التى تذرع(.) بها اللعين عند لجاجة رفضه الأمر بالسجود.

ليس أدق - نحويًا - من وضع هذا المسكين الملعون فى إطار (المبنى على الكسر) فهذا الوضع المائل سيستمر لاحقًا فيتجمد ويتداعى حتى يهوى كما هو فى قرار سحيق! ولن تفيده أنوار الهداية أو تقلل عثرته. فالنور عنده والظلام سيان... هكذا (قسمه) و(قسمته).

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذاً استوت عنده الأنوار والظلم(..)

«ومن ذلك ما بنى على الفتح، فصاحبه لا يزول نعيمه(...)، ولا يبرح من الخير مقيمه، ويسطع من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، لا يتكدر بغيبته مشربه، ولا يتغير - بطول حجبته - مذهبه.

الصدر له فارغ وإن أبطأ فى حضوره. الشمس ظلام عند تلألئ نوره، والبدر يخجل لفجأة ظهوره».

هذه الفقرة تحتاج منا إلى رفقه أطول.. فهنا مناطل الأمل فى رحلة العرفان.

وبصفة إجمالية نقول إنها مختصة بمن هو مغمور فى أنوار الأحدية بالكشوفات، ولكى نقدر هذه الأنوار حق قدرها . نتابعها من بداية أمرها خلال معظم مصنفات شيخنا حتى نكتشف رؤيته فى نظرية المعرفة وسعادة العارفين.

(.) بتشديد الراء.

(..) بضم الظاء وفتح اللام.

(...) بضم الميم.

العقل عنده هو أساس البداية ومهمته صحيح الإيمان بكل الوسائل المتاحة من علوم الظاهر، وكل ما فى حوزة العقل من الأدلة والبراهين.. وهو قبل الالتحاق بعلوم التصوف يناط به الخوض فى رحلة المعرفة، أما هنا عند الصوفية فوظيفته فى مرحلة البداية فقط، ثم يحجم(.) وضعه فيما تلا ذلك من مراحل الصعود، بمعنى أنهم ـ أى الصوفية ـ لا ينكرون دوره ولكنهم يضعونه فى حجم لا يزيد عنه، لأنه ليس جديرا بالاستمرار فى المراحل اللاحقة الصاعدة.. لماذا؟

لأن العقل بطبيعة وظيفته يعتمد كثيرًا على الحس والحواس، على حين أن الموضوع الذى نحن بصدده كله غيب فى غيب.

المنهج العقلى يبدأ من المشاهد إلى الغائب، والمنهج العرفانى لا غائب هنا ولا هناك فهو مشهود وحاضر عند القوم.

العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

العقل آلة العبودية وليس للإشراف على الربوبية.

العقل يعتمد على الفروض والتجويزات والاحتمالات والموضوع الذى نحن بصدده هو اليقين.. كل اليقين.. إنه عين اليقين.

العقل قد يصاب بالتقليد أو بالتأويل المغرض للمنفعة، وهذه من أسباب الحيرة والضلال.

وهكذا فإن طبيعة العقل ووظيفته لا تسمحان له بالخوض فى وسط مخالف لطبيعته ووظيفته.. فأنى(.) للسفينة أن تمخر فوق اليابسة! وأنى(..) للحصان أن يركض فوق الماء! كما سبق القول.

(.) بضم الأول وتشديد الثالث وفتحه.

(..) بتشديد النون وفتحها.

إن الإنسان بعقله وحده لا يستطيع أن يدرك كل شيء عن كيانه فأنى إله أن يدرك الملكوت الأعلى.. أو كما يقول أبو عبدالله الجلاء (ت٣٠٦):

كيفية المرء ليس المرء يدركها

فكيف كيفية الجبار فى القدم[٢]

هو الذى أحدث الأشياء مبتدعًا

فكيف يدركه مستحدث النسم؟

وينتهى المتصوفة إلى أن العقل فى حساب الأنوار يشبه الشمعة، والشمعة لا قيمة لها إذا استضاء المصباح والمصباح لا قيمة له عندما يطلع النجم، والنجم لا فائدة منه إذا هل القمر، والقمر لا جدوى منه إذا طلعت الشمس و(الشمس ظلام عند تلألؤ) شمس شموس التوحيد.

وهذه الشمس العظمى لا تظهر للعبد طفرة واحدة بل تسبقها لوائح وطوالع ولوامع.. يوضحها الشيخ بقوله:

«هذه ألفاظ متقاربة المعنى، وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب.

إذا أظلمت سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح لهم فيها لوائح المشف وتلألأت لوامع القرب.. فهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح كما قال قائلهم:

يأيها البرق الذى يلمح

من أى أكناف السما تسطع

(٢) شذرات الذهب جـ٢ ص٢٤٩ لابن العماد الحنبلى.
(مكتبة القدسى ١٣٥٠هـ).

فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع.

اللوائح كالبروق ما تظهر حتى تختفى، واللوامع أظهر منها وليس زوالها بتلك السرعة، والطوالع أبقى وقتا وأقوى سلطانًا وأنفى للتهمة لكنها موقوفة على خطر الأفول، وأحوال أفولها طويلة الأذيال.

ومن ذلك أيضا (البواده والهجوم)، فالبواده ما (يفجأ) قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما موجب فرح أو موجب ترح، والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك، ويختلف فى الأنواع حسب قوة الوارد وضعفه، فمنهم من تغيره البواده وتصرفه الهواجم.

(ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة أولئك سادات الوقت)

وقيل:

لا تهتدى نوب(.) الزمان إليهم

ولهم على الخطب(..) الجليل لجام[٢]

وتتم المشاهدة إذا صحت سماء السر عن غيوم الستر، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف، وتتالى أنوار التجلى على القلب من غير أن يتخللها ستر أو انقطاع:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى الناس سارى

والناس فى سدف الظلا

م ونحن فى ضوء النهار

(.) بضم الأول وفتح الثانى.

(..) بفتح الخاء وسكون الطاء.

(٢) الرسالة ص٤٣، ٤٤.

وينهى الشيخ الفقرة المتصلة بظاهرة البناء على (الفتح) فى نحو الظاهر، وأنها تناظر (الفتوحات الإلهية) فى نحو الباطن، وكيف يعيش العارفون فى سعادة لا مثيل لها، سعادة تغمرهم وتمتد إلى كل من يتصل بهم، فالعارف سيد وقته، بعيد عن كل ما ينغص عليه حياته، لأنه بعيد عن كل (العوامل) التى تقلق (راحته وأنسه).

«ومن ذلك ما بنى على الضم وصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار، غير معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار».

إذا كان الضم فى المعرب - كما قلنا من قبل - هو أثقل الحركات، فما بالك بمن يلازم الضم مدى عمره بسبب (البناء) عليه؟ وحتى إذا غابت الضمة فإن شيئًا ما ينوب عنها ويقوم مقامها (كما فى حالة المنادى العلم المفرد الذى يكون مثنى أو جمع مذكر سالم).

وهنا فى نحو القلوب اختار الشيخ لمن يمثل هذه الحالة ذلك المحب المأخوذ المصطلم الذى ذابت إرادته فى إرادة مولاه تماما، ولم تعد منه بقية ولا تكلف ولا اختيار، فهو متمكن غير متلون (المتلون هو المعرب) تجرى من حوله الدنيا صاعدة هابطة ولا شأن له بها، وتقع عليه الأحوال من وصل ومن فصل، وقرب وبعد، وبسط وقبض، وفرق وجمع... وهو هو... لا يبدو عليه شىء ولا يبدر منه شىء، لأن قوة الواردات عليه لاتدع له - مهما اختلفت الأطوار - أية فرصة للآثار ثابت كالجبل الأشم، «لقد وصل فاتصل، وأمارة أنه اتصل أنه عن نفسه بالكلية

ما زلت انزل فى ودادك منزلا

تحير (٠) الألباب دون نزوله

(٠) بتشديد الياء وفتحها

هذا منزل اختير له وأحل (.) فيه، ولم يعد يملك عنه فكاكا.. **إنه حالة توحيد، فالتوحيد هنا (ضم) لاتفرقة فيه إنه حال (جمع الجمع).** وتوضحها رسالة القشيرى:

«من أثبت نفسه وأثبت الخلق (..) ولكن شاهد الكل قائما بالحق فهذا جمع، وإذ كان مختطفًا عن شهود الخلق، مصطلمًا عن نفسه، مأخوذًا بالكلية عن الإحساس بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع» (٤).

«فالعتب عنه مرفوع، والعذر عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه - فى الشرع - فعل فيتوجه عليه تعنيف».

هؤلاء بأسر (...) القدرة، مشكل بين الورى حديثهم، ملتبس - على الكافة - أمرهم».

مرة أخرى ما زال الحديث يستطرد حول (المبنى على الضم)، هذا الذى هو بأسر القدرة.. ما حيلته - وقد فقد كل حيلة؟ ما مسئوليته وقد تلاشت إرادته؟ ماذا ينتظر منه وعقله غائب وذائب فيما يشهد من الأنوار الغالبة عليه؟

إنها حقًا المعادلة الصعبة!.

ومن أمثلتها العملية ما حدث للشيخ أبى الخير الأقطع (ت سنة نيف وأربعين وثلثمائة) حينما وقع مريضًا وقد أصابت ساقه (غرغرينا)، ورأى الطبيب ضرورة قطعها فورًا، فأشار تلاميذه عليه أن يقوم بذلك عندما

(.) بضم الهمزة وكسر الحاء.

(..) بسكون اللام.

(٤) الرسالة ص ٩٣.

(...) بسكون السين.

يكون شيخهم فى حال المحو، وتمت العملية الجراحية دون أن تظهر على المريض العظيم دلائل الجزع أو تصدر عنه آهة التوجع.

وقد نبهنا القشيرى إلى هذه المعادلة الصعبة بعباراته الدقيقة (مشكل بين الورى حديثهم) (٠).

هذا عبد بدا كمن يسير بجوار البحر ثم سبح فى البحر ثم غرق فى البحر، وهو فى هذه الحالة الأخيرة فى كنف الرحمة الإلهية، لا يملك لنفسه شيئًا، وهو غائب فيما يشهد من التجليات، وهو فى ذات الوقت لم يفقد وسيلته التعبيرية الإنسانية المعروفة.. (اللسان)، فما الأمر فى خروج أشياء عن هذا العبد لتجرى على اللسان قسرًا ودون إرادة، وطبعى أن هذا الذى سيجرى على اللسان سيكون صادرًا عن وجود يختلف عن الوجود العادى: وجود (الورى) و (الكافة).. وليس الأمر أمر تعبيرات جارفة قد تكون مخالفة بل ربما صدرت عنه أيضًا وهو فى هذه الحال تصرفات وسلوكيات على نفس القدر من الغرابة.. أرأيت إلى العبد الصالح المرافق لموسى عليه السلام فى سورة الكهف: من خرق للسفينة، وإقامة لذلك الجدار المنقض، وقتل للغلام!.

تلك أفعال بدت لموسى - مع جلال قدره - غير مقبولة ، لأنها لا تستقيم مع المنطق الظاهرى.. حتى جاء الوقت الذى عرف فيه موسى علل هذا كله حسب منطق آخر.. بعيد عن عالم الظواهر والمظاهر.

وأحاديثهم هنا كما وصفها الشيخ (مشكلة) و (ملتبسة) - على الناس العاديين. هذا حق.. وهو ما يعرف «بالشطح» ومع أننا قد سبق أن تناولنا ذلك فى مواضع مختلفة إلا أننا مضطرون هنا إلى مزيد من الضوء على المسألة. ونكتفى بما أورده السراج فى «اللمع» تعريفا لهذا الشطح:

---

(٠) بضم الثاء.

«إنه كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم».

وهو تعبير عن أزمة يمر بها الوالهون، لأنهم فى لقاء من نوع فريد، الحق والخلق (٠)، واللغة لم تحسب حساب هذا الموقف، ولم تضع له مفرداته وتراكيبه، والعبد بشر لم ينسلخ عن بشريته مهما قيل فى وصفه فالمتوقع أن تصدر عنه كلمات مبهمة بلا قصد، وربما مسرفة بلا عمد.. ولكنها فى عرف أهل الجواهر متناغمة ومنسجمة مع الباطن المحتدم!

تلك مسألة تقتضى فهمًا للموقف وتذوقًا لتعبير وحسن نية فى التماس المعاذير.

وقل فى الناس من هو مستعد لكل ذلك حيال هؤلاء الذاهبين. وهذا بالضبط ما حدا الصوفية إلى اتخاذ بعض المواقف الإجرائية، فنادوا بأنهم من الخواص، ونادوا بأن أسرارهم بكر، ونادوا بأن الدخلاء يفسدون عليهم خلواتهم.. وأخيرًا حاولوا وضع تفاسير وشروح لألفاظهم.. التى ليست شيئًا آخر غير ألفاظ اللغة العادية ولكنها حين جلبت إلى بيئتهم، ووصفوا بها أحوالهم حملت من الشحنات النفسية ما جعلها ذات دلالات جديدة يفقهها أوساطهم. شأن أى بيئة ذات نشاط خاص ولغة خاصة... فهل فى هذا ضير!!؟ أليس من المحزن أن يلقى الصوفية فى بعض العصور مصارعهم حينما يكون أحدهم فى حال (المبنى على الضم)

ومن الأمثلة العملية على ذلك الحسين بن منصور الحلاج الذى ما كان إلا والهًا مأخوذًا عند هذه الحال فاقتادوه إلى المقصلة المنصوبة له فى بغداد عام ٣٠٩ ومضى نحو المقصلة يغنى:

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى

وقبل أن يقتلوه راحوا يسألون الشبلى - أحد كبار الطائفة - فى أمره فأجاب فى شجاعة: أنا وابن منصور شىء واحد ولكنه أظهر وأنا كتمت!.

(٠) بسكون اللام.

ولو أعدنا صياغة عبارة الشبلى (**بلغة نحو القلوب**) لقلنا: أنا وابن منصور كلانا (**مبنى على الضم**) وأن الحلاج قد حول (**المبنى إلى معرب**) حين تجرأ و(اعرب) عن حاله، وتلك إحدى نهايات (المشكل) (الملتبس) كما تصورها الشيخ.

* * *

ويختم الشيخ موضوع (البناء) قائلاً:

«ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، ومن قصوره مصروف، لا يغنى عن جده (.)، ولا يسعده جده (..)، يطول به الزمان وتتوالى عليه الحدثان وهو من أول حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة الانتفاص».

هنا - فى هذه الفقرة - يعرض القشيرى لذلك المبتدئ الذى فكر فى التخلى عن العادة والدخول فى طريق العبادة تحت تأثير دوافع معينة وبذل فى ذلك بعض الجهد والوقت.. ولكنه سرعان ما تردد ثم توقف وأخيرًا انتكس، وعاد إلى المحاولة من جديد مرة بعد مرة، ولكنه فى نهاية الأمر لم يفلح فى شىء.

وهكذا (وقف) فى مكانه لا يريم، فانصرف أو صرف عن القصد بعدما استبان له أخيرًا أن اجتهاده من النوع الذى لا جدوى منه (فما أغناه جده(...)، وما أسعده جده (....)).

والإشارة فى الفقرة إلى (عدم تجاوزه سورة الإخلاص) دقيقة جدًا، فهى من ناحية تدل على أنه لم يجاوز قصار السور أى كان عند حدود البداية

(.) بكسر الجيم.
(..) بفتح الجيم.
(...) بكسر الجيم.
(....) بفتح الجيم.

فقط، وهى من ناحية ثانية تشير إلى أنه مع كل ما حدث له من انتكاس إلا أنه ما زال يؤمن بالأحدية. إيمانًا يبعده عن الحب فى تيار التوهم والتصور، ولم يقع فيما يقع فيه آخرون من جدل فارغ حول الكيفية بصورة توشك أن توقع فى التشبيه، وظل إيمانه لا يتزعزع بأن:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. تعالى الله عن الأضداد، والأنداد، ليس كمثله شىء.

وكل ما يصوره الوهم فالله بخلاف ذلك.. سبحان الله.

** هذا هو فى تقديرنا ماأراد الشيخ أن يوضحه وأن يحدده، من واقع تجربته الذاتية، وتمرسه بالطريقة وأهلها، واكتشافه عن كثب لبعض عناصر المبتدئين، كيف يقتحمون ويتحمسون.. ثم يخمدون وينصرفون.

فأراد أن يشخص هنا هذا الموقف وكيف أنه (وقفة على السكون) وجمود فى الخطوات الأولى على الدرب.

ولكن ماذا يعينه ويعيننا ومن هذه المحاولات الفجة التى لا تفيض استمرارًا على الدرج العرفانى؟

الإجابة.. إن الشيخ لم ينوه بذلك عبثًا وإنما هو هادف إلى مرام بعيدة نستنبطها على النحو التالى:

١ ـ يريد أن يميز بين هذا الموصوف (بالبناء على السكون) وبين من [·] لازم (البناء على الكسر) الذى استهل به موضوع البناء وأخرجه حتى من زمرة المهتدين وألحقه بإخوان الشياطين.

٢ ـ يريد أن يفضح بعض المبتدئين الذين يدخلون الطريقة غير جادين، فيشيعون بين الأصحاب الكثير من الأباطيل التى قد توهن العزائم فيكونون عبئًا على القوم.. فمن الخير اجتثاثهم قبل أن يستفحل وباؤهم.

٣ ـ أن الجهد الإنسانى إذا لم يكن مصحوبا بالفضل، والاختيار الإلهى لا يأتى منه شىء مهما تكررت المحاولات (ومهما طال الزمان وتوالت الحدثان).

٤ ـ إنه يريد أن يقول للكافة من المتدينين أن هذا الطريق خاص، وليس بالضرورة أن يكون كل الناس فى كل الأزمان من الصوفية.. فكل ميسر لما خلق له.

٥ ـ أنه يوجه ـ بطريق غير مباشر ـ (نصيحة إلى الشيوخ وكيفية تعاملهم مع المبتدئين، وفرز آحادهم بعين دقيقة فاحصة. فمرحلة البداية خطرة.. لأنها انتقال من العادة إلى العبادة، من الخلق (..) إلى الحق، فهى مليئة بالارتباطات والجواذب والصراع.. وكل ذلك فى حاجة إلى يقظة الشيوخ، وواجبهم الا يتركوا الأمور تجرى على سجيتها حتى لا تختلط الأمور.

ونسوق هنا بعض هذه النصائح التى توخى الشيخ أن يهمس بها فى آذان الشيوخ فى مثل هذه الأحوال، وأن يقرع ناقوس الخطر أمام المريدين:

«إذا مال المريد فى البداية إلى (وقفة) فعلى الشيخ أن يجريه عن طريق تلقينه ذكرًا من الأذكار حسبما يراه ملائمًا له، ويأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ثم يأمره أن يسوى قلبه مع لسانه، ثم يقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبدا بقلبك، ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك، ثم يأمره أن يكون أبدًا فى الظاهر على الطهارة، والا يكون نومه إلا غلبة، وأن يقلل من غذائه على التدريج شيئًا بعد شىء حتى يقوى على ذلك. ولا يأمره أن يترك عادته بمرة فإن فى الخبر «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

(.) بفتح الميم.
(..) بفتح الخاء.

ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة، ويجعل اجتهاده فى هذه الحالة لا محالة فى نفى الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب..... وعلى المريد أن يلازم موضع إراداته، وإلا يسافر قبل أن تقبله الطريق، فقبل الوصول بالقلب إلى الرب فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل.

وعلى المريد أن يكون سبيله احترام الشيوخ والخدمة للأصحاب، وترك الخلاف عليهم، والجهد الا يستوحش منه قلب شيخ.

ويجب أن يكون المريد فى صحبة الفقراء أبدًا خصمًا مضادًا لنفسه ونزوعه، وأن يرى لكل واحد منهم قدرًا ولا يرى لنفسه واجبًا على أحد»[٥].

بهذه التربية الواعية يظهر معدن المبتدئ إبان فترة الانتقال، فإن استجاب زيدت عليه مقادير من الرياضات والتوجيهات تؤدى به إلى مرحلة أرقى.. وإلا فهو (موقوف عند السكون) كما نصت الفقرة. وكان من الخير إبعاده نهائيًا من زمرة القوم، لأنه سيكون عظمة فى الحلقوم، ونغمًا نشازًا وسط هذا الإيقاع الهادئ.. وسينعكس هذا بدوره على المريدين النشيطين الذين يترسمون الطاعة للشيخ، والانضباط فى الطريق.

ويختم الشيخ هذا الباب الكبير «باب الإعراب والبناء» بهذه العبارة:

«كذلك الأحكام: مختلفة الأقسام والأقدار، متفاوتة الأدوار».

أى كما اختلفت أقسام الكلام إلى اسم وفعل وحرف فى (نحو اللسان) وكما نال كل نصيبه من التأثير والتأثر، وكما انطبع آخر كل منها بخاتم خاص يمنحه الثبات (فى البناء) أو التغير فى (الإعراب).

وكما تتفاوت الأدوار التى يؤديها كل فرد منها فى تحقيق الإبانة عن غرض المتكلم من أجل تحقيق الفائدة.

---

(٥) الصفحات الأخيرة من الرسالة.

وكما أن أى قصور أو نقص فى جزئية من الكلام تحول دون الفائدة المرجوة..

فكذلك فى (**نطق القلب**) وفى كل منطقة يكون النظير فى علم الباطن حيث نطالع نفس الأحكام والأقسام والأقدار والأدوار.. فليعلم كل (٠) موقعه ودوره فى القصة بكاملها.

ولله وبالله الأمر فى كل الأحوال.

هذا..

وتبقى فى الإعراب والبناء ملاحظات أخرى تذكر فى أماكنها من الأبواب التالية، تستكمل بشروحها.. وبالله التوفيق.

* * *

(٠) بالتنوين.

فصل [٨]:

المعرفة والنكرة

«الأسماء على ضربين اسم معرفة واسم نكرة.

وفى الإشارة: الخلق كذلك فمن صاحب (٠) معرفة، ومن صاحب ومن نكرة.. ولكل حد (٠٠) ووصف.

فالاسم النكرة يصير معرفة ولا رتبة فوق أن صار معرفة، كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان.

قال المشايخ: ما رجع (٠٠٠) من رجع إلا من الطريق أما من وصل فما رجع».

---

(٠) بالكسر مع التنوين.

(٠٠) بتشديد الدال مع التنوين.

(٠٠٠) بفتح المهم.

النكرة ـ فى الظاهر ـ ماعبر عن شىء شائع فى جنس. وليست دالة على محدد أو معين مثل رجل وفرس، والمعرفة ما دلت على معين محدد مثل: الرجل والفرس.

يقول ابن مالك فى علامات النكرة والمعرفة:

نكرة قابل (أل) مؤثرا	أو واقع موقع ما قد ذكرا
وغيره معرفة كهم وذى	وهند وابنى والغلام والذى

أى أن علامات النكرة أن تقبل (أل) أو تقع موقع ما يقبلها، فالأول كرجل، والثانى ذو بمعنى صاحب ـ وهذه تقبلها فتقول: الصاحب.

وتكتسب النكرة التعريف أيضًا إذا أضيفت إلى معرفة وهى حسب قول ابن مالك: الضمير ، واسم الإشارة والعلم والموصول والمحلى بأل.

«ولام التعريف إذا دخلت على النكرة المنون حذفت تنوينه، وذلك لأن اللام للتعريف. والتنوين من دلائل التنكير فلما ترادفا على الكلمة تضادا فكان الحكم لطارئهما وهو اللام» (١).

ويتجه السيوطى إلى أن (أصل الأسماء أن تكون نكرات، ولذلك كانت المعرفة ذات علامة وافتقار إلى وضع لنقلها عن الأصل) (٢).

* * *

نعود إلى نحو القلوب عند الشيخ.. فنحس وهو يقول «فالاسم النكرة يصير معرفة. ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان».

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/ ٦٢.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطى ٢/ ٣٤.

أنه منصرف بذهنه نحو العارف ورتبة المعرفة فى طريق السالكين، وهما عنده قمتان فى المنهج.. فالعارف الموحد (٠) هو الولى، ولا رتبة بعد الولاية، (ولا رجوع عنها). إنما الرجوع كما أوضحنا منذ قليل يكون للمبتدئين فهم المعرضون للانتكاس والعودة إلى الدنيا.. فإذا عادوا عادوا (نكرات) دون أن يرتدوا رداء (أل) فقد تم تجريدهم من هذا الوسام.

وفى اللطائف وصف مفصل لهذا العائد الذميم (إلى مألوفاته، وينحط إلى ذميم عاداته، مرتدًا عن سلوك الطريقة متردیًا فى ظلمة الغفلة، ويصير وقته ليلا مظلمًا، ويتطوح فى أودية التفرقة، ويوسم الطرد، ويسقى شراب الإهانة، وينخرط فى سلك الهجر) أما من استمر فى طريق (المعرفة) فإنه مشمول (بأنوار اليقين) التى تنفى ظلمة الشك، وبنور العلم الذى ينفى تهمة الجهل، وبنور (المعرفة) الذى ينفى أثر (النكرة) وبنور المشاهدة الذى ينفى آثار البشرية» (٢).

لأجل هذا لا نتصور أن من مقاصد الشيخ أن تكون (أل) هى رداء الصوف أو الخرقة أو أى مظهر من المظاهر وإلا لاحتوى المبتدئين والأدعياء السابق ذكرهم.. فما أسرع ما يتحلون بهذه الشكليات دون الجواهر، وإنما نتصور أن المقصود برداء (أل) هو ذلك التغيير الشامل الكامل النافذ إلى أعمق أعماق الحياة الروحية.. وبهذا يكتسب (التعريف) فى أقوى صورة، حتى لو كان فقيرًا خاملاً، ومن أجلى صفات هذا (المعرف) أن لديه من الشجاعة الأدبية ما يقوى بها على مواجهة أعلم الأعلام فى عصره حتى لو كان سلطانًا متقلدًا سيفه.. استمع مثلا إلى الحسن البصرى الزاهد العارف وهو يخاطب والى العراق: «يا عمر بن هبيرة.. إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد من الله عز وجل.

(٠) بتشديد الحاء وكسرها.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٤٢٢ و ص ٢٩٦.

يا عمر.. لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة كانوا ـ والله ـ على الدنيا وهى مقبلة أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهى مدبرة.

يا عمر.. إنى أخوفك مقامًا خوفكه الله تعالى.

يا عمر.. إن تك مع الله فى طاعته كفاك بائقة يزيد، وإن تك مع يزيد على معاصى الله وكلك إليه»[٤].

ولكى نصف سجايا وأحوال هذا (العارف) (المعرفة) نستدعى للشهادة واحدًا من خارج البيئة الصوفية.. هو ابن سينا الفيلسوف الطبيب الذى أتيح له مرة يخالطهم وأن يحاورهم، فخرج من ذلك بفكرة مختلفة عما كان يراهم بها من قبل، وأثبت فى آخر كتابه العظيم (الإشارات والتنبيهات) صفحات طوالا فى وصف المعرفة والعارف.. يعترف هو نفسه بأنها أجل ما كتب، وسنسمح لأنفسنا أن نستمع طويلا إلى هذا الشاهد المتميز وهو يدلى بدلوه فى موضوع من أخص خصائص أهل القلوب ـ وهو بعيد عن بيئتهم:

«المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص (.) باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديمًا لشروق نور الحق فى سره يخص باسم العارف، وقد يتركب بعض هذه مع بعض.

العارف يريد الحق الأول لا لشىء غيره، ولا يؤثر شيئًا على عرفانه وتعبده له فقط، لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه.

إذا بلغت الإرادة بالعارف حدًا ما عنت (..) له خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه. ثم تخمد عنه ـ وهو المسمى

---

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ٢ ص ١٤٩.

(.) بضم الأول وفتح الثانى.

(..) بتشديد النون وفتحها

عندهم أوقاتًا. وكل وقت يكتنفه وجدان: وجد (.) إليه ووجد عليه. ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض حتى ليكاد يرى الحق فى كل شىء. ولعله إلى هذا الحد إنما تتسنى له هذه المعرفة أحيانًا ثم يتدرج إلى أن يكون له متى شاء حتى يصير سره مرآه مجلوة محاذيًا بها شطر الحق فيغيب عن نفسه ويلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة لا من حيث هى بزينتها... وهناك يحق الوصول».

لاحظ إصرار ابن سينا على بقاء الاثنينية (= العبد عبد والرب رب) حتى فى أعلى درجات الوصول والاتصال.. فلا تداخل ولا حلول ولا امتزاج.

ويمضى ابن سينا فى صفحاته الطوال عن ذات الموضوع فيقول:

«العارف هاش باش بسام.. يبجل (..) الصغير من تواضعه مثلما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل مثلما ينبسط من النبيه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فإنه يرى فيه الحق ؟!

وكيف لايسوى بين الجميع والكل عند سواسية ؟!

العارف له أحوال لا يحتمل فيها الهمس من الخفيف فضلا عن سائر الشواغل الخالجة. أما إذا شغله الحق عن كل شىء فهو أهش خلق الله ببهجته».

ويردف ذلك ببعض التنبيهات مثل:

تنبيه: العارف لا يعنيه التجسس والتحسس، ولا يستهويه الغضب عند

(.) بسكون الجيم.

(..) بضم الياء وفتح الباء وتشديد الجيم وكسرها.

مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فإنه مستبصر بسر الله فى القدر (٠)، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير (٠٠).

تنبيه: العارف شجاع.. وكيف لا؟ وهو بمعزل عن تقية الموت. العارف جواد وكيف لا؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل. صفاح.. وكيف لا؟ ونفسه أكبر من أن يجرحها زلة بشر، نساء للأحقاد.. وكيف لا؟ وذكره مشغول بالحق.

ويختم ابن سينا هذه التنبيهات الروائع بإشارة لها مقاصد بعيدة:

«إشارة: جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد.. ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل(٠٠٠) وعبرة للمحصل.. فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه لعلها لا تناسبه.. وكل ميسر لما خلق له» (٥).

* * *

ولو أتحنا لأنفسنا هنا أن نختار أحد أنواع (المعرفة) وهو «الضمير»، ولو أجزنا لأنفسنا أن نتأثر منهج الشيخ فى استنباط الإشارات لأحسسنا بغبطة ونحن نقارن فى الواعية بين أوصاف «الضمير» فى نحو الظاهر وأوصاف نظيره فى نحو الباطن.. استمع وتأمل الكلمات: ضمير (مستتر) و (منفصل) و (متصل) و (مخاطب) و (غائب)..

ثم إن هذا «الضمير» وهو من أعرف المعارف ونحوها. مأخوذ لغويًا من قولهم: أضمرت الشىء فى نفسى إذا سترته وأخفيته، أو من قولهم قوس

(٠) بفتح القاف والدال.

(٠٠) بتشديد الياء وكسرها.

(٠٠٠) بضم الميم وتشديد الفاء وفتحها.

(٥) آخر كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا. (فصل المعرفة والعارف).

ضامر.. فالضمور النحافة والهزال.. «وضمير» نحو الظاهر غالبًا ما يكون قليل الحروف،والمتصل منه أحضر من المنفصل مثل: نعبدك مقارنًا بـ (إياك) نعبد. ويعبر عنه بالكناية أو المكنى لأنه يكنى به (أى يرمز به) عن الظاهر اختصارًا لأن اللبس مأمون مع الضمير. والضمير المتصل هو الذى لا يصح أن يبدأ به الكلام، ولا يقع بعد «إلا» فى الاختيار. والضمير المنفصل هو مايصح أن تبدأ به الكلام ويصح أن يقع بعد إلا. وتاء المتكلم خصت بالضم فأعطيت أقوى الحركات لأن أكثر ما يخبر به الإنسان عن نفسه، وللتفرقة أعطوا المخاطب التاء ذات الفتحة وأخذت الأنثى التاء ذات الكسرة.. فى الكسر رقة [٦].

(٦) توسعنا فى «الضمير» دون غيره من المعارف لأن القشيرى لم يفرد له حديثا خاصا، فأردنا أن نكمل باجتهادنا المتواضع شيئا فى الموضوع حتى نتمم الفائدة.

فصل [٩]:

المفرد والمثنى

(أ) : الاسم المفرد إذا ثنيته (٠) الحقته الفا في حال الرفع، وياء في حالي النصب والجر، ونونًا بعد الألف والياء.

ونون التثنية مكسورة وهي تسقط عند الإضافة.

(ب) والإشارة منه: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد. والاثنان لا واحد له من لفظه، فلا يقال من الواحد واحدان، ولا من اثنين اثن... فهذا محال في التقدير.

(جـ) كذلك الذي هو «واحد» في الحقيقة يستحيل ان تزول عنه وحدانيته تقديراً ووجوباً.

والذي يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير فرداً لا ثاني له ـ تقديراً قال الله تعالى:

«ومن كل (٠٠) خلقنا زوجين اثنين».

---

(٠) بتشديد النون وسكون الهاء.

(٠٠) بتشديد اللام مع التنوين.

القاعدة (أ) بسيطة جدًا (الف ونون للمثنى فى حال الرفع وياء ونون مكسورة فى حالى النصب والجر) وبالنسبة لجمع المذكر السالم واو ونون مفتوحة فى حال الرفع، وياء ونون مفتوحة فى حال النصب والجر.

ويفسر بعض النحاة ذلك على أساس أن المفرد هو الأصل فتم إعرابه بالأصل وهو الحركة. أما المثنى والجمع ففرعان على الأصل فأعربا بالفروع التى هى الحروف.

ويرجع بعضهم كسرة النون فى المثنى إلى أن المثنى خفيف والكسر ثقيل فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل.

والجمع السالم ثقيل والنون المفتوحة خفيفة فيحدث التعادل [1].

وفى جميع الأحوال يبقى المفرد من حيث بنيته التركيبية على حالها دون أن تمس، ثم تأتى الزيادات الدالة على المثنى أو جمع المذكر السالم بلا إصابة تعتور المفرد.

فإذا انتقلنا إلى (ب) فإننا نواجه الإشارة المستنبطة من مجمل القواعد السابقة، فالشيخ يلفت نظرنا إلى ظاهرة طريفة حقًا، فهو يستحضر فى ذهنه وحدانية اللّه سبحانه، ويريد أن ينزهها عن الشريك بطريقة فيها حبكة شديدة فى التنظير بين العبارة والإشارة، ومن هذا المنطلق فكأنى به يقول:

اللّه واحد:

فإذا أردت أن تضيف إليه شريكًا مثله ويطابقه فى كل شىء لعجزت تمامًا عن ذلك، لأنك بمقاييس اللغة لا تستطيع أن تثنى (واحد) إلى (واحدان) فمرفوض إذًا أن يكون هناك (واحد) آخر يشابه أو يماثل

---

(١) حديث التعادل سيعاد طرقه فى باب تمييز العدد بهذا الكتاب بتفصيل.

(الواحد) الأول.. وبهذا تنتفى الندية والمشابهة والقدم عن الواحد المجلوب (الثانى). وإذًا فالأديان والمذاهب التى تأسست على (الثنوية) فى الألوية كالزرادشتية والمانوية والمزدكية مرفوضة.. وأولى من ذلك تلك التى تتأسس على التثليث.

ومع ذلك فلنتمش مع الفرض أنهما فى التثنية: واحد - اثنان فهيا نستخرج من هذه الأخيرة مفردها حسب السياق المطرد: (اثنان) تصير (اثن) بعد حذف علامات التثنية.. (اثن) هذه لا وجود لها فى اللغة ولا فى النحو ولا فى القاموس ولا فى كلام العرب، إذًا فقيامها وحدها مستحيل، وإذًا فوجودها باطل فى أساسه، ولا يمكن أن نقرأها ذات معنى إلا داخلة فى تركيب (اثنان).

وتلك هى الأشياء الكونية المخلوقة ومعنى قوله تعالى:

«ومن كل (٠) خلقنا زوجين اثنين» فعلى حين ترفض (اثنان) فى (الخالقية) فإنها ضرورة للحياة والنظام الكونى فى (المخلوقية). وبنفس المقدار تقبل (واحد) فى الخالقية بينما ترفض (واحدان) فيها. ولا انتظام للثانية إلا إذا (توحدت) الأولى.. وسبحان الله فى علائه وتوحده، ليس كمثله شىء.. تفرد بالملك فلا شريك يساميه وتوحد بالجلال فلا نظير يقاسمه، فهو الواحد بلا قسيم فى ذاته، ولا شريك فى مخلوقاته، ولا شبيه فى حقه وصفاته.

ويعود القشيرى إلى هذه المعانى كثيرًا فى مواضع مختلفة من مصنفاته، لأن التوحيد هو قضية الإسلام الأولى - كما نعلم، فالقرآن ألح عليها إلحاحًا قويًا.

---

(٠) بتشديد اللام والتنوين.

ومن أمثلة ذلك قوله فى اللطائف (لو كان له شريك لوجب أن يكون له ند [·] مضاه [··]، وفى جميع الأحوال له مواز، ولم يجد [···] التمييز بين فعليهما.

وكذلك لو كان له ند فإن إثباتهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما فى استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه مستحقًا له.. وهذا يؤدى إلى الا يعرف [····] المحل.. وذلك محال) [٢]. ويقول فى موضع آخر (إثبات الواحد ضرورة، وقدرة الاثنين محصورة) [٣].

(·) بكسر النون وتشديد الدال.

(··) بتنوين الهاء وكسرها.

(···) بضم الياء وسكون الجيم.

(····) بضم الأول وفتح الراء.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٢٢٣.

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٢٠١.

فصل [١٠]:

تتمة فى المفرد والمثنى

«وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير، فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء. كذلك العبد ما دام بقلبه مفرداً (٠) مجرداً (٠) فهو فى أسمى نعوته، فإذا حصلت علاقة المواصلات وقع فى التلوين فمرة ومرة».

(٠) بتشديد الراء.

قلنا فى شرح الفقرة السابقة أن المفرد أصل والمثنى فرع.

وأن المفرد يعرب بالأصول (الحركات) والمثنى يعرب بفروع لهذه الحركات أى (بالحروف).

وكذا المنفرد ببنيته الأصلية محافظ على كيانه، فإذا ما أدخل (.) فى عالمه الانفرادى قوى خارجية فإنها تتجاذبه يمنة ويسرة، وربما تفقده انفراديته الشريفة المستقلة بالله، وتوقعه فى صراعات النفس والهوى والشيطان والخلائق.. كل ذلك نتيجة (الاثنينية) وما يصاحبها من تغيرات وتوجهات. ولو سارت الأمور على طبيعتها السليمة فإن هذه التوجهات لو كانت لله سبحانه كان المقام (الرفع)،أما إذا مالت أو جنحت إلى ما هو غير الحق أصيب العبد (بالخفض) أو (النصب) وكلاهما بالياء أى بحرف يميل نحو التسفل، ولا أمان بعد ذلك من مظاهر (التلوين) والبعد عن (التمكين).

معنى ذلك فى كلمات قصار: ان (القلب المفرد المجرد مرفوع) وأن (القلب الموزع بين العلاقات مشتت حائر) لا أمامه ولا تحت أقدامه دليل إنه أشبه بالغريب الذى يتطوح فى مطارح الشتات !.

ولعل حال المنافقين من أكثر النماذج ملاءمة لحال التوزع هذه، فهم لا يستطيعون الجمع بين صحبة المسلمين وعشرة الكفار، فهم يقولون لكل فريق نحن بجانبكم، فيعيشون فى وقت واحد بين إضمار وإظهار.

وهذا وحده مدعاة لصراع باطنى محتدم لا يجلب الراحة أو القرار فضلا عن أنه مبغوض عند الله من البداية وعند الناس أو أن انبلاج الحقيقة وافتضاحهم، فينفون عن هؤلاء، وأولئك. ويلحق القشيرى بهم المترددين بين العادة والعبادة فى الطريق فيقول فى لطائفه عند قوله تعالى:

(.) بفتح الهمزة.

«مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».

(كذلك من رام الجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة فإن ذلك لا يلتئم. فالضدان لا يجتمعان، و«المكاتب عبد مابقى عليه درهم» وإذا أدلهم الليل من ههنا أدبر النهار من هاهنا. فمن كان له فى كل ناحية خليط، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهبًا للطوارق ينتابه كل قوم، فقلبه أبدًا خراب، لا يهنأ بعيش، ولا له - فى التحقيق (رزق من قلبه، قال قائلهم: -

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ويؤكد المعنى نفسه فى موضع «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون [ ]» فيقول: (لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين، والكون - فى حالة واحدة فى محلين. فالعبد إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ، وأما حصول الأمرين فمحال) [٢].

ولهذا كله يقول شيخنا «ونون التثنية أبداً مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح».

هذه النون فى نهاية المثنى (مكسورة) أشبه بالجناح (المكسور) على الدوام.. بل إنه من العجيب أن هذا الجناح المكسور ربما يصاب بالبتر و(الحذف) عند الإضافة أى عند مزيد من العلاقات المتراكمة.. فهى **«تسقط عند الإضافة لأنه بدل التنوين فى الواحد. والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان. كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة. فالصفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة، فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط**

---

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٧٦.

(٢) اللطائف المجلد الأول ص٩٧ والحقوق للحق سبحانه والحظوظ من قبل العبد.

(٠) البقرة/ ٤٢.

فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه الأنس [.] فالهيبة كالمقابل، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل وعلى هذا النحو جميع أوصافه».

نقل الشيخ إشاراته إلى أحوال العرفان.

والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبه كيفما شاء وعلى العبد الامتثال.

وفى تلك الأحوال تكتسح الحال اللاحقة الحال السابقة وتحل محلها وتبقى الغلبة لها.. وهكذا، والعبد ينزل على حكم الوقت وإلا ناكده وتحول عليه إلى مقت.

كذلك فى نحو الظاهر يجرف شىء شيئًا آخر: (كالإضافة) حينما تزيح (التنوين) فهما لا يجتمعان.

وضرب الشيخ مثالين للأحوال، كالقبض يزيح البسط والعكس، والأنس يزيح الهيبة والعكس.. ونتريث قليلاً عندهما لزيادة تفهم المقصود: **القبض والبسط تسبقهما فى السلم** [..] العرفانى حالاتا: الخوف والرجاء.

وهما مرتبطتان بالمستقبل كالخوف من فوت محبوب أو هجوم محذور، وكالرجاء بتأميل محبوب أو بتطلع إلى زوال محذور أو كفاية مكروه قد يقع.

أما القبض والبسط فهما متصلان **بواردات الوقت**، فعندما يرد وارد من عتاب أو رمز لاستحقاق تأديب مثلا ينقبض القلب لا محالة.

وعندما يكون الوارد إشارة إلى تقريب أو إقبال أو ترحيب ينبسط القلب لا محالة.

(.) بضم الهمزة.

(..) بتشديد السين وضمها.

والعارف لا يسىء الأدب فى الحالين، بل يستسلم لحكم الوقت لأنه بحكم تجربته يعرف أن البسط يأتى على حسب القبض، والقبض يأتى على حسب البسط..

ونختار قطعة من النثر الصوفى الرائع المعبر عن هذه المعانى ما يقوله الجنيد: «الخوف من اللّه يقبضنى، والرجاء منه يبسطنى، والحقيقة تجمعنى، والحق يفرقنى.

إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على (.)، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى، وموحشى غير مؤنسى.. فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى... فليته أفنانى عنى فمتعنى، أو غيبنى عنى فروحنى»!

الهيبة والأنس وهما فوق القبض والبسط فى السلم العرفانى فالهيبة أعلى من القبض، والأنس أتم من البسط. وحق الهيبة الغيبة فكل هائب غائب، وحق الأنس صحو فكل مستأنس صاح.. فمثلا قد تبدأ المناجاة فى هاتين الحالين: أنا الرب لا إله إلا أنا..

... وأنا عبدك خاشع متذلل بين يديك هكذا.. وعلى هذا المنوال تسرى لغة الحب حتى إذا تتالت الأنوار وتجلى الحق بالهيبة سكن العبد سكونًا تامًا، وامتلأ السر بهيبة المولى سبحانه ولم يعد هناك من العبد لنفسه فى نفسه.

ولكون هذه الأحوال مرتبطة بالتغيرات النفسية المتعاقبة، والتى تنثال بمقادير دقيقة فإنها فى ذات الوقت إثراء للغة القاموسية، لأنها اكتسبت طابع المصطلحات المتفق عليها بين القوم، وتلك إحدى جلائل المعطيات، التى أفرزتها علوم الصوفية، وعادت بالنفع على الأدب واللغة بعامة.

---

(٣) الرسالة.

(.) بتشديد الياء.

فصل [١١]:

الجمع

« الجمع على ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير».

وفى الإشارة كذلك: ما يسميه القوم «الجمع» على قسمين: - جمع سلم صاحبه وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع. وجمع صاحبه مكسور الصحة وهو ما لا يحفظ (*) على مدعيه (**) آداب العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وبين أقسام جمع نحو القلوب أن: كل الجمع فى الخطاب - أى فى مسائل النحو - صحيح. وفى نحو القلوب أحدهما صواب والثانى غير صواب.

والإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد، وكذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر (***) من الحجبة.

وجمع التكسير ما تكسر (****) فيه لفظ الواحد.. كذلك المدخول من جمع القوم ما يزول عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود الشريعة».

(*) بضم الياء.

(**) بتشديد الدال.

(***) بتشديد السين مع كسرها.

(****) بتشديد السين وفتحها.

يتركز نظر الشيخ فى كلا الجمعين: السالم والتكسير على مصير المفرد، فالمفرد يبقى على حاله دون أن تعتور بنيته تغييرات . وما عليك إلا زيادة الواو والنون أو الياء والنون فى حال المذكر، والألف والتاء المفتوحة فى حال المؤنث.

أما عند جمع التكسير فإن تكسيرات تحدث غالب الأحيان فى بنية المفرد. وقبل أن نتناول بالشرح وقع الإشارة عند شيخنا فى هذا الخصوص نقف قليلا فى مجال نحو الظاهرلنستفيد بعض الفوائد لعلها تكون ذات قيمة فى تذوق إشارته الآن وفيما بعد.

ليس كل مفرد قابلا لأن يجمع جمع سلامة، بل لابد أن يكون هذا المفرد فى حال جمع المذكر السالم علمًا، أو وصفًا لعاقل. فإذا كان علمًا ينبغى أن يكون مذكرًا عاقلاً خاليًا من تاء التأنيث. غير مركب تركيبًا إسناديًا ولا مزجيًا، وألا يكون من باب أفعل الذى مؤنثه فعلاء، ولا فعلان الذى مؤنثه فعلى. ولا مما يستوى فيه المذكر والمؤنث (كصبور وجريح) ولا وصفًا لمؤنث.

أما جمع المؤنث السالم فإنه لأعلام الإناث، وما لا يعقل من مصغر (٠) المذكر. وأوصاف المذكر لغير العاقل.

وعندئذ يحق لنا أن نقول إن الله قد ميز العقلاء على سائر المخلوقات فخصهم بالجمع السالم. وقد يحق لنا ـ وبتحفظ شديد ـ أن نقول على استحياء إن قاعدة جمع المؤنث لا تتطرد مع قاعدة جمع المذكر السالمين لأنه ربما ـ فى الإشارة ـ النسوان مبعدات عن جماعات الذكور «انظر وصية الشيخ فى ذلك» (١) والقصد طبعًا اتقاء الفتنة ومنعًا للأقاويل المشوشة.

---

(١) الرسالة ص ٢٠٢.

(٠) بضم الميم وتشديد الغين وفتحها.

وأما جمع التكسير فهو مكسر (٭) للصحة البنيوية للمفرد، وسيتضح بيان ذلك بعد قليل، وسيفرد له الشيخ الباب الأخير من هذا الكتاب.

نظن الآن أن الإشارة أصبحت على مرأى العين..

ففى طريق القوم يوجد من يسلك الرحلة من البداية إلى النهاية وهو ثابت كالطود لا يتأثر رغم الزيادات الطارئة عليه، والدالة على انتقاله من التفرقة (حال الإفراد) إلى الجمع (حالى الجمع وجمع الجمع).

ويفترض أن تكون المحافظة على أمور معينة من ألزم اللوازم فى هذا السياق ويأتى فى مقدمتها - كما ألححنا وراء الشيخ غير مرة - حفظ آداب الشريعة.

ونص الشيخ على حال الفرق الثانى فى وسط حال الجمع من أجل العودة إلى التكليف والقيام بالفرائض فى أوقاتها المعلومة..

فعندما يخرج بعض المرضى والأدعياء والنهازون عن هذا الخط (السليم) ويمارسون الرذائل بدعوى أنهم مأخوذون بما هم فيه من (جمع) فهذا الشيخ خروج عن (السلامة) بل هو من قبيل (الخطأ) و(الخطيئة). وكم يعلق على مشجب الحقيقة من أباطيل وترهات عددها الشيخ فى الفقرة: شبهات العقل، والبدعة، والشهوة، والغفلة، والحجبة.

ووزعها على الجوارح الباطنية توزيعًا يصلح أساسًا لدراسة أعماق النفس الإنسانية حيث شخص العلة، ومكانها.. وأدواءها عند قوله:

«وجمع السلامة فى هذا الطريق ما يسلم فيه العقل من الشبهة والفعل من البدعة والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر من الحجبة».

(٭) بضم الميم وتشديد السين وكسرها.

وهنا ننبه إلى أن الغزالي قد خصص القسمين الثالث والرابع من «إحيائه» للمهلكات والمنجيات، فلمن يريد التفصيل في ذلك أن يعود إليه.

ونكتفي هنا بتلخيص مذهب شيخنا في هذا الخصوص - كما ورد في الفقرة - في سطور مهمة: .

١ - الأصل أن العقل ملكة وهبها الله للإنسان، ومطلوب منها أن تقوم بكل ما في الاستطاعة لأجل تصحيح الإيمان وتدعيم اليقين، حتى إذا سلم العقل من كل (شبهة) انسحب إلى الوراء بعيداً بعد أداء دوره، وأسلم الراية للقلب كي يبدأ دوره العاطفي التذوقي الوجداني في رحلة الصعود، ولن يظهر العقل بعد ذلك أبداً.. لأنه لحظتئذ يكون قاطع طريق!! أما عن (البدعة) فيصفها الشيخ في كتاب آخر له [٢] بأنها «قول أو فعل لم يسبق إليه قائله أو فاعله. وهي كل ما ليس له أصل في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وعلاجها الاقتداء برسول الله ﷺ في كل قول وفعل، قال عليه السلام: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام».

ويحذر ابن عباس قائلاً: «ما يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدعة وتموت السنة».

وإذا كان الابتداع خارج بيئة التصوف مرفوضاً فهو هنا أولى بالرفض لأنه هنا أشد خطورة، ذلك لأن المريد - سواء أراد أم لم يرد - يعيش حياة كلها تقليد لمن سبقوه من السالكين والشيوخ، ولهذا فإن وزر صاحب البدعة مضاعف، ففي عنقه وزر ابتداعه ووزر من وقع في اتباعه.

أما (شهوة النفس) فتعود إلى ما سبق أن ذكرناه في أكثر من موضع بأن النفس مركز المعلولات وأنها الأمارة بالسوء، ونسوق هنا سطوراً للشيخ

(٢) التحبير في التذكير للقشيري ص ٩٢ و ٩٣ تحقيق د. بسيوني. طبعة عالم الفكر.

تصلح أن تساق مثالا للنثر الفنى عند المتصوفة... يقول فى «لطائفه» فى مواضع مختلفة «إن من وطن النفس على الدنيا وبهجتها غرته بأمانيها. وخدعته بالأطماع فيها، وهى تخفى الصاب فى شرابها، والحنظل فى عسلها، تعد ولا تفى بوعودها. وتوفى (**) آفاتها على خيراتها. نعمها مشوبة بنقمها، وبؤسها مصحوب بأنسها، وبلاؤها فى ضمن عطائها. والمغرور من اغتر بها».

ولهذا.. فإن أول قدم فى القصد إلى الله الخروج عن النفس، ولا يكون قتلها إلا بالتبرى عن حولها وقوتها أو شهود شىء منها. ورد دعاواها إليها. وتشويش تدبيرها، وتسليم الأمور إلى الحق - سبحانه - بجملتها. وانسلاخها عن اختيارها وإرادتها. وامتحاء آثار البشرية.

وينبغى على العبد إذا ظفر بنفسه الا يبقى (***) فى انتفاش شوكها بقية. فالحية إن بقيت فيها بقية من الحياة فمن وضع إصبعه عليها بث سمه فيه.

ومن علامات من ماتت نفسه زوال آفاته، وسقوط شهواته، وقيامه بحقوق ربه وما فيه رضاه، وتباعده عما فيه حظوظ نفسه ومناه. فيعيش مع الحق بالصدق ومع الخلق بحسن الخلق.

أما الغفلة والغيبة فهما متصلتان بالقلب بعد أن يتحرر من رق النفس. فهو يستيقظ فى وطنه الجديد سليمًا منيبًا مستعدًا للامتلاء بإرادة المولى ولاستقبال الأنوار.. ولكنه يبقى مهددًا على الدوام من جانب عدوه الأصيل «النفس» فهى سرعان ما تناوشه من جديد، وتنقض عليه غير مرة. ويحدث ذلك عند ظهور أول بادرة من بوادر الغفلة أو الغيبة للقلب، ومثال

(*) بتشديد الطاء.

(**) بضم التاء وتشديد الفاء وكسرها.

(***) بضم الياء.

ذلك أن يتسرب إليه بطيئًا شعور بإحباط عن تحقيق المطلوب لبعده النائى، أو أن يحدث له نزغ من القلق العارض، أو يصيبه العجز عن الاستمرار فى المجاهدات المطلوبة، أو يشوش عليه بعض المستضعفين الذين كشفنا ـ مع الشيخ ـ ما يحدثونه من أزمات.. كل ذلك يدعو إلى (غفلة) ! وعليه عندئذ أن يهب من فوره لينقذ البناء من التداعى، ويتسلح بالثقة فى الله لإعانته فى هذه الوثبة المخلصة الخالصة، وسرعان ما تنثال المنن وتنهال العطايا.. وتشرق الأنوار من جديد.

ومرة أخرى نسوق نموذجًا لنثر الشيخ فى هذا الخصوص.. ففيه من الدقة والمتعة ما يخفف عنا الغناء:

«قد تقع للسالك فترة، وللمريد وقفة، وللعارف (حجبة) وللمحب فرقة.. وتلك محن عظيمة ومصائب فجيعة. فما هو إلا أن تكسف شمسهم، وينطفئ فى الليلة الظلماء سراجهم[4]، ويتشتت من السماء ضياء نجومهم، ويتسيب أزهار أنسهم وربيع وصلهم يعصر فيه بلاء شديد، وعذاب أليم.. ذلك لأن آثار سخط الملوك موجعة، وقصة إعراض السلطان موحشة.. هنالك تسكب العبرات، وتشق الجيوب، وتلطم الخدود، وتعطل العشار، وتخرب المنازل وتسود الأبواب، وينوح النائح :

وأتــى الرســول فأخبــ	ـر أنهـــم رحلوا قريبـــا
رجعـوا إلـى أوطانهـم	فجرى لهم دمعى صبيبا
وتركن نارًا فى الضلوع	وزرعن فى راسـى مشيبا [3]

أما (الحضور) فيكون العبد حاضرًا بالحق بمقدار ما يغيب عن الخلق لاستيلاء ذكر الحق عليه.

---

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٧١٢.

(٤) نضم الحيه.

وينهى القشيرى الفقرة بالتنظير بين (جمع التكسير)[..] وبين «المدخول من جمع القوم»... والمدخول من الدخل بسكون الخاء وفتحها أى العيب والريبة، ومن أمثلة ذلك الناقض لأحكام الشريعة، أو اللاجئ للرخصة.. ونحو ذلك «ممن يسيئون الأدب على البساط فيردون إلى الباب، ومن لم يحكم الأساس فى بنيانه سقط السقف عليه بجدرانه».

(..) بسكون الكاف

فصل [١٢]:

تابع (الجمع)

«إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل ألحقت بآخره واوا في حال الرفع، وياء في حالي النصب والخفض، ونوناً بعد الواو والياء. وهي مفتوحة. وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع في كل هذا التلوين والتغيير فمرة ومرة من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل.

كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق في صورة التقريب. ومرة ينصبه في نعت الأبعاد..

.. وهو محو الاختيار «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود».

خرج الشبلي يوماً في زي رث[*] فقيل له في ذلك فقال :

فيوما تـرانا في الحديد نجره ويوما ترانا في الحرير عوابسا

ويوما ترانا والثريد نلته[**] ويوما ترانا نأكل الخبز يابسا

* قال ﷺ مرة :

«إني لست كأحدكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

ومرة أخرى قال: « أنا ابن امرأة تأكل القديد».

* وحكم مرة لعشرة بالجنة:

ومرة أخرى قال: «إنه ليغان[***] على قلبي».

(*) بتشديد الثاء.

(**) بتشديد التاء.

(***) انظر: صحيح مسلم (باب استحباب الاستغفار ص ٢٠٧٥ ومسند أحمد ٤/ ٢١١).

مرة أخرى يعرض المصنف - رضي الله عنه - للتغيرات التى تحدث (للمفرد) أى للصوفى السالك طريقه فى الرحلة إلى اللّه، وهى هنا فكرة مكررة، وبالتالى فلن نكلف أنفسنا أو القارئ مشقة التكرار.. ومع ذلك فلن نحرم أنفسنا من انطباعات عما هو جديد هنا:

١ - لأول مرة فى الكتاب يطالعنا قدر كبير نسبيًا من الأسانيد عن رسولنا صلوات اللّه عليه وعن الشيوخ فضلا عن الاستشهاد بآى الذكر الحكيم..

وهذه واحدة فى الإشارة بما تكون مقصودة: أى أن التصوف مستند إلى كل هذه الأصول أولا وأخيرًا... حتى لا ينسى القارئ هذه النقطة فى منهج الشيخ.

٢ - ما يذكره الشيخ من أحوال نبينا صلوات اللّه عليه (فيما يتلون) منها يمكن أن تكون وسيلة إقناع بما يحدث للعارفين. فالنبى ﷺ فى حال من (البسط) بحيث يقول إنه يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه. ثم هو فى حال أخرى من (القبض) بحيث لا يرى نفسه أكثر من ابن امرأة من قريش تأكل القديد.

وهو يبدو فى حال من (التمكين) حين يبشر عشرة من الرجال بالجنة، بينما نراه فى حال من (التلوين) حينما يقول: إنه ليغان على قلبى فأستغفر اللّه فى اليوم سبعين مرة (٠).

ألا نقتنع بعد أن للعارفين أسوة فى المصطفى صلوات اللّه عليه فيما يقع لهم من (التغير) فى الأحوال بين (الإفراد) و (الجمع) ؟

وهكذا يمكن أن نعالج الفقرة التالية فى ضوء هذا الفهم :

«كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه، فمرة.......»

فكما أن الجمع - فى نحو الظاهر - خاضع (للرفع والنصب)، متأثر فيهما بعوامل خارجية، وكما يلحقه نتيجة لذلك بعض التغير.. كذلك

(٠) انظر: نحو القلوب الصغير ١٧٠ للإمام القشيرى، حققه د. أحمد علم الدين الجندى، ط: تونس.

العبد (المجموع) بكليته فى قبضة الحق يكون بين تقريب (رفع) وبين إبعاد (نصب وخفض).

وكما تسقط (نون الجمع) فى النحو الظاهرى عند(الإضافة) كذلك تسقط عن هذا العبد (المجموع) فى النحو الإشارى صلاته [.] بنفسه وأمانيه، فلا يأخذ وضعه الحقيقى إلا (مجردا) من كل الدوافع الذاتية دلالة على حق بلا خلق، واستهلاك بالكلية فى مشهوده لأنه آنئذ (محو عن الاختيار) ولنتوقف قليلا عند هذا (المحو) الذى هو صميم عمل هذا (النحو) !!

المحو والإثبات :

«المحو (رفع) أوصاف العادة، والإثبات إقامة أحكام العبادة، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة، وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة فهو صاحب محو وإثبات» [1].

ثم يزيد الشيخ المسألة إيضاحًا بعد إيضاح فيقول :

«وينقسم إلى : محو الزلة عند الظواهر. ومحو الغفلة عن الضمائر ومحو العلة عن السرائر.

وأما حقيقة المحو والإثبات فهى أنهما صادران عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه. فهما مقصوران على المشيئة، قال تعالى :

«يمحو الله مايشاء ويثبت».

يمحو الله عن قلوب العارفين ذكر [..] غيرالله تعالى، ويثبت على ألسنة المريدين ذكره.. ولكل أحد ما يليق بحاله.

---

(١) الرسالة ص ٤٢.

(.) بكسر الصاد.

(..) بفتح الراء.

قال رجل للشبلى: مالى أراك قلقًا.. أليس هو معك وأنت معه؟

فأجاب الشبلى: لو كنت أنا معه كنت أنا ولكنى محو فيما هو !

والمحق فوق المحو، لأن المحو يبقى أثرًا، والمحق لا يبقى أثرًا.. وغاية همه القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم (٢).

وبعـــد..

فمن هذه النقطة الأخيرة.. هل نجيز لأنفسنا تخريجًا يمر بالذهن الآن.. أن على الذين يجادلون حول استحالة اجتماع الأضداد فى شخصية واحدة لأنه يعنى اضطرابًا فى ذاتية الموصوف.. فنقول إن لكل حال وصفًا يطلق بحسب الغالب فى (الآن).. وبكلمات أوضح.. قد نرى ذلك ردًا ضمنيا على من يتجادلون حول الأوصاف الإلهية فى المباحث الكلامية: كالغفار والمنتقم، والقابض والباسط، والمانع، والمانح، والمحيى والمميت.. ونحوها (راجع تمييز الجرجانى بين الصفة والنعت فصل٣٥).

فما بالك بأهل الاعتزال.. الذين ينفون الأوصاف الإلهية أصلا؟!

«وجمع السلامة له قياس، وأما جمع التكسير فكثير الفنون، مختلف القياس، شكل (.) المبانى..

كذلك من حفظ (..) بوصف العلم فهو مقامًا سيد (...) وقته، وإمام زمانه. والذى هو فى هذه الطريقة جمع تكسير هو صاحب بلاء، لا يهتدى إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور. فى الحقيقة. أمره. وهو فى عين التشريف.

---

(٢) الرسالة ص ٤٢.

(.) بفتح الشين وكسر الكاف.

(..) بضم الدال.

(...) بضم التاء.

ومن هو على جانب من هذا الحديث يظنه من أهل التكليف :

الوانها شتى الفنون وإنما   تسقى (·) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحالة مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله زوائد القياس، ولا تشرف على غوامض نعته ثواقب التقدير.

لا مشكلة فى جمع السالم،إنما المشكلة الضخمة فى جمع التكسير، فهو متعدد الصيغ المسموعة والقياسية، يقبل مفرده تغييرات بعضها ظاهر وبعضها مقدر (انظر الباب الأخير من الكتاب)، وهى تغيرات لناموس.. ولهذا فهو باب فى النحو صعب المزاج عسر التناول.. وقد أحسن الشيخ فى وصفه بأنه (مختلف القياس شكل المبانى).

والإشارة من هذا كله أننا لوتصورنا مريدين (··) عابدين (يجمعهما) طريق واحد من البداية،فهما على العتبات الأولى فى رحلة الإرادة (فرد) و(فرد) ، وهما يخطوان الخطوات الأولى متماثلين أو قريبين من التماثل،وهما يتجشمان نفس القدر من الجهود الكسبية التى ربما يأمر بها شيخ واحد، وما أن ينتقلا إلى منطقة الأحوال التى هى وهبية من لدن الحق إلا نلحظ تغيرات تصيب أحدهما حتى لا تطرأ بنفس القدر أو الدرجة على الآخر، فأحدهما يعب من شراب المحبة، ويلقى الأنس والحبور، ويعايش تجربة الصيام الروحى على نحو ما، والآخر لا يتم له ذلك على نحو مماثل.

وهنا يبرز عنصر مهم قل أن يلتفت إليه أحد.. ذلكم هو الفضل الإلهى ـ وهو أهم أسرار هذا الطريق.. فهذا الفضل السابق على كل شىء يختار الله من خلقه عبادًا مخصوصين له منذ الأزل :

(·) بضم التاء.

(··) بسكون الهاء فيهما.

ولـــه خصـائص يكلفــون بحبه — اختــارهم فــى سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقه (٠) — بــودائع وفوائــد وبيـــان (٢)

إن الذى (كجمع السالم) واضح أمره للناس، لا يلتبس حاله على أحد، والحكم عليه من الخارج سهل ميسور.

أما الذى (كجمع التكسير) فصاحب بلاء، فالحكم عليه مضطرب لا مطرد، فأنت لو حكمت العين المجردة التى لا تستطيع فى الجوهر نفاذًا لعجزت عن رصد أحواله، وسبر أغواره، والحكم عليه.

ربما كان فى داخله يغلى كالمرجل.. ثم تأتى وتستكثر عليه كلمة شاطحة.. ظاهرها مستشنع دون أن تدرى أن باطنها سليم.. وهكذا يعيش هذا العبد بين من يعرفه ومن لا يعرفه... غير مفهوم! (وحديثه مشكل).

وذلكم هو سر بلائه بين الورى، فالذين يفقهونه يحاسبون على أدنى تقصير فى الشريعة والحقيقة.. هم له بالمرصاد، والذى يجهلونه سرعان ما يحيطونه بالتخرصات والأباطيل.. بل يرمونه بالتجديف أو الهلوسة.. إنه فى عين (التشريف) بينما يطالب أن يكون دائمًا فى إسار (التكليف).

وفى رأينا أن هذه هى مأساة هذا الحب الكبير، فكل حب كبير يقاس بمقدار عنصر الصراع والمأساة فيه.

فهذا (المجموع) المستهلك (٠٠) فيما سواه، الغارق فى الأنوار المحدقة به من كل جانب (يتكسر) فى داخله، وينهد كيانه.. ولا يعلم حقيقة أمره إلاعين (التشريف) ! لأنها العين الوحيدة التى تعرف حقيقة الدواخل.

---

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ١٠ ص٧٩.

(٠) بفتح الأول وسكون الثانى.

(٠٠) بفتح اللام.

ذلك شأنه مع زملائه (فى القياس) وفيما يصدر عنه من (السماع)!
وكما أنه لا حيلة لنا فى (جمع التكسير) إلا الحافظة التى تعى (الأقيسة
والسماع) كذلك ليس لنا إزاء هذا العبد هنا إلا تذوق حاله.. وقل (*) فى
الناس من يتمتع بهذه الخاصية.

(*) بفتح القاف.

فصل [١٣]:

الأسماء الستة

« من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالألف، وكسرها بالياء. وهى ستة أسماء: أبوك وأخوك وحموك وهنوك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خص (٠) عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله.

قال ذاك الرجل: ليس كل بشر بشراً (١) ، باين حكمه حكم من سواه، وانفرد عنهم فى معناه».

---

(١) الأولى بفتح الباء والشين والثانية بكسر الباء وسكون الشين.

(٠) بضم الخاء.

ملاحظة على المنهج :.

اختار الشيخ رأى البصريين وهو إعراب هذه الأسماء من مكان واحد، وهى هذه الحروف الإعرابية: الواو والألف والياء.

ويرى بعض النحاة أن الإعراب بحركات مقدرة على هذه الحروف تتلاءم معها. أما الكوفيون فيذهبون إلى أن الإعراب من مكانين: الضمة والواو جميعًا علامة الرفع، والفتحة والألف جميعًا علامة النصب، والكسرة والياء جميعًا علامة الجر.

ونحن نميل إلى الرأى القائل بأنها حركات مشبعة، فالضمة صارت واوًا، والفتحة صارت ألفا،والكسرة صارت ياء.

ويبقى أنها أسماء مخصوصة بهذا الطراز الإعرابى تحت شروط معينة:

١ ـ أن تكون مضافة.. وأن تكون هذه الإضافة لغير ياء المتكلم من اسم ظاهر أو ضمير.

٢ ـ أن تكون مفردة.. أى غير مثناة أو مجموعة.

٣ ـ أن تكون غير مصغرة.

وإن فقدت شرطًا واحدًا من هذه الشروط زالت عنها هذه (الخصوصية).

بقيت مسألتان هامشيتان: بالنسبة لـ (ذو) فهى ملازمة للإضافة لغير الياء فلا حاجة لاشتراط ذلك ويجب أن تكون (ذو) بمعنى صاحب وليست اسم موصول.

والفم إذا فارقته الميم.

والإشارة: من هذا كله كما يرى شيخنا مستمدة من هذه (الخصوصية) التى تميز هذه المرة لا فردًا ـ بل مجموعة من الأفراد كأنهم قبيل واحد ـ

بسمات خاصة، لهم أحكام خاصة لاتنسحب على غيرهم وإن سقوط وصف واحد من هذه السمات أو الأحكام يخرج بالفرد من نطاق هذا القبيل (المخصوص) إلى المستوى العام العادي.

مع ملاحظة أن هناك فروقًا فردية ضئيلة ـ شأن المجاميع البشرية بين بعض أفراد هذا القبيل الصغير، إلا أن الإطار الخاص يظل يحيط بهذا المجتمع المتميز.

على أن الشيخ وهو يستنبط الإشارة لجأ إلى حكم عام فلم يحدد فى (الخصوصية) شيئًا معينًا، ولذا فمن حقنا أن نتصور ـ مع القارئ ـ عدة توجهات يمكن أن تنصرف إليها المعانى :

١ ـ يحتمل أن يكون ذلك متصلا بتوزيع الأرزاق على البشر، فهم لا يتساوون جميعًا فى المال أو فى الولد أو فى الصحة.. وغير ذلك من النعم.

٢ ـ يحتمل أن يكون مقصده : الشريعة للعموم، والحقيقة للخصوص.

٣ ـ وترتيبًا على ذلك يمكن أن يكون فى داخل مجتمع «الحقيقة» نفسه آحاد متميزون عمن سواهم.. وتلك اجتباءات إلهية لا دخل لأحد فيها.

٤ ـ يمكن أن يكون الكلام خاصًا بطرق صوفية، تشبه كل طريقة (أسرة) خاصة ترتبط بروابط متميزة عن غيرها.. والهدف العام واحد.. ولكن كل ميسر لما خلق له.

٥ ـ يمكن أن ينصرف الكلام إلى مجموعات (الصحبة والأصحاب) فى داخل النظام التربوى الواحد التابع لشيخ واحد، ونحن نعلم أن القشيرى مهتم بهذا الموضوع، وعقد له فصلا ممتازًا فى رسالته يعد من أفضل كتاباته. ومع كل ذلك فإننا بعد كل هذه الاحتمالات نرجح أنه يقصد (العارفين) ـ فهم مجموعة من الشامخين تجمعهم آصرة واحدة تميزهم عمن سواهم هى (المعرفة بالله) ولكن تبقى فروق بينهم طبقًا لدرجة

الوصول والاتصال. أو قل تجمعهم بالعامة ارتباطات الشريعة ولكن تبقى لهم خصوصياتهم التى يندر أن يتطامن إليها فرد عادى، أو قل إن العارف يخالط البشر ويؤاكلهم ويشاربهم.. ولكنه فى واقع الأمر كائن بائن، أى كائن بين الناس، ومفترق عنهم بعلاقاته الخاصة، ومعاملاته الباطنة «وليس من نصب (*) بالباب من حيث الخدمة كمن مكن (**) من البساط من حيث القربة، وليس نعت من تكلف نفاقا كوصف من تحقق وفاقًا، بينهما لون بعيد».

وخير من يحدثنا عن هذه الخصوصية تلك القصة الممتعة التى(***) نؤثر أن نختم بها هذه الفقرة..

كان ذو النون المصرى يسير فى أحد طرق الشام فلقى امرأة صالحة عرفها بسيماها فسألها :

- من أين أقبلت؟

- من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

- وإلى أين ؟

- إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه.

- أيمكن أن تصفيهم ؟

- قوم همومهم باللّه قد علقت

فما لهم همم تسموا إلى أحد

(*) بضم النون .
(**) بضم الميم وتشديد الكاف مع كسرها .
(***) بكسر الثاء.

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم

يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف

من المطاعم واللذات والولد

فهم رهائن غدران وأودية

وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد[٢]

(٢) عوارف المعارف للسهروردى ص ٤٤.
ومن البيت الأخير نلحظ كيف أن الصوفية فرسان النهار ورهبان الليل.

فصل [١٤]:

اللازم والمتعدى

«الأفعال على ضربين: لازم ومتعد(*)».

والإشارة : كذلك أفعال على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدى (**) ما تتعدى خيراته على الغير.

والفعل المتعدى على أقسام :

منها ما يتعدى إلى مفعول واحد، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته إلى عالم من الناس، حتى قال الشيوخ : «لو أن ولياً اجتاز ببلدة لغفر الله لأهل تلك البلدة».

وفى الأثر «لو أن محزوناً بكى فى أمة (***) لرحم الله تلك الأمة ببكائه».

(*) بتشديد الدال وكسرها.

(**) بتشديد الدال وفتحها.

(***) بضم الهمزة وتشديد الميم.

الفعل ثلاثة أنواع :

١ ـ ما لا يوصف بتعد ولا لزوم وهو كان وأخواتها.

٢ ـ وهو ما تجاوز حدثه الفاعل إلى المفعول به ويسمى أيضًا (الفعل الواقع) أى الواقع على المفعول به وهو على أربعة أقسام:

(أ) قسم ينصب مفعولا واحدا ـ وهو كثير مثل: لبس محمد الثوب.

(ب) قسم ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبر كأعطى وسأل.

(جـ) قسم ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وهو ظن وأخواتها.

(د) قسم ينصب ثلاثة مفاعيل وهو أرى وأعلم (٠) وأنبأ (٠٠) ونبأ (٠٠٠) وأخبره.

٣ ـ أما الفعل اللازم فهو ما لا يتعدى أثره (٠٠٠٠) فاعله (٠٠٠٠٠)، ولا يتجاوزه إلى المفعول به بل يبقى فى نفس ويسمى (الفعل القاصر) لقصوره عن المفعول به، كما يسمى (الفعل غير الواقع) أو (الفعل غير المجاوز) لأنه لا يجاوز فاعله. مثل ذهب وفرح الطفل.

ويصير اللازم متعديًا إذا أدخلت عليه همزة التعدية نحو :أذهبتم طيباتكم أو إذا ضعف ثانية نحو ـ فرحت المجتهد.

أو دل على مفاعلة مثل : جالس محمد العلماء.

أو كان على وزن استفعل (العلاجية وليست الصيرورية) مثل استخرج

---

(٠) بفتح الهمزة والراء.

(٠٠) بفتح الهمزة وسكون العين وفتح اللام.

(٠٠٠) بفتح الهمزة وسكون الباء وفتح الألف المهموزة.

(٠٠٠٠) بضم الراء

(٠٠٠٠٠) بفتح اللام.

العمال الذهب أو سقط مع حرف الجر توسعًا مثل تمرون الديار أى تمرون بالديار.

وتلك هى أهم نقاط النحو العبارى توسعنا فيها شيئًا ما للفائدة أولا، ولأنها تسهل فهم الإشارة ثانيًا.

وفى رأينا أن المنطقة التى تشع الإشارة لا تخرج عن واحد من ثلاث:

(أ) ضرورة التأدب بشيخ فى هذه الطريقة.

(ب) باب الولاية.

(جـ) باب الكرامة.

ذلك لأنها تحوى التزامات خاصة بصاحب الشأن، وامتدادات (تتعداه) إلى أسرته التى هو كبيرها.. ونعنى بالأسرة مريديه ومحبيه وسالكى طريقته، وربما قومه وأهل بلده.

فبالنسبة لموضوع (الشيخ) فى الطريقة فإنه يمثل الهيمنة العليا التى لها الطاعة. ومن (اللازم) للشيخ أن يقدر وضعه على هذا النحو تمام التقدير، فيكون قدوة فى الصغيرة والكبيرة. وأى خطأ يحتمل أن يهم به ربما يمتد على الفور إلى المحيطين به، ووزره مضاعف: وزر الابتداع ووزر الاتباع.. وأهم الأشياء فى هذا المجال عدم التفريط فى الشريعة أو المساس بأدنى قاعدة من قواعدها، وواجبه ألا يسترخص، وأن يكون شعاره الدائم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وواجبه أيضًا ألا يعطى علمه أو فضله بأجر.. فإن العلماء ورثة الأنبياء ـ والأنبياء لا يؤجرون على أداء رسالتهم.

وواجبه كذلك ألا يعتقد فى نفسه العصمة.

وألا يتزلف لمخلوق.

وألا يتقرب من سلطان.. بل على العكس يكون فى الأمة أشبه بضميرها الحى اليقظ، تؤرقه مشاكل الناس وهمومهم، ويلقى (.) بالكلمة القويمة الرشيدة غير هياب.. على ألا يكون فى ملأ.. لأن النصيحة على الملأ فضيحة، ويكون رقيق الأسلوب مهذب اللفظ بعيدًا عن العنف والاعتساف.

وفيما بينه وبين مريديه عليه أن يلحظ أن هناك فروقًا فردية داخل جماعة، فيكلف كل واحد أو اثنين أو أكثر حسبما يرى التكليف (اللازم) بما يعود بالجدوى.. وتصبح هذه (الأفعال اللازمة) بداية لما هو أرقى وأعمق.. ويأتى وقت (تتعدى) فيه هذه الأفعال نطاق الفرد إلى ما هو أكثر..

مع ملاحظة أن (التعدى) لا يكون بالمفيد فقط بل قد يكون (بالضار) إذا كان ثمة خطأ ما.. وهذا هو الخطير فى رسالة الشيخ تجاه مريديه، ويمتد ذلك طوال حياته إلى ما بعد مماته كما قيل:

فتى عيش (..) فى معروفه بعد موته   كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

إنهم يأخذون عنه (مباشرة) أو (بواسطة) كما يتعدى الفعل مباشرة أو بواسطة، وترتبط الأجيال جيلا بعد جيل بأقواله وأفعاله بطريق الإسناد إليه والرجوع عليه.

حقًا.. إنها لمهمة شاقة تحتاج إلى فائق التقوى وجلد (...) الفؤاد وكشف البصيرة! وبهذه أيضًا ينماز التصوف عن بقية العلوم فى كونه تربية مستمرة تنبنى على اكتساب فوائد فى كل وقت وعند كل موقف، وما أسرع ما تتغير الأوقات على السالكين، وما أشد ما تتكون المواقف!

فإذا انتقلنا إلى دائرة أوسع حيث: الولى والكرامة فإننا نجد أول شىء من قبيل (اللزوم) هو المحافظة على الشريعة، ويقال دائمًا إن أعظم كرامة

(.) بضم الياء وسكون اللام.

(..) بكسر العين فالفعل مبنى للمجهول للمجهول من (عاش).

(...) بفتح الجيم والدال.

للولى هى انتصاره على نفسه، وإذا سمعتم أن فلانا يطير فى الهواء أو يمشى فوق الماء.. فاسألوا أولا.. أين مقامه من الشريعة؟ ويقول القشيرى فى لطائفه «أفضل الأعمال ما كانت بركاته (متعدية) عن صاحبه إلى غيره.. فمن الفتوة أن يكون سعيك لغيرك».

وتستطيع أن تدرك اتساع الدائرة التى يحدث فيها (التعدى) على أوسع نطاق حينما تسمع نصًا مثل «كرامة الولى فرع على معجزة النبى».

فالنبى وصلت أفضاله إلى الولى، لأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا باتباع النبى. والولى (تتعدى) بركاته إلى الشيوخ، والشيوخ (تتعدى) بركاتهم إلى المريدين... وهكذا.

وتستطيع أن تتصور كم (تعدت) بركات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو فى المدينة ينادى «سارية» فى نهاوند أن يلزم:(الجبل الجبل) هو وجيشه.. وكان ذلك من أسباب الانتصار تحقيقًا لكرامة عمر.. فسارية والجيش ينعمون بالظفر على الأعداء يذكرون صيحة عمر.. الآتية عبر الشفافية الأثيرية لتقودهم نحو هذه النهاية العظيمة.

أما من واقع حياة القشيرى نفسه.. فإننا نذكر كيف اختاره أهل خراسان والمشرق وهم فى منفاهم حول الحرم الشريف ليكون خطيبهم وناصحهم إبان محنتهم، وقد طالب غيبتهم عن أوطانهم، فصعد المنبر ودعا الله دعاء استجيب فى ساعته.. حينما صاح قائلا: يا أهل خراسان بلادكم بلادكم والله إنى لأرى عدوكم الآن: الكندرى اللعين وهو يقطع إربًا إربًا،ويرسل كل عضو منه إلى كل مكان ! وتحقق ذلك فى نفس اللحظة - كما يقول الإمام السبكى [1] وتلك بركات شيخنا (تعدت) إلى مئات المنفيين، فعادوا إلى أوطانهم معززين مكرمين.

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ترجمة القشيرى، وارجع إلى سيرته فى هذا الكتاب.

فصل [١٥]:

الأفعال الخمسة

،خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون ونصبها وجزمها بسقوط النون وهي: فعلان وتفعلان، ويفعلون وتفعلون، وأنت تفعلين.

والإشارة : كذلك من الأفعال ما يكون مخصوصاً، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها، فهي يؤتى بها بشرط قران (٠) ينضم إليها.

كرمي الجمار مثلا، لايكون طاعة إلا في الحج.

والسعي بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا في الحج والعمرة.

ومن قيضه (٠٠) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولي لنفع له منه.. فإذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر (٠٠٠) لذلك الشخص.

---

(٠) بكسر القاف.

(٠٠) بضم القاف وتشديد الباء.

(٠٠٠) بضم القاف وسكون الدال.

على عادتنا فى الشروح نريد أولا أن نعرف: من أين تنطلق إشارة الشيخ؟ ثم نجرى عملية التنظير بما يفتح به الله علينا.

وبإمكاننا هنا أن نستنبط الإشارة على النحو التالى :

١ ـ معلوم أن الفعل هو حدث فى زمن.

٢ ـ القشيرى هنا يضيف بعدًا ثالثًا هو الظروف المحيطة بالفعل عند حدوثه.

٣ ـ فليس يكفى أن نقول إن الفعل المضارع يعرب على نمط واحد، هو الرفع بالضمة والنصب بالفتحة والجزم بسكون أو حذفه.. لأن هناك أفعالاً مضارعة لا يجرى إعرابها على هذا النسق، بل هناك ظروف خاصة ـ كاتصاله بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة ـ تجعله يخرج عن النمط العادى فى الإعراب، فهو يتم بالحرف، ثبوت النون فى حالة الرفع وحذفها فى حالى النصب والجزم.. وهذه الخصوصية لطائفة معينة من الأفعال تذكرنا بما شهدناه فى فصل سابق عن الأسماء الستة.

فالمعادلة الجديدة هنا هى : فعل خاص = حدث + زمن + ظروف خاصة. ومن هذه الخصوصية فى الفعل تنطلق الإشارة.

ولكى يكون حديث القشيرى مفيدًا فى أوسع درجات الإفادة ضرب أمثلة على ما يقول من الشريعة حتى يكون أكثر إقناعًا للسامعين والقارئين : فرمى الجمار لا يكون طاعة إلاعند أداء الحج أى أنه فى غير أوقات الحج لا يحسب له حساب. والسعى بين الصفا والمروة شعيرتان من خصائص الحج وخصائص العمرة.. وفى غير ذلك لا حساب. والاستشهاد بالمسائل الفقهية والكلامية كان ميزة للكتابة النحوية فى العهود الأولى (انظر مثلا خصائص ابن جنى وغيره).

وأنت تستطيع أن تضرب للقاعدة عد ذلك مئات الأمثلة فى يسر،

فصوم رمضان لا يكون فى شوال، وزكاة الفطر (مقترنة) بموعد، والصلوات الخمس لها شروط (قران) زمنى ميقاتى.. وهكذا.

فإذا ما اتضحت الرؤية أمامنا بالنسبة للشريعة سهل علينا أن ندخل بعد ذلك فى أمور تتصل بالحقيقة.. وهى بطبيعة الحال أخفى.. لأنها تتصل بالبواطن والجواهر.. وربما بالأسرار.

ولنضرب هنا مثلا ... (الدعاء).

فالدعاء مطلوب فى كل وقت، ولكن الشيوخ «يرون أن الأوقات مختلفة، ففى بعضها يكون الدعاء بالتلفظ أفضل من السكوت ـ وهو الأدب،وفى بعض الأحوال يكون السكوت أفضل من التلفظ وهو الأدب،والعارف يقدر ذلك حسبما يشار إليه، فإذا وجد إشارة إلى الدعاء المنطوق فهو له أولى[1]، وإن وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم، ويتضح ذلك بمراعاة الحال من حيث البسط والقبض، فعند البسط يكون الدعاء، فإن عادإلى قلبه شبه زجر وقبض فالأولى له ترك الدعاء فليس هذا وقته. أما إذا لم يجد فى قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر.. فالدعاء وترك الدعاء ها هنا سيان» [2].

والخلاصة أن يكون العبد خاضعًا للوقت (تذكر فى الفقرة وقت الحج والعمرة والصلاة، والسعى بين الصفا والمروة..)

ولو أريد منا أن نذكر أهم كلمات القاموس الصوفى لقلنا إنها لفظة «الوقت» فهى أهم المصطلحات فى عرفهم. ولأجل هذا افتتح القشيرى بها باب مصطلحه فى «الرسالة»، ولأجل هذا جاءت بعض التعاريف للتصوف والصوفى على هذا النحو المقتضب الدال: «الصوفى ابن وقته».

---

(١) بفتح الألف وسكون الواو.

(٢) الرسالة ص ١٣١.

وهذه العبارة القصيرة تعنى الشىء الكثير فى كل (٠) من التربية والمعرفة عند القوم. إنها تعنى استرسال القلب مع الله تعالى على ما يريد، والانقياد الكامل لكل تصريف، وعدم التطلع إلى المستقبل.. هذا الاطمئنان الدال على الرضا هو فى قمته آية من آيات الولاية.

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

فالوقت إذًا بهذه المعانى يكاد يطابق ما قلناه بأسلوبنا فى مستهل الشرح لهذه الفقرة «مراعاة الظروف التى يحدث فيها الفعل».

وبهذا الفهم فإن على العبد أن يلتزم بمراعاة المقام الذى هو عنده، فإذا رزق حالا من الأحوال عليه ألا يجاوز إطار هذا الحال إلى ما هو أرقى.. وإلا وضع الشىء فيغير محله على حد تعبير المتنبى: وضع السيف فى موضع الندى أو وضع الندى فى موضع السيف.. ففى الحالين إخلال وسوء أدب.

والشيخ المربى يضع علاجًا لمثل هذه الحالة التى يعلم بخبرته الشخصية - سواء مع نفسه أو مع مريديه - أنها قابلة للحصول ذات مرة أو مرات فيقول: (إن سنح فى باطنك من الوساوس أمر فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هجس فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعذ بالله يدركك بإزالة كل نصيب، وإن لحقتك فى بذل المجهود فترة فاستعذ بالله يدركك بإدامة آلائه، وإن اعترتك فى الترقى إلى محل الوصول وقفة فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإن تقاصر عنك شىء من خصائص القرب - صيانة لك عن شهود المحل - فاستعذ بالله يثبتك له بدلا من لك بك).

---

(٠) بفتح الكاف وكسر اللام المنونة.

هذه هى حدود الدعاء ومواضع حدوثه وصيغته المحدودة «بالاستعاذة بالله» وغير ذلك وفوق ذلك فغير مسموح به.

(فلكل فعل ظروفه الخاصة جدًا).

* * *

وينهى الشيخ الفقرة بنموذج لعلاقة خاصة ولكنها مريبة أى ليست خالصة، ذلك هو الإنسان النهاز النفعى الذى يقترب من أحد المشايخ أو أحد الأولياء.. لا على سبيل الاستفادة أو التبرك أو سلوك طريقة بل لتحقيق مأرب دنيوى، فيحسب (.) على الشيخ أو الولى ويرتبط باسمه حتى لتكاد تجمعهما (ألف الاثنين)، وهما على الحقيقة متناقضان، لكل منهما (فعله) الخاص ونمطه الخاص.. وليس أدل على ذلك من أنه بعد مرور الأيام، وغياب الشيخ أو الولى ينكشف أمر ذلك النهاز الدنىء فيعرف الناس بعد انكشاف غطاء الزيف عنه أنه دعى (..) لا قيمة له.. فالأصل فى المحبة «ألا تكون لغرض، إذا زال الغرض زالت المحبة» كما يقول الجنيد.

وكأنى بالشيخ يريد أن يقول إن (ألف الاثنين) و (واو الجماعة) ينبغى الا يلقب بهما إلا أشكال متماثلة.. حتى يتم لفعلهما أن يقع فى دائرة الخصوص.

(.) بضم الباء وفتح السين.
(..) بفتح الدال وكسر العين.

فصل [١٦]:

الصحيح والمعتل والمضاعف

«الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف».

الإشارة: كذلك من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة.

وحروف العلة ثلاثة : الواو والألف والياء.

وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة.

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى.

كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال ألطف وبعضها أبدى (٠).

(٠) بسكون الباء وفتح الدال.

وضع الشيخ هذا الأصل الثلاثى لبنية الفعل العربى (ف ع ل) نصب عينيه وهو يستخرج الإشارة، فكما أن أفعالا مثل: فهم وعبد سليمة الأصول، وأفعالا مثل : وجد وقال وسعى تعتل فى البداية أو الوسط أو النهاية.. كذلك من أفعال العبد ما هو سليم من بدايته إلى نهايته، ومنها ما تعتوره علة فى مرحلة من مراحل الطريق، فيصاب العبد بالتوقف فترة تطول أو تقصر، وربما تكون العلة قاتلة فيحدث التوقف التام.

ومن الطبيعى أن يقع ذلك نتيجة المخالفات .. يقول فى لطائفه عند قوله تعالى:

«إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا».

(من استعمل جوارحه فى الطاعات وصانها عن استعمالها فى صنوف المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف (السلامة) واستحق المدح والكرامة.

ومن دنسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة واستوجب الملامة)[1].

وقد سبق أن ذكرنا شيئًا عن الألف والواو والياء عند إشباع حركات الفتحة والضمة والكسرة.. ولكن ذلك كان فى نطاق الدور الإعرابى، أما هنا فهى أصول فى بنية اللفظة، وبالتالى فهى أدخل فى صميم (فعل) العبد فى مراحل الطريق، وليست زائدة عليه.

ومن هنا اختلفت إشارات الشيخ فى الموضعين، لأجل ذلك نراها تستحق اهتمامًا أكبر وبخاصة من الناحية الصوتية مستفيدين من علم الأصوات فى القديم والحديث بمقدار ما يسمح المقام ولا يثقل على القارئ، ورائدنا فى النهاية فهم التنظير فى الإشارة:-

---

(١) اللطائف المجلد الثانى ص٣٤٨.

فالواو حركة ضيقة خلفية تحتاج إلى جهد عضلى أكبر من زميلتيها، لأنها تتكون بتحرك أقصى اللسان فى حين أن الكسر حركة ضيقة أمامية لأنها تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصى اللسان.

والألف ضعيف فى غاية اللين، ولايجد هذا الصوت عائقًا يعوقه فى زوايا الفم حيث يكاد اللسان يكون مستويًا فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه، كأنما ينطلق على هواه.. فإن الفم والحلق منفتحان تمامًا.

أيمكن بعد ذلك أن نناظر بين الواو و(الرياء)، وبين الألف و(الإعجاب) وبين الياء و(المساكنة)؟

وقبل أن نزيد التنظير إيضاحًا وتأكيدًا نلتفت إلى أن الشيخ تجنب حركات أخرى تعرفها العربية كالإحالة إلى الكسر أو الضم والتفخيم والترقيق . إلخ، ويدلنا هذا على أن الشيخ تجنب ما يتصل باللهجات واكتفى بما تعرفه الفصحى، لأن (نحو) الفصحى هو الأغلب الأعم.. وهو منهجيًا موضوع التنظير فى هذا الكتاب.

ولنتحدث بشىء من تفصيل عن آفات النفس الثلاث التى ذكرها فى الفقرة:

١ - الرياء:

وردت مادته فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع: -

* الذين هم يراءون (الماعون).

* يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا (النساء)

* ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

* ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء: ٣٨)

* ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ (الأنفال:٤٧).

إذا كانت (الواو) كما أوضحنا الآن أثقل من زميلتيها جهدًا وصوتًا فإن الرياء ـ كما أوضحت النصوص القرآنية المذكورة ـ يبدو أثقل وزرًا من الإعجاب والمساكنة، فالمرائى لايجعل طاعة الله سبحانه فى المحل الأول بل يجعل استجلاب اطلاع الناس عليه فى المحل الأول، وتلك لعمر الحق شنيعة الشنائع. روى أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك [1] الأصغر، عز وجل للمرائين ـ إذا جزى الناس بأعمالهم ـ اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

وإذا مسح ذلك فى البيئة التدينية العامة فإنه هنا فى الطريق الصوفى أشد هؤلاء وأعظم نكالا، فالصدق عماد الأمر هنا من البداية وفى الوسط وإلى النهاية، ولايستطيع أى سالك فى مرحلة أن يشم شيئًا من الخير فيه إذا داهن نفسه أو غيره، فى السر أو فى العلن. وهم لهول ما يفعل الصدق بهم تقوم قيامتهم فى اليوم مرة ومرة بينما «يستطيع المرائى أن يثبت على حال واحدة أربعين سنة» [2] ـ كما يقول الجنيد.

وبهذا المعيار يخرج من الطائفة كل من ارتدى الصوف أو الخرقة ليأخذ سمت الصوفية ـ وهو غير صادق فيما يفعل، فسرعان ما ينكشف أمره، ويفتضح ستره.

ويخرج كذلك من ادعى (المحو) واقترف مخالفات الشريعة بدعوى أنه

---

(١) بكسر الشين المشددة.

(٢) الرسالة ص ١٠٦.

فان عن نفسه، وقد تناول الشيوع هذه الموضوعات وأضرابها فى مواضع كثيرة.. يقول الجنيد:

«ليس الاعتبار بالخرقة إنما الاعتبار بالحرقة»[٣].

بل يمتد ذلك إلى شعراء خارج البيئة الصوفية حيث يقول محمود الوراق (من شعراء القرن الثالث الهجرى) فى رجل لبس الصوف ابتغاء التستر:

تصوف كى يقال له أمين	وما يعنى التصوف والأمانة
ولم يرد الإله به ولكن	أراد به الطريق إلى الخيانة [٤]

ويقول أبو سفيان الثورى: «لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء»[٥].

ويحذر ابن السماك أمثال هؤلاء المرائين قائلا: «والله لئن كان لباسكم وفقًا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفًا لقد هلكتم »[٦].

وقد وصلت موجة الرياء حدًا مستطيرًا حينما دخل التصوف غير قليلا من أعداء الإسلام الذين عجزوا عن ضربه فى وضح النهار فراحوا يتسترون خلف أردية الصوف وانحشروا فى زمر الصوفية كى يحققوا مآربهم خلف الأستار المسدلة!

٢ ـ الإعجاب:

إذا كان المرائى ينظر إلى أبناء جنسه فإن المعجب ينظر إلى نفسه، تراه

(٣) تذكرة العطار جـ٢ ص١٠.
(٤) العقد الفريد جـ٦ ص٢٢٦.
(٥) اللمع للسراج ص٤٢.
(٦) العقد الفريد جـ٦ ص٢٢٦.

يمشى كأنما يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولا!! كأنه (الألف) المنتصبة!! وأولى من ذلك ترك الاختيال والافتخار يقول تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا»، وكان عمر بن الخطاب يسرع فى مشيته لأن ذلك يبتعد بها عن الزهو، وبلغ به التواضع أن حمل على عاتقه قربة ماء فلما قيل له: لاينبغى لك ذلك أجاب: لما جاءتنى الوفود سامعة طائعة دخلت فى نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها.

وبلغ عمرًا بن عبدالعزيز أن ابنه اشترى فصًا بألف درهم فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن واتخذ خاتما من درهمين واجعل فصه حديدًا واكتب عليه رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه».

يعرف الصوفية هذه السمات فى أسلافهم من الصحابة والتابعين، ويلحون على الاتصاف بالتواضع، والتذلل فى جنب الله «فمن اعتز بذى العز فذو العز له عز».

ويقول ابن أدهم:

«لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه».

ويقول ابن المبارك:

«العز فى التواضع فمن طلبه فى الكبر (٠) لم يجده».

ويلتفت القشيرى إلى إشار فى قوله تعالى: «مختالا فخورًا» فيربط بين ذلك وبين الفخور من الإبل وهو الذى سدت أخلافه ليتجمع فيها الدر(٠٠) (اللبن الغزير) فيتوهم المشترى أن تلك حالة على الدوام... وما هو كذلك(٧).

(٠) بكسر الكاف وسكون الباء.

(٠٠) بفتح الدال المشددة.

(٧) لطائف الإشارات المجلد الأول ص٣٣٢.

٣ ـ المساكنة:

فى المساكنة ما فى (آلياء) من الخفض والاستنامة، وفيها ما فيها من الاسترخاء والميل.

يبدأ ذلك كله عادة (بميل) الإنسان إلى نفسه فيلاحظها بإعجاب وحب، ثم ينتقل ذلك إلى مخلوق آخر.. وتكون النتيجة أن ينسى العبد ما كان قد وطد العزم عليه.. وهو أن يحب المحبوب الأسنى دون سواه.

فهى إذًا ـ فى هذا الطريق ـ من أعظم العلل بكل مقاييس هذا الطريق تلك العلل التى تتفاوت خفاء وظهورًا كما يقول الشيخ فى الفقرة (بعض صنوف علل الأفعال ألطف وبعضها أبدى)(..).

ويذهب القشيرى فيى ذلك أن بعض الأولياء ـ وقد سما قدرهم ـ لايسلمون من المساكنة «حين يلحظ الولى كرامة بدت عليه فيلاحظها»(٨).

ويقول عند قوله تعالى: «وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم».

«ومن ذلك.. أنه إذا جاء الحق بكشف أو تجل أو إقبال، فمن حقهم الا يلاحظوها فضلا عن أن (يساكنوها) لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكر الله بهم بأن شتتهم فى تلك الأحوال من غير ترق عنها أو وجود زيادة عليها»(٩).

فالخطر هو الاستمرار فى (المساكنة) بعد ظهور بوادرها الأولى، لأن تبسيط الأمور وتهوينها بعد الردع الأول لايؤدى إلى الخير(١٠).

«ومن الأفعال ما أوله حرف عله.. وهو المثال.

---

(٨) الرسالة ص١٧٤.

(..) بفتح الألف وسكون الباء.

(٩) لطائف الاشارات جـ٢ ص٨٧.

(١٠) وانظر كتاب «ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى» للقشيرى تحقيق د. بسيونى فصل «حينما يقتحم الشيطان حصن أرباب الأحوال».

كذلك: من أفعال العبد ما كان الدخول فيه ما لايكون على حد الإخلاص للحق سبحانه وتعالى.

ومن الأفعال ما هو أجوف، وهو الذى حشوه حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والغفلة.

ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والغفلة.

ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعقبه آفة،، فإن قبول القرب (٠) موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين.

كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات. فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب.

الصيغة الثلاثية الأصلية للفعل هى على الترتيب (ف ع ل) فالمثال ما اعتلت فاؤه نحو عد وييس، وإنما سمى بذلك لأنه يماثل الصحيح فى خلو آخر من الإعلال.

والأجوف ما اعتلت عينه نحو قال وباع وخاف، وسمى بذلك تشبيهًا بالشيء الذى أخذ ما فى جوفه فيبقى أجوف، وذلك لذهاب عينه كثيرًا نحو:

---

(٠) بضم القاف.

قلت، وبعت، ولم يقل ولم يبع. وألف الأجوف لاتكون أصلية أبداً بل تكون منقلبة عن واو أو ياء مثل قال وباع.

وفى الإشارة أنه كما تصاب (العين) فى الوجه بالرمد أو العمى كذلك قد تصاب عين القلب بهما نتيجة فعل أو أفعال رديئة دنية. ومن أصيب عين قلبه لايستبصر طريقه.

يقول فى اللطائف:

«والذى سد [(٠)] بصره أنى ينفعه طلوع الشمس والنجوم، وكذلك الذى سدت بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم، وقالوا فى معناه:

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم [(١١)]

أما الناقص فلامه حرف علة. وهى تنقص بالحذف فى بعض التصاريف مثل سمت وغزوا. وألف الناقص لاتكون أصلية أبدًا بل هى منقلبة عن ياء فى رمى وعن واو فى غزا.

واللفيف قسمان: مفروق وهو اعتلت فاؤه ولامه نحو ولى، وعى فالحرف الصحيح فارق بين حرفى علة.

ومقرون وهو ما اعتلت عينه ولامه نحو: رمى، عوى، قوى. وسمى بذلك لاقتران حرفى العلة أحدهما بالآخر.

والإشارة بعد الشروح السابقة تبدو على مرأى العين، والخلاصة أنه إذا (سلم) العبد من الزلات والآفات من بداية الطريق وفى وسطها وعند بلوغ غايتها وصل [(٠٠)] (صحيح) الجوارح والجواهر «فإن قبول القرب موقوف

(١١) لطائف الاشارات المجلد الثانى ص٦١٨.
(٠) بضم السين وتشديد الدال المفتوحة.
(٠٠) بفتح الواو والصاد واللام.

على وفاء العواقب»، فإذا عرف العبد أن العبرة بالخواتيم لزم الحذر من أول خطوة إلى منتهى الخطوات. والصدق والإخلاص هما الوقود الأساسى لكل مراحل الحياة الروحية، فبدونهما ينهار كل شىء مهما كانت الجهود السابقة المبذولة بالغة أقصى الحدود، بنفس السرعة التى (ينحذف) بها (حرف العلة) من الفعل عند حودث طارئ على (الفعل) متصل (كالمقرون) أو منقطع (كالمفروق).

وليعلم العبد أن أقوى أعدائه الشيطان، ولكن لو تأمل لعرف أن (الشيطان) ليس له كل هذه السطوة، فهو لايؤثر (•) إلا من كان عنده استعداد للسقوط، ولايقرب عباداً للرحمن يعرفونه ويعرفون كيف يقرعونه «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» وهو كما يصفه القشيرى عاجز تماماً لأنه لو ملك قدرة على الإضلال لاستطاع أن يملك قوة على الهداية.. هداية نفسه أولا!!. فالملك يملك القدرة على نقيضه.

ويأتى (الذكر) المستديم لله بالقلب وباللسان بل بالسر ليكون هو العلاج الأمثل فى مثل هذه المواقف، فالذكر كفيل باستدامة الحضور، وطرد (الغفلة) (والغيبة). بهذا الذكر يكون العبد محاربًا شجاعًا فى ميادين النفس والهوى والشيطان، وبذا يخرج من معركة الجهود سالمًا من كل العلل فى البداية: (المثال) وفى اتخاذ الواسعة والوسيلة: (الأجوف) وعندهم الختام: (الناقص)، ذلكم هو الفعل المقبول، المهيئ إن شاء الله للقرب والوصول و(السلامة).

«ومن الأفعال ما هو مضعف (••)، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان فأدغم أحدهما فى الآخر.

(•) بكسر الثاء.

(••) بتشديد العين.

كذلك: من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره أو ضوعف عليه وزره، وذلك ما اجتمع فيه حق(..) الحق وحق الخلق فضوعف حكمه فى الأجر وفى الوزر (...).

المضعف الثلاثى مثلى: مد ومزيده: استمد.

والمضعف الرباعى مثل: زلزل ومزيده: تزلزل.

وقد ركز الشيخ نظرته فى المضعف على إدغام حرف ساكن فى حرف مجانس له ولكنه متحرك، والنتيجة أن صار الاثنان واحدًا، ينطق به اللسان نطقا واحدًا..

وسيفرد الشيخ لهذا الإدغام الفصل التالى مباشرة.

وفى الإشارة: أننا نجد فى أفعال العبد هذه المماثلة:

ففى معركة التخلية والتحلية التى يجتازها العبد تتنازعه قوتان إحداهما تجنح به نحو حظوظه وأمانيه والأخرى تشده إلى حقوق الله والتزامات الرحلة عليه، وبكلمات أخرى يحدث صراع بين إرادته الخاصة وإرادة مولاه، وتتوقف الخطوات التالية على حسم هذا الصراع، واختيار أحد الجانبين ـ يقول الحارث المحاسبى فى كتابه العظيم: «الرعاية لحقوق الله»: «إذا بدأ العبد بحظ نفسه فأسقطه، وأحل محله حق الله كان له الأجر، أما إذا بدأ بحق الحق وانتهى بحظ نفسه فقد خسر كل شيء.

ومن النماذج القرآنية لهذا الموقف قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩).

ونختم فقرة المضعفات بمقتبسات من آراء الشيخ فى هذا الشأن كما

جاءت فى لطائفه يقول: (وعلى قدر تضعيفه فى طاعاته فإن سعيه مشكور ومقبول، ومع القبول يكون (التضعيف) والتكثير، فكما أن الصدقة يربيها(*) كذلك طاعات العبد يكثرها الله سبحانه وينميها) [١٢].

وقوله «يربيها» إشارة إلى قوله تعالى «ويربى الصدقات».

وإلى قوله تعالى: «والله يضاعف لمن يشاء».

ويوضح هذا المعنى فى موضع آخر بقوله:

«وإذا علم الله صدق قلب عبد أمده بحسن الأمجاد وأكرمه بجميل الامتداد، ويسر عليه العسير من الأمور، وحفظه من الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور» [١٣].

---

(١٢) اللطائف المجلد الثانى ص٢٤٢.

(*) بضم الياء وسكون الراء وكسر الباء.

(١٣) اللطائف المجلد الثانى ص٢٤٤.

فصل [١٧]:

الإدغـام

«الإدغـام الإخـفـاء، فـالحـرفـان فى الـتـقـديـر مـوجـودان . وإن كـانـا عـلـى اللسان بوصف الانفراد.

وفى هـذا إشـارة إلـى مـا يـقـولـه الـقـوم فى وصف الجـمـع وجـمـع الجـمـع. والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز فى بعض أحوال التصريف.

كـذلك صـاحـب الجـمـع له رجـوع ورد(٠) فـى بـعـض الأحـايـين إلى عـين الفرق».

(٠) بفتح الراء وتشديد الدال المضمومة المنونة.

الإدغام في اللغة الإدخال.. تقول أدغمت اللجام في فم الدابة أي أدخلته في فيها (ابن يعيش: باب الإدغام).

وفي الاصطلاح: إدغام حرف في حرف آخر من جنسه بحيث يصيران حرفًا واحدًا مشددًا، وينطلق بهما اللسان نطقًا واحدًا.

والإدغام ثلاثة اقسام:

١ ـ ممتنع وذلك إذا تحرك أول المثلين وسكن ثانيهما مثل: حللت.

٢ ـ جائز أي يجوز الإدغام والفك. وذلك تحرك المثلان في كلمتين: مثل جعل لكم، أو كانا تاءين في افتعل مثل استتر واستر.

٣ ـ واجب وهو الذي تحدث عنه الشيخ في الفقرة، وهو ما سكن الأول وتحرك الثاني في كلمة واحدة مثل: مد (أصلها مدد) ويمد مداً والهدف من الإدغام تخفيف النطق، ويرجع ذلك إلى تأثير الأصوات المتجاورة بعضها في بعض مما يؤدي إلى (فناء) صوت في صوت آخر فيكون ذلك يسيرًا في النطق.

ومن هنا تأتي ـ في رأينا ـ إشارة الشيخ: موجود (يفنى) في موجود فيكون الناتج بوصف بوصف (الانفراد) على اللسان. وإذا كان الحرف الأول ـ في نحو الظاهر ساكنًا والثاني متحرك فهذا هو بالضبط ما يحدث في نحو القلوب. إذ ينبغي أن يكون العبد ساكنا عند حدوث (الهيبة). يقول في كتابه «ترتيب السلوك»

(وتكون المناجاة بين العبد والرب فإذا تجلى الحق بالهية (سكن) العبد سكونًا تامًا. وعندئذ يمتلئ السر بهيبة المولى عز وجل، وتتوقف كل حركة العبد ونطقه) [1]. إن العبد ها هنا في درجة (الصفر) من حيث الإرادة

(١) ترتيب السلوك شرح بسيوني ص٦١

والحركة والكلام.. ولم يعد هناك إلا (واحد) بعد هذا المصير. ويشبه الشيخ هذا السكون (بالكائن الحى وقد حومت خوله الطيور الجوارح، فهى لاتسقط عليه وفيه حركة) [٢].

وحالة التوحيد هذه تختلف عن الوحدة فى التصوفات الأخرى، إنها فى بساطة شديدة فناء إرادة فى إرادة، وليس فيها شيء من حلول أو امتزاج أو تقمص.. ونحو ذلك.

ويعبر الموحدون العظام فى التصوف الإسلامى عنها بأقوال بعضها سائغ لدى الفكر العادى وبعضها لايتذوقه إلا العالمون ببواطن الأمور.

يقول فريد الدين العطار: (قلت [٠] هانذا قد فنيت.. قال: كذلك منحتك البقاء، حين ترى نفسك عدمًا أهبك وجودًا لايتصور [٠٠])[٣].

أما الحلاج فيعبر عن حالة (الإدغام) الروحى التى انتهى إليها بقوله هذه القولة المشهورة «أنا الحق».

وهى لاتستحق - فى رأينا - كل ما قيل عنها فى عصره وبعد عصره من ضجة، وما كان ينبغى - لو أحسن [٠٠٠] فهمها - إلا أن تمر فى هدوء.

فقوله «أنا الحق» معناها فى بساطة أنا الحسين بن منصور الحلاج لست الحق، فقد ذهبت كل مشاهر (الأنا) المفكرة و(الأنا) الفاعلة، وحين نطق - نطق بالحق، أى أن الذى ينطق عنه وفيه هو الحق.. وربما لاتعجب عبارتنا الأخيرة بعض المتسرعن، ولكن الذى نريده أن كل الكائنات.. من حيوان ونبات وطير ناطقة بالوحدانية، لأنها دلالة على الواحد.. فكيف

---

(٢) ترتيب السلوك شرح بسيونى ص٤١.
(٣) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار انظره منقولا عند عزام فى كتابه «التصوف وفريد الدين العطار» ص١١٤.
(٠) بضم التاء.
(٠٠) بضم الهاء.
(٠٠٠) بضم الألف.

نستغرب أن يكون ذلك شاملا أيضًا لهذا العبد المحب الواله الذى أسقط كل أرادة وفعل وتصريف عن ذاته (وأدغم) كل شيء في الهيمنة العليا، فهى التى تنطق عن نفسها فيه كما تنطق فى الشجرة مثل يقول الحلاج فى ذلك:

اقـلـبى قـلـبى فى سواك فلا أرى سوى وحشتنى منه ومنك به انسى(.)

فهأنا فى حب الحياة (مجمع) (..) من الأنس فأقبضنى إليك من الحبس

ويقول:

بـيـنى وبـيـنك إنى يـزاحـمـنى فـارفع بـإنـيك إنـيى من الـبـين (٤)

لقد ارتفع الحلاج إلى مرتبة (الجمع وجمع الجمع) ونتحدث عن ذلك بعد لحظات.

«والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز فى بعض أحوال التصريف. كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد(.) فى بعض الأحايين إلى عين الفرق».

ويكون البروز عند فك الإدغام، ومن الطريف أن نجد لذلك شاهدًا صوفيًا يقول الخواص (ت ٢٩١):

إذا ما (مددت) الكف التمس الفنى إلى غير من قال اسألونى.. فشلت(...)

سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنيائى - وإن هى قلت (....)

وكأنهما بعد (الإدغام) وصيرورتهما واحدًا فى الكتابة يمكن أن يعودا مرة أخرى فى ظرف معين إلى (الانفكاك).

---

(٤) شخصيات قلقه للدكتور عبدالرحمن بدوى ص١٢٤.

(.) بضم الألف.

(..) بفتح الجيم وتشديد الميم المفتوحة.

(...) بضم الشين.

(....) بفتح القاف وتشديد اللام.

وحال (الجمع) لاتكون إلا بعد فناء الآثار والأغيار والبقاء بالحق.

وأما حال (جمع الجمع) فهو فوق هذا، ومعناه الاختطاف كلية بالقبضة الإلهية والفناء تمامًا عما سوى الله سبحانه.

ثم تأتى خلال ذلك حال الفرق الثانى (وهى بالضبط تشبه حالة فك الإدغام) «حيث يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض كى لاتفوته» وما أن ينتهى العبد من ممارسة العبادات المفروضة عليه فى مواقيتها دون إخلال حتى يعاد مرة أخرى إلى ما كان عليه من (جمع)..

وكل هذه التصرفات فيه هى من لدن الحق وحده، أما هو: «فقد ذهب فى الذاهبين» كمات يقول البسطامى.

المهموز

«ومن اقسام الفعل المهموز (.) والهمزة مدة (..) فى الحلق. كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول».

المهموز ما كان أحد أصوله همزة نحو: أمر، ألف، رؤس (...) (أى صار رئيسًا) وسأل وقرأ وهنىء.

ويمكن أن يكون الفعل مهموزًا ومعتلا مثل رأى، ويمكن أن يكون مضعفًا ومهموزا مثل نبأ (....).. والمسألة اعتبارية مخصة.. ولهذا لم يجعل الشيخ «للمهموز» فصلا مستقلا. وإنما أتى به فى معرض معالجته «للفعل» فى نحو الظاهر عمومًا حتى يناظر له فى نحو الباطن. فبعد أن تحدث عن (العلل) التى تصيب الفعل، وعن (ادغام) الذى يحدث فى بعض حروفه يطرق هنا موضوع (الهمزه) فى حرف من حروف هذا الفعل.

(.) بضم الزاى.

(..) بتشديد الدال مع التوين.

(...) بفتح الراء وضم الهمزة التالية.

(....) بفتح النون وتشديد الباء المفتوحة.

ومن المعلوم فى الأصوات أن الهمزة أكثر الأصوات الساكنة شدة، وأن النطق بها شاق أعظم ما تكون المشقة، حتى أن بعض اللهجات تسقطها أو تمدها تسهيلا (أى تحولها إلى حرف مد)، وقريش تخففها.

فإذا كان للهمزة هذه القوة الصوتية التى تفوقها على ماعداها من الأصوات فكذلك فإن بعض الأعمال التى يقوم بها العبد قد تكون مرشحة للقبول أكثر من غيرها.

وقول الشيخ فى الفقرة «قد يصعد» يفيد ذلك، ولكنه دقيق التعبير، إذ أن أحدًا لايملك أن يحكم على الأفعال الإنسانية بالقبول أو الرفض فهذا مرده إلى علام الغيوب، وبلغ الشيخ الدقة باستعمال «قد» التى تفيد ـ كما نعلم ـ التحقيق والتأكيد كما تفيد التكثير ـ وهى أيضًا تفيد التقليل، وكلها محتملة.

المهم.. أن الشيخ يقصد إلى أن يعزز المرء أعماله، فبدلا من أن يردفها بما يضعفها يردفها بما يقويها حتى (تصعد مقبولة).. والأمثلة على ذلك كثيرة.. فالنوافل تدعم الفرائض، واستدامة الذكر آناء الليل وأطراف النهار زيادة مستحبة. والخلو، وعدم الجنوح إلى الرخص (*)، والأخذ بالأحوط، واتباع الأشق دون الأسهل، والذهاب إلى الحج رغبة فى رؤية رب البيت دون الاكتفاء بشكليات الشعائر، وانفاق المال ـ الذى هو مال الله على صاحب حق فيه دون أن تدرى الشمال بما بذلت اليمين.. كل ذلك وأمثاله دواع (تصعد) بالفعل، وهى كما ترى نقيض للدواعى التى (تهبط) به: كان الواسطى (يأمر تلاميذه لا بالتزام الطاعات ولا حتى برؤية التقصير فيها مهما زادت وحسنت بل كان يأمرهم بالفناء عنها والبقاء بمنشيها ومجريها).

(*) بضم الراء المشددة وبفتح الخاء.

لأجل هذا نستطيع أن نصرح بدون تحفظ بأن الصوفية كانوا من أشد البيئات الدينية نفاذًا فى جوهر العبادات، ومنحها نظرة خاصة مبنية على تفهم جواهرها. وتفقه الأغراض البعيدة منها، وتنحية المظاهر عنها، حتى أصبحت الصلاة والصوم والحج والزكاة وكأنها ذات دلالات أعمق مما يعرفه سائر الناس.

وفى هذا رد ضمنى على من يتهمون الصوفية بإهمال الشريعة!.

مقال فى النحو الظاهر

عن الفصول القادمة والعامل

(١٨)، (١٩)، (٢٠)

المبتدأ والعامل فى رفعه

بعد ما انتهى شيخنا من دراسة الفعل بدأ يدرس الاسم وبدأ الاسم بالمرفوعات، وبدأ المرفوعات بالمبتدأ. ومن البدهى أن لهذا الترتيب ارتكازه الفكرى عنده، وسيتضح ذلك من المتون والشروح القادمة.

ونلاحظ أيضًا أنه فى باب الابتداء وما تلاه يردد كثيرًا لفظ (العامل).. وهذه تذكرنا بقضية مهمة شغلت نحاة المشرق والمغرب بل امتدت إلى عصرنا الحديث.

فما العامل فى رفع المبتدأ ورفع الخبر ورفع الفاعل؟

وأيضًا ما العامل فى نصب المفعول به؟

ما الذى يجعل الفعل المضارع المتجرد من العوامل يرفع (.)؟

بادئ ذى بدء.. فإن العامل عند النحاة هو ذلك الذى يحدث (..) المعنى ويترتب عليه الإعراب، وقد جرت أعراف النحاة على تقسيم العوامل إلى

(.) بضم الياء وفتح الفاء.

(..) بضم الياء وكسر الدال.

لفظية ومعنوية فالعامل اللفظى يكون له أثر فى التركيب بحيث لو افترضت إزالته أو كفه لتغير التركيب شكلا ومعنى، وذلك مثل كان وأخواتها، وإن أخواتها، وحروف الجر، وأدوات الجزم.

أما العامل المعنوى فهو: كالابتداء، ووقوع المضارع موقع الأسم - وهو التجرد. وقد اختلف فى العامل من نواح: -

فيرى بعضهم - كسيبويه - أنها فلسفية [1]. بينما يرى ابن مضاء القرطبى أنها توقيفية (أى من فعل الله تعالى).

(الرد على النحاة لابن مضاء ٨٧)

ويهاجم القائلين بعمل العوامل قائلا: «هذا قول لايقبله عاقل، فهذه العوامل لا تعمل بألفاظها ولابمعانيها لأنها لاتفعل بإرادة ولا بطبع».

ويشتد هجومه على القول بالعوامل المحزوفة ويرفض تقديراتهم لأنها تتصل بلغة التنزيل، ولغة التنزيل منزهة عن هذه التقديرات.. «ومن بنى الزيادة فى القرآن بلفظ أو معنى عن ظن باطل فقد تبين بطلانه، وقال فى القرآن بغير علم، وتوجه الوعيد إليه» (ابن مضاء ص٩٢ وما بعدها).

وليس من شك فى أن ابن مضاء فى حملته هذه متأثر نزعة الظاهرية فى الفقه، تلك النزعة التى كانت سائدة فى الأندلس.

وقد تكون مخالفة أهل المغرب لأهل المشرق فى بعض مسائل اللغة والنحو والأدب والتفسير والفقه والكلام من قبيل المخالفة التى تود تأسيس الشخصية العلمية المستقلة، وربما حركت كل هذه الكوامن عوامل سياسية.. وربما.. وربما فليس هذا موضوعنا هنا.

(١) الكتاب ٢/١.

أما ابن جنى فيردها إلى المتكلم نفسه يقول (.. واما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم لا لشىء غيره، وإنما قالوا: لفظى ومعنوى لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ، أو باشتمال المعنى على اللفظ، وهذا واضح) الخصائص ١٠٩/١ وعالج ابن الانبارى الموضوع نفسه عند بحثه عن رافع المبتدأ ورافع الخبر (الإنصاف المسألة الخامسة).

وذهب الكوفيون إلى أن نصب المفعول يعود إلى الفعل والفاعل جميعًا، ومنهم من ذهب إلى أنه الفاعل وحده. ويذهب خلف الأحمر (وهو كوفى) إلى أن العامل فى المفعول معنى المفعولية، والعامل فى الفاعل معنى الفاعلية.

أما البصريون فيرون أن الفعل وحده يعمل فى الفاعل والمفعول جميعًا. معنى هذا أن كلا من المدرستين: البصرة والكوفة تأخذ بالعامل ولكنها تختلف فى تعيينه.

وقد اختلف فى العامل فى المبتدأ:

فذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أن العامل فى رفعه هو الابتداء، وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ، فكأن العامل فى المبتدأ معنوى، وهو كون الاسم مجردًا عن العوامل اللفظية غير الزائدة، أما العامل فى الخبر فهو لفظى (المبتدأ).

ومن النحاة من يقول إن الابتداء هو العامل فى المبتدأ والخبر معًا.

ومن يقول: المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ.

ومن يقول: ترافعا.. يقول ابن مالك:

ورفعوا مبتدأ بالابتدا   كذاك رفع خبر بالمبتدا

أما فى العصر الحديث فيذهب المشتغلون بالنحو إلى انه ليس فى اللغة عامل كما تصور النحاة، وإنما هى من عمل اللغة نفسها، وارتضى العرف أن تأتى على هذه الأنماط، وأن توزع الوظائف والقيم فى اللغة.

هذا هو مجمل الآراء الحديثة.. وهو أمر لايستطيع المرء أن يتقبله دون أن تكون له وجهة نظر فيما ذهبوا إليه..

لأن اللغة ليست إحدى العناصر الطبيعية التى جاءتنا هكذا.. لها درجة انصهار ودرجة غليان ووزن نوعى ووزن جزيئى وذرى... إلخ، وعلينا أن نتعامل معها كما هى.. إنما اللغة صناعة بشرية، قامت بها أجيال من البشر لتحقق أغراضًا حياتية متنوعة تحتاج إلى أساليب فى التعبير تابعة لكل غرض، وحيث إن الأغراض متنوعة ووسائل التعبير متنوعة.. فإن ذلك كله بحاجة إلى تفسيرات تتعدى كثيرًا فهمنا (لخواص المادة) إنها منطق وعقل باعتراف هذه الآراء، ومن حق العقل أن (يفسر) هذه الأوضاع وأن يرجع كل وضع إلى سببه العميق فى عقول المتكلمين باللغة وفى أذواقهم وفى أعرافهم.

على كل حال.. ليس هذا موضوعنا هنا.. فلنا معه لقاء آخر فى كتاب لنا خاص بالموضوع سيكون عنوانه بإذن الله «رأى خاص فى بعض مسائل الخلاف بين النحاة» ولا داعى لأن نقحم أنفسنا هنا فنحول بين الشيخ وقرائه.

فصل [١٨]:

«الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدرًا (.) للإخبار عنه، وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عاملٌ ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة يسلم له صدر الخطاب، كذلك:

من سلم من تأثير الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم. ومن أسرته (..) المنى والمطالبات تسفل (...) للأعتاب ووقع فى صف النعال»(....).

(.) بتشديد الدال المفتوحة.

(..) بفتح الألف والسين والراء وسكون التاء وضم الهاء.

(...) بتشديد الفاء.

(....) بتشديد النون المكسورة.

فصل [١٩]:

العوامل على قسمين: لفظى ومعنوى: فالاسم المبتدأ العامل فيه معنى الابتداء. وهو غير لفظى، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

كذلك فى الإشارة: العامل فى العبد نوعان، ظاهر يهتدى إليه كل أحد، ومستور لايظهر إلا بعد مدة. قال الجنيد رحمه الله: «من أراد أن يضع سرًا(٠) عند أحد فليضعه عند رويم. فإنه صحبنا كذا وكذا سنة وفى قلبه حب(٠٠) إلينا ولم نبصره فيه».

---

(٠) بتشديد الراء.

(٠٠) بتشديد الباء وضمها.

فصل [٢٠]:

«ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع ـ وهو أقوى الحركات ـ لمصادفته حل لجام التكلم.

كذلك فى الإشارة: من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من الإرادات قوى فى حالة فخص (٠) بأقوى الأثقال، وحمل (٠٠) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوم، فأقواهم حالا يخص بأثقل الأمور، قال الله لنبيه ﷺ: «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا».

وقال ﷺ : «الناس كإبل هائمة لاتكاد تجد فيها راحلة، قيل: الراحلة هى الناقة التى يحمل (٠٠٠) عليها ما يعجز عنها كل إبل».

وكان الشبلى يقول: «اشعر (٠٠٠٠) أنى مأخوذ بجرائم الخلق (٠٠٠٠٠).

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٠٠) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم.

(٠٠٠) بضم الياء وفتح الميم.

(٠٠٠٠) بسكون الشين وضم العين والراء.

(٠٠٠٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام.

ضممنا هذه الفصول بعضها إلى بعض لأن السياق يتطلب أن تقرأ مجتمعة في صعيد واحد دون تشتيت، وهى من حيث جوهرها تدور على ثلاثة محاور: ـ

١ ـ معنى المبتدأ.

٢ ـ العامل اللفظى والعامل المعنوى فى المبتدأ.

٣ ـ لماذا خص المبتدأ بالرفع.

ونشهد أن أسلوب الشيخ واضح لاغموض فيه، والإشارة تنبعث من العبارة في سلاسة ملحوظة... الأمر الذى يسهل علينا عملية الشروح.

المبتدأ اسم مصدر (.)، مجرد من العوامل اللفظية، مخبر (..) عنه، مسند إليه. وكونه له الصدارة هذا حق له من حيث اللقب والموقع والإسناد.

(١) وحتى حين يتقدم عليه الخبر فإنما يتم ذلك لدواع نحوية أو بلاغية، أى فى حالات خاصة لاتخل بالقاعددة الأساس».

ونحو عندى درهم ولى وطر (...)	ملتــزم فــيه تقــدم الخبــر
كذا إذا عاد عليه مضمر (....)	ممــا به عنــه مبينــا يخبــر

أما الدواعى البلاغية فتتلخص فى إضفاء قدر كبير من اهتمام المتكلم بالخبر فيؤثر أن يبدأ الكلام به، لأنه يعلم أن السامع تواق إلى ذلك أيضاً، فهو يقدم له ما يهمه أو يشغله.. فلا ضير عندئذ أن يتأخر المبتدأ، والبلاغة فى صميمها ـ كما نعلم ـ هى مراعاة مقتضى الحال، وهذا

(.) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الدال المفتوحة

(..) بفتح الباء.

(...) بسكونها فى القافية كذلك.

(....) بضم الراء، وبضمها فى القافية كذلك.

تحكمه ظروف القائل والمتلقى معًا. وتبقى الحسنة للغة.. فهذا الذى يحدث بحسب لها لا عليها، إنها طواعية اللغة للذين يتكلمونها والذين يسمعونها.. ولاشىء غير.

ومع ذلك نجد فى المسألة التاسعة من «الإنصاف» إصرار الكوفيين على عدم جواز تقديم خبر المبتدأ عليه مفردًا كان أو جملة محتجين بأنه لايجوز تقديم الضمير الذى فى الوصف أو فى الجملة على الاسم المعاد عليه هذا الضمير.

أما البصريون فأجازوا ذلك للسماع عن العرب، وحكى سيبويه عنهم: تميمى أنا.

(٢) ويستتبع كون المبتدأ مصدرًا أن من أحكامه فى الأصل أن يكون معرفة أو نكرة مخصوصة لأن الاصل أن المبتدأ محكوم عليه وأن الخبر حكم ـ والحكم على المجهول لايفيد.

أما النكرة المخصوصة فلها أحكام (انظر فى ذلك كتب النحو) وخلاصتها أن تكون نكرة مفيدة.

٣ ـ وكون المبتدأ مجردًا من العوامل اللفظية مثل: كان وأخوتها، وأن وأخواتها، وظن وأخواتها يرشحه (للرفيع) بالضمة أو ما ينوب عنها فذلك لأن (الرع) أثقل الحركات، والمبتدأ عمدة فى الإسناد، وما بعده جاء لأجل خدمته والتحدث عنه.. وذلكم هو العامل اللفظى فى (رفع) شأنه.

أما الإسناد فهو مؤهل بعامل معنوى هو (الابتداء) به ، وهذه خطوة أساس ترشح (للرفع) أيضًا (راجع فى قيمة الرفع وأهميته فصول هذا الكتاب) لتعرف رأى الشيخ.

والإشارة:

ونحسب أن الإشارة الآن أصبحت قريبة المنال.

يبدأ (المبتدئ) فى طريق القوم بأول مقام من المقامات وهو «التوبة» ونلاحظ أنها استحقت من الشيخ اهتمامًا كبيرًا .. ولهذا نتوقف عندها:

الحياة أقصر من أن نؤجل التوبة، فالبدار إليها أولى من التأخير والحياة أمامنا تمتلئ بالعجب العجاب «فكم ناسج ينسج كفنه وهو لا يدرى، وكم بان يبنى لأعدائه - وهو يجهل ذاك، وكم زارع لايحصد ما زرع.. هيهات، الكبش يمتلف.. والقصاب مستعد له»[1].

ويحدث قبيل (.) التوبة نوع من (التيقظ) الواعى المدرك (..) يؤدى إلى وقفة مع النفس حادة وجادة، ويتطلع المرء إلى الشاطئ الآخر حيث النجاة، ويود لو تخلص من كل ما اجترحه من سيئات دفعه واحدة ثم قفز إلى هناك، هناك حيث يسلم (ابتداؤه) من كل أدران الماضى (وعوامل) الخطيئة (الظاهر) منها و (الخفى).

وبذا (يسلم من الأطماع والشهوات والإرادات فيسلم له التقدم) لأن أية بقية من هذه تبقيه فى (وصف النعال) دون أن يحظى بشرف التقدم خطوة على البساط «بساط ملك الملوك»

فلا له مكان فى صفوف الأعقاب أو فى الصدارة، بل هو مرتبط مرتهن بالأعتاب و (النعال) .. فأى هوان وخزى!

وعلى نفس المنوال - فى نحو الظاهر - يفقد (المبتدأ) كل صلاحياته ومزاياه التى أهلته (للرفع والرفعة) إذا ما أقبلت عليه هواجم (كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن أخواتها).

بل إن ظن وأخواتها تتسفل به إلى (المفعولية) فيهبط دركات دنيا إلى مرتبة الخدم.

(١) لطائف الإشارات المجلد الأول ص٥٩٢.

(.) بضم القاف وفتح الباء.

(..) بكسر الراء .

ولابد (للمبتدئ) فى دنيا القوم من عامل خفى (هو القسمة) أو الاجتباء الإلهى، ومن عامل (ظاهر) هو فعله الدءوب فى درجات التطهر فإن توافقا فعلى بركة الله.. وله (الرفع). وإلا.. فكل شىء إلى زوال.

ويضرب المثل (٠) على أدب من آداب البداية هو كتمان السر. فمحمد ابن رويم تتلمذ على الجنيد، ولم يحدث أن أفضى بأحد أسراره طوال حياته إلى أن قبضه الموت.. درس للمبتدئين فضلا عن عشرات الوصايا التى تحدثنا عنها سابقًا.

(٠) بفتح الميم والثاء واللام.

فصل [٢١]:

الخبر وأقسامه

«لابد للمبتدأ من الخبر، والخبر ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلابد مما تتم به فائدة الخطاب.. وإلا كان لغواً.

كذلك: الابتداء في العرفان فلابد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء.

فإذا حصل بالابتداء بالطاعات فلابد من تماما - قال ﷺ: «الأمور بتمامها».

وكذلك على لسان الجمع إذا حصل منه (سبحانه) ابتداء القسمة بالرحمة فلابد (٠) في الانتهاء والمآل من المنة والنعمة.

ورذا سبق منه الابتداء بالولاة فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذا قيل:

إن الكريم إذا حباك بوده(٠٠) ستر القبيح وأظهر الإحسانا
وكذا الملول(٠٠٠) إذا أراد قطيعة ستر المليح وقال كان وكانا

(٠) بفتح الدال المشددة.
(٠٠) بكسر الدال المشددة.
(٠٠٠) بفتح الميم وضم اللام.

فصل [٢٢]:

«خبر المبتدأ على أقسام ـ وبالكل تحصل فائدة الخطاب».

كذلك : لو سلكت للحق طريقا، أو ابتدأت بأمر فلا تتصرف ما لم تتم ذلك.. سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد ـ فإن قدر (٠) الأمور بالاستقامة فيها... فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لاتتم الفائدة به إلا بإتمامه:

تجرد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

(٠) بفتح القاف وتسكين الدال وفتح الراء.

فصل [٢٣]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيد منطلق (.) ويكون جملة: إما فعلا وفاعلا، أو شرطا وجزاء أو ظرفًا وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم (..) كما كنت فيه بالأمس.

وقد لاتحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضفها (...) إلى ما سبق منك بالأمس لاتحصل الفائدة.

(.) برفع المبتدأ والخبر.
(..) بفتح الميم.
(...) بضم التاء.

تتحدث هذه الفصول الثلاثة عن ثلاثة أمور:

١ ـ تعريف الخبر. ٢ ـ وظيفته. ٣ ـ أقسامه.

١ ـ تعريف الخبر:

لفظ مجرد من العوامل اللفظية مسند إلى المبتدأ ليتمم الفائدة.

يقول ابن مالك:

والخبر الجزء المتم الفائدة كالله بر والأيادى شاهدة

فيخرج من التعريف مرفوع الوصف المكتفى به مثل:

أطائر العصفوران؟ فهو لايسمى خبرًا بل هو فاعل سد مسد الخبر.

٢ ـ فوظيفة الخبر: إتمام الفائدة التى جىء بالمبتدأ لأجلها.

٣ ـ أقسام الخبر:

١ ـ المفرد ـ ٢ ـ الجملة بنوعيها ٣ ـ شبه الجملة الظرفى والحرفى

أولا ـ الخبر المفرد: وهو نوعان:

الجامد: وهو نوعان:

(أ) يمكن تأويله بمشتق مثل: زيد أسد (أى شجاع)، هذا مصرى (أى منسوب إلى مصر)، وجهها قمير (أى قمر صغير).

ومثل هذا الخبر يتحمل الضمير على أساس ما يتضمنه من معنى المشتق.

(ب) لايمكن تأويله بمشتق مثل: هذا أسد (تقصد الحيوان المعروف نفسه)، هذا محمود (علم على الشخص الذى اسمه هكذا) فإنه يكون فارغًا أى غير محتمل للضمير لبعده [.] عن الوصفية والفعلية.

(.) بضم الباء وسكون العين.

ومن هذا النوع الأخير اسم الآلة (هذا مفتاح)، واسم الزمان (الامتحان موعد المجدين) واسم المكان (هذا مجلس زيد) - فهي وإن كانت من قبيل المشتقات إلا أنها لاتدل على وصف ولاعلى صاحب وصف.

المشتق:

ما أخذت صيغته من المصدر للدلالة على متصف به، وهو يؤدي معنى الفعل، ولهذا يتحمل ضميرًا مستترًا فيه يعود على المبتدأ مثل الذي قاله الشيخ في الفقرة: (زيد منطلق) فهي في المعنى تساوي (زيد انطلق هو).

ثانيا - الخبر الجملة:

(أ) اسمية مثل: الطريق مقاماته متدرجة.

(ب) فعلية مثل: الطريق يسلكه المريد.

وقد يكون جملة شرط (وقد ذكرها الشيخ في المتن) مثل:

المريد إن يسترخص فقد فسخ عقده مع الله.

وقد أحسن الشيخ إذ ذكر (فعل الشرط والجزاء) خلافًا للقول المعتاد (فعل الشرط وجوابه)، فالتعبير هنا أليق باستنباط الإشارة كما سيأتي ويمكن أن يضاف إلى مجموع مصطلحات النحو عنده.. وهو تعبير دقيق جميل.

ونلاحظ وجود ضمير رابط في جملة الخبر بنوعيها يكون أشبه بصلة عضوية تربط بين أجزاء الجملة الكبرى.

أما عندما تكون جملة الخبر هي المبتدأ في المعنى فإنها تستغني عما يربطها بالمبتدأ مثل:

١ - نطقي الله حسبي

م. أول م. ثاني خبر الثاني

٢ ـ قل هو الله أحد

م. أول م. ثان خبر الثانى

وقد آثرنا أن نجرى هذا التحليل للمثال الثانى بخاصة لأن فحواه:

(هو = الله أحد)، فالطرف الأول هو نفسه الطرف الثانى، وكلا الطرفين مفيد تام، فكأن (هو) وحدها تساوى جملة مفيدة، وهذا ما ذكره الشيخ فعلا فى كتاب «التحبير فى التذكير» ونوهنا به فى باب المبتدأ.

«وقد لاتحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات... إلخ».

إذا أراد المتكلم التعبير عن ثبات الخبر استعمل الجملة الإسمية لخلوها من الحدث المرتبط بالزمن، أما إذا أدخل فى حسابه التحديد الزمنى استعمل الجملة الفعلية أو الصفات التى فى معنى الأفعال، وسنوضح فى الإشارة.

وتركيز الشيخ على الأفعال والصفات هو ما حدا به ألا يذكر «شبه الجملة» كنوع من أنواع الخبر، فضلا عن أسباب أخرى سنذكرها بعد قليل.

ثالثا ـ الخبر شبه الجملة:

وشبه الجملة إما ظرفى أو حرفى، وكلاهما يتعلق بمحذوف واجب الحذف، وهو كون عام يفهم (٠) بدون ذكره على تقدير (مستقر أو كائن أو استقر) يقول ابن مالك:

وأخبروا بظرف او بحرف جر ناوين معنى كائن أو استقر

مثل: التوبة قبل الورع، المريد عند شيخه.

ومثل الخشية فى القلب.

(٠) بضم الياء وفتح الهاء.

أما الكون الخاص فلا يجوز حذفه مثل: زيد نائم فى الدار أو جالس عندك.

وهناك كلام كثير فى كتب النحو عن ظرفى الزمان والمكان، وعن متعلقات الكون العام والكون الخاص.. وربما وجد الشيخ أن هذا الموضوع بخلافاته لايفيد شيئًا هنا فلم ينوه (*) به بتاتًا، هذا فضلا عن تركيز اهتمامه بالأفعال والصفات فهى التى تعينه فى (الطريق) الصوفى.

إشارات من الخبر

العابد تائب ـ الزاهد يعزف عن الدنيا ـ العارف فى الفرق الثانى يؤدى الفرائض ـ الولى عند مرتبة الكرامة لايلاحظ نفسه.

أردنا أن نصوغ فوائد الخبر فى عبارات صوفية تلخص فكرة الشيخ حول وظيفة الخبر، فهو فى الواقع قد جيء به لبيان (صفات وأفعال) تحقق فائدة فى الجملة.

يرى الشيخ أن الرحلة ذات مراحل، وكل مرحلة تتطلب عند (الابتداء) بها مزيدًا من (الصفات والأفعال)، فالخبر يفيد فى تجدد السلوك الذى يلتزم به (البادئ) الذى يدخل فى منزلة من المنازل (سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد) و(كلها صفات وافعال تربو).

هى إذًا معركة قتالية تحتاج إلى خطة بعيدة الهدف، وتحتاج إلى خطة مرحلية تتغير بحسب المرحلة، وبتكامل هذا وذاك يتم النصر. وعلى العبد أن يفهم أن الخطر على الدوام كامن، وأن الأعداء ـ النفس والهوى والشيطان والدنيا ـ يتربصون به فى كل ثانية، وأنها تختبئ فى جيوب على جوانب الدرب، وأنها مفتحة العيون كى تنقض على العبد فرادى أو

(*) بضم الياء وتشديد الواو مع كسرها.

مجتمعة.. فبدون مضاعفة (الفوائد) وتجددها يضعف المرء، وتفتر همته، ويجد العبد نفسه ـ لو استسلم لعدو منها ـ أنه كان كمن يحرث في البحر!

في هذا الميلاد الروحي النبيل تنتعش الإرادة وتزدهر الروح ويتألق السر ولكن.. لا أمان، فبدون هذه (الفوائد) في كل منزلة يجهض هذا المولود وينتهي كل شيء.

وللحقيقة فإن الشيخ حين ألف «رسالته» الشهيرة قد وضع كل هذه الاعتبارات في ذهنه، فأفاض في عرض الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، وأبان علل الطريق، وشخص (.) الدواء لكل علة فلم تبق حجة لدى أحد يتذرع بها لأنه إذا (**صح الابتداء صح الانتهاء، وتحققت الفائدة**).

والشيخ بتجربته الواسعة، وباتصاله بأعداد كبيرة من المريدين والخلطاء لهم يعرف أشياء ربما يجهلها غيره.. استمع إليه مثلا وهو يعالج آفة الإحباط حينما تصيب المبتدئين.. كيف عالجها؟

«من قارف الزلة (..) فهو من خطئه على يقين، فإذا تغلب على ذلك بالتوبة فهو من القبول في شك، فواجبه الانكسار، وملازمة التنصل والاستغفار، واستشعار الوجل إلى الأجل».

ولكي يأخذ بيده بعد تشخيص (الصفات والأفعال اللازمة لتحقيق الفائدة) يعود بهذا المحبط إلى سيرة المصطفى صلوات الله وسلامه لكي يقدم له الأسوة الحسنة والنموذج الأمثل.. كان صلوات الله عليه ﷺ ـ وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ يقوم الليل حتى تتورم قدماه.. وحين يسأل (...) في ذلك يقول: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»

(.) بتشديد الخاء مع فتحها.

(..) بتشديد الزاي وتشديد اللام مع فتحهما.

(...) بضم الياء وفتح الهمزة.

ومع ذلك فإن هذا العظيم كان يقول أحيانًا «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة».

نظن أن فى ذلك كله ما يشفى من كل إحباط!

ليس هذا فقط بل إنه يضع فى يد المريد مقياسًا ضابطًا لحصول (الفائدة) فى كل مرحلة فهو يقول مثلا عند الظفر فى مقام التوبة و(علامة ذلك أن يجد الحلاوة فى المستأنف عوضًا عن المرارة فى السالف).

وأخيرًا.. فإنه إذا كان (الابتداء بالقسمة بالرحمة فلابد فى الانتهاء والمآل من المنة والنعمة) وأيضًا (إذا كان الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه فى الانتهاء).

معنى هذا أن (الابتداء) الصحيح يؤدى إلى (الانتهاء) الصحيح، وتحدث (السلامة) فى (الجملة)، فالمقدمات الصحيحة فى أى شىء تعطى النتائج الصحيحة.

ولقد قلنا من قبل إن التصوف ينماز عن سائر المعارف بأن هناك عنصرًا أوليًا فى الطريق هو (القسمة)(•)، هو (الاجتباء) الإلهى فالله سبحانه يصطفى من خلقه بشرًا يكونون له خاصة.

وبدون ذلك .. لا فائدة.

أما عن (الانتهاء) فعلامة الصحة والسلامة أن (يحفظ) الله العارف وهو فى حال الجمع أوجمع الجمع فيرزقه حال (الفرق الثانى) كى يؤدى الفرائض فى مواقيتها، فلا يكون عليه أو منه تقصير فى حقوق الشريعة.

وهل هناك (منة او نعمة) اعظم من أن يجمع العارف بين الحقيقة والشريعة فى آن واحد؟ لأنه إذا صح الولاء فى البداية صح الانتهاء).

(•) بكسر القاف وسكون السين.

وهكذا نلحظ كيف أن القشيرى ـ وكبار الشيوخ ـ لايملون (٠) من تكرار القول إن الشريعة والحقيقة وجهان لحقيقة واحدة، فكل منهما تمنح الأخرى طاقة الازدهار والانتعاش فى قلب العارف ووجدانه.

(٠) بفتح الياء والميم وتشديد اللام المضمومة.

فصل [٢٤]:

الفاعل

«الفاعل مرفوع وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ.

وقيل: لقوة حاله خص(٠) بأقوى الحركات.

وقيل: للفرق بينه وبين المفعول - والرفع أقوى الحركات.

وفى الإشارة: استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى - لأنه الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره قدرة على الاختراع.

ولأن الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفعة والعظمة له».

---

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

تعريف الفاعل:

الفاعل اسم مرفوع قبله فعل مسند إليه على جهة قيامه بهذا الفعل أو قيام الفعل به.

تحليل هذا التعريف:

على طريقة أسلافنا فى الشروح نتوقف عند كلمات التعريف السابق مراعين أن نتجنب التطويل اللهم إلا إذا اقتضى فهم الإشارة - وهذا هو المهم - ذلك.

فهو (اسم) صريح: مثل: نصركم ربكم (.) على أعدائكم.

أو مؤول مثل: أو لم يكفهم أنا (..) أنزلنا .. أى إنزالنا.

(مرفوع) رفعًا ظاهرًا مثل: يزهد الزاهدون فى الحياة الدنيا. أو على المحل مثل:

(أ) إضافة المصدر إلى فاعله مثل: يسرنى عطاء (...) الغنى (....) للفقير.

(ب) كونه مجرورًا بمن أو اللام أو الباء الزوائد مثل: ما جاءنا من بشير، هيهات هيهات لما توعدون، وكفى بالله شهيدًا.

(قبله فعل) الأصل فى الفاعل أن يلى الفعل لأنه كالجزء منه، فالفعل لابد له من فاعل بعده فإن ظهر فبها وإلا قدر ضمير مستتر، يقول ابن مالك:

وبعد فاعل فاعل فإن ظهر فهو وإلا فضمير استتر

(.) بضم الباء المشددة.

(..) بتشديد النون المفتوحة.

(...) بضم الهمزة.

(....) بتشديد الياء المكسورة.

ذلك لأن الفاعل عمدة لايجوز حذفه، فهو جزء أساسى فى الجملة، ولو أن بعض النحاة يوجبون حذفه أو يجوزونه فى بضعة مواضع، ولكن هذه المواضع من الندرة بحيث لاتخل بالقاعدة الأساس.

ينبغى أن يكون الفاعل مع فعل مبنى للمعلوم حتى نخرج نائب الفاعل الذى يكون مع الفعل المبنى للمجهول.

ولندع جانبًا رأى الكوفيين فى جواز تقديم الفاعل على الفعل فهو رأى يثير البلبلة، ويوقع فى اللبس (.) ، والقاعدة النحوية ينبغى أن تريح لا أن تحير. ويميل شيخنا إلى رأى البصريين فى الحكم بتأخر الفاعل عن رافعه.

(مسند إليه) الواقع أننا ونحن نصوغ تعريف الفاعل السابق تأثرنا موقف البلاغيين فى فكرة الإسناد، فزدناها كى يكون التعريف جامعًا مانعًا.... وعلاقة الإسناد تشمل النوعين من العلاقات: علاقة قيام الفاعل بالفعل مثل: كسرت الريح (..) الزجاج(...). وعلاقة قيام الفعل به مثل: انكسر الزجاج، ومثل سقط السقف، ومات الرجل.. ففى هذه الأمثلة لم يقم الفاعل بالفعل وإنما قام الفعل به. وهذه العلاقة المنبهمة تدخل فى نطاق الإسناد على نحو ما تدخل العلاقة الواضحة الأولى.

بقيت فى الموضوع أشياء هى من البدهيات النحوية التقليدية مثل: الإعراب المحلى والتقديرى، فالمعرب يظهر عليه الرفع، والمبنيات تبنى على ما ترفع به فى محل رفع، ومثل قيام ما ينوب عن الفعل مقام الفعل مثل: اسم الفعل والمصدر، واسم الفاعل، والصفة المشبهة، وأفعل التفضيل، والجامد المؤول بمشتق مثل: (أسد بمعنى شجاع، ونمر بمعنى غادر.. إلخ).

(.) بفتح اللام المشددة.

(..) بضم الحاء.

(...) بفتح الجيم الأخيرة.

سبب الرفع:

يقول الشيخ: «لمشابهته المبتدا»، وهذا ما يذهب إليه فريق من النحاة على أساس أن الفاعل كالمبتدأ يتطلب الرفع الظاهر أو المقدر فى الأسماء المعربة، والرفع على المحل فى المبنيات، وهو لايتحول عن هذا الرفع بحال.. فكأن المبتدأ هو أصل المرفوعات، والفاعل لايحيد عن هذه المرتبة حتى لو سبق (٠) بحرف جر زائد.

ويرى الشيخ أيضًا أنه «رفع لقوة حاله فخص بأقوى الحركات» وهذه مسألة سبق أن شرحها فى المرفوعات فلا داعى لإعادتها هنا. ويضيف الشيخ أسبابًا أخرى:

«ليس لغير الفاعل قدرة على الاختراع.

الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق.

استحق الرفعة والعلو لأنه الفاعل على الحقيقة.

توهم (٠٠) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له».

واضح جدًا أن الذات الإلهية (الفاعلة) فى الكون بمشيئة مطلقة حاضرة فى ذهن الشيخ وهو يتحدث عن (الفاعل).

والإشارات هنا نافعة فى إمكان حل الخصومات النحوية التى كثيرًا ما تتشعب وتتفرع إلى تفاصيل لا جدوى منها، وهى تثقل على الناس وبخاصة الناشئة ـ درس النحو، فى حين تبقى الحقائق الضرورية الكافية بسيطة وناصعة لاتقبل الدوران حولها.

وتلك مأثرة من مآثر هذا الكتاب ـ لو أحسن فقهها.

(٠) بضم السين.

(٠٠) بفتح التاء وفتح الواو وتشديد الهاء المضمومة.

فصل [٢٥]:

«المفعول»

«المفعول منصوب. والنصب أخف من الرفع، والمفعول انقص رتبة من الفاعل، فخص (٠) بما هو الأخف من الحركات.

كذلك: الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص لأنهم في اسر القدرة وتصريف القبضة.

وقيل:

فاصبر لمر (..) العناء

فقد خلقت (...) ممر (....) القضاء

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد المفتوحة.

(..) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء.

(...) بضم الخاء وكسر اللام وسكون القاف

(....) بفتح الميم وتشديد الراء.

فصل [٢٦]:

أقسام المفعول

«المفعول على أقسام: مفعول مطلق، مفعول به، ومفعول له، ومفعول فيه، ومفعول معه.

كذلك: المفعولات على أقسام، فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعولات بها تجرى عليها أحكامه ـ سبحانه ـ فى النفع والضر.

والمكلفون مفعول لهم: خلق لأجلهم الجنة والنار.

وأحوال المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصى والطاعات فيها.

والبلاء مفعول معه لأن بنى آدم خلقوا والبلاء والعناء معهم، قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان فى كبد».

ويصح أن يقال: الأرزاق مفعول معه لأنه خلق الرزق مع المرزوق.

ويصح أن يقال: كفاية الله مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله ولى (.) إلا وهو مكفى (..) الشغل، قال تعالى:

«والله (...) يتولى الصالحين».

(.) بفتح الميم وسكون الكاف.

(..) بفتح الواو وكسر اللام.

(...) بتشديد اللام المفتوحة.

جاء الفصل الخامس والعشرون ليكون تمهيداً عامًا يتناول المفعولات كلها، ويشتمل على خصائص عامة تنطبق على كل المفاعيل.

فالمفعول فضلة (لأنه انقص رتبة من الفاعل) وهو (منصوب لأن النصب اخف من الرفع) ولأنه يقع متأثراً بالفعل (فله حالة العجز والنقص) وتستوقفنا هنا بضعة أمور:

أن النصب استحقاق للكلمة حين تخرج عن نطاق الإسناد أو الإضافة. وبناء على ذلك يكون (الرفع) أسبق من النصب، فالمبتدأ والفاعل أسبق من المفعول (نتذكر هنا ما قاله الشيخ فى بابى المبتدأ والفاعل) مستحضراً (العظمة الإلهية بوجودها المبدئى الأزلى المطلق) و(بفاعليتها فى الكون).

ولابن عربى كتاب صغير الحجم جليل القدر اسمه (شجرة الكون) جاء فيه أن الله سبحانه حينما أراد خلق الكون بذر(.) حبة (كن) .

«إنما أمرنا إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

ولهذا ـ فى رأى ابن عربى ـ فإن (كن) تحوى فى رحمها (..) كل تناقضات الكون فالكاف للكمال وللكفر، والنون للنعمة والنقمة. ونستطيع نحن أن نربط بين هذه النظرة هنا وبين دوران لفظة (أمر) فى القرآن الكريم فنربط بين الآية السابقة وبين «**حتى يقضى الله أمراً كان (مفعولا)**».

وبلغة الفلسفة نستطيع أن نقول إن الله سبحانه واجب الوجود. أما المخلوقات (بعد كن) فهى من الممكن الوجود وبالتالى فكلها من المرجحات أو المفاعيل، فكلها جاءت (بأسر القبضة وتصريف القدرة) وكانت عدمًا تفتقر إلى من يوجدها، ثم هى بعد وجودها لاتستغنى عن مبدعها أى الذى

(.) بفتح الباء والذال والراء.

(..) بفتح الراء وكسر الحاء.

خلقها لا على مثال سابق، ولا فى زمن يذكر، وهى على حد تعبير ابن سينا تحتاج إلى (عناية) الصانع.. وللعلم فإن (دليل العناية) إضافة سينوية إلى مذهب أرسطو فى الوجود الإلهى.

وفى رأينا أن الشيخ لايطمع من عملية التنظير هنا إلى مجرد توافقات لفظية بين نحو الظاهر ونحو الباطن، بل يطمح إلى ما هو أعمق... إلى الغرض الأساس من الكتاب: وهو توسيع آفاق المعرفة لدى (الذاكرين).. ولنوضح الأمر نعيد هنا شيئًا كنا قد ذكرناه آنفا:

فيفترض (.) أن (التأمل) وهو حجر الزاوية فى (الذكر) يبدأ بالتأمل فى عظمة (الذات الإلهية) التى يمثلها (المبتدأ أو الفاعل) ثم يطوف (..) التأمل فى جنبات الكون وما فيه (المفعولات) هنا حيث تتجلى (الصفات) الإلهية من وهاب ورزاق، ومحيى ومميت ومنعم ولطيف، وقابض وباسط.... فالبدء بالذات والانسياح مع الصفات... إلخ حلقات فى سلسلة (الذكر) وتنتهى التأملات إلى أن:

فى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

الكون كله يسبح (...) بتوحيد اللّه وبشكره، وبعظمته، وإبداعه فى خلقه، وهذا الشمول الذاكر، فى الألوهية ثم فى الكون والطبيعة والإنسان هو المقابل الموضوعى للفلسفة، فليست الفلسفة فى الواقع إلا: ميتافيزيقا وفيزيقا وإنسان.

وبدهى أن الخلاف شاسع جدًا بين المعرفتين.. ولا مجال هنا لبيانه، وإنما أردنا فقط أن نخرج مع إشارات الشيخ إلى دائرة أوسع من المناظرات اللفظية بين الكلمات فى هذا النحو وذاك.. والنقطة التى وصلنا

(.) بضم الياء وسكون الفاء.

(..) بكسر الواو المشددة.

(...) بكسر الباء المشددة.

إليها هى ذات النقطة التى انتهى إليها ابن سينا حين قال لأحد شيوخ الصوفية بعد أن استمع إليه طويلا: أنت ترى ما أعرف!

وسنحاول فى السطور القادمة أن نتخير من نصوص القشيرى فى مصنفاته المختلفة ما يفيد فى إبراز فكرتنا عن أن المقصود بالباب - بل بالكتاب كله - شحذ همة (الذاكرين) نحو تأمل جاد ومستنير - لا كما يحسب بعض الناس أن حلقات (الذكر) ليست إلا مجرد حركات أقرب إلى الهستيريا والادعاء والجهالة.

ومن أمثلة التأمل فى (الذات) قوله:

«سلهم هل فى الدار، وهل للكون - فى التحقيق عند الحق مقدار؟

فإن بقوا عن جواب يشفى فقل : (اللّه) فى الربوبية يكفى»[1] ثم نتابع النصوص المتصلة بالكون والطبيعة والحيوان والإنسان فيما بقى من (المفعولات).. فكلها جىء بها لبيان الغرض الذى سقناه. والتأمل فى الطبيعة: «تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطار الكون وتباين النبات فى اللون والطعم واختلفت الأشياء، ودل كل مخلوق بلسان فصيح وبيان صريح أنه بنفسه غير مستقل» [2] وفى الحيوان:

واللّه سبحانه خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ... إلخ» « يريد خلق كل حيوان من ماء من صلب الأب وتربية الأم.. ثم أجزاء الماء متساوية متماثلة ثم ينقسم إلى جوارح فى الظاهر وجوارح فى الباطن فيختص كل عضو وينفرد كل شلو بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والبنية، ثم اختلاف هيئات الحيوانات فى الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم فى القامة والمنظر، ثم انقسام كل ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ومخ وعصب وعرق وشعر».

(١) لطائف الإشارات المجلد الأول ص٤٦٣.
(٢) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٤٩٢.

«إن النظر فى هذا - مع العبرة به يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل».

هذا السطر الأخير فى النص السابق هو تأييد لما ذهب إليه عن الغاية المقصودة من كل باب المفاعيل، والنصوص المبعثرة على أقسام المفاعيل - كما سيأتى - تضيف تأكيداً جديداً إلى ذلك.

والآن..

ندخل فى بيان هذه الأقسام مستريحين عند استنباط الإشارات:

أولا - المفعول المطلق:

أحسن الشيخ إذ قدمه على سائر المفعولات بينما هو يتأخر عنها فى *كتب النحو الظاهرى.. وربما ترجع رؤية الشيخ إلى خصائص ينماز بها* هذا المفعول.

فهو إذا كان حسب التعريف - مصدراً منصباً يؤكد فعله او يبين نوعه أو عدده مثل: أنعم الله على عبده إنعامًا وفيرًا.

أو تخلق المريد تخلق الشيخ فى الصحبة

أو تدور الأرض دورة واحدة كل يوم

فإن هذه المصادر المنصوبة أسماء للأحداث الجارية على الفعل، وهى تكاد تكون من حيث البنية نفس بنية الفعل، ولاتنقص فى حروفها عنه، وهى تدل على وقوع الحدث مطلقًا، وعلى وقوع الفعل عليها حقيقة، فهى بكل هذه الأوصاف المفعولات الحقيقية لمن قام بالفعل. بمعنى أنه إذا بحثنا عن صلة وثيقة بين الفاعل وفعله فإن المفعول المطلق أوثق الصلات بين الطرفين من حيث الصياغة ومن حيث الواقع: فقولك: قام المريض قيامًا معناه أن المريض قد أوجد من نفسه هذا القيام، وأحدثه حقًا وواقعًا بعد

أن لم يكن.. بخلاف باقى المفعولات فإن الفاعل لم يوجدها، فلها وجود خارجى خاص. وإنما سميت بحسب نسب (*) اعتبارية يقوم فيها حرف الجر بدور ذى مغزى مثل المفعول (به) و(له) و(فيه) وزاد السيرافى (منه) مثل قولك واختار موسى قومه سبعين رجلا (أى من قومه).

وسمى الجوهرى المستثنى مفعولا (دونه): «القطر لابن هشام باب المفعول به».

هذه الصلة الضرورية ذات المغزى لا نجدها فى المفعول المطلق، فهو بهذا (متحرر) من كل قيد... وبذا تتأكد عراقته فى المفعولية.. يقول ابن هشام فى أوضح المسالك عند تعريفه للمفعول المطلق «هو الذى يصدق عليه قولنا (مفعول) صدقًا غير مقيد بالجار بخلاف المفاعيل الأخرى».

ميزة أخيرة.. أن هذا المفعول يحمل الحدث (الخالى من الزمن) وهذه ميزة أخرى لانجدها فى غيره.

وإذا كانت الجملة بركنيها الأساسيين تستطيع الإفادة، وكان ما يأتى بعدها (لتكملة) هذه الإفادة فليس أعظم لأداء هذا الدور من مفعول يستمد مادته الخام من الفعل ذاته ليؤكده أو يبين نوعه أو عدد مرات وقوعه.

* * *

وينطلق التنظير عند الشيخ بين المفعول المطلق وبين الجمادات. ومع أن الجمادات لا عقل لها إلا أنها تؤلف نسبة كبيرة من مكونات الوجود الطبيعى فهى مسرح (التأمل) المديد طلبًا للعظة والاعتبار، وقد وردت هذه المظاهر الطبيعية فى القرآن الكريم فى مواضع شتى لأجل هذه الغاية،

(*) بكسر النون وفتح السين.

حتى لكأن النظر إليها نوع من التعبد والتفكر المستمد من الواقع الخارجي.. بل إن القرآن يضعها فى بعض الأحيان موضع الذى يشعر ويتحرك وتتأثر.

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا..»

و«ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله».

وبسط الأرض ودحاها، والجبال أرساها، وفجر عيونها، وصنف أزهارها وثمارها، وأنبت أشجارها، وأجرى أنهارها، وجنس بحارها، وكور عليها ليلها ونهارها.. ذلك تقدير العزيز العليم.

ولعل القشيرى وهو فان (٠) فى بعض تأملاته قد عايش هذه الحظات التأملية فى الطبيعة فنقل هذا المعنى عندما تحدث عن (الأوتاد والأبدال والقطب) فى طرائق الصوفية.. يقول مثلا:

«وكما تمسك الأرض بالجبال تمسك بالأبدال فهؤلاء السادة فى الحقيقة أوتاد العالم»[٣].

والخلاصة: أن هذه الجمادات ـ التى لاتملك عقلا أو إرادة ـ لاتكليف عليها وإنما هى (مفعولات) مطلقة تكثر فى (العدد) و(تتنوع) فى المظاهر كأنها (منصوبة) لدور آخر هو العظة والاعتبار.

ثانيًا ـ المفعول به

هو اسم دل على ما وقع عليه فعل الفاعل إيجابًا وسلبًا ولم تغير لأجله صورة الفعل مثل: يحب الله المتقن (٠٠) لعمله.

---

(٠) بالنون المنونة المكسورة.

(٣) لطائف الإشارات ص٢٩٩.

(٠) بفتح النون.

وما أطعت النفس (٠).

ويكون ظاهرًا كما فى المثالين السابقين.

ويكون ضميرًا متصلا مثل: أرشده الشيخ إلى طريقة السماع. أو ضميرًا منفصلا مثل: إياك نعبد.

ويشترك المفعول به مع بقية المفاعيل فى أنه فضلة وكونه منصوبًا، ولكنه ينماز عنها بأنه لاينصبه إلا الفعل المتعدى أما غيره فينصبه اللازم والمتعدى. وهو ينصب على الاشتغال وعلى الاختصاص وعلى الإغراء وعلى التحزير، فكلها مفاعيل حزف (٠٠) عاملها.

والمفعول به يتأثر تأثرًا مباشرًا بفعل الفاعل أما بقية المفعولات فهى إما (الأجله) أو (فيها) أو (معها) أى بوسيلة وسيطة.

* * *

(٠) بفتح السين.

(٠٠) بضم الحاء وكسر الذال.

ونأتى إلى الإشارة..

صرف الشيخ هذا النوع إلى الحيوانات، حيث لا تستطيع أن تزعم أن لها إرادة أو اختيارًا، وأنها فى الغالب لا تتحكم فى اختيار أنماط الحياة التى تحياها، فهى مسخرة بأيد(٠) فوقها، تعمل فيها عملها.. صحيح إنها ربما استخدمت غرائزها فى بعض الأحيان فى القبول أو الرفض ولكنها فى الأغلب الأعم ليس لها إلا الإذعان.. يقول القشيرى عند قوله تعالى:

«أولئك كالأنعام بل هم أضل»:

الأنعام رفع عنها التكليف (أى وفاق الشرع أو خلافه)، وهى لا يهمها إلا الاعتلاف، وما تدعو إليه الحيلة من مباشرة الجنس.. وكذلك من أقيم بشواهد نفسه، وكان مربوطًا بأحكام النفس وفى معناه أنشدوا:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة

وليلك نوم والردى لك لازم

وسعيك فيها سوف تكره غبه

كذلك فى الدنيا تعيش البهائم(٤)

والإشارة تتداعى منها إلى ذهن القارئ على الفور صورة الكافر الضال من بنى الإنسان - فهو أولاً وأخيرًا من الحيوان - ولكنه منح(٠٠) العقل والإرادة ولم يهتد بل ضل حتى أصبح فعلاً كالأنعام (بل هم أضل).

وصورة الإنسان - الذى يقع فى تصنيف الكائنات من الحيوان أيضًا - لكنه أحسن استخدام عقله وإرادته الممنوحتين فضلاً من الله، فعرف كيف

---

(٠) بكسر الدال المنونة.

(٤) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٥٩٠.

(٠٠) بضم الميم وكسر النون.

يختار طريقه، ويوجه فى رشاد إرادته، واستطاع بذلك أن يرقى من مستوى البهيمة إلى مستوى الآدمية المكرمة(*).

وهكذا يدخل بنا الشيخ إلى الإطار الإنسانى الذى يحوى سائر المفعولات التالية.. فكلها للإنسان وحول الإنسان.

ثالثًا ـ المفعول له أو لأجله

هو اسم يذكر لبيان سبب الفعل، وينبغى لنصبه أن يكون مصدرًا مفيدًا للتعليل، متحدًا مع المعلل به فى الوقت وفى الفاعل.

فإن فقد شرطًا من هذه الشروط وجب جره بحرف ملائم كاللام أو من أو فى أو الباء ويخرج بذلك عن إطار المفعول لأجله.

ومثال المستوفى لكل هذه الشروط: لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق.

ومن أمثلة ما لا يستوفى: والأرض وضعها للأنام: لفقد المصدرية.

أدبتك لتأديبك: لأن الشىء لا يعلل بنفسه.

جئتك اليوم للإكرام غدًا: لعدم اتحاد الوقت.

أقم الصلاة لدلوك الشمس: الزمانان مختلفان،

واختلاف الفاعل فهو فى الصلاة غيره فى الدلوك.

والمراد منه أن هذا المفعول قد فعل لأجله فعل آخر.

والإشارة يطلقها الشيخ نحو «المكلفين».

فهم الذين «خلق الله سبحانه لأجلهم الجنة والنار».

(*) بفتح الراء المشددة.

وهذا فرق بينهم وبين الجمادات (المفعول المطلق) وبين الحيوانات الذين يفعل[*] بهم الفعل ولا يطالبون بتكليف (المفعول به = الجمادات) فكأن مشقة التكليف تشريف، فهى لا تقصد[**] لذاتها لأن الله لا تلحقه من الطاعة زين ولا يناله من المعصية شين، إنما التكليف فى جوهره علامة تمييز وترق.. لكى يصبح «المكلف» هو المعنى[***] حقًا بالخلافة فى الأرض، والمعنى حقًا بقوله تعالى: «إلا ليعبدون».

يجب إذًا أن تكون الأمور واضحة..

يقول فى اللطائف «قيمة كل امرئ على حسب همته، فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب، فالتكليف يتبعه التشريف.. وغدًا سوف يعلمون».

فلا تبتئس ـ أيها المكلف ـ بمشقات الشريعة أو الحقيقة، وابذل قصاراك فى عبور الجسر الواصل بين الدارين وأنت فى مأمن..

(فلأجلك) أعدت المكافأة الكبرى.. لو سلم العبور وسلمت. وتصل الأمور إلى ذروتها عند الواصلين، فمكافآتهم ليست مؤجلة، إنها فى هذه الحياة الوسطى التى يحيونها «فالقيامة عندهم تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق والجنة بالوصل والقرب واللقاء» يقول ذو النون المصرى:

«خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات».

ويقول الشيخ فى تحبيره:

(*) بضم الياء وفتح العين.

(**) بضم التاء وفتح الصاد.

(***) بضم الياء المشددة.

«جهنم الفراق أشد هولاً من جهنم الاحتراق».

فهم - أهل الحقيقة - أرقى درجات «المكلفين».. (ولأجلهم)(*) الزيادة التى جاءت فى الآية الكريمة «الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (يونس: ٢٦) حيث يفسرها الإشاريون بأنها رؤية الله عيانًا فى الآخرة.

وأخيرًا ففى النص إشارة إلى (خلق)(**) الجنة والنار، أى أنهما حادثتان، وقابلتان للفناء على خلاف من يذهب غير ذلك.

رابعًا - المفعول فيه

ويسمى ظرفًا. وعرفه ابن عقيل بأنه زمان أو مكان ضمن(***) معنى (فى) باطراد.

والأصيل أن الظرف هو الوعاء للشىء، وتسمى الأوانى ظروفًا لأنها أوعية لما يجعل فيها. ولهذا سميت الأمكنة والأزمنة ظروفًا، لأن الأفعال تحصل (فيها).

والإشارة من ذلك إلى هذا الاصطلاح الصوفى الدقيق «الوقت»، والوقت بالمعنى الصوفى تحمل البعدين(****): الزمان والمكان.

ولنشرح ذلك..

التصوف مقامات وأحوال - كما نعلم.

فإذا كنت مجتهدًا ووصلت بجهودك إلى مقام الزهد، فهذا (وقت) الزهد أى (زمن) قيامك بمتطلباته، فقد فرغت من مقام الورع وبت(*****)

(*) بفتح الألف وسكون الجيم.
(**) بفتح الخاء وسكون اللام.
(***) بضم الضاد وتشديد الميم المكسورة.
(****) بضم الباء وسكون العين.
(*****) بكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة.

فى مقام الزهد وتستعد إلى مقام التوكل، هذا أيضًا بالتحديد (مكانك).. ومن آداب الوقت، أن تمتثل لكل دواعيه وإلا تتعجل، بل تأدب(*) والتزم.

والشيء نفسه فى الأحوال.. التى هى فيوضات من المولى سبحانه فإذا حصل أن وصلت إلى حال (القبض) فتريث فى هذا (المكان) وهذا (الزمان) اللذين يحتويانك حتى يقضى الله فيك أمرًا، وكل تجاوز للمكانية والزمانية لا خير فيه..

وهكذا تصبح (منصوبًا)، وتستحق المكافأة.. وهى قادمة إن شاء الله عندما تلوح على البعد بوادر (البسط) أى الحال التالية.. وهكذا.

وهذا يتفق وما نعرف فى الجواهر الخمسة أن الزمان والمكان مرتبطان (بالحركة) فيهما (راجع فى فلسفة الكندى، الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة).

خامسًا - المفعول معه

عرفه ابن هشام فى «أوضح المسالك» بأنه: اسم فضلة تال لواو بمعنى (مع)، تالية لجملة ذات فعل، أو اسم فيه معنى الفعل وحروفه، مذكور لبيان ما فعل الفعل بمقارنته نحو:

اترك المغتر والدهر.

أنا سائر والنيل.

ولا يجوز تقدمه على عامله فلا تقول: والنيل سرت.

(انظر كتب النحو فى بعض الإيضاحات عن الفروق بين واو المعية وواو العطف).

وتنبنى إشارة شيخنا على فكرة (الملازمة) التى هى من خصائص (المعية) وقد أخذت عنده ثلاثة اتجاهات:

(*) بسكون الباء.

١ ـ المفعول معه هو البلاء والعناء، فإن بنى آدم خلقوا وهما (معهم).

٢ ـ خلق الله الرزق (مع) المرزوق.

٣ ـ الله سبحانه بالكفاية (مع) أوليائه.

ونتحدث بإيجاز عن كل اتجاه.. فبالنسبة للاتجاه الأول: فالأصل أن الله لا يريد شقاء عباده لأنه لا يعود عليه شيء من ذلك فضلاً عن أنه الرحمن الرحيم، إنما جعل (البلاء) من أجل سبر أغوار النفوس البشرية، وتصفيتها.. تمامًا كما يدخل المعدن إلى التنور كى يصفو من كدوراته، ويخرج منه على درجة من النفاسة أو الخساسة حسب الأصل.. وهذا درس لجميع الناس وبصفة خاصة للمبتدئين ـ فى هذه الطريقة ـ الذين يحتملون المشقات الأولى بجزع وقلق.

وإذا كانت القسمة الأولى قد جرت بالبلاء والعناء فإن الشيخ قد أردفها بنوعين آخرين هما: أنه بلطفه ونعمائه قد كفل الرزق لعباده، وتولى أمر أوليائه.

وهذه المعادلة بين العناء والبلاء من ناحية وبين كفالة الأرزاق للعامة والخاصة هى (المعية) الإلهية الرحيمة.. لأنه اللطيف الخبير. وترد كلمة (المعية) صريحة فى موضع من اللطائف يوضح هذه المعانى:

«يسقط الرزق للأغنياء ويطالبهم بالشكر، ويضيق على الفقراء ويطالبهم بالصبر. وعد الزيادة للشاكرين، ووعد (المعية) للصابرين، لأن الله (مع) الصابرين».

أما كفالته لأوليائه فلندع توضيحها للصورة المنقولة عن مريم ابنة عمران كما أشار إليها القرآن، فهى نموذج لما تصنع (المعية) الإلهية بعبد اختير من لدن الله كى يكون ضمن أوليائه.

مرت مريم بمرحلتين: المرحلة الأولى حينما كانت (متجردة) لله، ليس لها من علاقة خارج نطاق التعبد والتطهر، والتقرب إلى الله.. وفي هذه الأثناء كان زكريا كلما دخل عليها محرابها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، وكان يتعجب فيما بينه وبين نفسه كيف يتم ذلك؟.

أما المرحلة الثانية فقد بدأت حينما اختيرت لتكون (ذات علاقة) كأول أنثى تلد ولدًا من غير أب.. ولنتصور مبلغ الضعف الذى وصلت إليه مريم، فهى أنثى فيها ضعف الأنثى، حامل، على وشك الميلاد، لا تعرف ماذا تقول لأهلها وللناس عن هذا السر الذى دخلت فيه ولا تدرى كنهه.. اللهم إلا بعد ما بشرت(*) بهذا الميلاد النبيل، وأن من(**) سينزل من أحشائها بعد قليل سيكون له شأن عظيم.. ولكن يتبقى أمر الناس.. ماذا ستقول هى؟ ماذا سيقولون؟.

وفى وسط هذا الجو الذى يملؤه الخوف جاءت (المعية) (لتتولى) هذه العابدة العظيمة فأمرت بأن تهز النخلة ليتساقط عليها (الرزق) جنيًا، لتأكل ولتقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن الذى (يرزقها) القوة وهى فى أشد حالات ضعف الأنوثة والمرض هو الذى يستطيع أن (يرزقها) الولد على نحو غير طبيعى.. من غير أب!!.

ـ فكان هدف الشيخ البعيد من (المعية) ومن (المفعول معه) هو منح المريدين والسالكين.. دروسًا فى (التوكل).. وهل التوكل فى جوهره إلا أن تكون (مع) الله ليكون الله (معك)؟!

(*) بضم الباء وتشديد الشين المكسورة.

(**) بفتح الميم وسكون النون.

فصل [٢٧]:

ما لم يسم فاعله

«ما لم يسم فاعله مرفوع لأنه لم يذكر فاعله وأقيم المفعول مقام الفاعل وأعرب إعراب الفاعل، لأن الفعل لابد له من فاعل، فيقال: ضرب(*) زيد.

والإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا(**) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة الفاعل، فيضيفون الكائنات إليهم، لأن العلم بأن هذه الحوادث لابد لها من محدث على الجملة - ضرورة. فإذا لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين.

فواحد أقام الطبع مقام الفاعل - في التوهم.

وآخر: النجم، وآخر: الفلك

وآخر: الجد(***) أو البخت(****) وآخر الدولة(*****) والدهر.

وآخر: زيداً وآخر: عمروا

وكما أن إعراب الرفع للذى لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك توهم(******) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له».

(*) بضم الضاد وكسر الراء.

(**) بفتح النون.

(***) بفتح الجيم.

(****) بسكون الخاء.

(*****) بتشديد الدال وضمها وفتح الواو.

(******) بتشديد الهاء وكسرها.

هو اسم مرفوع أسند إليه فعل مبنى للمجهول.

وهو يستخدم فى مواضيع يرى المتكلم عندها أنه لا داعى لذكر الفاعل صراحة، وعندئذ يطرأ على الجملة بعض التغير، فصيغة الفعل ينالها ضم فى الأول وكسر ما قبل الآخر مثل سرق متاعنا، وفى المضارع فتح ما قبل الآخر مثل تستحب الصدقات فى رمضان.

ويتحول المفعول إلى عمدة، فيقوم مقام الفاعل، ويرفع بسبب ذلك، إنه الآن ضرورى فى الجملة ولا يمكن الاستغناء عنه.

ويسرى ذلك على اسم المفعول مثل:

أمقطوف الورد(*) ـ فالورد نائب فاعل سد مسد الخبر.

والأصل فى النيابة هو المفعول به، ولكن يمكن نيابة الظرف المتصرف المختص مثل: صيم رمضان، وسهرت الليلة، وجلس(**) أمام القبلة. فإن لم يتصرف مثل: عند، ومعك، وثم(***) فتمتنع نيابته.

كما يمكن نيابة المجرور بحرف الجر مثل: ما كتب من شىء.

ويصلح المصدر أيضًا للنيابة بشرطين:

أ ـ أن يكون متصرفًا (بمعنى أن يقبل إعرابات شتى).

٢ ـ وأن يكون مختصًا (أى يتلوه شىء يوضح معناه).

مثل علم(****) علم نافع.

(*) بضم الدال.

(**) بضم الجيم وكسر اللام وفتح الميم المشددة.

(***) بفتح الثاء.

(****) بضم العين وكسر اللام.

وفهم فهم العباقرة.

وللموضوع فى النحو تفصيلات كثيرة، ولكننا اكتفينا هنا بما هو لازم لتذوق إشارات الشيخ.

ونحن نحمد للشيخ هنا اتخاذه لبعض المواقف التى تجمع بين الفطنة والدقة فضلاً عن انسجامها مع منهجه الفكرى، ومقاصده البعيدة والقريبة. آية ذلك أنه وضع هذا الباب عقب المنصوبات، وقد جرت عادة كتب النحو أن تضعه مع المرفوعات.. ولكن الشيخ يرى أنه ولو كان مرتديًا ثوب (الرفع) على الظاهر إلا أنه على الحقيقة مازال فى دائرة (النصب)!! فالعبرة بالأصول.

أن تسميته للباب «ما لم يسم فاعله» فيها جمع بين المقصود وبين ضرب مثال له فى آن واحد، بدليل أن الفعل فى العنوان مبنى للمجهول.. وزيادة على ذلك فإنه عنوان أخصر وأدق من عناوين النحاة.. الذين يوردونه على هذا النحو (المفعول الذى لم يسم فاعله)، وقد رأينا منذ قليل أن النيابة قد تكون لغير المفعول.. كالمصدر، والظرف، والجار والمجرور.

وغير خاف أن التسمية تجنبت تمامًا وصفه بأنه (نائب فاعل)، لأنه يشعر - كما تتضح الإشارة - بأنه وإن كان مرفوعًا وأنه عومل معاملة الفاعل إلا أن هذه رتبة لا يستحقها فى الواقع وفى المضمون.. وأنه ليس من الفاعلية فى شىء! إن هذه التغيرات التى أصابته وأصابت الفعل لأجله ما هى إلا محاولات فيها من التكلف والصنعة من أجل إقامة فاعل زائف!

وعند هذه النقطة تنطلق إشاراته كالسهام القاتلة نحو الطبائعيين والدهريين وعبدة النجوم والأفلاك والقائلين بالحظ والبخت... وغير

أولئك ممن يبعدون عن الحقيقة، وهى نسبة الأمر لصاحب الأمر، والخلق للخالق.. ومن يملك فى قبضته كل (الفاعلية) الحقة.

المسألة فى بساطة.. أن الله سبحانه هو القديم وهو واجب الوجود. وكل الكون ـ الذين تحارون فى نسبته إلى (فاعله) ـ كان عدمًا، والله البديع هو الذى (أحدثه)، فالمحدثات فى أسر القدرة (القديمة) والممكن الوجود فى يد واجب الوجود، بداية ونهاية وبين الاثنيتين عناية.. الكون كله مرجح(*) الوجود، والمرجح يحتاج إلى مرجح(**).

ولو أرجعتم شيئًا إلى (فاعل) آخر فإنه سيكون (نائبًا) لا حقيقيا، لأن تسلسل المحدثات لابد أن ينتهى، وإلا دخلنا فى الدور والتسلسل، وتكون النهاية حتمًا (للفاعل) الأول، والمحرك الأول، والعلة الأولى. هو الخالق وهو المنظم.. وما عداه ممن تنسبون إليهم ذرة من ذلك زائف، وقضيته فى التحقيق لا تثبت على المحك.

ويترتب على ذلك ومن ذلك ما يصرح به الشيخ فى لطائفه: ـ «الكل واقفون على التجويز، غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو فى المستأنف. إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك، وما الذى توجبه الطبائع والنجوم. أما المسلمون فينتظرون ما يبدو من المقادير، فهم فى روح(***) التوحيد، والباقون فى ظلمات الشرك»(1).

ونرى فى النص غمزتين:

(*) بفتح الجيم وتشديدها.

(**) بكسر الجيم وتشديدها.

(***) بفتح الراء وسكون الواو.

(1) لطائف الإشارات المجلد الثانى ص ٤٩٠.

الأولى توجه إلى أهل الاعتزال الذين ينادون بحرية مطلقة للإنسان (زيد وعمرو). بينما يرى خصمهم أبو الحسن الأشعرى أن هذه الحرية المطلقة إذا نسبت إلى الإنسان فمعناه أن أكثر من (فاعل) يفعل فى الكون وبذا يتعدد (الفاعلون).. والفعل - على الحقيقة - الذى يجرى فى الكون ينبغى أن يعود لخالق الكون، لأن الأشياء تعود وتنسب لصاحبها الأصيل.

أما الغمزة الثانية فربما توجهت إلى هذه (النيابة) الزائفة التى يزعمها بعض الأدعياء، والذين كشفنا أمرهم أكثر من مرة فى هذه الشروح.

إنهم يدعون(*) أنهم محو، وأن التكاليف قد سقطت عنهم، وأن البشرية قد زالت وأن (القائم عنهم هو الحق) «وأن (النائب عنهم) سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا»[٢].

وهى دعوى زائفة لا يقرها أهل هذه الطريقة والحراس عليها.

(*) بفتح الدال وتشديدها.

(٢) الرسالة ص ٣ وهى بضم الصاد وكسر الراء.

فصل [٢٨]:

المضاف إليه

«المضاف إليه له الخفض، تقول: دار زيد(٠).

والإشارة: أن الخفض أضعف الحركات، ولما كان الاسم مفرداً كان له أقوى الحركات فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات:

كذلك العبد مادام مجرداً فله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات».

الإضافة ضم كلمة إلى أخرى بتنزيل الثانية منزلة التنوين من الأولى فى تمام الكلمة، وكشف ما بينهما من علاقة، ويسمى الأول مضافًا والثانى مضافًا إليه.

والمضاف يأخذ إعرابه العادى حسب موقعه فى الجملة، أما المضاف إليه فيكون مجرورًا أو (مخفوضًا) حسب تعبير الشيخ. على أن المضاف يتجرد عند إحداث هذه العلاقة من أشياء، كالتنوين الظاهر أو المقدر مثل: ثوب على(٠٠) ودراهمه.

ويتجرد من النون إذا كان مثنى أو جمعًا مثل: «تبت يدا أبى لهب وتب» ؛ وخرج قاصدو مكة.

وفى معظم الأحوال يتجرد المضاف أيضًا من (أل) التعريفية حيث لا يتبقى إلا فى أحوال تبلغ أصابع اليد الواحدة ذكرها النحاة: مثل مسجد الجامع أى المسجد الجامع وقد جاءت فى أحد نصوص القشيرى ومعها واحدة أخرى:

---

(٠) بتنوين الدال بالكسر.

(٠٠) بكسر الياء المشددة المنونة.

(صراط الحميد: الإضافة فيه كالإضافة عند قولهم مسجد الجامع أى المسجد الجامع، فالصراط الحميد هو الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة وليس للحقيقة عليه نكير)[1].

والقصد من الإضافة واحد من ثلاثة:

١ - التعريف أى تعريف السابق باللاحق مثل: نور القمر(*). فالإضافة إلى معرفة.

٢ - أو التخصيص: إن كان المضاف نكرة: نور مصباح.

٣ - أو التخفيف مثل: آكل التفاح.

ويعزو النحاة الجر الذى يحدث للمضاف إليه إلى وجود حرف جر مقدر ففى مثال الشيخ: دار زيد ومعناها دار لزيد.

وتقدير اللام هو الغالب، وقد يكون (من) مثل جبة صوف وباب خشب - وضابطه أن يصح إطلاق اسم المضاف إليه على المضاف فتقول: هذه الجبة صوف، وهذا الباب خشب.

وعلى كل حال فالمضاف إليه (مخفوض) بسبب هذه العلاقة، على خلاف بين سيبويه - الذى يرى أن العامل هو المضاف - وبين الزجاج الذى يرجعه إلى حرف الجر المقدر.

* * *

(*) بكسر الراء.

(١) اللطائف المجلد الثانى ٥٢٧.

والإشارة:

يستحق الاسم وهو متجرد ورئيس وعمدة أقوى الحركات وهو الرفع كما أسلفنا، فإذا دخل فى علاقة مع اسم آخر يربطه به حرف جر مقدر فقد ضعف حاله، ونزل عن كل ما كان يتمتع به من مزايا خاصة ثمنًا لهذه العلاقة. كذلك العبد إذا خرج عن (قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ـ حسب أحد تعريفات التصوف الشهيرة) فإنه يفقد تحرره واستقلاله، ويصبح فى أسر(*) ما أضاف أو أضيف إليه.. وهكذا كل انتماء للغير والسوى، أما النسبة الحقيقية التى تؤمن(**) الطريق فهى لله وحده.

وكما يحدث (الخفض) (للمضاف إليه) حينما يكون فى قبضة (المضاف) الذى بدوره يصبح تحت وطأة قوتين: إعرابه الأول فى الجملة وإعرابه الثانى: (كونه مضافًا) تحدث بلبلة فى (الطريق) كله ـ تنذر بأوخم العواقب.

وينذر الشيخ حين يدق ناقوس الخطر بأن شيئًا مهمًا وخطيرًا مهدد بهذه (الإضافة) الا وهو توحيد أهل الحقيقة:

(فالتوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط «الإضافات» بأسرها)[2] ولسنا فى حاجة إلى أن نذكر بأن العلاقة المستحدثة ستكون بين العبد وبين الهوى أو النفس أو الشيطان أو الدنيا، فهؤلاء هم الأعداء الأيقاظ الذين لا يألون جهدًا فى جذب العبد إليهم فى (إضافات) مزينة(*) تسرع به إلى (الخفض)!

(*) بفتح الألف وسكون السين.

(**) بتشديد الميم وكسرها.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٤٥١.

(*) بضم الميم وفتح الزاى وتشديد الياء.

بقى أن ننبه إلى أن القشيرى فى مصنفاته كثيراً ما يستخدم «النسبة بدلاً من (الإضافة).. نقول هذا لكى نضيف هذه اللفظة إلى مصطلحه النحوى - لمن يريد متابعة ذلك.

وتستطيع أن تعيد قراءة النص والشروح فى ضوء (النسبة) (والانتساب) دون أن تشعر بفروق فى المعنى.

فصل [٢٩]:

كان واخواتها

«كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال الفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائماً.

فهذه مشتبهة(*) بأفعال، وليست بأفعال محضة.

والإشارة:

انها لما ضارعت الأفعال اجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب.. ولكن ينادى(**) عليها بأنها ليست بأفعال محضة.

فكذلك من تشبه بقوم يجرى مجراهم، ويحكم له - فى الظاهر - بحكمهم، ولكن ينادى عليه بأنه متشبه بهم وليس منهم حقاً، قال الشاعر فى هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع فى خدود
تبين(***) من بكى ممن تباكى».

(*) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها.

(**) بضم الياء.

(***) بتشديد الياء وفتحها.

فصل [٣٠]:

إنَّ واخواتها

«الحروف التى تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة وهى: إن(٭) وان(٭٭) ولكن(٭٭٭) وليت ولعل.

وعمل هذه الحروف - فى الحقيقة - فى الأسماء دون الأخبار، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون فى هذه الحروف» فأشبهت كان واخواتها - التى تعمل فى الاسم والخبر جميعاً.

ولما كانت هذه الحروف مشبهة(٭٭٭٭) بالمشبه ضعفت عنه فى العمل فعملت فى الاسم دون الخبر..

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق، وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف فى التأثير وأخس فى المقدار.

ضممنا البابين بعضهما إلى بعض لأن منطلق الإشارة فيهما واحد، ومن الخير أن نعالجهما على أنهما وحدة متكاملة منعًا للتكرار وتحديدًا للمسائل.

ونبدأ بعناصر النحو الظاهرى الضرورية فى استنباط الإشارة.

(أ) كان واخواتها:

أفعال ناقصة فهى تحمل من عناصر الفعل (الزمن) فقط، وليس فيها (الحدث)، (لأجل هذا كان عملها فى الجملة الاسمية رفع المبتدأ (تشبيهًا بالمرفوع بعد الفعل التام) ونصب الخبر (تشبيهًا بالمفعول به فى هيكل الجملة البادئة بالفعل التام) وهذه عدالة فى التوزيع.

(٭) بكسر الألف وتشديد النون مع فتحها.

(٭٭) بفتح الألف وتشديد النون مع فتحها.

(٭٭٭) بتشديد النون مع فتحها.

(٭٭٭٭) بتشديد الباء وفتحها.

ومن حيث التصرف.. فمن هذه الأفعال الناقصة ما لا يتصرف أصلاً مثل: ليس ودام، ومنها ما يتصرف تصرفًا ناقصًا وهو زال وأخواتها (فلا يأتي منها أمر أو مصدر) والباقي يتصرف تصرفًا كاملاً مثل كان:

كان الطريق وعرًا، ولم أك بغيًا ـ كونوا حجارة.

ـ لقد أعجبني كونك مصرًا على سلوك هذا الطريق،

وما كل من يبدي البشاشة كائنًا

أخاك إذا لم تلقه(*) لك منجدا

واضح من كلام الشيخ أنه يعتقد بأن هذه الأفعال الناقصة تعمل عملها في المبتدأ والخبر ـ وهذا أيضًا رأي البصريين.

أما الكوفة: إنها لا تعمل في المبتدأ لأنه ظل(**) على حال الرفع كما كان.

ونحن نميل إلى الاتجاه الأول، لأن المبتدأ قد فقد صدارته للجملة، فضلاً عن أنه فقد لقبه وأصبح: اسم كان وأخواتها.

فإذا ضممنا إلى هذه الأخيرة ما طرأ على الخبر من تغير في الإعراب وفي اللقب فإننا نستريح إلى أنها عاملة في الاثنين معًا.

(ب) إن وأخواتها:

إن وأن : لتوكيد النسبة ونفي الشك: إن الحق واضح.

لكن : للاستدراك، وهو تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم ثبوته: علي شجاع لكنه بخيل.

كأن : تفيد التشبيه المؤكد لأنها تتكون من الكاف التي للتشبيه ومن أن التي للتوكيد:

(*) بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف.

(**) بفتح الظاء وتشديد اللام مع فتحها.

كـأن الـنـيـل ذو لـب
لـمـا يـبـدى من الـيـمـن[*]
فـيـأتى حـين حـاجـتـنـا
ويـمـضى حـين نـسـتـغـنى

ليت : وتفيد التمنى، وهو طلب ما فيه عسر أو قرب استحالة: ليت الشباب يعود.

لعل : وتفيد الترجى أى توقع أمر ممكن محبة له: لعلكم تفلحون أو إشفاقًا منه: لعل الساعة قريب.

لا : النافية للجنس. وسيأتى الكلام عنها (الفصل ٤٦ من هذا الكتاب) وتحدث هنا عملية أشبه (بالتلزيق والتلفيق) اللذين وردا فى تنظير الشيخ: فيقال: صحيح إن هذه حروف، ولكنها فى الواقع تحمل (معانى) الفعل دون لفظه.

فمعنى إن وأن: حققت[**].

ومعنى كأن: شبهت.

ومعنى لكن: استدركت... إلخ.

وإذًا فقد وجب أن يكون لها مرفوع لأنها تحمل رائحة الفعل، كما ينبغى أن يكون لها منصوب لذلك أيضًا.. وتلاحظ أنها قد تحقق لها هذا وذاك ولكن على نحو[***] غير نمطى، فالمنصوب (المبتدأ) يقع فى الترتيب قبل المرفوع (الخبر) ويسمى الأول اسمها ويسمى الثانى خبرها.

(*) بضم الياء وسكون الميم.

(**) بفتح الحاء وتشديد القاف الأولى وسكون القاف الثانية.

(***) بكسر الواو وتنوينها.

والبصريون يرون أنها عاملة فى الجزأين ـ وهذا عند شيخنا نوع من (التساهل).

أما الكوفيون فلا عمل لها فى الخبر لأنه باق على حاله قبل دخولها ـ وإلى هذا يميل الشيخ.. والخلاصة..

أن الأصل.. هو الفعل التام، وأن كان وأخواتها مشبهة به، وأن إن وأخواتها مشبهة بالمشبهة به..

وتحصل(*) لدينا من ذلك ثلاث مراتب من حيث اكتمال المعانى، والتأثير.. وكل على درجة استحقاقه.

فليس الفعل التام كالفعل الناقص كالحرف الذى يحمل من بعيد معنى الفعل وجاء الترتيب على النحو التالى:

فعل تام + مرفوع (فاعل) + منصوب (مفعول به): الأصل.

فعل ناقص + مرفوع (اسمها) + منصوب (خبرها): مشبه بالأصل.

حرف ناسخ + منصوب (اسمها) + مرفوع (خبرها): مشبه بالمشبه بالأصل.

الإشارة...

الجو الصحى لهذه الطريقة (التصوف) الذى تهب عليه نسائم القرب هينة لينة، وينعم فيه أفراده بالسعادة فى الدنيا والآخرة يتمثل فى ذلك (القطب) أو (الشيخ) الذى يراعى الحقيقة والشريعة، ومن حوله المترسمون طريقه، يقلدونه ويتبعونه فى كل ما هو (تام) ومفيد.

والمبتدئون الخلصاء ينضمون إلى هذا الجو آحادًا بعد آحاد، فينهجون النهج نفسه.. والقافلة تسير.

(*) بتشديد الصاد مع فتحها.

ولكن.. يحدث أن ينضم إلى هؤلاء بعض الأفراد الذين يتشبهون بهم، ولكن ليس إلى درجة الكمال، وإنما (ينقصهم) شىء أو أشياء، فقد يصابون بالعجز أو بالملل أو بالإحباط فيمارسون (أفعالهم)، ولكن تحت ضغوط أو مؤثرات خارجية أو داخلية فتصدر عنهم سواء أرادوا أو لم يريدوا أمور لا ترضى(*) قدامى السالكين: (أفعال ناقصة) تكون موضع الملاحظة ثم النقد ثم التوجيه، فإما أن ينصلح حالهم إذا كانوا من المحظوظين، أو يميلوا كل الميل.. وتكون النتيجة أنهم لو أهملوا وظلوا محسوبين على (القطب) أو (الشيخ) كانوا وبالا على الجميع.. لأن من الناس من لا ينظر إلى القطيع إلا من خلال الشياه السوداء! فتبدأ الاتهامات الموجهة لا إلى هؤلاء وحدهم بل إلى الطريقة وأهلها جميعًا.. وهنا مكمن الداء الناجم عن (التساهل).

وليت الأمر يقتصر على هذا الحد، فسرعان ما يدخل إلى القوم جماعة أخس قدرًا، (وبالتلزيق والتلفيق) ينحشرون فى زمرة القوم فتزداد النار شررًا، وتفوح الروائح الرديئة.. ويبلغ السيل الزبى، ويصل الأمر إلى حد لا ينبغى السكوت عليه، لأن هؤلاء المتشبهين الأواخر بالمتشبهين الأوائل يكونون معًا وصمة فى جبين القوم يجب أن تزال، وأعشابًا ضارة يجب أن تجتث... وإلا تداعى كل البنيان..

حدث هذا.. ويحدث، فالشيخ القشيرى بتجربته الواسعة يريد أن يميز هنا بين الأصيل والزائف، بين المقبول والمرفوض..

فكأنى به من خلال هذين البابين يستصرخ الشيوخ أن يحموا أنفسهم وطرائقهم من الدخلاء والأدعياء، وذوى الأغراض والأمراض، فعدوى الردىء تمتد إلى الأردأ عند ازدياد (التساهل).

(*) بضم التاء.

كأنى به ينبههم إلى الظواهر والبواطن.. فلا خداع أو انخداع، بل نفاذ لجواهر الناس، وأحكام حاسمة تفرض نفسها فى حسم وقوة كأنى به يحذر من آفات (العقل الجمعى)(*) الذى تذوب فيه المسئولية الفردية فى المسئولية الجماعية، وتلتصق أفراد الأقلية بخطاياهم وأخطائهم بالأكثرية النقية الصالحة مهما (تشابهت) البذور أو اقتربت من التشابه.. فاليقظة مطلوبة والحذر أوجب.

لأجل هذا حرصت كل المراجع الصوفية الموثوقة على فرز هذه الطوائف، وتحجيم أدوارها، ولفت(**) الأنظار إليها.. فكم من الخبائث يجرى تحت أردية الصوف والخرق(***)!

(*) بفتح الجيم وسكون الميم.
(**) بفتح اللام وسكون الفاء.
(***) بكسر الخاء وفتح الراء.

فصل [٣١]:

الفعل الماضى

«الفعل الماضى مبنى على الفتح نحو: ضرب. والفتح أخف الحركات، فلما كان الماضى بمضيه(*) له أضعف الحالات خص(**) بأضعف الحركات.

الإشارة: أضعفهم حالاً أبخسهم نصيباً.

قال الشيوخ:

«إن لله عباداً لم يرهم أهلاً لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته».

ملاحظة على النهج:

نريد قبل أن نتحدث عن الفعل التام بأقسامه: الماضى والمضارع والأمر أن نسجل هنا ملاحظة على منهج الشيخ فى تبويب كتابه.. فليس من شك فى أنه يتبع طريقة غير نمطية فى ذلك، فهو إنما يسير على نسق إشارى. ذلك أنه قبل أن يتحدث عن الفعل بعامة تحدث فيما سبق عن «باب كان» وهى أفعال ناقصة ثم «باب إن» وهى حروف شبهت بالأفعال الناقصة ـ على نحو ما سبق توضيحه.. فكأنه أولاً يبدأ بتنقية الجو الصوفى الخالص بما ليس منه ـ فى الحقيقة ـ من أهل الإبداع والمقلدين والأدعياء والمنافقين.. وبكلمات أخرى يتحدث عن الأعداء قبل الأصدقاء، لأنه يرى أن كشف دور الخصوم واستبعاد أدوارهم يخلى(***) له الجوكى يصف معالم الطريق الخالص. وهذا النسق فى العرض اتبعه الإمام الغزالى بعده بنصف قرن، فقبل أن يتحدث عن التصوف ـ تمشيًا مع رحلته الروحية كان

(*) بتشديد الياء وكسرها.

(**) بضم الخاء.

(***) بضم الياء وسكون اللام.

قد تحدث عن الفلسفة والفلاسفة وأبان «التهافت» فى هذا المنهج، حتى إذا فرغ من هذه الحرب كان قد أعد الميدان لشىء جديد بديل هو الفراغ للتصوف وأهله.

والشىء نفسه فعله مع الباطنية.. فبعدما كشف دعواهم وأباطيلهم شرع يتحدث عن أهل الباطن من علية القوم.

فكأن القشيرى واضع منهج فى الفكر كان أسوة لمن بعده.

هذا شىء أردنا أن نقدمه لمن يلتفت إلى ترتيب أبواب النحو فى هذا الكتاب.

ونعود إلى الفعل الماضى..

فبالنسبة لنحو الظاهر.. فإن الماضى يبنى(٠) على الفتح الظاهر:

١ ـ إذا لم يتصل بآخره شىء: الله نزل أحسن الحديث.

٢ ـ أو اتصلت به تاء التأنيث: امتثلت أم موسى لأمر ربها.

٣ ـ أو اتصلت به ألف الاثنين: الشاهدان نطقا بالحق.

ويبنى على الفتحة المقدرة: سعى المنافق بالفساد بين المريدين.

ويبنى على الضمة إذا أسند إلى واو الجماعة، وعلى السكون إذا اتصل بتاء الفاعل أو (نا) الدالة على الفاعل، أو نون النسوة.

ومعنى هذا أنه ملازم للبناء على الفتحة فى حالته العادية الغالبة.

والماضى ـ رغم اتساع الزمن الماضى ـ إلا أنه قاصر عن الدلالة على شىء أكثر من ذلك، أما المضارع فهو صالح للحال والاستقبال فحركته أكثر.. لهذا استحق الأول البناء واستحق الثانى الإعراب، ولهذا أيضًا نال

(٠) بضم الياء وسكون الباء

الماضى الفتح باعتباره كما قلنا من قبل أضعف الحركات، بل هو فى رأى بعض النحاة علامة استراحة واسترخاء.. ولكنه حظ(*) ـ وإن كان قليلاً ـ ملائم لدرجة استحقاقه.. وتتضح أهمية ذلك فى الإشارة كما سيأتى.

ونأتى إلى الإشارة:

ونقدم لذلك باقتطافة من لطائف الإشارات يحدد بها نظرته إلى الفعل الماضى حيث يقول: «الأيام والشهور والأعوام والدهور بعد (مضيها) فى حكم اللحظة لمن تفكر فيها.. ولكن متى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتى من الوقت قريب فكأن قدر(**) (الماضى) من الدهر لم يعهد»[1].

هذا كلام رقيق جميل يعبر عن تحجيمه لـ (الماضى) فى المنزلة الدنيا بينما يفوق(*) عليه الحاضر والمستقبل.. لأن ما أصيب بالفوات غير ما هو آت.

وقد رأى الشيخ أن يخلع هذه المرتبة المحدودة على جماهير الكافة من المتدينين الذين لا تربطهم صلة وثيقة بالطريقة وأهلها، فهم وإن تعاطفوا معهم، ولم يسببوا لهم ضيقًا.. إلا أنهم لم ينضموا إلى صفوفهم «وإنما شغلوا بنوع من العبادة» يرقى بهم عن مستوى أهل العادة، فهى درجة استحقاق لا تضعهم فى إطار المرفوضين من القوم بالكلية.. إنما استحقاق على كل حال!.

وهنا تبرز هذه النظرة المولعة بالتقسيمات عند الشيخ بل عند جميع كتاب(**) التصوف.

والتقسيم فى أغلبه ثلاثى: فبعد أهل العادة يأتى:

(*) بفتح الحاء وضم الظاء المشددة المنونة.

(**) بفتح القاف وسكون الدال.

(1) اللطائف المجلد الثانى ص ٩٨.

(*) بتشديد الواو المكسورة.

(**) بضم الكاف وتشديد التاء المفتوحة.

العباد والزهاد والعارفون

وتحت كل طائفة مجموعات تتصاعد فى القيمة حتى تترابط الحلقات، فليس من يعيش بحكم العادة كمن يعيش بالإرادة، وليس من يعيش بإرادته كمن يعيش بإرادة مولاه ـ وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فكلهم خير، ولكن هذا الخير على درجات، وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على هذه المنازل.. فلن ننتهى.. فلنكتف بالقليل كي نوضح الترقى فى النظرة والممارسة للعبادة الواحدة.

١ ـ «الزهد للعامة قربة وللمريد ضرورة وللخاصة خشية».

٢ ـ «الصبر أوله تصبر وهو تكلف الصبر ثم الصبر وهو سهولة حمل ما يستقبله من فنون القضاء ثم بعده الاصطبار ويكون بأن يألف الضر دون مشقة فليس له روح[*] وله راحة».

٣ ـ «توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة».

٤ ـ «ذكر العامة باللسان وذكر الخاصة بالقلب أما خواص الخواص فذكرهم يكون بفنائهم عن ذكرهم».

(*) بسكون الواو.

فصل [٣٢]: وفصل [٣٣]:

الفعل المضارع وإعرابه

فصل [٣٢]:

«الفعل المضارع مرفوع لمضارعته الاسم، فأصل استحقاق الإعراب للاسم.

والإشارة: من[٠] تشبه بقوم فهو منهم، ومن احب قوماً حشر[٠٠] معهم... همو القوم لا يشقى بهم جليس.

وقال الشيوخ: من[٠٠٠] تحقق بحاله لم يحل[٠٠٠٠] عنه حاضروه».

فصل [٣٣]

الحروف التى تجزم الفعل المستقبل معلومة وهى: لم ولما وأخواتهما

والى تنصبه معلومة وهى: أن[٠٠٠٠٠] ولن وكى وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع مادام منفرداً كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات.. فآل إلى حال الضعف.

وكذلك: العبد عند تجرده فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه

---

(٠) بفتح الميم وسكون النون.

(٠٠) بضم الحاء وكسر الشين.

(٠٠٠) بفتح الميم وسكون النون.

(٠٠٠٠) بفتح الياء وضم الحاء وسكون اللام.

(٠٠٠٠٠) بفتح الألف وسكون النون.

الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد(*) إلى الضعف فبعدما كان بالله مستقلاً صار اسير حظ(**)، وصريع نصيب.

ثم .. بعض العوامل فيه تنصبه لكل قاصد،

وبعض العوامل تجزمه (فتقطع) عنه الفوائد.

■ المضارع من الأفعال هو القسم المعرب، واللفظة من (ضارع) أى شابه، والمشابهة واقعة بينه وبين صاحب الأصل فى الإعراب وهو (الاسم). فعلى حين يلزم آخر الماضى الفتح، وآخر الأمر السكون وهما مبنيان على هذا الأساس ـ فإن آخر المضارع يتغير تغيرات شتى. وهو يشبه الاسم أيضًا بدخول لام الابتداء عليه كقولك:

إن زيدًا ليخرج ـ مثل قولك إن زيدًا لخارج.

ويرى الشيخ أن المضارع حينما شابه الاسم أخذ منه بعض الاستحقاقات التى (رفعت) شأنه، فقيامه مقام الاسم عامل معنوى يشبه (الابتداء الذى يوجب الرفع) فيكون ذلك أيضًا حال ما يشبهه، وترتب على ذلك أنه حمل ما يحمل الاسم وهو الرفع الذى هو علامة على القوة بل على أقوى الحركات جميعًا.

■ وهو ينال هذه المرتبة عندما يكون على الأصل، أى الدلالة على الحال والاستقبال والتجرد من كل العوامل السابقة عليه تلك التى تنال من هذه الأصالة فتصرفه فى أزمنة مختلفة أو تحدد إطاره الزمانى فى الحال فقط أو الاستقبال فقط.. بمعنى أنه طالما لم تمس(***) هيبته العريقة فى المضارعة له الإجلال و(الرفع)، فإذا دخلت عليه العوامل أثرت(****) فيه ونالت من هذه (الرفعة).. لأن هذا الخضوع (للعوامل) له ثمنه!.

(*) بضم الراء وتشديد الهمزة المفتوحة.

(**) بتنوين الظاء المكسورة.

(***) بضم التاء وفتح الميم.

(****) بفتح الألف وتشديد الثاء مع فتحها وسكون التاء.

■ ومن علامات قوة هذا (المضارع) أيضًا أنه يحمل فى بنيته الأساس دلالة على المسند إليه، وهى:

(أ) التى يقال إنها بقية من (أنا) أو ما يشبهه.

(ن) أصلها نحن أو ما يشبهه.

(ى) أصلها ضمير بطل استعماله.

(ت) أصلها أنت.

وهى قاعدة مطردة ما عدا فى (تكتب) فهى صالحة للمفرد المخاطب وللمفردة الغائبة، وهذه مسألة يحددها سياق الكلام.

■ ويكاد المضارع يجد له مكانًا عبر الأزمنة كلها، فهو يتحرك فيها بناء على العوامل الداخلة عليه الأمر الذى يعرض آخره للتأثر المتباين فى كثير من الأحيان.

فمثلاً (لم) تنقله إلى الزمن الماضى وتجزمه.

و(لما)(*) تحمله إلى زمن التكلم وتجزمه.

و(لن) تخصصه للمستقبل وتنصبه.

و(لا) تنفيه ولا تؤثر فيه لأنه يبقى صالحًا للحال والاستقبال كما هو.

و(لام الأمر) تكسبه معنى الأمر فتجزمه.

و(لا الناهية) تجعله أمرًا سلبيًا فتجزمه أيضًا.

و(إن الشرطية وأخواتها) تعطيه معنى الشرط فتجزمه وتجزم جوابه معه.

و(السين وسوف) أى حرفا التنفيس أى التوسيع..

(*) بفتح اللام وتشديد الميم المفتوحة.

فتخرج به من الحال إلى الاستقبال فقط.. والزمن المستقبل متسع، وإن كانت (سوف) تفيد التوسيع أكثر من (السين).

■ ومرونة المضارع وانسياحه فى الزمن ليسا وقفًا على دخول هذه الأدوات عليه، بل هو بذاته قد يلعب هذا الدور لتعطى الجملة معنى ومذاقًا خاصًا فالمضارع الحكائى مثل: المريد يبدأ أمس خلوة طويلة.

والمضارع التعودى مثل: إنى أذهب لرؤية شيخى كل مساء.

ومضارع الظواهر الطبيعية: يسقط المطر حيث تكثر السحب.

والمضارع المسند للذات الإلهية.

والدال على الاستمرار: مثل: يقلب الله الليل والنهار.

ويفيد الاستمرار فى الماضى فقط.

إذا سبق(*) بالكينونة فى الماضى مثل: العرب فى الجاهلية كانوا يقتلون البنت خوف العار.

ويفيد نسبية الزمن مثل: خرج العمال يبنون الأهرامات.

فالثانى مستقبل بالنسبة للأول.

للدلالة أن أمرين حدثا فى الماضى من فاعل واحد مثل:

جاءوا أباهم عشاء يبكون.

* * *

(*) بضم السين وكسر الباء.

والإشارة:

تنطلق الإشارة من كون المضارع يفقد (استقلاليته وقوته) حينما تدخل عليه (العوامل) فتؤثر فى (رفعه)، أو تحدد إطاره الزمنى، أو المعنوى.. وهكذا العبد (القوى) ينبغى ألا تؤثر فيه العلائق أو المنى أو التطلعات، فلا ينظر إلى (ماضى) ولا يطمح إلى (مستقبل) ولهذا فإن أقرب الأزمنة إلى اصطلاح المتصوفة (الوقت) هو (المضارع الدال على الحال). وقد حدده القشيرى فى رسالته تحديداً تامًا حين قال: (**الوقت** ما بين الزمانين الماضى والمستقبل)[1]، ويترتب على الفهم الدقيق لهذا المعنى نتائج سلوكية وعرفانية خطيرة. وهذا الكلام الموجز يلخص مذهب القشيرى فى موضوع طويل يكتنف كل مصنفاته. يقول فى التحبير (العارف ابن وقته لا يفكر فى الطريق ولا فى العواقب بل يشتغل بمراعاة (الوقت) ولهذا قيل: الصوفى من لا ماضى له ولا مستقبل)[2]. فإذا أردت (التوبة) مثلاً فهيا (الآن) فأنت لا تملك (المستقبل). كما ينبغى أن تتجرد عبادتك من كل غرض يتصل بالجنة أو النار (الرغبة والرهبة) بل تكون خالصة مخلصة للرب سبحانه تاركًا هذه الأشياء المستقبلية لصاحب الأمر.

وهو لا يستعجل هجوم الوارد عليه (لأنه مطروح فى أسر الحكم لا يتحرك منه عرق)[3] تطلعًا إلى أية خطوة قادمة.

---

(١) الرسالة ص ٣٤.

(٢) التحبير فى التذكير ص ٣٩.

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٩٩ «وعرق» بكسر العين وسكون الراء.

فصل [٣٤]

فعل الأمر

«الأمر مبنى على السكون نحو قولهم: اذهب(*).

والنهى مجزوم نحو لا تذهب(*)

والإشارة: يشير السكون إلى الدوام، كما أن الحركة تعنى الزوال.

فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهى مجزوم، إذ النهى عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت(**) به، وتقف عما نهيت عنه.

وجوب الأمر وجواب النهى مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهى لسان الاعتراض؟ وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر والنهى.

فنعت المعارض(***) والمنهى(****) مجزوم، وغير الانقياد والخضوع منهما معدوم».

■ **يبنى فعل الأمر على:**

١ ـ السكون مثل: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.

٢ ـ على حذف العلة مثل: إرض، وألق، وادع.

٣ ـ على حذف النون مثل: اذهبا إلى فرعون، كلوا من طيبات ما رزقناكم، فكلى واشربى وقرى عينًا.

(*) بسكون الباء.

(**) بضم الألف وكسر الميم.

(***) بضم الميم وكسر الراء.

(****) بفتح الميم وتشديد الهاء.

٤ ـ ويبنى على الفتح إذا اتصلت به نون التوكيد مثل: ساعدن(٭) وطنك بالعمل.

■ والأمر معناه طلب فعل شىء، وهو على الأصل صادر من جهة عليا إلى جهة أقل، وقد تخرج عن هذا إلى معان بلاغية كالنصح والاستمالة والدعاء.. ولكن تبقى صيغته واحدة.

أما النهى فهو طلب الكف عن شىء وتركه وله أداة واحدة هى «لا» الناهية. والنهى مضارع مجزوم، فالجزم العلاقة الإعرابية المقابلة للسكون (الأمر) فى البناء. فقولك: لا تكذب(٭٭) معناه: أصدق(٭٭٭).

■ أما قول الشيخ: «**وجوب الأمر وجواب النهى مجزومان**» فإن هذا ينسحب إلى مضارع يقع جوابًا بعد (الطلب)، وهذا الطلب يكون:

١ ـ بالأمر مثل: اجتهد تنجح.

٢ ـ بالنهى مثل: لا تقنط من رحمة الله تسعد.

٣ ـ بالعرض مثل: ألا تزورنا تكن مسرورًا.

٤ ـ بالتحضيض مثل: هلا تجتهد تنل خيرًا.

٥ ـ بالتمنى مثل: ليتنى اجتهدت أكن مسرورًا.

٦ ـ بالترجى مثل: لعلك تطيع الله تفز برضاه.

وجزم الجواب يعود إلى الأسلوب الطلبى السابق عليه والمتضمن معنى الأمر أو ما يشبهه من دعاء أو التماس أو نصح.. إلخ.

(٭) بكسر العين وتشديد النون المفتوحة.

(٭٭) بسكون الباء.

(٭٭٭) بسكون القاف.

ومن النحاة من يرى أن السبب هو كون الأسلوب كله أصبح شبيهًا بأسلوب الشرط: بأداته وفعله وجوابه.. فهو على منوال:

اجتهد(٠) تنجح(٠) = إن تجتهد(٠) تنجح(٠).

ملحوظة: يرفع جواب النهى والأمر إذا لم يكن فيه معنى الجزاء فى المستقبل.

مثل: لا تكذبوا تهانون ـ فإن الشخص لا يهان على عدم الكذب. بينما تقول: لا تكذبوا تحترموا ـ لأن الاحترام جزاء عدم الكذب.

ومثله: ذرهم فى خوضهم يلعبون.. فاللعب ليس جزاء وليس مستقبلاً وإنما هو تعبير عن واقع يحدث.

* * *

والإشارة من كل هذا:

الإنسان فى حاجة ماسة إلى مجموعات من (الأوامر والنواهى كى لا تتحول الحياة إلى متاهات يعجز هو وحده عن تبين الطريق الصحيح بينها، وقد تنبهم الرؤية، وتشعب الطرق، وتغيب شمس الحقيقة فتطمس هذه الظلمات تفكير المرء، وتشل تصرفه.. إنه وحده لا يستطيع أن يهتدى إلى ماذا يفعل؟ وماذا يختار؟ وماذا يسلك؟

لأجل هذا يصبح من العسير عليه أن يفكر وحده، ولأجل هذا كان لابد من معاونة خارجية تأتى من (سلطة عليا).. ومع أن الله سبحانه قد قيض للإنسان عقلاً فطريًا كافيًا ـ لو أحسن توجيهه ـ أن يتجنب مأساة الشك والتذبذب والتخبط فإنه سبحانه برحمته قد بعث الأنبياء والرسل والكتب كى يكونوا رحمة له، وهداية لبصيرته بمجموعات من (الأوامر والنواهى)، التى يجب عندها أن (يتوقف) وأن يمتثل.. هذا التوقف يقتضى أسلوب

(٠) بسكون الدال وسكون الحاء.

(السكون) و(القطع) و(الجزم) ـ ما دامت (الأوامر والنواهى) آتية من هيمنة عليا كأوامر الله بحانه ونواهيه، وما جاء به الأنبياء والرسل.. و(البت) القاطع يقتضى الاستجابة دون محاجة(*) أو لجاجة... ومن الأزل انبرى إبليس ليناقش (أمر) السجود لآدم فكان من أمره، وأصبح لعينًا ينتظر اليوم الآخر هو ومن تبعه.

فإذا كان ذلك على المستوى الدينى العام فإن الشيخ هنا يبسط قضية (الشيوخ) وكيف يلزم أن تكون لهم على مريديهم الكلمة العليا، (فالمريد إذا قال لشيخه بعد أمر: لم(**) .. لا يفلح أبدًا).

الشيخ رمز السلطة الكبرى، وهو الذى يتولى بهمته صقل إرادة العبد، تلك الإرادة التى يفترض أن تذوب فى الإرادة العليا كى يتحقق هذا العبد بالحقيقة.

هذا هو المراد بقول الشيخ: «وجواب الأمر والنهى مجزومان» أى عندهما يجب الانقياد والاستسلام و(السكون) فلا خلاف ولا مناقشة ولا رد، فإن (الأمر) القاطع يحتاج إلى (الإجابة) القاطعة.

ثم لماذا نذهب بعيدًا والأصل فى كلمة «الإسلام» الانقياد لله والطاعة (لأوامره ونواهيه)؟.

إن الإنسان لو أصاب النظر لترك لربان السفينة أن يتولى أمرها، وما دام الله خيرًا محضًا فكل شىء منه ـ مهما بدا للوهلة الأولى فيه المشقة ـ هو خير فى الدارين لو أحسن المرء التبصر.

يقول القشيرى فيمن (لا يسكن) عند هذه الحدود «أيها الإنسان.. إن الطينة إذا ادعت(***) ما ليس لها فإن فى ذلك وبالا عليها»، ويقول فى

(*) بتشديد الجيم وفتحها.

(**) بكسر اللام وفتح الميم.

(***) بتشديد الدال مع فتحها.

لطائفه: «ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ولا قدركم فى الدنيا والعقبى إلا بمراعاة (الأمر والنهى) والمحافظة على أحكام الشرع»[1] قد تكون فى هذا الامتثال جبرية... ولكنها من المحبوب.. فمرحى بجبرية الحب!.

فصل [٣٥]

النعـت

، لنعت تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعًا فالنعت مرفوع، وإن كان منصوبًا أو مخفوضًا فالنعت مثله.

والإشارة من الاسم إلى السر، ومن النعت إلى الوصف، وإن ما يلوح على الظاهر ما يلقى به عن السر، سألوا: من(٠) العارف؟ فقال: لون الماء من لون إنائه.

وأنشدوا:

كيفما دارت الزجاجة درنا(٠٠)

يحسب الجاهلون أنا جننا(٠٠٠)

ولما كان النعت تابعًا كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه».

ملاحظة على المنهج:

بعد أن تحدث الشيخ عن الاسم والفعل بدأ يتحدث عن التوابع للاسم، وهو فى كتابه هذا لم يتناول كل توابع الاسم بل اكتفى هنا بالنعت، وفى

---

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٤٣٩.

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بضم الدال.

(٠٠٠) بضم الجيم وكسر النون الأولى.

فصل ٣٧ بالعطف، أى أنه لم يكتب عن: التوكيد والبدل وعطف البيان وعطف النسق.

والنعت: هو التابع الذى يكمل متبوعه بدلالته على معنى فيه أو فيما له تعلق به.

الأول: الحقيقى مثل جاء المريد(٠) الوفى(٠٠).

الثانى: السببى مثل جاء على التاجر(٠٠٠) أبوه.

وهما هنا يفيدان توضيحًا للمعرفة، ويتبع المنعوت فى الإعراب وفى كل شىء.

أما قولك جاءنى رجل نساج، وجاءنى رجل نساج أبوه فالفائدة فيهما تخصيص النكرة، ويفيد النعت أيضًا فى المدح والذم... إلخ.

ونريد أن نفرق بين لفظى الصفة والنعت لنوضح سبب اختيار الشيخ عنوان الباب.

يقول ابن عربى: الصفة تعطى معنى بذاتها، ولا يستلزم استيفاء الموصوف عكسها مثل: العالم، تعطى وصف العلم، ولا تعطى بالضرورة استيفاء الموصوف بالعلم للجهل، وكذلك: القادر والسميع والبصير لا تعطى أضدادها، لأن الذات لا تقوم بأضدادها.

النعت يراد به النسبة، بمعنى احتمال المنعوت لتقبل عكس النعت، (فالأول) لا يمنع أن يكون المنعوت هو (الآخر)(٠٠٠٠) وكذلك الظاهر والمعز والمضل.. فكلها نعوت[1].

---

(٠) بضم الدال.

(٠٠) بضم الياء مع تشديدها.

(٠٠٠) برفع الراء.

(٠٠٠٠) بكسر الخاء.

(١) اصطلاحات الصوفية ـ فى الفتوحات المكية لابن عربى الحلبى سنة ١٩٣٨.

والإشارة تنطلق من: «حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه». واتخذ الشيخ «السر» اسمًا واتخذ حال العبد من حيث الظاهر (نعتًا).

والسر ملكه(*) (باطنة) فوق (الروح)، والنعت هنا (ما يظهر) على العبد طبقًا لأحوال السر. وبعبارة أوضح يريد القول إن (ظاهر) المرء تعبير عن (باطنه) فهو (تابع) له، فلا انفصام - أو هكذا ينبغي - بين ظاهر المرء وباطنه.

فإذا كانت النعوت في نحو الظاهر توظف للتوضيح أو التخصيص.. إلخ فإنها هنا وبنفس الكيفية والقدر تلعب نفس الدور. تابع لمتبوع، وكشف لمغطى(**)، والشاهد الذي اختاره الشيخ يعبر عن ذلك.

وأصله: «سئل الجنيد عن العارف فأجاب: لون الماء لون إنائه»[٢] ومعنى هذا أنه إذا كان الوعاء الداخلي صادقًا خالصًا ظهر الصدق والإخلاص فيما يبدو على العبد من حركات، وما ينطق به من كلمات، بل حتى ما يومي به من إيماءات، وهنا تكمن القدة في اختياره لفظ (النعت) لاحتمال أن يحدث العكس إذا كان الباطن ممزوجًا بالدخل أو الزيف فيظهر على العبد أثر ذلك مهما حاول الإخفاء، ويفتضح أمره، ويعرض للانتقاص والمذمة، (فالزجاجة) إذا كانت لخمر شفيفة فهي لا تدير الرءوس، أما إذا كانت خمرها كثيفة أطاحت بصاحبها.. وأصبح كمن به مس(***)، ولون الخارج هو لون الشراب في الداخل.

واضح أن الإشارة هنا موظفة لبيان حال(****) تحدثنا عنها من قبل.. وهي عندما يمتلئ (السر) بلواعج الحب وشجونه، وتحاول الكأس الداهقة

---

(٢) الرسالة ص ١٥٦.

(*) بفتح الميم واللام والكاف.

(**) بضم الميم وفتح الطاء.

(***) بفتح الميم.

(****) بكسر اللام وتنوينها

أن تفيض أو لا تفيض إلى الخارج (الظاهر).. حسمها القشيرى هنا بقوله (بالتبعية) فهو خبير وعليم بأن الصب تفضحه عيونه، وعليم بأن السكون أليق.. فأرجع(٭) الموضوع كله إلى (التوافق) الصادق بين الظاهر والباطن.. وكل إنسان على قدره.. ولا عبرة بما يقوله (الجاهلون) بحقيقة حاله.

فصل [٣٦]

الشرط والجزاء

«الشرط والجزاء مجزومان. وللشرط والجزاء حروف نحو:

إن(٭٭) وما من(٭٭٭) وما اشبهها نحو قولك: إن تضرب(٭٭٭٭) اضرب(٭٭٭٭).

والإشارة: الجزاء لا يستحق(٭٭٭٭٭) إلا بحصول الشرط سواء بسواء، كذلك فى الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن وفيت(٭٭٭٭٭٭) بالشرط استوجبت الجزاء.. لذا قالوا:

إن وجـدنـا لمـا ادعـيت شـهـوداً

لم تجـد عـنـدنـا لحق جـحـودا

وقال الله تعالى: «وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم».

• ملاحظة على المنهج:

١ ـ نهاية الفقرة ليست أسلوب شرط ولكنه (أى الآية الكريمة) فعل أمر وجوابه أو جزاؤه مما يدل على أن الشيخ يقيس هذا الباب على

(٭) بفتح الجيم.

(٭٭) بكسر الألف وسكون النون.

(٭٭٭) بفتح الميم.

(٭٭٭٭) بسكون الباء فى الحالين.

(٭٭٭٭٭) بضم الياء.

(٭٭٭٭٭٭) بفتح الفاء وسكون الياء.

الأسلوب المذكور وهذا شيء مفهوم لأن قولك: اقفل الباب لا يدخل الريح يساوى: إن تقفل الباب لا يدخل الريح.

٢ ـ أنه أطلق على أدوات الشرط كلها لقب «حروف» مع أن النحاة يميزون بين حروف وأسماء كما سيتضح بعد قليل.

٣ ـ أنه اختار فى العنوان لفظ «الجزاء» بدلاً من جواب الشرط وهذا استعمال خليق بمن يعالج موضوعًا دينيًا وأخلاقيًا كهذا الكتاب.

٤ ـ أنه تجنب الإشارة إلى أدوات الشرط غير الجازمة مثل: إذا ولو... إلخ.

٥ ـ أنه تجنب الإشارة إلى بعض مواضع يأتى فيها (الجزاء) مرفوعًا أى غير مجزوم ـ كما سنرى.

وعلى كل حال.. فإن قوام منهج الشيخ فى الباب هو أخذه بالأغلب المنتشر.

■ يتألف أسلوب الشرط من:

١ ـ أداة الشرط ٢ ـ فعل الشرط ٣ ـ جواب الشرط أو جزاؤه.

وأدوات الشرط الجازمة للفعل والجواب هى:

إن(*) ـ وهى حرف باتفاق.

وإذ ما ـ وقد ذهب المبرد وابن السراج والفارسى إلى أنها اسم، ولكن أصح الأقوال فيها إنها حرف.

من وما ومتى وأى وأين وأيان وأنى وحيثما وكيفما ـ وهى أسماء مثل: إن تكتم الأسرار يثق فيك الناس.

(*) بكسر الألف وسكون النون.

ما تفعل[*] من خير يعلمه[**] الله.

وهناك أدوات الشرط غير جازمة مثل: إذا ولما ولو وأما ولولا.

وقد يأتى جواب الشرط ـ بعد الأدوات الجازمة ـ مرفوعًا كأن يكون هذا الجواب مسبوقًا بماض مثل قول زهير:

وإن أتـــاه خـــليـــل يـــوم مـــســـغـــبـــة

يـــقـــول لا غـــائب مـــالى ولا حـــرم[***]

أو مسبوقًا بمضارع منفى مثل: إن لم يقم أقوم.

ورفع الجواب فى غير هاتين الحالتين ضعيف.

* * *

وتنبثق إشارة الشيخ من هذه العبارة التى صاغها عامدًا فى أسلوبى شرط معبر عن الباب كله: **«إن وفيت بالشرط استوجبت الجزاء»**، وكلها **«من أفضاله»**.

إن الشرط والجزاء ضروريان لانتظام أى نشاط إنسانى، فهو مبدأ حضارى تحكمه ضوابط كالأعراف أو القوانين، ومن قبل ذلك وبعده الدين، حيث يحفل ـ كما قلنا ـ بالأوامر الحاثة على المعروف، والنواهى المنفرة من المنكر، وبالتالى ـ تأتى مراحل الجزاء إما فى الدنيا أو فى العقبى أو فى كليهما، والدين أوسع دائرة من القانون فى الثواب والعقاب، فالقانون لا يعاقب على الحسد أو البخل أو نقص المروءة.. ونحو ذلك... بينما تستوجب هذه فى الدين عقابًا من نوع معين.

(*) بسكون اللام.

(**) بسكون الميم.

(***) بفتح الحاء والراء.

والجزم للفعل وجزاؤه قياس على أسلوب الأمر والنهى وجوابهما وقد سبق ذلك فى هذا الكتاب.

والله سبحانه وتعالى حين يمنح (الجزاء) فإنما يمنحه من أفضاله، وهذه غمزة بالمعتزلة الذين يرون القضية بشكل آخر هو أنه (يجب) على الله أن يثيب المطيع وأن يعاقب العاصى، فالقشيرى يريد أن يلمح فى لفتة ذكية بأن عبارة (يجب على الله) مرفوضة، فضلاً عما فى التعبير من سوء أدب فالسؤال المطروح.. ومن ذا الذى يوجب عليه سبحانه؟ إنه ذو الإرادة الكاملة الشاملة فى منح (الجزاء) كيفما شاء.

ولو علم أولئك أن من الخير أن يعول[*] الأمر[**] كله على الله لوجدوا الخير كل الخير، لأن الله سبحانه من صفاته الرحمة، التى وسعت كل شىء، وإذا كان يوضح لنا أن من ضمن (الجزاء) العذاب وجهنم والانتقام.. إلخ فإنه قبل كل شىء رحمن رحيم.. والصوفية من أسعد الناس أملاً فى هذه الرحمة يقول قائلهم:

حـــاســـبـــونـــا فـــدقـــقـــوا

ثم مـــنـــوا[***] فـــأعـــتـــقـــوا

وفى موضع آخر ينشد قائلهم:

قـــوم إذا ظـــفـــروا بـــنـــا

جـــادوا بـــعـــتق رقـــابـــنـــا[1]

(*) بضم الياء وفتح الواو مع تشديدها.

(**) بضم الراء.

(***) بفتح الميم وتشديد النون المضمومة.

(1) اللطائف جـ ١ ص ٦٠.

فصل [٣٧]

حروف العطف

«حروف العطف عشرة»:

الفاء والواو وثم.. وأخواتها. وحكم المعطوف فى الإعراب حكم المعطوف عليه.

والإشارة: لما اشتركا فى المعنى تشاكلا فى صورة الإعراب، كذلك من صحب قومًا ووافقهم، وانخرط فى سلكهم، وعد(*) من زمرتهم فما استقبلهم استقبله، وما يفتح لهم به يفرد له منه نصيبه.

وفى الأثر: «جلساؤكم شركاؤكم».

حروف العطف عشرة وهى:

١ ـ الواو: لمطلق العطف دون ترتيب أو تعقيب، وللاستئناف.

٢ ـ الفاء: للترتيب مع التعقيب.

٣ ـ ثم: للتراخى (أى هناك فسحة من الزمن).

٤ ـ أو: للتخيير.

٥ ـ أم: للتقسيم.

٦ ـ بل: للإضراب والإبطال.

٧ ـ إما: للتعيين.

٨ ـ لا: للنفى.

٩ ـ لكن: (المخففة) للاستدراك.

١٠ ـ حتى: الوصول إلى الغاية.

(*) بضم العين وتشديد الدال وفتحها.

فإن عطفت بها على مرفوع رفعت، أو على منصوب نصبت أو على مخفوض خفضت أو على مجزوم جزمت.

والإشارة:

عنوان الباب (العطف) ومعانى الحروف كما أوضحناها تمنحنا الإشارات فى سلاسة، ويزداد الاتضاح إذا عرفنا أن (المعطوف) شريك للمعطوف عليه فى أحواله، فهو يجانسه فى الإعراب، وفى سريان الحكم عليهما.

بقى أن نتصور انطباق ذلك فى مجموعة بشرية يعمل أفرادها فى نشاط واحد، ولهم وسائلهم وأهدافهم المشتركة، وحقوقهم وواجباتهم نحو العمل من ناحية وفيما بينهم من ناحية أخرى.. وينبغى أولاً أن يسود (العطف) فيما بينهم فى هذه البيئة صغرت أو كبرت، لأنهم أسرة واحدة يربطها التكافل والتراحم، (فعطف) الكبير على الصغير رحمة به، ووفاق الصغير للكبير رغبة(*) فى المسيرة وهكذا تصبح الإشارة أشبه بقبس من ضياء يبدد الظلام وينير الدروب نحو سيادة علاقة إنسانية راقية. وتستطيع أن تستوفى جوانب هذا الموضوع القيم بالرجوع إلى أبواب فى مراجع التصوف تتصل اتصالاً مباشرًا به مثل (باب الصحبة) و(باب الفتوة) و(باب الوصايا) و(باب الجود والسخاء) ـ كما جاءت فى الرسالة القشيرية.

وتجدها عند السراج فى اللمع فى «آداب المشايخ ورفقهم بالأصحاب وعطفهم عليهم» اللمع ص ٢٧٣ وما بعدها.

فإذا رجعت إلى «عوارف المعارف» للسهروردى ص ١٠٩ وما بعدها وجدت هنالك قضية «ذكر من يأكل من الفتوح» تلك التى مسها الشيخ هنا مسًا هينًا وعلى استحياء. «ما يفتح لهم به يفرد له منه» وهذه نقطة قد

(*) بفتح التاء المربوطة وتنوينها.

تبدو للبعض غير ذات أهمية، ولكنها فى نظرنا من أجمل آيات (العطف)، فالواجب أن يقتسم الفريق ما يفتح الله به حتى لو كان كسرات خبز جافة، حفظًا من إراقة ماء الوجه عند الاضطرار إلى المسألة ـ وما أشد نفورهم منها! وقل مثل ذلك فى كل العلاقات المعنوية والمساندات الروحية وما يتطلبه ذلك من البذل والتنازل والصفح والمواساة وعيادة المريض والأخذ بيد العاجز.. إلخ من الوشائج التى تسود المجتمعات السوية المتحضرة.

ويمكن أن يكون قول الشيخ فى الرسالة (صحبة من[*] دونك)[**] تقضى على (المتبوع) بالشفقة والرحمة وعلى (التابع) بالوفاق[1].

والقشيرى يحسن تذوق (حروف العطف) فى النص القرآنى، ويستلهمها إشارات ممتعة مثال ذلك:

عند قوله تعالى فى قصة أيوب:﴿أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّر.. فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (الأنبياء ٨٣ ، ٨٤) يقول: «والفاء تقتضى التعقيب فكأنه قال: فعافيناه فى الوقت، بمعنى: يا أيوب لو طلبت[***] العافية قبل هذا لاستجبنا لك»[2] وعند قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢) «ثم للتراخى: أى أنه آمن فى الحال ثم اهتدى فى المآل».

وقل مثل ذلك فى بقية حروف (العطف) فهو يهتم بمعانيها فى مواقعها عند استخراج الإشارة بصورة تلفت النظر.

(*) بفتح الميم وسكون النون.

(**) بفتح النون.

(1) الرسالة ص ٤٥.

(***) بفتح التاء

(2) اللطائف المجلد الثانى ص ٥١٥.

فصل [٣٨]

همزة الوصل

«تلحق همزة الوصل بالأسماء والأفعال فى أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أن العبد ينصب(*) لمقام. والمقصود غيره، فإذا زال ذلك المعنى وصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه.. وهذه محنة للأكباد مفتتة(**)، وفى معناه انشدوا:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وغيره:

أطعمونا حتى إذا ما طعمنا

وجرت بيننا عرى الأسباب

سكنوا فى ديارهم ثم قالوا

مالك اليوم عندنا من جواب

وقد يمتحنون بالتغافل عنهم، فبعد طول الغربة ينشدون:

ادرجت(***) فى اثواب نسيانكم

حتى كأننى الف الوصل

ولما لم تكن صحبة الف الوصل أصلية لم تبق على دوام الأوقات.. كذلك: من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل يئول أمره».

(*) بضم الياء.

(**) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرها.

(***) بضم الهمزة وسكون الجيم.

الهمزة على قسمين:

(أ) همزة الوصل: وهى الثابتة ابتداء الساقطة فى درج الكلام، وسميت وصلاً لأنها تصل ما قبلها بما بعدها ولا تقطعه عنه كما يفعل غيرها من الحروف.

وقيل: لأنها يتوصل بها إلى النطق بالساكن مثل: اكتب وانطلاق.

(ب) همزة قطع: وهى ثابتة ابتداء ووسطًا وآخرًا مثل: أبى(*)، ويأبى، وأجلسته.

إثبات همزة الوصل وسقوطها:

١ ـ تحذف مما صغر(**) وكان أوله همزة مثل قولك: بنى(***) فى ابن، وسمى(****) فى اسم.

٢ ـ تحذف لفظًا وخطًا فى (ابن) مسبوقًا بعلم وبعده علم بشرط كونه وصفًا للأول والثانى أبًا له ما لم يقع فى أول السطر.

٣ ـ تحذف لفظًا لا خطًا إن سبقت بكلام.

٤ ـ تحذف فى «بسم الله الرحمن الرحيم» بشرط أن تذكر كلها وإلا يذكر معها متعلق. فتذكر فى قولك مثلاً: باسم لله أبدأ حديثى وفى «بسم الله مجراها ومرساها» لك الإثبات والحذف.

٥ ـ تحذف مع كل معرف بالألف واللام:

إذا دخلت عليه اللام جارة مثل: للقوم.

أو ابتدائية مثل: وللآخرة خير لك من الأولى.

(*) بفتح الألف والباء.

(**) بضم الصاد وكسر الغين مع تشديدها.

(***) بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء.

(****) بضم السين وفتح الميم وتشديد الياء.

٦ ـ تحذف مع همزة الاستفهام ألرجل فى الدار؟

فهى كما ترى قابلة للحذف والإثبات.

والواقع أن الحرف الحقيقى المعد من حروف الهجاء هو (الهمزة) وهذه بدورها تخفف خصوصًا عند أهل الحجاز ولا سيما قريش.

وعن موسى بن عبيدة مرفوعًا إلى ابن عمر قال: ما همز رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمزة بدعة ابتدعوها من بعدهم.

* * *

وفى الإشارة:

أحكام الله الى لا تخضع لعلة، فمحاولة تعليل أفعال الله ضرب من الخطأ فى الأساس، لأن العقل الإنسانى مهما نما وكبر لا يستطيع أن يجب فى دائرة غير دائرته، فالإنسان مهما ارتقى عقله فهو متناه والله سبحانه غير متناه.

هذا الكلام سليم وصحيح بالنسبة لأفعال الله فى كونه، هنا وفى الآخرة. وهو سليم وصحيح بالنسبة لما يصنعه فى هذا العبد السالك طريق القوم ـ فيجب تقبله برضا واقتناع..

ومن المعلوم أن (أحوال) هذا الطريق أفضل إلهية تنثال على العبد فى ثنائيات متقابلة كى يتقلب القلب بين نقيضين لتجلو مرآته، ويدرك السالك أنه مرتهن بمشيئة مولاه فى كل لحظات الرحلة، ولكن..

قد يحدث أن يكون الحال مقتضاه (الفصل) أو (القبض) وفجأة تأتى (البواده والهواجم) بحال (الوصل) أو (البسط) فينسى العبد أنه فى موقف ابتلاء، وتصيبه البهجة وربما ينتابه شىء من الإعجاب بالنفس.. وعلى

الفور يحدث النقيض.. تلك هى التربية الإلهية التى تتطلب عندئذ الاستغفار والندم، والعهد الجديد بمراعاة (الوقت) والتسليم.. بأن الأشياء مردها لله، وأنه لا خضوع فى أوامر الله لعلة. ذلك هو بالضبط الموقع الذى تصدر عنه إشارة الشيخ فى هذه الفقرة لو أحسن قياس حال (همزة الوصل) القابلة للإثبات والحذف، وأنها جيء بها للتوصل فقط وليس لأهمية فى كيانها.. إلخ ولنزيد الأمور إيضاحًا نضرب مثلين مطابقين من اللطائف:

يقول الشيخ عند بسملة سورة الحجر: «تسقط ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة.. ليعلم(*) أن الإثبات والسقوط بلا علة، فلم يقبل من قبل لاستحقاق علة، ولا رد من رد لاستيجاب علة». ويستمر الشيخ فى نفس الموضع مثلاً:

«فإن قيل: العلة فى إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال فى كتابتها أشكال بأن الباء من بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فإن قيل: العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكل بحذف (ألف الوصل) لأن الاتصال فيها موجود، فلم يبق إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة، يرفع ما يشاء ويمنع ما يشاء»[1].

وفى موضع آخر يقول عن عبد واقع تحت تأثير حال (القبض):

« ... فإذا استسلم لحكم الوقت فمن قريب يزول القبض. وقد يكون بسط يرد بغتة، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سببًا، يهز صاحبه ويستفزه.. فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب، فإن له فى هذا الوقت

(*) بضم الياء وفتح اللام الثانية.

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٣٢٦.

خطرًا عظيمًا، وليحذر صاحبه مكرًا خفيًا.. ولهذا قالوا: قف على البساط.. وإياك والانبساط»[٢]. ويتضح من هذا كله أن الشيخ يقصد إلى هدف بعيد.

إن عملك وحدك غير كاف لنجاحك، ولهذا فكل توقعاتك فى اللحظة التى أنت عليها لا ضمان لها، إن المعول عليه دائمًا هو الفضل الإلهى، فارتهن به بلا تفسير أو تعليل، وبدون هذا الفضل الإلهى لا أمل فى عمل ولا فى مستقبل، وإنما هى (همزة وصل) قابلة للحذف والإثبات، فلا لها أصالة، ولا لها فى ذاتها تصريف، وهكذا:

«من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل يئول أمره».

وما أجمل قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده.

(٢) الرسالة ص ٣٥، ٣٦.

فصل [٣٩]

حروف الخفض

«الحروف التي تخفض الأسماء محصورة نحو:

من وإلى وفي، والباء والكاف الزائدة وأخواتها.

وهذه الحروف تدخل على الأسماء، وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر، والخضوع والوضع. فمن(*) داخله الطمع والحرص والتمني والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبت(**) له ضعة الحال، ونقصان الرتبة، وخساسة المنزلة».

ملاحظات المنهج:

تبلغ حروف الجر نحو عشرين حرفًا. والجر تسمية بصرية وعند الكوفيين تسمى حروف (الإضافة).

وقد اختار الشيخ (الخفض) للدلالة على معاني هذه الحروف، وهي كلمة ذات مغزى في علم له قواعد (ترفع) المرء، ويحذر من دواع (تخفضه) و(تكسره) - كما جاء في النص، (فالخفض) أولى بملم محوره السلوك والقيم، و(الخفض) علم(***) الإضافة، وتدل الكسرة على أن ما لحقته مضاف إليه أو تابع له فحيثما وجد الارتباط بين كلمتين بنسبة لا تعبر عن فكرة تامة (كالارتباط بين المبتدأ والخبر مثلاً) فإننا نجد (الخفض). ويذهب النحاة إلى أن ذلك أثر لحرف جر (راجع باب الإضافة الذي سبق).

(*) بفتح الميم.
(**) بفتح الهمزة وسكون التاء.
(***) بفتح العين واللام.

وفى حالة وجود فعل فإن معنى الإضافة هنا يكون على أساس أنك تضيف معانى الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها عندما لا تقوى الأفعال على اتخاذ مفعول به لها.. مثل: سافرت من العاصمة إلى القرية. فأنت تقوى معنى الفعل كى يصل إلى الاسم الذى بعده بواسطة الحرف.

ويرى البصريون أن لكل حرف معنى خاصًا محددًا، ولهذا لا يقولون بنيابة حرف عن حرف.. على حين نجد القشيرى يقول بالإنابة.. وذلك: كقوله عند الآية الكريمة «وما ينطق عن الهوى».

يقول (أى بالهوى فالباء تقوم مقام عن)[1].

وقوله عند (فاسأل به خبيرًا): أى «فسل عنه خبيرًا»[2] وقد يأتى حرف الجر زائدًا فيفيد توكيد المعنى فى الجملة كلها مثل:

الباء: كفى بالله شهيدًا.

ومـن: هل من خالق غير الله.

والكاف: ليس كمثله شىء.

ويجب أن يكون للجار متعلق وهو فعل أو ما يشبهه أو مؤول بما يشبهه. فإن لم يكن شىء من ذلك قدرنا[*] كونًا مطلقًا (بمعنى الوجود).

ويدقق القشيرى فى تفاسيره فى معانى (الخوافض) وأثر ذلك فى السياق مثل قوله تعالى عند ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ (الحج: ٣٠).

«من ههنا للجنس لا للتبعيض، وهوى كل من اتبعه معبوده، وصنم كل أحد نفسه»[3].

(١) كتاب المعراج للقشيرى ص ١٢١.
(٢) اللطائف ـ المجلد الثانى ص ٥٤١.
(*) بتشديد الدال وفتحها.
(٣) الرسالة ص ٦٣.

والإشارة من هذا..

نقدم لذلك ببعض مقتطفات ملائمة من كتبه المختلفة:

١ ـ فهو يورد شاهدًا شعريًا فى الرسالة ذا مغزى هنا:

فكم من (حروف تجر) الحتوف

ومن ناطق ود أن لو سكت[٤]

٢ ـ وهو يلتقط إشاريًا معنى لفظ (الحرف) عندما يسمع الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ (الحج: ١١)

فيقول: يعنى يكون على جانب غير مخلص.. لا استجابة توجب الوفاق ولا جحدًا يبين الشقاق، فإن أصابة أمن وخير ولين اطمأن به وسكن إليه، وإن أصابته فتنة أو نالته محنة ارتد على غقبيه ناكسًا، وصار لما أظهر من وفاقه عاكسًا.

ومن كانت هذه صفته خسر فى الدارين، وأخفق فى المنزلتين)[٥].

فيأيها المريد:

حدد هدفك من البداية.. إما أن تبقى بحكم العادة (فأضف) نفسك إلى الدنيا ودواعى النفس والهوى.. أو قم[*] بحكم العبادة (فتجرد) لتبقى (مرفوعًا). أما أن تكون بين بين فإنك ستكون على (حرف) فى تنقلاتك القادمة، وستكون نهبًا للصراع.. فإذا ما اخترت[**] طريق الحق فتجرد بكل الهمة لكى تصنع[***] صناعة إلهية كما فعل ربك بموسى.. ذلك

(٤) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٢٢.

(٥) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٢٢.

(*) بضم القاف وسكون الميم

(**) بفتح التاء.

(***) بضم التاء وفتح النون.

الرضيع الذى لا إرادة له، والذى أخرج من اليم ليكون من أمره ما كان.. تحرر من كل الأطماع والأغلال فكل ذلك من نتائجه (الجر) و (الكسر) و(الخفض) وما شاكل ذلك من عوامل الانحدار والتسفل..

فصل [٤٠]

كف إن وأخواتها عن العمل

«ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ويوجب له تغيير الإعراب وهى مثل: إنما وكأنما، وليتما ولعلما وغيرها.

الإشارة: أن من الناس من لا يؤثر فيه الواردات بحال، فهو فى حال ما دخل عليه مثله فى حال تجرده عنها.

دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاه(*)، فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى، فرآه لا يؤثر فيه ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت فقال.

فديت (**) من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى!

فقال ذلك الشيخ: «يا فلان، إنا قد جردنا عن رق(***) الآثار».

تتصل (ما) الزائدة بإن وأخواتها من الحروف الناسخة فتكفها عن العمل، وحينئذ تفقد اختصاصها فى الدخول على الجمل الاسمية وتصبح صالحة للدخول على الجمل الفعلية. ويسرى هذا على الجميع ما عدا (ليت): مثل: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾. (الأنفال: ٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى﴾. (الأنبيا، ١٠٨)

ويقول امرؤ القيس:

ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

ومثله:

أعد نظراً يا عبد قيس لعلما   أضاءت لك النار الحمار المقيدا

(*) بفتح الميم وتنوين الهاء المكسورة.

(**) بفتح الفاء وضم التاء.

(***) بكسر الراء وتشديد القاف وكسرها.

أما (ليت) فتبقى على اختصاصها بالجمل الاسمية، ويجوز إعمالها على الأصل أو كفها عن العمل وإلى هذا أشار ابن مالك:

ووصل (ما) بذى الحرف مبطل إعمالها وقد يبقى العمل

أما (ما) الموصلة فإنها إذا دخلت على هذه النواسخ فلا تبطل عملها، والأفضل أن تكتب منفردة للتمييز بينها وبين الحرف (ما) مثل: «إن ما صنعوا كيد ساحر» أى أن الذى...

وتدور هذه الفقرة حول (المصطلم)(*) عن نفسه أى المأخوذ فى معارفه، فهو (كائن بائن) أى موجود بين الناس ببدنه مفترق عنهم بروحه وسره ومعارفه وشواهده.

مثل هذا الإنسان لا تؤثر فيه عوامل من خارج، لأن أعماقه وداخله لا تدع فرصة لتأثير (وارد) ينال منها. وأصل القصة التى استشهد بها الشيخ هنا هو أن الشيخ أبا على الدقاق ـ شيخه وصهره روى له:

أن بعض الناس «دخلوا على أبى بكر القحطى وكان له ابن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب، وكان ممر الداخلين على هذا الابن، فوجد الابن مع اقرانه يشتغلون ببطالتهم.. فرقت القلوب وتألمت للأب. وقال أحدهم: مسكين هذا الشيخ! كيف ابتلى بمقاساة هذا الابن؟! ولما دخل عليه وجده كأنه لا خبر له بما يجرى من الملاهى فتعجب وسأله: فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى! فقال القحطى:

«إنا قد حررنا عن رق(**) الأشياء فى الأزل»[1].

ويريد القشيرى أن يتحدث عن المناعة الذاتية التى تحفظ على العارف

(*) بضم الميم وسكون الصاد وفتح اللام.

(1) الرسالة واللمع.

(**) بكسر الراء وكسر القاف المشددة.

عرفانه بحيث لا تزعجه تيارات تهب خارج ذاته، بل يبقى مصانًا محفوظًا كأن شيئًا لا يحدث من حوله.

هذا الموقف يناظر فى نحو الظاهر ما يحدث لجملة (مفيدة) تتركب من (مرفوعين)، والإسناد بينهما محكوم بهذا الحاجز (ما) الذى يمنع إن وأخواتها عن أداء أدوارها المعروفة فى تغيير المبتدأ والخبر، فيظلان على حالهما من القوة والثبات، ولا يعتريهما (المألوف) من (نسخ) النواسخ.

وإذا كان القشيرى من قبل ذلك قد تحفظ فى الواردات التى تحدث فى مجالس السماع ويترتب عليها فقدان التوازن عند بعض المريدين، وإذا كان قد أرجعها إلى الصدق فى التأثر وفى التعبير عن هذا التأثر فهو هنا يبلغ بالأمر ذروته حين يجعل المؤثرات (ملاه محرمة) بالقطع فالنأى التام هنا أولى(*)، لأنها حرام فى ذاتها ومشتتة فى أثرها.

والخلاصة أن العارف المتحقق له من معرفته وتحققه ما (يكف) عنه أى إضرار.. لأنه فى كنف الله الحفيظ، وإذا ما تذكرنا ما سبق. أن (إن وأخواتها) مشبهات بالمشبهات بالفعل (كان وأخواتها) فى التأثير، فإننا نستطيع أن نتصور أى تضئيل لشأنها أكثر وأكثر بعد أن (**كفها**)(**) حرف ضئيل، فذهب بها وبكل نفوذها أدراج الرياح! وهذا شأن كل المؤثرات الواهنة عند أرباب القوة والعزم.

(*) بفتح الألف وسكون الواو.

(**) بفتح الكاف وتشديد الفاء المفتوحة.

فصل [٤١]

الفاء فى جواب الطلب

«جواب الأمر والنهى والدعاء والاستفهام والجحد والعرض[١] والتمنى بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء».

والإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج الجواب عن واجبه استحقاقه إلى صفة أخرى.

فكذلك شرط الواسطة، تغير[••] حكم المدخول عليه، فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما العيش مع الله تعالى بلا علاقة فيبقى[•••] العبد على ما يجب ـ من تحقيق الوصل ـ فى الأصل.

ملاحظة على المنهج:

يجعل شيخنا (جزم) جواب الأمر والنهى.... إلخ هو الأصل، ويجعل النصب بعد اقتران هذا الجواب بالفاء هو الفرع أو (هو خروج عن الاستحقاق الواجب).

والنصب عند الشيخ حدث بالفاء وهو عند المصريين بأن المضمرة بعدها.

أمثلة للفاء الناصبة عقب أنماط مختلفة من الطلب:

١ ـ بعد الأمر: اقتد بشيخك فتنال[•] رضاه.

٢ ـ بعد النهى: لا تتبع الشيطان فيضلك[•] عن السبيل.

٣ ـ بعد الدعاء: ربنا آتنا من لدنك رحمة فنسعد[••] فى الدارين.

٤ ـ بعد الاستفهام: هل تفعل خيرًا فتؤجر[•••].

---

(١) بفتح العين وسكون الراء.

(•••) بضم الياء وكسر القاف.

(••) بفتح الدال.

(••) بضم التاء وفتح الغين وكسر الياء مع تشديدها.

(•) بفتح اللام.

(•••) بفتح الراء

٥ - بعد الجحد: ما كان للمريد أن يفسخ عقده مع الله فيسترخص.

٦ - بعد العرض: هلا تقوم الليل فتفوز.

٧ - بعد التمنى: ليتك تشمر عن ساعد الجد فتعوض ما فاتك.

٨ - بعد الترجى: لعلك تساعدنى فأخرج من هذه المحنة.

ومن الملاحظ أن الفاء هنا سببية ولا تدل على الاستئناف ولا على العطف، لأن صدر الكلام (طلب)، وبذا يتباين ما سبق الفاء عما لحقها، كما أن اللاحق نتيجة للسابق.

وتنطلق إشار ة الشيخ من أن (توسط) الفاء بين الطلب وجوابه أخرج هذا الجواب عن الأصل (الجزم) وأحله محلاً جديدًا (النصب)، فالخروج جاء بسبب الواسطة «والواسطة تغير حكم المدخول عليه».

وإذًا ما المرجو (أصلاً)؟ إنه الدخول إلى طريق الله (بلا علاقة) وهذا بالضبط تعريف الجنيد (سيد الطائفة) للتصوف: «إنه العيش مع الله بلا علاقة».

قطع العلائق إذًا هو المطلوب، ويكون ذلك ساريًا على كل (الوسائط) التى تحول بين العبد وربه.. «إلى أن يصير عن الخلق أجنبيًا، ومن آفات نفسه بريًا، ومن المساكنات والملاحظات نقيًا.. وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل» الرسالة.

وهذه المواد الأساس فى دستور هؤلاء العارفين هى الضمان الأكيد لتحقيق الهدف الأسمى وهو «التوحيد»، ومن هنا كانت (الواسطة) وكان الانجراف إلى شىء (ثان) عقبات فى سبيل حصول (التوحيد).

فالنفس والهوى والشيطان والدنيا والناس علائق ووسائط يلزم أن يتخلى - العبد الزاهد العارف الموحد - عنها نهائيًا وبصورة (جازمة)

قاطعة. أما أن يسلك جزءًا من الطريق ثم تحدث نفسه (باقتران) علاقة ما من قريب أو بعيد.. بطريق مباشر أو غير مباشر فهذه (اثنينية) لابد من سقوطها.

وهناك مثال قد يحدث فى بعض الأحيان.. ربما كان الشيخ يغمز إليه من بعيد.. وهو ذلك الانتفاعى الذى يدخل تحت تأثير الطمع إلى دنيا القوم رجاء الحصول على نصيب مما يوزعونه على أنفسهم من أرزاق يتبلغون بها، فكأن الحصول على هذا النصيب هو كل غايته. مثل هذا الدخيل يجب إبعاده وكشف أمره، لأنه صاحب أغراض حقيرة، وسيملؤ الجو ـ إن لم يحصل على غرضه ـ سمومًا لا قبل[٢] لغيره ـ من المخلصين الأصلاء بها.

إنه كالأجير السوء إذا أعطى[٠] شكر وإذا منع[٠٠] كفر. ويمكن أن تقاس عليه عبادات قوم (مقترنة) بمطالب فى الدنيا أو فى الآخرة. فالشيخ يريد أن يبرئ الطريقة من أية (واسطة) تقترن بالتعبد، لأن التعبد الصحيح عند القوم هو الخالص المخلص لوجه الله تعالى دون انتظار أو ترقب لمكافأة أو جزع من عقوبة. وإلا خرج المرء من النطاق الخالص، إلى النطاق الذى هو فيه (مقترن) بالوسائط، أى رد[٠٠٠] من حكم العبادة والزهادة والإرادة إلى أحكام العادة.. مثلما يحدث (الجواب الطلب إذا اقترن بالفاء)، فهو خروج **(عن الأصل)**.

---

(٢) بكسر القاف وفتح الباء.

(٠) بضم الهمزة وكسر الطاء.

(٠٠) بضم المهم وكسر النون.

(٠٠٠) بضم الراء وفتح الدال مع تشديدها.

فصل [٤٢]

المنـــادى

«المنادى على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك: من كان من العباد مفرداً ينادى(٠) على وصف غير وصف، ما ينادى(٠٠) وهو مضاف.

وكذلك: من كان بوصف المفرد: فالمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على الضمة ـ والضمة أقوى الحركات.

ومن كان أبداً بنعت التفريد كان فى أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادى المضاف منصوب.

وكذلك: من أضيفت إليه العلائق، فهو فى أضعف الحالات لأن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص(٠٠٠) بعلم آخر:

كذلك صاحب النكرة وسم(٠٠٠٠) برقم آخر».

النداء هو طلب الإقبال من المخاطب بحرف من أدواته، وأشهر هذه الحروف: «يا » و «أيا» و «هيا» والهمزة.

ويجوز حذف «يا» أحياناً مثل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ (يوسف:٢٩).

---

(٠) بفتح الدال.

(٠٠) بضم الياء وفتح الدال.

(٠٠٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٠٠٠٠) بضم الواو وكسر السين.

أقسام المنادى:

(أ) العلم(٭) المفرد، وهو ما اجتمع فيه أمران: التعريف والإفراد. والإفراد فى باب المنادى وفى باب (لا النافية للجنس فصل ٤٦ من هذا الكتاب) معناه ألا يكون مضافًا فهو معرف(٭٭) أصلا.

وذلك مثل: يا على(٭٭٭).

(ب) النكرة المقصودة مثل: يا غلام.

وهى نكرة يراد بها معينًا، فالتعريف هنا عارض سببه قصدك أن يقبل(٭٭٭٭).

ومثلها يا سيدان، يا منصفون، يا رجال، يا سيدات.

وهذان القسمان يتم فيهما: البناء على ما يرفع به ـ لو كان معربًا فى الأصل ـ أو يقدر الضم ـ لو كان مبنيًا فى الأصل ـ وذلك مثل:

يا سيبويه الفاضل[1] (لاحظ ظهور أثر الضم المقدر على المنادى المبنى على آخر تابعه المعرب).

(جـ) ما يجب نصبه وهو ثلاثة:

١ ـ المضاف: ربنا اغفر لنا.

٢ ـ الشبيه بالمضاف (وهو ما اتصل به معمول له يوضح شيئًا من معناه).

(٭) بفتح العين واللام.
(٭٭) بضم الميم وفتح الراء مع تشديدها.
(٭٭٭) بتشديد الياء وضمها.
(٭٭٭٭) بضم الياء وكسر الباء.
(١) بكسر الهاء فى سيبويه وضم اللام فى (الفاضل).

مثل: يا سامعًا دعاء المظلوم.

يا آخذًا بيد الضعيف.

يا زكيًا أصله.

٣ ـ النكرة غير المقصودة (أى التى يراد بها التعميم لا واحدًا مخصوصًا).

مثل: يا مؤمنًا لا تعتمد على غير مولاك.

ومثل قول رجل أعمى: يا رجلا خذ بيدى.

وتدخل «يا» على ما ليس فيه (أل)، وتدخل (أيها) على ما فيه (أل) ويتسع لفظ الجلالة لقبول الجمع بين «يا» و «أل».

فتقول بهمزة القطع: يا ألله(٠).

وبهمزة الوصل: يا لله(٠).

وتنطلق إشارة الشيخ من أن هذه الأقسام للمنادى فى نحو الظاهر ـ على تنوعها فى الشكل واستحقاق الإعراب ـ تجتمع كلها تحت لقب واحد هو: المنادى.

فكذلك «الإنسان» لقب لكل بنى البشر على اختلاف أفراد الإنسان فردًا عن فرد، وجماعة... فلكل مشربه ووسائله وأهدافه.

كذلك هناك العوام والخواص

وبين الخواص هناك العباد(٠٠) والزهاد والعارفون والموحدون والأولياء.. إلخ. والحق.. إنها إحدى لوازم التأليف فى منهج الشيخ: أن ينظر نظرة عامة ثم يفصل تحت العموم أصنافًا، وتحت الأصناف فروعًا... وهو حين

---

(٠) بضم الهاء.

(٠٠) بضم العين وتشديد الباء المفتوحة.

يفعل ذلك يترتب آدابًا لكل طائفة ويفصل حقوقًا وواجبات، وهذه سمة فى التأليف نراها ضرورية لكى يميز المبتدئون والسالكون بين مقام ومقام وبين حال وحال، وبين سائر على الدرب فى بدايته أو وسطه أو قرب غاياته أو عند منتهاه، وبالتالى يكون التمييز فى داخل التجمع الصوفى على أساس السبق فى الفضل والوصول والاتصال. فإذا عدنا إلى باب المنادى ألفيناه يمنح «**المنادى العلم المفرد المبنى على الضمة أو ما ينوب عنها**» درجة **الامتياز**، فهو - فى نظره أقوى حالات المنادى. ولنضرب مثلين على ذلك، ولنبدأ **بأقوى الأقوى**: فقولك «يا اللهُ(٠)»: لفظ الجلالة - علم - مفرد (أى غير مضاف) مبنى (والبناء يفيد الثبات والدوام) على الضم (**والضمة أقوى الحركات**).

أضف إلى هذا - ما قلناه من قبل من أنه هكذا كلام مفيد فى حد ذاته، وفى غنى عن المزيد، ثم إنك لو مددت فى (ندائك) هذه الهاء الأخيرة لانتهيت إلى (هو) اسم الله الأعظم.. وأنت عند ذلك فى مفتتح حلقة من حلقات (الذكر) تبدأ كلها - فى الأغلب - على هذا النحو..

فهذا فى رأينا هو (النداء) المبارك، إنه أقوى نداء.. إنه الذكر الحقيقى وتستطيع واضعًا فى اعتبارك الفروق بين المطلق والنسبى أن تقول إن (يا مريد) أو (يا زاهد) أو (يا عارف).. وأمثالها هى من قبيل (المنادى) القوى.. لأنها أعلام مفردة (غير مضافة) مبنية.. إلخ. أما إذا (أضفت) هذا المنادى إلى شىء آخر فقد هبطت بدرجة المنادى إلى درجة أقل، لأن **الإضافة نسبة**، فبعد أن كان المنادى منفردًا بذاته وكان له (استقلاله) كان علمًا وكان مبنيًا وكان مستقلاً، وحين اعتورته الإضافة نقص حاله مثل: يا مريد الدنيا.

---

(٠) بضم الهاء.

وهنا تغير حكم الإعراب فأصبح (منصوبًا) و (النصب أضعف الحركات).

ويلحق بذلك الشبيه بالمضاف مثل: يا ملبيًا نداء النفس والهوى كفاك ما أنت غارق فيه!

أما النكرة غير المقصودة فيندرج فيها العوام أو أهل العادة أو الكافة ـ فى تقسيمات الشيخ المعهودة.

ونأتى إلى النكرة المقصودة: (**نكرة من الأسماء، خص بعلم آخر كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر**) وهى كما رأينا ملحقة بالعلم المفرد القوى الشأن، وهى تنال مثله درجة (**البناء على الضم**).

إنها فى نظرنا لقب على صنف من رواد هذا الطريق..

فالواحد من هؤلاء ليس علمًا أى ليس مشتهرًا، بل إنه على العكس يبدو وكأنه بعيد، وهو عند الناس غير مقدر(*) التقدير الواجب..

إنهم الذين عناهم الحديث الشريف «رب(**) أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» هم يحفلون بالجواهر ولا يهتمون بالمظاهر، ولنضرب أمثلة قليلة على ذلك:

١ ـ أويس القرنى:

تابعى ضارب بذقنه إلى صدره، رام بذقنه إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكى على نفسه، ذو طمرين، لا يأبه له، متزر بإزار صوف وبرداء صوف، مجهول فى الأرض، معروف فى السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه: فإذا كان يوم القيامة قيل للعباد: ادخلوا

(*) بضم الميم وفتح الدال مع تشديدها.

(**) بضم الراء وتشديد الباء المفتوحة.

الجنـة ويقـال لأويس: قف فيشفعه الله عز وجل فى مثل عدد ربيعة ومضر»[٢].

إن هذا الدرويش الذى يبدو ذابلاً خاملاً (**كأنه نكرة من النكرات**) هو نفسه (ذلك المجاهد المقاتل إلى جانب على فى صفين والذى قتل فيها)[٣].

وما زلنا حتى هذا العصر نشهد بعض أمثلة لأويس، يمشون فى الأرض على التوكل، يعاملهم الناس كأنهم (مجاهيل)، يسيحون فى كل مكان، تعرفهم على الفور أو بعد لأى[٠] بعلامات خاصة أهمها أنهم لا يسألون الناس إلحافًا، تبدو على وجوههم علامات الرضا والقناعة.. والإجهاد من قيام الليل.

٢ ـ شيبان الراعى:

راع يلتحف برداء نسجه من صوف أغنامه، أمى لا يقرأ ولا يكتب، وما أن يدخل المسجد حتى يهرع الناس إليه، يلتمسون منه كلامًا، ولكنه عزوف عن ذلك، ومع ذلك فإنه إذا تكلم تحلق الناس من حوله.. فيسمعون منه كلامًا لا قبل[٠٠] لهم به.

يراه أحمد بن حنبل فيهمس فى أذن الشافعى: أريد يا أبا عبد الله أن أنبه هذا على نقصان علمه كى يشتغل بالتحصيل. وينصحه الشافعى ألا يفعل، فلا يقنع، ويسأل شيبان:

ـ ما تقول يا شيبان فيمن نسى صلاة من خمس صلوات فى اليوم والليلة ولا يدرى أى صلاة نسيها.. ما الواجب عليه؟

---

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٢ ص ٨١.

(٣) الإصابة جـ ١ ص ١٢٠.

(٠) بفتح اللام وسكون الهمزة.

(٠٠) بكسر القاف وفتح الباء.

فيرد شيبان: يا أحمد.. هذا قلب غفل عن الله تعالى فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعدا

فغشى على ابن حنبل فلما أفاق قال له الشافعى:

ألم أقل لك لا تحرك هذا؟!

ويعلق القشيرى فى رسالته على هذه القصة قائلاً: وكان شيبان راعيًا فما ظنك بالأئمة»[٤].

٣ - الملامتية:

أولئك الذين ظهروا فى نيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى. وتتلخص أفكارهم فى التستر، بل فى اللجوء إلى بعض تصرفات - لا يحاسب عليها الشرع - توجب الملامة، ملامة ، . لا يعرفون أنهم يعمدون إلى أن يكونوا (نكرات) بين الخلائق إمعانًا فى كتمان أسرار محبتهم، وهم على الحقيقة من **(الأعلام)**.

(٤) الرسالة ص ١٩٨.

فصل [٤٣]

الترخيم

«ويقع فى النداء الترخيم: وهو حذف بعض الاسم من آخره على جهة الإيجاز ولذلك فى مسائل النحو شرح.

والإشارة: إلى أنه قد يكون فى نحو القلب ترخيم المنادى، وهو أن ينادى(٠) بالإشارة، فيحذف(٠٠) بعض التفسير، ويقتصر(٠٠٠) على ما هو المعلوم بين الأحباب قال عز وجل لنبيه: «يس» وجاء فى بعض التفاسير أن معناه: يا سيد.

وذلك على سنتهم فى الحذف والاختصار، كما قال قائلهم:

قلت لها قفى   فقالت لى قاف

والاقتصار على شطر الكلام فى مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظرف(٠٠٠٠) امتحان الحبيب بالوصف.

الترخيم فى اللغة ترقيق الصوت وتليينه.

وفى اصطلاح النحاة حذف آخر الكلمة فى النداء أو عند الضرورة أو عند التصغير، وأكثره فى النداء.. ولهذا ركز الشيخ عليه واكتفى به.

والقصد من الترخيم التخفيف أو التلميح أو الإيماء.

---

(٠) بفتح الدال.
(٠٠) بضم الياء الفاء.
(٠٠٠) بفتح الصاد.
(٠٠٠٠) بتشديد الظاء وفتحها.

(أ) ترخيم النداء:

فقد يكون المنادى مختومًا بتاء التأنيث: علمًا أو غير علم مثل: يا عائش فى يا عائشة، ويا ثق فى ثقة.

أو يكون علمًا لمذكر أو مؤنث بشرط أن يكون غير مركب وأن يزيد على ثلاثة أحرف مثل: يا جعف ـ ويا سعا فى جعفر وسعاد.

ومنه قراءة ابن مسعود «ونادوا يا مال(*)» أى يا مالك.

(ب) الترخيم عند الضرورة الشعرية:

وهو مقصور على غير المنادى، ولكنه صالح للنداء كقول امرئ القيس:

لنعم الفتى تعشو إلى ناره

طريف بن مال(**) ليلة الجوع والخصر(***)

أى طريف بن مالك:

أما حركة آخر المرخم ففيها رأيان: إما أن تنوى المحذوف فلا تغير ما بقى، لأن المحذوف فى نية الملفوظ وتسمى هذه لغة من ينتظر فتقول: يا جعف (بالفتح) ويا حاد (بالكسر)، ويا منص (بالضم) فى منصور ويجوز ألا تنوى المحذوف فتبنى على الضم كأنه آخر الاسم وتسمى لغة من لا ينتظر.

* * *

وضع الشيخ أمام ناظريه كل هذا الذى يحدث فى باب الترخيم، واستفاد من المعطيات الناجمة عن ذلك من تغيرات وحذف وتخفيف واختلاف فى إعراب الأواخر ورجوع إلى السياق لفهم المراد، وخرج من

(*) بكسر اللام.

(**) بكسر اللام وتنوينها.

(***) بفتح الخاء والصاد.

ذلك بإشارات نرى من اللازم أن ننقب فى العلم الصوفى مع الشيخ بحثًا عن نظائر لا تقتصر على باب النداء وحده.

ونرى أن هذا البحث يمكن أن ينشعب نحو ثلاث جهات، وسنعرض لها بإيجار تاركين التفاصيل.

١ ـ الحروف المقطعة فى بدايات السور:

إذا كان هذا الموضوع قد شغل جمهور المفسرين، وذهبوا فيه مذاهب كثيرة.. فهو خليق أن يلقى درجة أكبر من الاهتمام عند القشيرى.. ذلك المفسر الإشارى الجليل.

فهذه الحروف فى أوائل السور عنده إشارات الأسرار بين الحبيب والحبيب..

ففى المثال الذى ضربه هنا بعد أن ذكر ما يقوله العباريون عن «يس» بأنها تعنى «يا سيد» نجده فى اللطائف يقول: «والياء تشير إلى يوم الميثاق (والسين) تشير إلى سره مع الأحباب.. فيكون المعنى: بحق يوم الميثاق وسرى مع الأحباب وبالقرآن الكريم: إنك لمن المرسلين وإنك لعلى صراط مستقيم»[1].

و (حم) أول سورة فصلت «بحقى وحياتى، ومجدى فى صفاتى وذاتى.. هذا تنزيل من الرحمن الرحيم»[2].

و (طس) أول سورة النمل: «بطهارة قدسى وسناء عزى لا أخيب أمل من أمل لطفى. بوجود برى تطيب قلوب أوليائى، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيائى. طلب القاصدين مقابل بلطفى، وسعى العاملين مشكور بعطفى».

---

(١) اللطائف جـ ٥ ص ٢١١.

(٢) اللطائف جـ ٥ ص ٢١٩.

والقارئ لا بد أن يحس تردد الحروف فى ثنايا التفسير كأنه يريد أن يضع بصائرنا على أسرار فى تلك الحروف!

وربما كان النص التالى عن (الر) فى أول سورة يوسف من أكثر المواقف إفصاحًا عن موقفه فى هذه القضية كلها.. حيث يقول:

«التخاطب بالحروف المتفرقة غير المنظومة سنة الأحباب فى ستر المحاب، فالقرآن ـ وإن كان المقصود منه الإفصاح والبيان ـ ففيه تلويح وتصريح، ومفصل ومجمل، قال قائلهم:

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلكم

مما يلى الغرب خوف القيل والقال

ويقال: وقفت فهوم الخلق عن الوقوف على أسراره فيما خاطب به حبيبه ـ ﷺ فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة، ولكنه أفرد الحبيب بفهمه، فهو سر الحبيب بحيث لا يطلع عليه الرقيب ـ يقول قائلهم:

بين المحبين سر(*) ليس يفشيه

قول ولا قلم للخلق يحكيه

وفى إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهى أن من كان بالعقل والصحو استنبط من اللفظ اليسير كثيرًا من المعانى **(تذكر اختصار صيغة المرخم)**(**).

ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير، ذلك لكمال عقله وهذا لتمام وصله».

(*) بتشديد الراء.

(**) بفتح الخاء وتشديدها.

٢ ـ الإشارات الخفية بين الأحباب:

عند الصوفية ذوق لماح(*)، وفيهم ظرف(**)، يغنيهم التلميح عن التصريح، فهم أحيانًا يتخاطبون فيما بينهم بلغة لها من الخصوصية مالا يفقهها غيرهم..

استمع مثلاً إلى هذه القصة:

تواجد أحد المريدين فى مجلس الجنيد، وصدرت عنه حركات وزعقات.. فلم يكن من الجنيد إلا أن قال: «والذى يراك حين تقوم»! فكانت أشبه ببرقية ذات (شفرة) فهمها المريد من فوره فلزم الصمت والسكون، وجلس كأنما أصابته صدمة!

وسمع بعضهم مناديًا ينادى «الخيار بدرهم» فزعق زعقة هائلة وهو يصرخ: ويلى.. إذا كان الخيار بدرهم فكم يساوى الأشرار!

وسمع آخر يقول: يا سعترى برى..

فالتقطتها لا واعيته على أنها: اسع تر برى(***).

ويعلل القشيرى لهذه الرهافة فى الحس عندما يسمع أحدهم هذه الإشارات الملغزة ويتأثر بها بقوله: «هذا شأن الأحباب فى ستر الحال وإخفاء الأمر على الأجنبى قال شاعرهم:

قلت لها قفى　　　قالت قاف

لاتحسبى أنا　　　... لا يخاف

(*) بتشديد الميم مع فتحها.

(**) بفتح الظاء وسكون الراء.

(***) بكسر الباء وتشديد الراء المكسورة.

ولم يقل وقفًا سترًا على الرقيب. فالعبارة للعموم والرمز للخصوص.

قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً».

وقال بعضهم:

قال لى مولاى: ما هذا الدنف؟
قلت: تهوانى؟ قال لام ألف..

والموضوع طريف.. ويرى بعض دراسى الأدب أن المتنبى شاعر العربية الكبير قد تأثر الصوفية فى هذا الخصوص، فكأن يلجأ أحيانًا إلى الرمز البعيد.

٣ ـ المصطلح الصوفى:

وتكبر هذه الفكرة ويصبح للصوفية لغة اصطلاحية تتميز بالخصوصية.. وهذا موضوع كبير يحتاج إلى مجلدات ولكنه نابع أساسًا من هذه الأفكار التى أومأنا إليها فى هذه الشروح.

فصل [٤٤]

الأفعال الجامدة

«من الأفعال ما ليس يتصرف تصرفًا تامًا مثل: نعم(٭) وبئس وعسى.. ولذلك أبواب فى النحو وأحكام..

والإشارة منه أنه من الأفعال ما ليس بتام، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده، وبعضها به وإليه.

فمن ذلك: فتح(٭٭) الجفن، والإصغاء، إذ الإدراك ـ وهو البصر والسمع ـ ليس بمكتسب للعبد: فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن ـ خلق الله الإدراك على مجرى العادة. فذلك فعل ناقص التصرف فيه فيرد(٭٭٭) به الأمر والنهى، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

ينقسم الفعل إلى جامد ومتصرف، فالجامد ما لازم صورة واحدة، والمتصرف: إما تام التصرف وهو الذى تأتى منه الأفعال الثلاثة: الماضى والمضارع والأمر ـ وهو كثير وغالب نحو: حفظ وشرب وانطلق وتدحرج.. إلخ.

وأما ناقص التصرف فهو ما ليس كذلك ومنه:

١ ـ أفعال الاستمرار (مازال وأخواتها).

٢ ـ كاد وأوشك.

٣ ـ كلمتا (يدع ويذر)(٭٭٭٭) لأن ماضيهما قد أميت(٭٭٭٭٭) وترك.

(٭) بكسر النون وسكون العين.

(٭٭) بفتح الفاء وضم الحاء.

(٭٭٭) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال.

(٭٭٭٭) بفتح الياء والدال والذال.

(٭٭٭٭٭) بضم الهمزة وكسر الميم.

والفعل الجامد أكثره ملازم للماضى مثل: نعم وبئس وعسى (وهى التى ضرب بها الشيخ هنا المثال) ـ ويضاف إليها حبذا ولا حبذا، وفعلا التعجب (ما أفعله، وأفعل به)، وأفعال الاستثناء (خلا وعدا وحاشا)، وليس (من أخوات كان) وحرى واخلولق وأنشأ وأخذ (من أفعال المقاربة).

وتستعمل نعم للمدح مثل قولك: نعم الخليفة أبو بكر.

وبئس للذم مثل قولك: بئس الرجل أبو لهب.

وإعرابها: نعم فعل جامد يفيد المدح ـ والخليفة فاعله ـ وأبوبكر مخصوص بالمدح مبتدأ ـ والجملة قبله خبر مقدم.

أما عسى فهى من أفعال الرجاء، وهى ترفع الاسم وتنصب الخبر ويكثر أن يقترن خبرها بأن(*) مثل: عسى الكرب أن ينفرج.

وتنطلق الإشارة: من استحقاق بعض الأفعال للتصرف التام، على حين تجمد الأخرى عن التصرف التام.

ويحاول القشيرى أن يوظف هذه الظاهرة لأجل قضية كبيرة أساسها هذا السؤال: هل الفعل الإنسانى إنسانى محض أم أن هناك تدخلاً فيه من جانب الله سبحانه؟

ويمكن صياغة السؤال نفسه بطريقة أخرى: إلى أى مدى تصل حرية الإنسان؟

هل هو حر (فى تصرفاته) حرية تامة؟ هل هى حرية ناقصة؟ أم هو مجبور تمامًا على أن يفعل ما يفعل؟

والمشكلة كبيرة جدًا، وقد بدأت فى تاريخ الفكر الإسلامى منذ عهد مبكر، وكان القدرية بزعامة (معبد الجهنى) أول من أثارها حين نادوا بأن

(*) بفتح الهمزة وسكون النون.

الإنسان (يقدر)(*) أعمال نفسه بعمله، ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها (بقدرته).

وتصدى لهم فى الجانب الآخر فرقة (الجبرية بزعامة جهم بن صفوان)، ونادوا بأن الله سبحانه هو الذى قدر فى الأزل أفعال العباد، وأوجدها على يد العبد بقدرته وحده، فقدرة الإنسان معطلة تمام التعطل.

ثم جاء (المعتزلة والأشاعرة) من بعد ذلك، وتلقفوا هذا الموضوع، وزادت هوة الخلاف بينهما، وظهرت مسائل بعد مسائل تتصل بهذا الأصل، ونشأت مدارس ووضعت مصنفات ضخمة.. بل أريقت دماء وثارت فتن، وذهبت كل فرقة تلتمس من القرآن الكريم نصوصًا تؤيد بها مواقفها وتدحض آراء معارضيها..

ولأن الموضوع كبير.. فنؤثر(**) أن ننبه إليه هنا فحسب تاركين التفصيلات فيه إلى مواضعه فى علم الكلام ومطولاته.

ونختصر الآراء فى سطور: يرى المعتزلة أن الله عادل ولذا ينبغى أن يكون الإنسان حرًا حرية تامة حتى يمكن أن يحاسب(***) يوم القيامة على (تصرفه).

ويذهب الأشاعرة ومنهم القشيرى إلى تقليص هذه الحرية عن طريق إدخال الفاعلية الإلهية فى (تصرف) الإنسان، لأن الله خالق الإنسان وصاحب الكون.. فلا يمكن أن يجرى فى ملكه فعل بدون مشيئته، وإلا تعدد الفاعلون.. وهم يخشون من التعدد.

(*) بضم الياء وفتح القاف وتشديد الدال المكسورة.

(**) بكسر الثاء.

(***) بضم الياء وفتح السين.

وقد عرفنا من ترجمة القشيرى كيف تعذب بسبب أشعريته، وكيف كان جزاؤه النفى والتشريد.. وهو هنا يريد أن يمس مسًا هينا هذه القضية، ونستطيع ـ مرتبطين بالنص ـ أن نجد ثلاثة أشياء فيه:

١ ـ بالنظر إلى الأفعال الإنسانية نجد أن «**بعضها به وإليه**».

٢ ـ بعضها «**ليس بمكتسب للعبد كالإدراك بطريق السمع والبصر**».

٣ ـ ويعلق «**الثواب والعقاب**» على ما يكون من (تصرف) العبد.. وإذًا فنحن أمام عمل مركب.

من فتح الجفن أو إغلاقه عمل إنسانى،

وإدراك البصر من خلق الله.

والشىء نفسه يقال فى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى** ﴾(**الأنفال: ١٧**)

يقول القشيرى: منك الرمى ومنا تسديد الإصابة.

وقوله تعالى: ﴿ **أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾ (**الواقعة: ٦٤**) فالعلة الأولى مردودة لله تعالى والعلة القريبة هى الزارع(*) ـ إذا استعرنا فكرة (العلة) من الفلسفة.

وهكذا.. يتضح أن هناك جزءًا من الفعل يصنعه الإنسان (بتصرفه).

وهناك جزء مكمل وهو العناية الإلهية التى تساعد الإنسان فى الضطلاع بما يختص به.

هذا الجزء المختص بالإنسان هو الذى سيحاسب(**) عليه، وهو مناط الثواب والعقاب. ولنضرب على ذلك مثلاً واحدًا يتصل بالفقرة فى المتن.

(*) بضم الزاى وتشديد الراء مع فتحها.

(**) بضم الياء وفتح الحاء.

للرسول ﷺ حديث يقع فيه هذا النص «والعين تزنى» فالله خالق لإدراك البصر لكن الإنسان محاسب على فتح الجفن عامدًا - أو غير عامد - لامرأة(*) غير محرمة عليه بقصد اشتهاء أو بدون قصد. وفى حدود هذه الظروف يتحدد الموقف ويكون الثواب أو العقاب.

وننبه إلى أن القشيرى عالج الموضوع هنا بوصفه متكلمًا. أما لو سألته بوصفه صوفيًا لحدثك عن الحرية الإنسانية حديثًا ألمنا ببعض أطرافه فى مواضع متفرقة من هذه الشروح، وهو «جبرية الحب» بمعنى أن الله محبوب والإنسان محب(**)، والمحب يرى أن يعول كل شىء على الله، وأن يعود - حتى بما يصنعه من أفعال صالحة - إلى أفضال الله، فلا توبة إلا إذا تاب عليك أولا.. وهكذا بقية المقامات.

وتعبر رابعة العدوية فى أشعار مشهورة عن حبها لله، وتتنصل فى البداية والنهاية من أى فضل لها: «ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا».

(*) بكسر الباء المربوطة وتنوينها.
(**) بضم الميم وكسر الحاء.

فصل [٤٥]

المعانى المختلفة لـ (ما)

«ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة: كقولهم «ما»: يكون صلة، ويكون للنفى، وبمعنى الذى، وبمعنى من(٠).. وغيره.

ويكون مشبها(٠٠) بالمشبه بالفعل فيقولون: ما زيد قائمًا فيشبهونه بـ «ليس».. فقوم يرفعون خبره وقوم ينصبونه.

ويتبين الفرق بين «ما» و «ليس» فى تقديم الخبر، وذلك لنقصان «ما» عن «ليس».

كذلك: الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأو(٠٠٠) المتحقق.

أما الخيام.. فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحى غير نسائها

وكما أن المشغول بالمشغول أشدهم محنة كذلك المتشبه بالمتشبه أضعفهم حالة.»

ملاحظات على المنهج:

• هذا فصل ممتع، وهو من الفصول التى تابع الشيخ فيها التفاصيل الدقيقة، والفروق الاستخدامية ـ فى نحو الظاهر ـ للشىء الواحد الذى هو هنا «ما».

• وجاءت عملية التنظير بين نحو الظاهر ونحو القلوب مقنعة أشد ما يكون الإقناع، لأنها تنم عن فطنة ودراية بين النمطين.

---

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بتشديد الباء وفتحها.

(٠٠٠) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو.

• يستخدم فى المصطلح كلمة «صلة» بمعنى (زائدة)، كما سنرى.

• يقتضينا ذلك كله أن نطيل نفسنا فى عرض مسائل النحو الظاهر حتى نجلو منطلقات الإشارة، وندرك احتمالاتها.

* * *

«ما» من الأدوات التى تطالعك بوجهها فى أبواب كثيرة العدد فى نحو الظاهر، فأنت ستجدها فى باب النفى، وباب الاستفهام، والموصول، والشرط، وكان وأخواتها، وباب التعجب. وإن وأخواتها.

وستجدها مرة حرفًا ومرة اسمًا، ومرة مصدرية ظرفية.. وقد تجدها كافة.. وغير ذلك..

وقد أراد الشيخ فى هذا الفصل أن يوظف هذا الاتساع فى الاستعمال لـ (ما)، وأن يجعل ذلك وسيلة ـ كمهد نابه ـ إلى مقاصد بعيدة.

(أ) ومن أمثلة استخدامها:

١ ـ صلة (= زائدة) غير كافة مثل «مما خطيئاتهم أغرقوا» ولبيان أن الشيخ يستخدم «صلة» التى جاءت فى النص بمعنى «زائدة» نسمعه عند قوله تعالى: «*فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيًا*» (كان ههنا فى اللفظ صلة، وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها).

وفى موضع آخر عند «وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه» أى (فلما ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجب أوحينا إليهم فتكون الواو صلة والإشارة: أنه لما حلت بهم البلوى عجلنا لهم التعريف بما ذكرنا من البشرى).

٢ ـ زائدة كافة: إنما الحياة الدنيا لهو ولعب.

٣ ـ نافية: ما علمت *النبأ إلا الآن*.

٤ ـ مصدرية ظرفية: اتق الله ما استطعت.

وهى فى المواضع السابقة حرف.

(ب) أما فى الأمثلة التالية فهى:

١ ـ تقع موصولة للدلالة على غير العاقل.

مثل: أعطيت السائل كل ما فى جيبى.

٢ ـ وقد تأتى (بمعنى من(*) التى للعاقل كما جاء فى المتن مثل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣).

٣ ـ وتأتى استفهامية بمعنى من(*) للعاقل.

﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٦٠)

٤ ـ وتأتى استفهامية لغير العاقل:

ما بيدك؟

٥ ـ وتأتى شرطية لغير العاقل: ما تفعل(**) من خير يكتبه(***) لك الله. وهى فى هذه المواضع اسم.

«ما» التى بمعنى ليس:

ركز الشيخ نظرته عليها كثيراً ولذا تستحق وحدها وقفة متمهلة فى الشروح.

«ما» هذه حرف نفى يدخل على المبتدأ والخبر فتعمل عمل (ليس) عند أهل الحجاز مثل قوله تعالى: «ما هذا بشراً».

ولكن بنى تميم يهملونها أى لا يعطونها عمل ليس.

(*) بفتح الميم وسكون النون.

(**) بسكون اللام.

(***) بسكون الباء.

ولاحظ الشيخ وهو يقارن بينهما أن: (خبر ليس) يمكن أن يتقدم على اسمها جريًا على ما يحدث بالنسبة لكان وأخواتها: (وكان حقًا علينا نصر المؤمنين) ومثل ﴿لَيْسَ الْبِرَّ(*) أَنْ تُوَلُّوا ..﴾ (البقرة: ١٧٧) في قراءة حمزة وحفص...

بينما لا يجوز تقديم (خبر ما) على اسمها فلا تقل:

ما قائمًا زيد.

تتمة للفائدة وذات أهمية فى الإشارة:

قلنا من قبل إن كان ومعموليها (يشبهان) جملة الفعل التام فى ترتيب العناصر:

الفعل التام + مرفوع + منصوب

وتتجلى المشابهة فتقول: كان وأخواتها + مرفوع + منصوب

ويمتد هذا (الشبه) إلى شىء آخر هو جواز تقديم خبر كان وأخواتها عليها **(ماعدا ليس).**

فتقول صائمًا كان زيد ولا تقول: صائمًا ليس زيد.

ولا صائمًا مازال زيد لأن تصريف (ليس) و (مازال) ناقص وإذًا فإن (ليس) أقل حظًا فى هذا **(الشبه).**

فإذا انتقلنا إلى **(ما التى تشبه ليس)** ولا يطرد هذا الشبه (لأننا نعلم الفرق بين لغة الحجاز ولغة تميم ـ كما ذكرنا) **فهى ضعيفة فى (الالتحاق)** لأنها أدنى منزلة من (ليس) ولذا فإنها من باب أولى لا يجوز أن يتقدمها خبرها عليها، فضلاً عن أنه كما اسلفنا منذ قليل لا يجوز أن يتقدم خبرها على اسمها.. فهى أبلغ فى الضعف من (ليس).

(*) بفتح الراء وتشديدها.

وهكذا تنقص (ليس) على أخواتها رتبة، وتنقص (ما) عن ليس رتبة، ويتحصل من ذلك كله ناتج كان له القيمة الكبرى فى نظرة الشيخ الإشارية:

أن الأصل هو جملة الفعل التام (المرتبة العليا).

وأن المشبه هو جملة كان وأخواتها (ما عدا ليس) فى موضع فهو ينقص فى الرتبة.

وأن المشبه بهذه الأخيرة ـ أى «ما» ـ ينقص عنها بدورها رتبة. وهذا التدانى الذى أصاب (**ما**) ناتج عن أنها (ملتحقة بالملتحق) وأن (ليس) (**مشبهة بالمشبه**)، فيكون المجموع تنازليًا أربع مراتب.

* * *

يمكن الآن فهم إشارات الشيخ فى الفصل كله، وكيف تدور حول هذا العبد التعس المناظر(*) لـ (ما).. وأمامنا احتمالات لصرف المراد فمن حيث:

(أ) **الانتماء**: فكأنى بالشيخ يريد أن يوضح أن عبدًا فيه صفات (ما) له عدة وجوه، فهو فى كل مكان، ومع أى شيخ، وفى أى محفل، إنه عديم الأصل، منقطع السند..

وتجده لذلك يطرق كل الأبواب كما تدخل (**ما أبواب النحو**) فالنصيحة إذًا موجهة المريد.. أن يبحث عن شيخ ثقة يأخذ عنه طريقته، ويركز كل همته فى هذا الشيخ الذى اختاره، وآمن بحسن سيرته من الناس، وألا يحيد عن ذلك ألبتة، ويلزم أن يكون انتقاء الشيخ من بين الذين يتصلون بنسب إلى سند قوى، كما يتسلسل تابع التابعى عن الصحابى عن الرسول

(*) بكسر الظاء.

صلوات الله عليه وسلامه.. ينبغى أن تنتهى الأسانيد الصوفية إليه أو إلى أحد صحابته العظماء وكلهم من رسول الله ﷺ مقتبس.

أما إذا انجرف المريد فى سلسلة لا أصل لها، فهو بمرور الوقت يفقد قيمته شيئًا فشيئًا كما يحدث فى حالة (ما) التى (التحقت) بأصل ضعيف.

(ب) تركيز الجهود: بمقدار ما تتركز الجهود فى غاية واحدة يكون الوصول...

أما بعثرة هذه الجهود، وتشتيت الرؤية، والوقوع تحت تأثير الشد والجذب بين الحظوظ والحقوق، فإن هذا يضعف الشأن **كما توزعت (ما) بين أبواب النحو**، فأصبحت أشبه بكائن غير محدد المعالم والقسمات.. فأصابها ما أصابها من وهن وضعف!

وليعلم المريد أن الدنيا والآخرة شقيقتان ولا يصح الجمع بين شقيقتين ـ على حد تعبير على بن أبى طالب.

(جـ) البدعة: ربما يهدف الشيخ من بعيد إلى أن أسباب انتشار البدعة هو (التشبه) الذى حدث لأول مرة بمشبه به صدر عنه الخطأ، وجاء ثالث و (تشبه) بالثانى.. وهكذا.. كلما بعد المرء عن الأصول الأصلية التى تتخذ السنة الشريفة منهجًا.. يتلاحق الخطأ فى واحد إثر واحد.. حتى يأتى وقت يكون البعد عن (الحقيقة) قد هبط بصاحبه إلى الحضيض.

(د) الحب الحقيقى أساسه المبادلة:

إن قصة هؤلاء القوم فى صميمها قصة حب كبير، وكل حب كبير يقاس بعنصر المأساة فيه، فمنهم من تتقطع كبده من الحزن لفراق محبوبه، أو هجره أو فصله، ويقضى الليل والنهار فى (قبض) متصل حتى تلوح على البعد تباشير (البسط)، وهكذا يقضى عمره بين (وجد) و (فقد).

ومنهم من (يتشبه) بالمشبه.. وهذه الطوائف وأمثالها ليس لها من الحب إلا الاسم، فهى عند أول بادرة ابتلاء تتبدد كالفراشات عند الضياء...

على أن القضية لا تقف عند هذا الحد، فأهم شىء فى هذا الصنف من الحب.. هو من(*) (المقسوم) له أصلاً أن يكون المريد... (المراد)؟ فليس مهما أن تحب أنت ولكن المهم من الذى تحبه ليلى، وبمن هى (مشغولة)؟ فلربما صدق قول الشاعر:

وكل يدعى وصلاً بليلى ... وليلى لا تطيق لهم وصالاً

وقد يكون الجواب. أنك (مشغول بمشغول) وعندئذ (تكون المحنة الشديدة).. فأنت لست الحبيب المراد المختار، فتصبح:

إنما أنت فى هواها كواو ... الحقت(**) فى الهجاء ظلماً بعمرو

أنت مستعد لأن تدفع ثمن هذا الحب العظيم من وقتك وجهدك وصبرك وانتظارك وأشجانك.... إلى أن ينحل بدنك... ولكن قل(***) أن تصل! يقول السقطى:

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى ... فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا

وفى هذه المعانى ينشدون كثيرًا بعض أشعار العذريين مثل:

جننا بليلى وهى جنت بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ومثل:

خليلى، لا والله لا أملك الذى ... قضى الله فى ليل ولا ما قضى ليا

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها ... فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا

* * *

(*) بفتح الميم وسكون النون.

(**) بضم الهمزة وسكون اللام.

(***) بفتح القاف وتشديد اللام مع فتحها.

فمنهم من هو على درجة (التمام) فى هذا الحب، وآية ذلك هذه «المبادلة» التى بينه وبين ليلاه: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩)، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)

هؤلاء يناظرون (الفعل التام) وما دون ذلك يتفاوتون بين مشبه ومشبه بالمشبه.. درجات تنازلية فى هذا الحب حتى يكون اسمًا على غير مسمى! ومسمى بغير طائل!

وهكذا نجد الشيخ بإشارته لموضوعات (التشبه) و (الالتحاق) و(الانشغال) قد وضعنا أمام احتمالات كثيرة.. رأينا أن (ما) تشيرها وتنعشها جميعًا.

فصل [٤٦]

لا النافية للجنس

«الاسم المنفى بلا مبنى على الفتح، لأن «لا» نقيض «إن». فلما كانت «إن» التى للتحقيق تنصب الاسم فالمنفى بـ «لا» يبنى على الفتح... وهذا باب فى النحو يجرى(*) على المعنى حكم نقيضه.

والإشارة: أنه يوجد فى الأحوال ذلك، فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر بترك العتاب، وحقيقة الود تكون بالتجنى وكثرة العتاب.. أنشدوا:

ترك(**) العتاب إذا استحق أخ
منك العتاب - ذريعة(***) الهجر

وأنشدو:

ولما غدت عيسهم للنوى
ضحكت من البين مستعجبًا
وظلت بأحداجها ترتك(****)
وشر الشدائد ما يضحك

وقيل: إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف بكى، فقيل له فى ذلك فقال:

ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور

* * *

(*) بضم الياء
(**) بسكون الراء وضم الكاف.
(***) بضم التاء المربوطة.
(****) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف.

يبنى اسم «لا» النافية للجنس على ما ينصب به إذا كان مفردًا (ومعنى الإفراد هنا كمعناه فى باب النداء أى غير مضاف ولا شبيه بالمضاف ـ راجع فصل النداء ٤٢ من هذا الكتاب) أى يبنى على الفتح فى حالى المفرد وجمع التكسير مثل:

لا طالب(٠) فى المدرسة.

لا طلاب(٠) فى المدرسة.

ويبنى على الكسرة فى حال جمع المؤنث السالم، وعلى الياء فى حالى المثنى وجمع المذكر السالم.

ويعرب اسمها إذا كان غير مفرد (أى مضافًا أو شبيهًا بالمضاف) ويكون عندئذ منصوبًا.

مثل: لا ناصر(٠٠) حق مخذول ـ لا كريمًا عنصره سفيه

لا حافظًا عهدًا منسى ـ لا واثقًا بالله ضائع

وقد قيست «لا» على «إن» فى عملها لأن هذه الأخيرة تفيد تأكيد الإثبات (وهو الذى سماه الشيخ (التحقيق).

أما (لا) فتفيد تأكيد (النفى)

وهذا يفسر قول الشيخ: «**حمل الشىء على نقيضه**».

ومن هذه النقطة الأخيرة تنطلق إشارات الشيخ.. وهو يريد ـ من بعيد ـ أن يقنعنا باحتمال قلب المحب (للأحوال) المتناقضة، فالرب سبحانه وهو يربى عبده تربية إلهية يخضعه لهذه الثنائيات: الرجاء والخوف، الأنس والهيبة، الوجد والفقد، الوصل والفصل، القبض والبسط، البقاء والفناء... إلخ مما ذكرناه ونوهنا بتفاصيله فى مواضع شتى من هذه الشروح.

(٠) بفتح الباء.
(٠٠) بفتح الراء.

هذه الأحوال كما هو واضح خلاصتها حمل الشيء ونقيضه. فكما يحدث في نحو الظاهر ذلك يتم في نحو الباطن أيضًا.

والواقع أنه حتى في الحب البشرى في كل العصور فإن معاناته تعرف هذا التناقض. العذاب العذب، والشقاء الشيق، وهنا مكمن الصراع فيه. فما بالك بالحب الأسنى الذى غايته أن يظل هذا القلب المحب يتقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن حتى يتم النقاء والصفاء، ويتجرد القلب من كل الغير والسوى، ويمتحن بالسراء والضراء كي يذوب في نهاية الأمر في الإدارة والتصاريف الإلهية ويصبح مرآة مجلوة من كل كدر.

ديدن هذا الحب إذًا هو اجتماع الشيء ونقيضه، فهو مثلاً في أقصى درجات التنعم بالوصال تنتابه مشاعر القلق والاضطراب، فهو يعلم أن كل شيء إلى زوال.. وعما قريب تنسحب كل نسائم هذا القرب لتحل محلها هواجم الفراق ونذر البعاد.. إنه ابتلاء مضمن لا تحتمله وتصبر عليه وتنجو منه إلا قلوب الأفذاذ (العارفة) بأسراره ومراميه.

عن هذه التربية يحدثنا القشيرى في واحدة من وصاياه للمريدين. «واعلم أن أضر الأشياء بالمريد استئناسه بما يلقى(*) إليه في سره من تقريبات الحق سبحانه له ومنته عليه، فيظن أنه متفرد عن أشكاله ومختص بهذا»(1).

ولقد رأينا أن أصدق وسيلة لنقل هذه المشاعر المتناقضة في دنيا المحبين هي أن نترك للشعر المنشأ(**) والمنشد(**) أن ينقل هذه الخلجات، ونقصد بذلك أن نخرج عن النمطية التى جرت عليها الشروح، وأن نذهب

---

(1) الرسالة ص ٢٠١.

(*) بضم الياء وفتح القاف.

(**) بضم الميم مع فتح الشين هنا وهناك.

بالسأم الذى قد يصيب القارئ نتيجة لذلك، كما أننا نريد أن نلفت بطريق غير مباشر إلى أهمية دور الشعر الصوفى فى احتواء تجربة هؤلاء القوم، وأن إهماله جريرة لا تغتفر.. ونحن على ثقة أن القارئ لهذه النماذج التى اخترناها بعناية - يوطد عزيمته على البحث الجاد والاستزادة من هذا الشعر، والعناية به.. إنه يكاد يكون شعرًا معاصرًا!

* * *

* يقول جعفر الخلدى «تفكرى فى مرارة البين يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل، وتكره عينى أن تقر(٠) بقربك مخافة أن تسخن ببعدك، فلى عند الاجتماع كبد ترجف وعند التنائى مقلة تكفكف، وأقول كما قال الشاعر:

وما فى الدهر أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيًا فى كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكى إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكى إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائى ... وتسخن عينه عند التلاقى(٢)

* وفى «لطائفه» وهو يفسر بالإشارة مأساة آدم وحواء يقول: «حين تمت أسباب الوصلة، ووطنا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكامنه، فأباد من شملهما ما انتظم... كما قيل:

حين تم الهوى وقلنا سررنا ... وحسبنا من الفراق أمنا(٠٠)

بعث البين رسله فى خفاء ... فأبادوا من شملنا ما جمعنا(٣)

---

(٢) اللمع ص ٣٠٩.

(٣) اللطائف جـ ٢ ص ٥٢٤.

(٠) بفتح التاء والقاف مع تشديد الراء المفتوحة.

(٠٠) بفتح الهمزة وكسر الميم.

* ويستشهد فى موضوع ثالث بقوله:

فبت(*) بخير - والدنى(**) مطمئنة واصبحت يوماً والزمان تقلبا

ويقول:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبت به ريح من البين فانطفا(٤)

ويقول صاحب اللمع مستشهداً:

وفكر الوجد فى معناه صحو وصحو الوجد شكر فى الوصال(٥)

وينقل عن أبى العباس بن عطاء قوله:

جمعت شيئين فى قلبى له خطر نوعين ضدين: تبريد وتلهيب

نار تقلقنى والشوق يضرمه فكيف يجتمعا: روح وتعذيب(٦)

ملحوظة: لنغتفر هنا بعض الضرورات الشعرية فربما كانت لحظات غيبوبتهم تبعدهم عن دقة الصنعة.. فهم ليسوا من الشعراء المحترفين.

أما القشيرى فى «الرسالة» فهو لا يحرمنا من حين لآخر من هذا الشعر الجميل الذى يخفف مئونة الأسانيد والأحكام والسرد. الأمر الذى جعل «الرسالة» ذات طعم خاص.. فلنستمع ولنتأمل (الشىء ونقيضه):

* كان شيخى أبوعلى على الدقاق رحمه الله ينشد كثيراً:

ودادكم هجر وحبكم قلى(***) وقربكم بعد وسلمكم حرب

(٤) اللطائف مجلد ٢ ص ٦.
(٥) اللمع ص ٢٨٢.
(٦) اللمع ص ٣٢٤.
(*) بفتح الفاء وكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة.
(**) بضم الدال المشددة.
(***) بكسر القاف وفتح اللام.

* وينشدون:

* محنتى فيك أننى لا أبالى بمحنتى
نار قربكم مثل بعدكم فمتى وقت راحتى
* افترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمه علىّ(*) وداعا
* وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى
* وأبرح ما يكون الشوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام
* أبكى.. وهل تدرين ما يبكينى؟ ابكى حذرًا ان تفارقينى
وتقطعى وصلى وتهجرينى

* أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقًا فكم أحيا عليك وكم أموت!

* كم من مغبوط فى أحواله انعكست عليه الحال، فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة.. وأنشد شيخى الدقاق رحمه الله:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتى به القدر(**)
وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

تراءت لى بالغيب حتى كأنما تبشرنى بالغيب انك فى الكف
وتحيى محبًا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

(*) بتشديد الياء وفتحها.
(**) بفتح الدال.

فصل [٤٧]

كم الاستفهامية وكم الخبرية

«ومن الألفاظ التى تقع على معان مختلفة «كم» فإنه يكون بمعنى الاستفهام فينصب ويكون بمعنى «رب» فيخفض.

والفرق بين كم و «رب» اختصاص «كم» بالتكثير، ورب بالتقليل ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة.

والإشارة: كذلك من الناس من هو فى صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمارة تتمير المقادير، فالزاهد فى صورة الواجد ولكن(٭) هذا قصده من الحق عطاؤه وهذا موجب استقلاله نقاؤه.

وقد يجمع الطريق سالكين(٭٭) ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قصر(٭٭٭) مملوك له..

وآخر إلى حجرة بكراء(٭٭٭٭)».

تستخدم «كم» التى هى (لفظ واحد) استخدامين مختلفين لكل منهما معنى ولكل معنى أثر فى إعراب ما بعده.

فإذا استفهمت بها عن عدد يراد تعيينه قلت. كم مشتركًا فى المسابقة؟ أما إذا أردت الدلالة على التكثير قلت: كم ليال سهرت!

ويكون معناها ما أكثر الليالى التى سهرت.. وطبيعى أن تتغير نغمة الصوت فى كل حالة عن الأخرى فصوت الاستفهام مختلف عن صوت التعجب، كما أنك تلحظ بعض الاختلافات الإعرابية فى كل من الكلمتين بعد (كم)..

(٭) بتشديد النون.
(٭٭) بسكون الياء.
(٭٭٭) بفتح القاف وسكون الصاد.
(٭٭٭٭) بكسر الباء والكاف.

وجوه الاتفاق بينهما:

١ ـ كل منهما اسم بدليل دخول (من)[*] وغيرها عليهما مثل:

من كم لاعب يتكون الفريق؟ (استفهامية).

على كم روايات أخذت[**] عيوب فنية! (خبرية)

٢ ـ مبنى على السكون.

٣ ـ مبهم يحتاج إلى تمييز.

٤ ـ يتصدر الكلام ولا يسبقه إلا حرف كما سبق أو المضاف مثل:

ملابس كم جنديًا هذه؟ (استفهامية).

أسعاركم صنف[***] ارتفعت! (خبرية)

وجوه الاختلاف بينهما:

كم الاستفهامية: يستفهم بها عن العدد فهى من حيث البلاغة تتصدر أسلوبًا إنشائيًا، وتمييزها مفرد دائمًا ومنصوب دائمًا ـ وتدخل على الماضى والمستقبل.

كم الخبرية: كما أن «رب» حرف جر يفيد التقليل فإن كم تجر أيضًا، ولا تفيد الاستفهام وإنما تفيد التكثير.. وهذا أيضًا **باب فى النحو يحمل فيه الشىء على نقيضه.**

وأسلوبها من حيث البلاغة خبرى.

وأما تمييزها فهو دائمًا مجرور وهو إما مفرد أو جمع، والإفراد أكثر وأبلغ.

(*) بكسر الميم وسكون النون.

(**) بضم الألف وكسر الخاء.

(***) بكسر الفاء وتنوينها.

وهى تختص بالماضى فلا تقول: كم دور سأبنيها.

ويبقى أخيرًا.. أن معنى السياق، وصفات الاسم الواقع بعد «كم».. ملامح كافية للتمييز بين النوعين.

* * *

والإشارة تأتى من هذا الملحظ عند الشيخ:

إنها فكرة **الظواهر والبواطن** فى هذا الطريق، فلفظ «كم» واحد فى حالتين مختلفتين، وينجم الاختلاف عن السياق والمعنى ثم إعراب الاسم بعدها..

خذ مثلاً رداء الصوف.. الذى يلبسه شخصان، فهما من حيث (الظاهر) متفقان تمام الاتفاق.. فإذا حكمت(*) (الباطن) ألفيتهما جد مختلفين.. فليس الاعتبار بالخرق(**) إنما الاعتبار بالحرق(***).. فهما عند بوادر الامتحان، أو ممارسة الصبر والتوكل والرضا.. ونحو ذلك يفترقان فى الإخلاص وفى طريق الممارسة وفى الطموح.. وفى كل شىء، ويأتى وقت يفتضح أمر كل منهما، فأما أحدهما فظاهره كباطنه، ووجهه كقلبه، ولون مائه من لون إنائه ـ كما قال الشيخ فى موضع مماثل سبق ذكره.

ولأجل هذا نجد الشيخ فى باب «التصوف» فى الرسالة بعد أن أثبت أن النسبة إلى الصوف سليمة فى الصياغة اللغوية: «فيقال تصوف إذا لبس الصوف كتقمش إذا لبس القماش وتقمص إذا لبس القميص» فتحس أنه ارتضى هذه النسبة، ولكنك ما تلبث بعد أن تقرأ بقية الباب أن تدرك أنه ارتضى بالنسبة إلى «الصفاء».. فهو محمود بكل لسان. ويكون معنى هذا..

(*) بفتح الحاء وتشديد الكاف المفتوحة.

(**) بكسر الخاء.

(***) بضم الحاء.

أنه ثر السلامة (القلبية) على السلامة (اللغوية)، وبكلمات أخرى أرجع النسبة إلى (الباطن) ولم يحفل (بالظاهر)، ووجد خيرًا أن ينتسب المرء إلى (معان) داخلية ونوايا خفية لا يعلمها إلا علام الغيوب بدلاً من (ثياب) يراعى فى انتقائها تعريف الناس به، ولفت أنظارهم إليه، فالعبرة بالسر لا بالعلن.

وكما يتضح معنى «كم» التى هى لفظ واحد فى «الخبر والاستفهام» بالسياق وبالإعراب يتضح (جوهر) كل متشاركين فى مظهر واحد عند العمل والممارسة، فهذا ـ فى نظر الشيخ ـ هو المحك الحقيقى لإظهار معادن الرجال.

وما ينطبق على هذه الحال ينطبق على كل ما يحفل به الطريق من سلوك يتصل بالظاهر والباطن، فالتسمية بعابد أو سالك أو مريد.. أو عارف لا يترتب عليها بالضرورة تساوى الأفراد الذين يتسمون بها فى درجات الوصول ولا فى غاياته.. ولذا فإن منهم من يتوقف ويرتد، ومنهم من يستمر ويتعثر.. ومنهم من يصل ثم يتصل.. والمثل على ذلك كما يذكره فى المتن: «**الزاهد فى صورة الواجد.. لكن هذا قصده من الحق عطاؤه وهذا موجب استقلاله نقاؤه**».

فكلاهما يأخذ سمت الواجد.. ولكن بالبحث وبالتجربة وبمرور الوقت يتضح أن أحدهما يعبد الله، وقد يقطع مراحل من الطريق لا بأس بها.. ثم يظهر فيما بعد أن ذلك لأغراض وأغراض (وعطاء) فى الدنيا أو فى الآخرة، على حين أن الآخر لا تهمه هذه الأمور لأنه يريد وجه الله المحبوب فقط بكل (نقاء) القلب والروح والسر، وفى هذا المعنى أنشدوا:

كلهم يعبدون من خوف نار	**ويرون النجاة حظًا جزيلاً**
ليس لى فى الجنان والنار رأى	**أنا لا ابتغى بحبى بديلاً**[1]

(١) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٩٥.

ويروى الحلاج قصة ـ أوردها القشيرى فى كتابه «المعراج» ـ ذات مغزى:

«لما دنا السفير الأعلى من الحق فى المسرى ـ أى الرسول ليلة الإسراء ـ أيده فقال: سل(٭) تعط(٭٭) فقال:

ماذا أسأل وقد أعطيت؟ ماذا أبتغى وقد كفيت؟

فنودى: «إنك لعلى خلق عظيم.. حيث نزهت بساطنا عن طلب الحوائج»[٢].

ويمكن أن تسرى الفكرة ذاتها على شخصين عند «التواجد» فكل منهما يصاب بتغيرات عضوية ونفسية حادة عند غلبة الوجد.. ولكن التغلغل فى أعماق (البواطن) يكشف بعد قليل أن هذا صادق والآخر مدع(٭٭٭).. هذا يبكى والآخر يتباكى.. وقل مثل ذلك فى كثير من المواقف التى يعرفها الشيوخ حق المعرفة.

(٢) المعراج للقشيرى ص ١٠٨.
(٭) بفتح السين وسكون اللام.
(٭٭) بضم التاء وفتح الطاء.
(٭٭٭) بضم الميم وتشديد الدال مع فتحها.

فصل [٤٨]

حروف القسم

«حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أى يمينى بالله أو حلفت بالله.

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفًا وأعم دخولاً كالباء.

وبعضها أقل كالتاء والواو،

وواسطة بين القليل والكثير ـ والكل حروف القسم.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من(٠) يدخل الدار ويتمكن فى الصدر. ومنهم من حده(٠٠) أن يحضر الباب ويقف من البعد.. قال تعالى: «وقد علم كل أناس مشربهم».

حروف القسم هى الباء والواو والتاء.

والباء أكثرها شهرة، والتاء أقلها، والواو واسطة فى الاستعمال.

وهى تجر ما بعدها.

فأما الباء فهى الأصل، وهى تدخل على الظاهر مثل:

بالله لأكافحن حتى يعلى الله كلمته.

وتدخل على المضمر مثل: بك لأحاربن حتى ترتفع كلمتك. ويجوز ذكر فعل القسم معها ويجوز حذفه فتقول:

أقسم بالله... أو بالله لأفعلن(٠٠٠)..

---

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمها.

(٠٠٠) نون عليها فتحة ومشددة.

أما الواو والتاء فمثل قوله تعالى:

«والفجر وليال عشر».

و «تالله لأكيدن(٠) أصنامكم».

ويحذف فعل القسم (وجوبًا). ويختلفان فى (المدخول) عليه، فالواو تدخل على المظهر(٠٠) دون المضمر(٠٠).

أما التاء فتختص بلفظ الجلالة.. ومن تعليلات النحاة لذلك: (فإن قيل فلم(٠٠٠) اختصت التاء باسم واحد وهو اسم الله تعالى قيل: لأنها لما كانت فرعًا للواو التى هى فرع للباء ولأن الواو تدخل على المظهر دون المضمر لأنها فرع انحطت عن درجة الواو لأنها فرع الفرع فاختصت باسم واحد.. وهو اسم الله تعالى) (أسرار العربية ص ٢٧٧).

* * *

والإشارة:

نتذوق بإحساس دقيق كلمات فى النص مغزى عميق اختارها الشيخ بفطنة كى تهدينا إلى مكامن إشاراته مثل:

أكثر «**تعرفًا**» و «**أعم دخولاً**». و«الكل حرف «**قسم**» و«**الجميع من جملة الخدم**».

فهذه الإيماءات لو ضمت بعضها إلى بعض لعاونت فى رسم الإطار العام للصورة المراد إبرازها إشاريًا.

وهى فى الإجمال تعبر كما عبرت نصوص سبقت عن درجة «التفاوت» بين المراتب.

---

(٠) نون عليها فتحة ومشددة.

(٠٠) بضم الميم فى كليهما.

(٠٠٠) بكسر اللام وفتح الميم.

فكما تختلف حروف القسم فى درجة الاشتهار، وتتفاوت فى حظها بالنسبة للمدخول عليه كما أوضحنا ـ يختلف المنتمون إلى هذه الطريقة ويتفاوتون.

وإذا كان النحاة يلتمسون التعليل لهذا التفاوت فإن الشيخ هنا يضع **«قسمة المقسوم»** المأخوذة من رحم الكلمة «ق س م» بفتح كل حرف من الحروف الثلاثة التى هى عنوان الباب ـ على اختلاف فى ضبط بنية الثلاثى ـ منطلقًا للإشارة. ويقصد ـ حسب مذهبه ـ الرجوع بالأمر كله إلى أمر صاحب الأمر، وإلى اجتبائه واختياره.. فهو الذى يريد من أصحاب الإرادة ما يريد، وهو الكفيل بوصولهم إلى ما يصلون إليه.. وكل ميسر لما خلق له.. «﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[1]».

وتكون نتيجة ذلك كله أن يتوقف بعضهم عند **«باب الدار»** فهذا حده وجهده **«وقسمته»**، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الدخول وينتهى به الأمر إلى أن يقف على «البساط»، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الوصول إلى **«الصدر»**. وهكذا ليس كل من «يقصد» ملك الملوك بمستطيع الوصول حسبما يريد، وليس كل (خدم) القصر على خط متساو فى القرب من صاحب القصر!

والقشيرى فى موضع آخر حينما يريد التمييز بين هذه المراتب يقول: «ليس من مشى على ساحل البحر كمن سبح فى البحر كمن غرق فى البحر ـ فهؤلاء لهم لآلئ التوحيد والتفريد».

هى إذًا فى النهاية محاولة لكشف طبقات هذه المملكة الروحية، وكيف أنها تخضع لمقاييس وضوابط وحدود.. فلتتوقف الدعاءات الكاذبة، فلا جدوى من التجاوزات المصطنعة، والقفز على الحبال!

---

(١) البقرة/ ٦٠ وانظر: نحو القلوب الصغير ص ٢١٠ للإمام القشيرى تحقيق: علم الدين الجندى ط. تونس.

فصل [٤٩]

الظرف

الظرف على ضربين: ظرف زمان وظرف مكان، وكلاهما منصوب.. لأنه مفعول فيهما.

وفى نحو القلب: الظرف أيضًا على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان.

فالزمان هو الوقت: والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان فى نحو القلوب مختلف باختلاف ما فيه، فإن كان الذى فى الوقت وفاق(٠)

الأمر فظرف صاحبه على الضمة ـ لأن الضمة أقوى الحركات.

وإن كان الذى فى الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور، لأن الكسر أرق الحركات.

وإن كان الذى فى الوقت المباحات(٠٠) فظرف صاحبه مفتوح، لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان ـ فإن كان الحق سبحانه بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب وإن كان صاحبه برقم الحظ فظرفه مكسور

«ولون الماءلون(٠٠٠) إنائه»

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

* * *

(٠) بضم القاف.

(٠٠) بضم التاء.

(٠٠٠) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون.

الظرف اسم منصوب يدل على زمان أو مكان ويضمن معنى «فى» باطراد.. فإذا فقد شرطًا من ذلك فلا يكون ظرفًا بل يكون حسب موقعه من الإعراب مثل:

يومنا يوم طيب (مبتدأ وخبر).

أقبل يوم اللقاء (فاعل).

لاتضيع أيام(٠) شبابك فى الغواية (مفعول به).

وإذا تخلى الظرف بنوعيه عن النصب إلى حال أخرى مثل انجراره بـ«فى» فقد ظرفيته حتى لو دل على الزمان أو المكان مثل:

فى الصباح. فى الدار

فالأصل هو نصب الظرف مثل: عند وصباحًا، فإن جاء مبنيًا على الضم مثل (حيث) أو السكون (لدن)، أو الكسر (أمس) فى لغة أهل الحجاز فيكون فى محل نصب.

وظرف الزمان قد يكون مبهمًا إذا دل على قدر معين من الزمان مثل:

حين، وقت، زمان

وقد يكون محدودًا إذا دل على قدر معين من الوقت مثل:

ساعة، سنة

أما ظرف المكان فقد يكون مبهما إذا دل على مكان غير معين

كالجهات الست

وقد يكون من الأضداد مثل (وراء) فهى ترد بمعنى أمام وخلف: مثل قوله: تعالى:﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ (الكهف: ٧٩) ونجد ذلك فى تفسير

(٠) بنصب الميم.

القشيرى فى اللطائف عند قوله تعالى: «ومن ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد» يقول الشيخ: (ويقع لفظ وراء على مابين يديه وعلى ماخلفه، فالوراء ماتوارى عليك أى استتر. يريد أن هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان وعلى ماخلفه، أى لأجل ما سلف من الماضى من قبيح أفعاله).

وقد بالغ النحاة فى بحث موضوع الظرف فى مطولاتهم حتى أفردوا لكل ظرف حديثًا خاصًا. وقد ركز شيخنا هنا على المسائل الأساس التى ليس عليها خلاف.

* * *

ونفضل قبل أن نشرح الإشارات أن نعيد جدولة النص على النحو التالى:

الظروف الطيبة (المرفوعة والمنصوبة):

(أ) العبد فى الوقت وفاق الأمر(هو ظرف الزمان).

الحق مقبل عليه بنعت الرضا (هو ظرف المكان).

فالوقت هنا يستحق الضم. والضم أقوى الحركات.

(ب) العبد فى الوقت مباح له (وهو ظرف زمانه).

الحق مقبل عليه بنعت الرضا (وهذا ظرف مكانه).

فالوقت هنا منصوب. والنصب علامة الراحة والانفتاح لأن الفتح أخف الحركات.

الظروف الرديئة (المكسورة):

العبد بخلاف الأمر، لأنه ليس بحقوق الله ولكن بـ (حظ) نفسه. فالحق تاركه لنفسه. فظرفه مكسور.

ويتضح من الجدول السابق أن النص يتحدث عن ظروف «الأحوال» من جهة العبد وبالنسبة للمولى فى آن واحد، وهذه هى العناصر الأساس فى اصطلاح «الوقت» كما تحدثنا عنه فى مواضع كثيرة. ويمكن أن يتلخص الموضوع كله فى عباراتهم:

«من(٠) حالفه الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت» الرسالة «مصطلح الوقت» فمن حالفه فظرفه يستحق الضم، والضم أقوى الحركات، أو يستحق النصب. والنصب علامة الاستراحة.

أما من ليس له شأن فى الوقت فقد (ناكده) الظرف وهو التعيس! **فالعبرة فى الزمن بالأفعال التى تجرى فيه** يقول الشيخ فى لطائفه: (الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس فى الأفعال مختلفون.. فموفق ومخذول، فالموفق يجرى وقته فى طاعة ربه، والمخذول يجرى وقته فى متابعة هواه)(١).

وفى إلحاحه على اغتنام كل فرصة ممكنة للعمل الصالح طوال عمر المرء يقول: (الأيام ثلاثة: يوم مفقود وهو أمس ليس بيدك منه شىء، ويوم مقصود وهو غد لاتدرى أتدركه أم لا؟

ويوم مشهود وهو اليوم الذى أنت فيه، فالمفقود لا يرجع، والمقصود ربما لاتبلغه، والمشهود (وقتك) وهو معرض للزوال فاجعله فبما ينفع)(٢).

وعن الاستراحة «سئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟

فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه»(٣).

---

(٠) بفتح الميم وسكون النون.
(١) اللطائف مجلد ٢ ص ٢٨٨.
(٢) اللطائف مجلد ٢ ص ١٥٧.
(٣) الرسالة ص ١٣٧.

ذلك هو الظرف المنصوب، وعلامته أن يسمح(.) له إن كان فى حال القرب أو الأنس أو الوصل.. بشيء (**مباح**) من البهجة والسعادة فى حدود (**الوقت**) المسموح به، بحيث لايصل أو يفكر فى (**الحظ**) من محظوظ نفسه، بل يحرص دائمًا على (البقاء) بحقوق ربه. وهكذا.. تعود القيادة. حتى عند لحظات الوجد. إلى الرب سبحانه كى يصون عبده عن الزلل.. وهذا منتهى سعادتهم.. وحيرتهم!

«يا دليل المتحيرين زدنى تحيرا» ويقول ذو النون عن أول درجات العارفين فقال:

«التحير ثم الافتقاد ثم الاتصال ثم التحير» وينشد:

ألست(..) دليل الركب إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هار

أما الشبلى فيقول:

ومن أين لى أين؟ وإنى كما ترى أعيش بلا قلب وأسعى بلا قصد[4]

(.) بضم الياء وفتح الميم.

(..) بفتح التاء.

(٤) طبقات السلمى ص ٢٥٤.

فصل [٥٠]

الاستثناء

«من أبواب النحو الاستثناء ـ وهو إخراج بعض ماتناوله اللفظ ـ بدليل متصل ـ منه.

نحو: جاء القوم إلا زيداً .. وغير ذلك. فلو لم يعقب(.) بلفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقضى للمستثنى دخوله فى جملة الأشياء المخبر عنها.

والإشارة: أنه قد يجمع الوقت(..) والطريقة قوما لو لم يتعقب ما يميز(...) البعض لاشترك الجميع فى الحال... ولكن جاء الحكم فأخرج البعض من الكل:

إن الأحبة شمروا (....) وبقينا.

كذلك قال الشيوخ: إن فى كل عصر ووقت يدخل فى هذه الطريقة من لانهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان ويبقى القليل منهم، ولقد قال الشيوخ:

هم الأكثرون ـ وإن قلوا، ومواضع الأنس (.....) حيث حلوا(......).

وينقسم الاستثناء إلى قسمين:

استثناء الشىء من جنسه ـ ويقال له الاستثناء المنقطع، واستثناء من غير جنسه.

(.) بضم الياء وتشديد القاف وفتحها.
(..) بضم التاء.
(...) بتشديد الياء وكسرها.
(....) بتشديد الميم وفتحها.
(.....) بضم الهمزة.
(......) بضم اللام وتشديدها.

وفى الإشارة: من كان ضدًا(.) غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان محرمًا(..) للقوم. فإن نفى(...) عنهم وأخرج من بين جملتهم.. فالمحنة أصعب والحسرة أشد.

الاستثناء إخراج ما بعد (إلا) أو إحدى أخواتها من عموم الحكم السابق عليها مثل: قدم(....) القوم إلا زيدًا.

وأدوات الاستثناء هى: إلا وغير وسوى وخلا وعدا وحاشا.

واختلفوا فى عامل النصب فى المستثنى، فمنهم من يرى ذلك نتيجة (إخراج) ما بعد إلا عما سبق عليها.

ومنهم من يرى أن (إلا) تعنى فعلا تقديره (استثنى) كما أن (يا) فى النداء تعنى فعلا معناه (أدعو).. وهذا أقرب التفسير إلى الفهم.

والواقع أن الاستثناء الحقيقى هو الذى يكون من الجنس لأنه يفيد التخصيص بعد التعميم مثل: خرج الناس إلا عليًا.

أما الاستثناء من غير الجنس فهو أقرب إلى الاستدراك إذ ليس فيه تخصيص.. مثل قولك: جاء المسافرون إلا أمتعتهم(.....)، فلفظ المسافرين لايحتاج إلى أداة استثناء لتخرج الأمتعة منه لأن الجنسين مختلفان، وإنما أفادت (إلا) هنا معنى (لكن) ويسمى هذا النوع الاستثناء المنقطع.. وللاسم بعد (إلا) ثلاثة أحوال:

١ ـ واجب النصب: إذا كان الكلام تأما مثبتًا مثل:

(.) بتشديد الدال وفتحها.
(..) بضم الميم وكسر الراء.
(...) بضم النون وكسر الفاء.
(....) بفتح القاف وكسر الدال.
(.....) بفتح العين والتاء بعدها.

فشربوا منه إلا قليلا منهم.

٢ ـ جائز النصب أو على البدل: حينما يكون الكلام تامًا منفيًا مثل.

ما قام من القوم إلا زيدًا أو زيدٍ(٠).

٣ ـ يعرب حسب العوامل إن كان الكلام ناقصًا ويسمى الاستثناء المفرغ مثل:

ما قام إلا زيدٌ(٠٠) فالمعنى: قام زيد.

ما ضربت إلا زيدًا فالمعنى: ضربت زيدًا.

ما مررت إلا بزيد فالمعنى: مررت بزيد.

لأن استثناء النفى إثبات.

* * *

وإشارة الشيخ تعتمد على أن لكل قاعدة شواذ، ومن العموم يخرج استثناء.. ومن تجربته الواسعة يعلم أمثال المواقف التالية:

● فقد يلتقى المريد إبان عهد بدايته بنماذج من الرفاق يتزينون بزى الصوفية، ويندرجون فى مسالك القوم، ويرددون شعاراتهم.. ثم تثبت له الأيامُ(٠٠٠) أنهم ليسوا على شىء، وأنهم تصدر عنهم أفعال تشكك فى خباياهم، وتفضح طواياهم..

فالشيخ يريد أن يقول له: حذار من أن يقول له: حذار من أن تظن أن الجميع على شاكلتهم، لاتكن ظالما بإطلاق حكم تعميمى.. إن لكل قطيع شياهه السوداء، فهؤلاء متشبهون وليسوا أُصلاء(٠٠٠٠)، مفرضون وليسوا

---

(٠) بكسر الدال مع تنوينها على البدل.

(٠٠) برفع الدال.

(٠٠٠) برفع الميم.

(٠٠٠٠) بضم الهمزة وفتح الصاد.

أنقياء. لاتتسرع.. فالقاعدة أن فى القوم طيبا، والاستثناء أن فيهم خبيثا، ومن الظلم أن تجعل الاستثناء قاعدة.

● هذا الطريق شاق ومضن، والعبرة بالصابر المثابر، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.. فسرعان مايسقط كثير ممن دخل ويبقى القليل.. ولن يبقى إلا الصفوة الصامدون المرابطون..

وكما يلفظ الجسم الإنسانى شيئًا غريبًا عن كيانه سوف يلفظهم الطريق إلى الخارج حتى لو كانوا قد تجاوزوا الأعتاب ودخلوا من الباب.. فلن يتمكنوا أبدًا من الوصول إلى البساط أو الصدر.. والأيام كفيلة بذلك، والممارسات الشاقة والصبر عليها ستسقط(·) الأقنعة عنهم وتفضح حقيقتهم.

فهؤلاء مختلفون «ومن كان ضدًا غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولامبالاة بخروجه».

فليذهبوا بعيدًا دون حسرات عليهم!

* * *

هذا.. وقد أجمع معظم كتاب التصوف على الالتفاف الشديد لهذه الظاهرة كأنهم يرون أن أمثال هؤلاء الشواذ الغرباء ذوو خطر شديد على سمعة الطائفة بأسرها، فوضعوا المحاذير خشية اندساسهم.

(انظر مثلا السراج فى اللمع فى باب:

(ذكر من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط وكيف يواجه ذلك) من ص ٥١٦ إلى ٥٧٧ أى نحو ستين صفحة كاملة فى ذات الموضوع.

كما عقد السهروردى فى «عوارفه» فصلاً كبيرًا عنوانه «ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم» ص ٥٦.

(·) بضم التاء وسكون السين وكسر القاف.

أما القشيرى فما قامت رسالته إلا لبيان:

١ ـ تصحيح القواعد والأسانيد.

٢ ـ (الشيوخ الذين بهم اقتداء).

٣ ـ كشف فضائح (المجانين للأئمة).

فأصبح لدينا (**استثناء**) مهمته أن يضبط المعايير قبل أن ينفلت الأمر، وكأنى بهذه الفصول التى يكتبها الشيوخ فى هذا المضمار تركز كلها على مابعد (**إلا**) فى دنيا التصوف لإخراج ما ليس (**مجانسًا**).

● غير أن الشيخ فى فقرته يذكرنا بشىء من واقع تجربته (انظر سيرته) وذلك حينما تأتى قوة غاشمة من خارج البيئة والطريقة ثم تنتقى آحادًا من صفوة القوم، وتطردهم وتنفيهم وتشردهم ـ كما حدث له شخصيًا على أيدى طغرلبك ووزيره الكندى... هذا (**الاستثناء المنقطع**) الغاشم الذى لا مبرر له هو الذى يجعل (**المحنة أصعب والحسرة أشد**) لأن المخرجين(٠) من القوم هم صفوة المجانس، وهم الأصلاء، وهم مصابيح الهداية.. ولكن ما الحيلة؟ وتلك شيمة دولة الظلم والظلام (**فى كل وقت وعصر**)، وليس لها من دون الله كاشفة!

(٠) بضم الميم وسكون الخاء وفتح الراء.

فصل [٥١]

الإلحـاق

«من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه: كالواو الملحقة بعمرو فى الخط تكون فرقًا بين عمرو وعمر(.).. وهذا الإلحاق يدوم عند الاستغناء عنه وهو همزة الوصل. فيما ذكرنا من قبل.

والإشارة: أن من الناس من(..) يلحق بالطريق لأجل الغير ثم يطرح(...).

وقد قال الشيوخ: إن الله قيض لهؤلاء القوم أحد رجلين إما مؤمنا موافقًا وإما منافقا مسخرًا(....).. وانشدوا:

أيها المدعى سليمى هواها　　لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت فى هواها كواو　　الحقت (.....) فى الهجاء بعمرو

ملاحظة على المنهج:

هذا التلوين فى فن كتابة الموضوعات (النحوية) مألوف عند بعض النحاة الخنص(......).. فالموضوع ههنا أقرب إلى فن الخط والكتابة والإملاء» تمامًا مثل موضوع همزة الوصل. التى ورد بحثها فى باب سبق من هذا الكتاب لأن الأصل فى النحو أنه علم ضبط (آخر) الكلمة. وبهذه المناسبة نذكر بصنيع أبى القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى (ت٣٤٠) فى كتابه «الجمل» حيث عقد أبوابًا للتاريخ ولأسماء القبائل والأحياء والسور(.......) والبلدان، كما عقد بابًا للهجاء، ولأحكام الهمزة فى الخط. ولجأ السيوطى فى همع الهوامع شرح جمع الجوامع، إلى شىء من ذلك التلوين فى الكتابة النحوية.

(.) بضم العين وفتح الميم.

(..) بفتح الميم.

(...) بسكون الطاء وفتح الراء.

(....) بتشديد الخاء وفتحها.

(.....) بضم الهمزة.

(......) بضم الخاء وتشديد اللام المفتوحة.

(.......) بضم السين المشددة وفتح الواو.

ويرى هؤلاء الأعلام أنها أشياء تزيد ثقافة المتأدب بأدبهم، وتثرى معلوماته على كل حال.

ونعود إلى الإلحاق: ومعناه جعل مثال على مثال أزيد ليعامل معاملته[1] كأن تقول رباعيًا جلبب من الثلاثى جلب وهكذا تقول جلبب يجلبب جلببة (كدحرج) فى التصريف والاشتقاق، وسنضرب أمثلة أخرى لهذا الباب عند القشيرى فى ختام هذا الشرح.

وقد لجأت الفطرة العربية إلى ذلك من باب التوسع فى اللغة لمواجهة ضرورات الشعر أو للتلميح أو للتهكم.. وغير ذلك من الأغراض التى ليس هنا موضع تفصيلها، وهى ظاهرة توقفت بطبيعة الحال عند عصر الاحتجاج، وليس لنا حق فيها الآن - وإن كان بعض العلماء يعطينا هذا الحق أيضًا لأن الضرورات لا تتوقف.

ونحيل القارئ إلى فصل همزة الوصل (٣٨) من هذا الكتاب وكيف تكون سابقة موجودة فى الابتداء ثم تفقد فى الدرج، وقد ضرب القشيرى هنا مثلا بواو عمرو، فهى تثبت للتمييز بين هذا الاسم وبين عمر، ولكن ظروف الكتابة والإملاء قد تسقطها.

* * *

والإشارة تنطلق للتمييز بين علاقة أصيلة لا يعتورها التردد أو النقص أو الزوال، وبين علاقة زائفة عارضة تتداعى لسبب أو لآخر كما فى المتن. وقد استشهد القشيرى بنفس الشعر عن «عمرو» فى موضع آخر فى اللطائف، وكان السياق عن المنافقين فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١) فقال الشيخ «من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق فى الحال، وقيل:

«أيها المدعى سليمى.....»[2].

ثم يخص فى موضع آخر المنافقين فى الطريقة بقوله: «مثل من خلط قصده بحظه، وشاب إرادته بهواه، يتقدم فى الإرادة بقدم(.) ويتأخر فى

(.) بفتح الدال

(١) الهمع للسيوطى ٣٢/١ وتعريفات الجرجانى ط تونس ص ١٩

(٢) اللطائف جـ ١ص ٧٣.

الخطوط بأخرى.. فهو لا مريد صادق ولا عاقل متثبت، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القرب والمناجاة وسيعلمون عن قريب أن ذلك لن يغنى عنهم شيئا:

سوف نرى إذا انجلى الغبـار أفرس تحتـك أم حمــار؟

وكذلك كل من حاول أن يجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة فإن ذلك لا يلتئم، فالضدان لايجتمعان. «والمكاتب عبد مابقى عليه درهم» «وإذا ادلهم الليل من ههنا أدبر النهار من ههنا»[٣].

ويزيد القشيرى على واو عمرو وهمزة الوصل أشياء أخرى تتجلى فى إشاراته عند بسملة سورة النحل حيث يقول: (أى استحقاق لواو عمرو حتى تثبت فى الخط، وأى استحقاق إلى الألف فى قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأى موجب لحذف الألف فى السموات؟ **طاحت العلل** وليس إلا اتفاق الوضع.. كذلك الإشارة فى أرباب الرد والقبول.. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ(.) لِمَا يُرِيدُ﴾[٤]. (هود: ١٠٧).

ومعنى هذا أن باب الإلحاق يمكن أن ينصرف إلى فكرة فى منهجه «أن أحكام الله سبحانه وتعالى لاتعلل(..).. وأن قسمته رهن بمشيئته فقط».

---

(٣) اللطائف جـ ١ ص ٧٦.

(٤) اللطائف جـ ٢ ص ٢٨٤.

(.) بفتح الفاء وتشديد العين المفتوحة.

(..) بضم التاء وفتح العين وتشديد اللام.

فصل [٥٢]

الممنوع من الصرف

«الأسماء على ضربين: منها ماينصرف. وهو الاسم المتمكن. ومنها ما لا ينصرف وهو الناقص التمكن، فالذى ينصرف يجرى بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخلق(.): منهم من(..) هو مجدود فى القسمة يحظى بكل النعيم: من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق. يجرون على البساط كما يريدون «لا يرهق وجوههم(...) قتر ولا ذلة».

ومنهم من هو منحوس الحظ.. إن قبل(....) بالنهار اذيق بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم الاتفاق تجرع(.....) بالغد كأس الصد.

التنوين (أو الصرف) علامة على تمكن الاسم من الاسمية فكلمة «مريد» مثلا يلحقها التنوين عند خلوها من (أل) والإضافة، وإذا سبقه حرف الجر أو أضيف لحقت آخره الكسرة أو ما ينوب عنها، كما تلحقه وهو (أل) والإضافة.. وهذا النوع (متمكن فى الاسمية) أما الاسم المبنى فغير خاف أنه ملازم لحالة واحدة فى آخره، فيبنى على ما هو عليه، ويقدر له محل الإعراب على نحو ما سبق فى موضعه. ولكن ـ وهذا هو الذى يعنينا هنا ـ هناك أسماء ذات أوزان أو صيغ وصفية خاصة لاتنون على النحو السابق، وهى **«تجرية بالفتحة ولاتجر بالكسرة»** إلا إذا لحقتها أل والإضافة (**وهذا النوع غير متمكن فى الاسمية**).

(.) بفتح الخاء.

(..) بفتح الميم.

(...) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية.

(....) بضم القاف وكسر الباء.

(.....) بتشديد الراء وفتحها.

وقبل أن نبدأ فى بحث أنواع هذه المجموعة نستبعد من التنوين ما يسمى تنوين العوض مثل (جوار وغواش) فإن التنوين هنا عوض عن الياء فى جوارى وغواشى.

* * *

ونبدأ الآن فى تقسيمات ما لا ينصرف على النحو التالى:

١- الاسم الذى لا ينصرف لعلة واحدة: مثل ذكرى وصحراء ومثل وزن مفاعل (منابر ومساجد).

٢- الذى لا ينصرف لعلتين:

(أ) ١- فعلان الذى مؤنثه فعلى(.): غضبان.

٢- وازن الفعل وهو أفعل فعلاء: أحسن(..).

وأفعل فعلى(...): أفضل.

٣- المعدول عن لفظ آخر (والعدول هو تحويل اللفظ من هيئة إلى أخرى).

(أ) مثل فعال(....) (ثلاث) ومفعل (مثنى)(.....) فهى معدولة عن ثلاثة ثلاثة، اثنين اثنين.

(ب) مثل لفظ آخر (بهمزة مضمومة وخاء مفتوحة) مررت بنسوة آخر.

لأنها جمع أخرى أنثى آخر (من باب أفعل التفضيل).

إذا أطلق الوصف الممنوع من الصرف على التسمية لشخص أو مكان أو... إلخ فإنه يظل على حاله من الامتناع عن الصرف لأن العملية الجديدة تحل محل الوصف القديم... وهذا مبرر للمنع.

(.) بفتح الفاء وسكون العين.

(..) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين.

(...) بضم الفاء وسكون العين.

(....) بضم الفاء وفتح العين.

(.....) بفتح الميم وسكون الثاء.

(ب) العملية فى الأحوال التالية:

١. المركب تركيبًا مزجيًا مثل: ازدشير.

٢. العلم (بالفتح) ذو الزيادتين مثل: حسان.

٣. العلم (بالفتح) المؤنث بالتاء مثل: فاطمة.

الزائدة على ثلاث مثل: زينب.

الأعجمى مثل: آشك (اسم بلد).

٤. العلم (بالفتح) الأعجمى إن كانت علميته فى اللغة الأعجمية وزاد على ثلاثة مثل: إبراهيم، إسماعيل، لندن..

٥ ـ العلم (بالفتح) الموازن للفعل مثل: إثمد(.) (موازنة للفعل إجلس).

* * *

وتنبثق إشارة الشيخ من ملاحظته أن الاسم إما (متمكن فى الاسمية) أو (غير متمكن). ومرد ذلك إلى علة واحدة هى أحكام الله سبحانه، وهذه بدورها لاتخضع لعلة ـ كما قلنا من قبل، ونذكر هنا بما أثبته الشيخ فى نهاية الفصل السابع من هذا الكتاب بعد جهد جهيد فى بحث الإعراب والبناء حين قال (كذلك الأحكام ـ أى أحكام الرب سبحانه ـ مختلفة الأقسام والأقدار، متفاوتة الأدوار).

وهذا هو الفرق بين نحو الظاهر ونحو الباطن.. فالنحاة يصوغون الصيغ ويضعون القاعدة ثم تخرج أشياء وتدخل أشياء من خلال أحاديثهم الطويلة حتى أوشكت مفردات الباب ـ خذ مثلا أمس(..) ـ أن تشكل بابًا مستقلا. أما العلة هنا فواحدة.. تلك أقسام بإرادة الله، لأنه:

(.) بكسر الهمزة.

(..) بكسر السين.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويقول فى معراجه «الأمور بالمقادير والسوابق لا بأعمال العباد واللواحق» وتستوقفنا هنا عبارته التى يصف بها الإنسان (المتمكن) وكيف أنه (**مجدود فى القسمة... بالنهار له توفيق وبالليل لوصله تحقيق**)، ربما قصد ليل (القبض) ونهار (البسط) ونحو ذلك.

ولكننا لا نود أن نصرفها بالكلية نحو (الأحوال)، بل نريد - حسبما نعرف من مذهب الشيخ، بل من سيرته الشخصية أن نجعل (**التوفيق**) بالنهار لأعماله التى يتبلغ منها، أى لسعيه فى الأرض بحثًا عن رزقه ورزق من لهم به علاقة كأولاده وزوجه. فإذا جاء الليل - موعد الأحباب ومناط الخلوة والعزلة - (**كان لوصله تحقيق**). قال تعالى: «**﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾** (النبأ: ١١) نقول هذا طبقًا لما نعرفه عن اتجاهات الشيخ رضوان الله عنه، فمثلا عند تفسيره للفعل «وهزى إليك بجذع النخلة...».

يقول ماخلاصته إن فعل الأمر هنا بالسعى على الرزق، لأنها ستكون مرتبطة بعلاقة الولد القادم. أما حين كانت متجردة خالية من العلاقة فكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب «وجد عندها رزقًا». وإذًا يكون (التمكن) الحقيقى إن جمع العبد بين عمله الذى يحفظ عليه كرامته ويكفيه مذلة السؤال من الخلائق، وبين صحة وسلامة علاقاته بالخالق. فكرامة الإنسان ينبغى أن يكون مصانة عن المسألة.

وفى كل الأحوال ينبغى حفاظًا على (**التمكين**) أن يشعر العبد أنه فى كل أمر من أموره (**بالليل أو النهار**) مصرف(٠) بيد القدر. وهنا نختم الشرح بقصة عن الإمام الشافعى - ولا ننسى أن القشيرى من الشافعية.. (سأله أحدهم: يا إمام.. ماتقول فيمن خلقنى لما اختار، واستعملنى فيما

(٠) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الراء المفتوحة.

اختاره، وبعد ذلك.. إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار.. أعدل(.) هذا أم جار؟ فأجاب الشافعي: يا هذا.. إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل(..) عما يفعل وهم يسألون[1].

(.) بفتح الهمزة والعين والدال واللام.

(..) بضم الياء وسكون السين.

(١) شرح البيجوري على الجوهرة ط الأزهر سنة ١٢٨٩هـ ص ١٣٥.

فصل [٥٣]

التصغـير

«إذا صغرت(.) اسما ثلاثيا زدت ياء فيه وضمت أوله فتقول فى تصغير حجر حجير(..).

كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد فى الرتبة زاد له شغلا(...) يتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلا، ورفعة على أشكاله، وهو فى الحقيقة إذلال له ونقصان لحاله.

وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

التصغير فى اللغة التقليل.

وفى الاصطلاح تغيير مخصوص يحدث فى الاسم لأغراض منها: التحقير (كرجيل) وتقليل الكمية (كدريهمات) وتقريب الزمان والمكان (كقبيل المغرب أو دوين الكرسى).

وعلاماته ضم أوله وفتح ثانيه وزيادة ياء ساكنة بعده تسمى ياء ساكنة بعده تسمى ياء التصغير.

وتنطلق الإشارة متجهة نحو الذين يحكمون على الأمور بظواهرها، ويقيسون أفعال الله سبحانه على أفعال البشر، فمن المعروف عندهم أن كل زيادة فى المال أو الجاه أو الصحة أو الولد.. نعمة وأن النقص فى إحداها نقمة.. فيريد الشيخ هنا - محتكما إلى ظاهرة نحوية - أن يثبت عكس ذلك. فالاسم ههنا بعد مازيد فى بنيته الأساس، وأضيفت إليه

(.) بتشديد الغين وفتحها.

(..) بضم الحاء وفتح الجيم وسكون الياء.

(...) بضم الشين وسكون الغين.

إضافات فقد وزنه[1]، وأصبح (أصغر) مما كان عليه.. وكان يفترض أن يكبر حجمه وتزداد قيمته ولكن الذى حدث هو العكس.

تمامًا مثلما يفعل الله بعبد يرتزق من حرام.. فإنه إذا اشتد غضب الرب عليه بارك له فيه.. وينسى الغافل أن هذه الزيادة من قبيل الإمهال.. وأنه حين يأخذه فلن يفلته.

فالشيخ يريد أن يوجه نظر المريدين إلى أن الدنيا ومتعلقاتها لا تستحق قدرًا أو قيمة فإذا كان الله قد وصفها بأن متاعها قليل.. فكم سيملك الطامع المرتمى فى أحضانها من هذا القليل؟! إنها سم[٠] قاتل.. ومن الخير الحذر من إغرائها.

أرأيت إلى إبراهيم بن أدهم - أول من ترجم له الشيخ فى رسالته من الأكابر - وقد أطلق إمارة بلخ وقنع بأن يعمل حمالا أو حارسا لبستان.. وكان يطأطئ رأسه ليضربه صاحب البستان ويقول: اضرب رأسًا طالما عصى الله! فلا (تثقل) كاهلك حتى لا (تقلل راحتك)، فليست العبرة بزيادة المظاهر بل بنقاء الجواهر.

(١) أى وزنه الصرفى لأن صيغته تغيرت.

(٠) بضم السين وتشديد الميم المضمومة المنونة.

فصل [٥٤]

التعجب

«يقال فى التعجب: ما أحسن(.) زيدًا !

وأحسن(..) بزيد !

وزيد(...) ما أحسنه !

وتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول: ما أحسن زيدا أى: أى شىء حسن(....) زيداً.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا دخل التعجب على الاسم خص بالفتح . الذى هو أضعف الحركات.

فكذلك إذا دخل «الإعجاب» على المرء آل إلى أضعف الحالات... فإن الإعجاب أشد(١) الآفات.

(.) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين.

(..) بفتح الهمزة وكسر السين وسكون النون.

(...) بضم الدال وتنوينها.

(....) بفتح الحاء وتشديد السين المفتوحة.

(١) بتشديد الدال وضمها.

نلجأ إلى أسلوب التعجب حينما نستعظم فعلا ظهرت فيه زيادة أو نقص.. ولا نعرف لذلك سببًا ظاهرًا.

ولتعجب صيغ فعلية أوردها الشيخ، وهى التى جرى العرف على استخدامها.

ونعرض الآن تحليلا لمكوناتها:

أجمعوا على أن (ما) فى هذا الأسلوب مبتدأ لأن فى (أحسن) ضمير يعود عليها. والابتداء والإخبار هنا يكونان أسلوبًا إنسائيًا عند البلاغيين لأنه مصاغ أو منشأ(.) للتعجب.

ومن النحاة من يرى (ما) نكرة تامة بمعنى (شىء) وهذا التنكير أفادها الإبهام، والشىء المبهم يحتمل بنفسها فلا تحتاج لصفة أو صلة. والجملة التى بعدها خبر لها.. قد ذهب الشيخ هذا المذهب.

بينما يرى فريق آخر أنها (ما) الاستفهامية والجملة التى بعدها خبر عنها ويكون التقدير: أى شىء أحسن زيدًا؟

أما (أفعل) التعجب فالصحيح اعتباره فعلا بدليل أن نون الوقاية تلحقه إذا أسند إلى ياء المتكلم كقولك: ما أغنانى عن الناس!

ما أفقرنى إلى رحمة ربى!

وأما (أفعل)(..) فلفظه لفظ الأمر ولكنه من حيث المعنى.

بمعنى أحسن بالصدق أى صار الصدق ذا حسن(...) كقولك أعشب السهل أى صار ذا عشب ثم غيرت الصيغة إلى الأمر به عند (إنشاء) التعجب.

* * *

(.) بضم الميم.

(..) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين وسكون اللام.

(...) بضم الحاء وسكون السين.

وتنطلق الإشارة هنا من الربط بين عنوان الفصل (التعجب) وبين (الإعجاب) أى النظر إلى النفس، وادعاء أن شيئا منها يستحق أن (يتعجب) من قيمته أو من جدواه، ولهذا استحق الاسم المتعجب منه (النصب). ونحن نعلم أن (النصب أضعف الحركات). وفى لفظة (الحركات) هنا تورية، فالمعنى القريب هو الضبط الإعرابى، والمعنى البعيد هو مانعرفه فى أسلوب الشيخ من أنه يطلقها على العبادات الشكلية التى يمارسها صاحبها دون تعمق فيها، أو للزهو بها، أو دون إدراك للمقاصد البعيدة منها - وهى بهذا الوصف لاقيمة لها، بل طالما حذر الشيوخ منها. فالواسطى - وهو أبو بكر محمد بن موسى عالم كبير الشأن - خرسانى من فرغانه ت ٣٢٠هـ يسأل أصحاب مذهب الملامة بماذا كان يأمركم شيخكم؟

فقالوا: بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها.

فقال: أمركم بالمجوسية المحضة.. هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها(٠) ومجريها(٠٠) !؟

ويعلق القشيرى على كلام الواسطى بأنه أراد أن «يصونهم عن محل (الإعجاب) لا تعريجًا فى أوطان التقصير أو تجويزًا للإخلال بأدب من الآداب».

أى أن المقصود عدم الزهو برؤية أنفسهم وهم يطيعون، وكأنما يأتى منهم شىء.. والخير فى إعادة فضل(٠) لله حتى ما تقوم به أنت.. فمعنى أن تكون فيك بقية من نفسك تشاهدك وأنت تتعبد أن شريكًا لله فى الحسبان.. وهذه مجوسية فى عرف الواسطى !

ونحيل القارئ على الفصل ١٦ من هذا الكتاب حيث كان لنا حديث طويل عن «الإعجاب».

---

(٠) بضم الميم.

(٠٠) بكسر اللام المنونة.

ولكننا نود هنا أن ننصح بضرورة الاستفادة من سلوك هؤلاء الصفوة لتحسين نظرتنا الاجتماعية.. فلو استفدنا من هذا النفاد إلى الجواهر، واحتذيناه فى إدراكنا لشرائط الإتقان للعمل، وأقبل كلٌ(.) منا على حرفته أو مهنته واعٍ(..)، وبابتغاء مرضاة الله وحده وبمراعاة إرضاء الضمير.. لو فعلنا ذلك لتغيير وجه حياتنا المتهدمة !

وهل نجادل بعد ذلك فى أن الصوفية ريادة فى فهم النفس والأخلاق وتربية الضمير؟

(.) بضم اللام المشددة المنونة.

(..) بكسر العين المنونة.

فصل [٥٥]

الحـال

■ «الحال منصوب. تقول جاء زيد قائمًا. فقائمًا نصب على الحال، واستحق النصب لأنه مفعول. والحال تأتى بعد تمام الكلام، فلما آتى بعد تمام الكلام صار كالمستغنى(.) عنه فنصب(..).

الإشارة: المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق.

ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص لأن المخلوق مستغنى(...) عنه قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ٣٨).

وأنشدوا:

وبعين مفتقر(....) إليك نظرتى وحقرتنى ورميت بى من حالق

■ والحال لا يكون إلا نكرة:

ولذلك فإن صاحب الحال من القوم يجب الا ينظر(١) إلى حاله، لأنه إذا عرف حاله لاحظها، وإذا لاحظها أعجب بها، فإذا أعجب بها تلاشت.. وكان الأستاذ أبو على الدقاق يقول:

«أخص الأحوال ما استترت عن صاحبها».

(.) بفتح النون.
(..) بضم النون وكسر الصاد.
(...) بتنوين النون.
(....) بتنوين الراء وكسرها.
(١) بفتح الياء ونصب الراء.

تعريف الحال: اسم منصوب يبين هيئة حصول الفعل وعلامته أن يصلح جوابًا للسؤال.. كيف؟

ويأتى من الفاعل جاء زيد راكبًا.

ويأتى من المفعول به ركبت الفرس مسرجًا(.).

ومن المجرور مررت بالدار خاوية(..).

ويسميه سيبويه نعت الفعل.

لماذا نصب الحال؟ فى رأى الشيخ - وعند جمهور النحاة - لأنه فضلة - كالمفعول - أتى بعد تمام الكلام، فأصبح (**كالمستغنى**(...) **عنه**) فاستحق أضعف الحركات.

شروطه: من شروطه أن يكون (نكرة) - كما ذكر الشيخ، لأن صاحبه يشترط أن يكون معرفة، ولو عرفت[٢] الحال لاشتبه الأمر بينها وبين الصفة المنصوبة بعد المعرفة، ولهذا إذا قلت مثلا:

اقرأ وحدك (فهى تؤول على: منفردًا).

ولهذا أيضًا تعرب الجمل وأشباه الجمل بعد المعارف أحوال بينما تعرب صفات بعد النكرات.

ويلاحظ صاحبا «تهذيب التوضيح» (المراغى وسالم) أن الحال فى الأغلب متنقلة بمعنى، أنها لاتقع وصفًا ثابتًا إلا فى أحوال نادرة مثل:

خالد أبوك رحيمًا - فإن الأبوة من شأنها الرحمة.

(.) بضم الميم وسكون السين وفتح الراء.

(..) التاء المربوطة بالفتح المنون.

(...) بفتح النون.

(٢) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة.

وتدور إشارات الشيخ حول ثلاثة محاور تسير على هذا النسق:

«أولا» العبد يقوم (بفعل) من أفعال الطاعات.. هذا شيء حسن ومطلوب، ثم يرزقه الله (حالا) كالأنس مثلا فيلاحظ العبد نفسه فى هذه (الحال) أى يعرفها والأصل أن يكون (نكرة) فينسبها إلى نفسه، أو يظن أنها بفضل عمله، أى أنها (مفعولة) وليست من لدن الله الغنى الحميد.. وعلى الفور تزول هذه الحال، لأنها لم توضع موضعها الصحيح، وهذا شىء طبيعى فالمتعلق بالفانى يفنى ويزول، أما المتعلق بالباقى فله البقاء إلى أن يريد المولى سبحانه.. والأصل أن الفقير يستشعر (الافتقار) وهذا درس دقيق جدًا لأرباب (الأحوال): ليعلم كل(.) أحد أن الحال مرتهنة (بصاحبها)، فالنهاية بحسب البداية.

«ثانيا» أن (الحال) عموما (فضلة) تأتى مكملة لفعل إنسانى، وهى قابلة للزوال، ولكن هناك فرق بين زوال نهائى إذا كان صاحب الحال على غير المراد، وبين زوال وقتى (لتحل) محلها (حال) أرقى إذا كان صاحبها على المراد، وملتزم بآداب الوقت كما أوضحنا أكثر من مرة..

وفى زوال الأحوال يقولون:

لو لم تحل ما سميت حالا   فكل ما حال فقد زالا

«ثالثا» إذا عرف صاحب الحال القضية بهذا الوصف فعليه . وهو مطالب بكتمان (**الحال حتى عن نفسه**) ألا يفضحها لتصبح نهبًا لكلام الناس . وبخاصة لعواذل هذه الطريقة. والله سبحانه وتعالى يلطف بعبده الصادق فى توجهه فيحفظه، وهو يصبر على ذلك الكتمان، ويغالب صراع الحب، وينشد الشيوخ:

(.) بضم اللام المشددة.

صبرت ولم اطلع[·] هواك على صبري   واخفيت مابي منك عن موضع الصبر

مخافة أن يشكو ضميري صبابتي   إلى دمعتي سراً فتجري ولا أدري

«ولو اطلع زري على سري لخلعته».

أما غير ذلك.. فتتضح من هذا الشعر عواقبه:

من لم يصن سر مولاه وسيده   لم يأمنوه على الأسرار ماعاشا

وعاقبوه على ما كان من زلل   وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

وجانبوه فلم يصلح لقربهمو   لما رأوه على الأسرار نباشا

(·) بضم الهمزة وسكون الطاء.

فصل (٥٦):

التمييز[١]

(١) تمييز غير العدد:

«التمييز يوجب النصب تقول: عشرون درهَمًا تشبيها بالمفعول حيث أتى بعد تمام الكلام.

والإشارة أن المفعول ـ لنقصانه عن الفاعل ـ خص[٠] بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة».

(١) يقرأ هذا الفصل وما تلاه قراءة متصلة لما بينهما من تكامل.

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

التمييز - كما يقول ابن هشام فى «القطر» - اسم فضلة، نكرة، جامد، منصوب مفسر لما انبهم من الذوات.

ويسمى: مفسِّرا(٠) وتفسيرًا ومبينًا وتبيينًا، ومميزًا وتمييزًا.

والشيخ يقترب من كل هذه المعانى ويركز على كونه (فضلة) وأنه مكمل (كالمفعول) وأنه (منصوب) مثله، والنصب استحقاق الضعف لنقص ما يشبه المفعول (عن الفاعل).

والتمييز نوعان:

١. **ملفوظ** وهو للدلالة على ما انبهم من:

(أ) العدد : أحد عشر كوكبا.

(ب) الوزن: قنطارًا قطنًا.

(جـ) الكيل: جرامًا فضة.

(د) المساحة: فدانًا قطنًا.

(هـ) المقدار: ملء الإناء عسلا.

٢ . **ملحوظ** وهو للدلالة على النسبة مثل اشتعل الرأس شيبًا فالأصل اشتعل شيب الرأس.

ويجوز جر التمييز بمن أو الإضافة وعند ذلك يفقد النصب كقولك: جرام من فضة.

وقد سبق فى أبواب مختلفة ذكر العلاقة بين المنصوب والفضلة، والشبه بالمفعولية والضعف فى القوة الفاعلية.. واستحقاق أضعف الحركات.. إلخ.

(٠) بكسر السين المشددة.

ونرى أن اهم قضية فى باب التمييز هى التى سيثيرها الشيخ فى الفصل التالى عند كلامه عن تمييز العدد ولها حديث طويل، ومع ذلك سنعود إلى هذه الموضوعات فى الفصل القادم حتى يتكامل الإطار بعد إضافة تمييز العدد.

فصـل (٥٧)

بين العدد والمعدود

(ب) تمييز العدد:

«الهـاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث تقول: ثلاثة رجال وخمس نسوة، وتضيف العدد هاهنا إلى المعدود. واعتبر هذا نوعًا من المعادلة، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخف من المؤنث زيدت الهاء في لفظ عدده، فقالوا: ثلاثة رجال. والإنصاف في كل شيء عزيز، فإن كان في أحد ضعف يجب أن يقوى(.) بغيره، وإن كان في شيء قوة(..) حمل(...) ما يحتمله.. ولهذا أمر(....) في الشريعة بمواساة الفقراء.

وقد يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم: أحد عشر رجلا، والتفسير يأتي بعد تمام الكلام فأشبه ماذكرناه عن المفعول.

(.) بتشديد الواو وفتحها.

(..) بتنوين التاء المرفوعة.

(...) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

(....) بضم الهمزة وكسر الميم وفتح الراء.

● تشبيه التمييز بالمفعول به واستحقاقه النصب وكونه فضلة.. علامات ضعف فى كيان (التمييز) عند هذه الطائفة، فالأصل أن يكون الفرد ـ مظهرًا وجوهرًا ـ بعيدًا عن إقحام الخلائق فى حياته الروحية الخاصة كأنما ليس عنده لهم حساب.. اللهم فى حسن الخلق وطيب العشرة.. فهو منهم على خير. أما إذا أراد أن (يتميز) بميزة تكون (علامة) له أو عليه كالخرقة(٠) أو ثوب الصوف حتى يبدو درويشًا فقيرًا مفتقرًا دون أن يكون وصوله فى الطريقة مأمون العواقب، غير محاط بالصعاب.. فاللجوء إلى التمييز هنا (هو الضعف) بعينه.

ومن قبل ذلك.. لماذا يحفل بعض الناس (بالتميز) عن الآخرين سواء بالثوب أو المظهر أو طريقة الكلام أو الاستعلاء فى المعاملة أو الرياء.. ونحو ذلك ـ والخلق كله لله، والله سبحانه لاينظر إلى أى تمييز بيننا إلا بالعمل الطيب: فنحن سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.. وإذًا (فالتميز والتمييز) أصلا أشياء مرفوضة فى الدين لو سارت على هذا النحو المريب.. فما بالك فى الطريقة؟

● طرق الشيخ موضوعًا مهمًا هو هذه (**المعادلة**) التى بين العدد والعدود، واستنبط منها إشارات تتصل (**بالإنصاف. والإنصاف عزيز**) ونحن نتوقف هنا قليلا لنبدى الرأى فى أن ذلك ملحوظ فى الاتجاهات التفسيرية عند بعض النحاة لمواقف شتى.

فمثلا: يقول ابن مالك فى قضية (العدد والمعدود) من الثلاثة إلى العشرة التى طرحها الشيخ هنا «وإنما حذفت التاء من عدد المؤنث وأثبتت فى عدد المذكر فى هذا القسم لأن الثلاثة وأخواتها أسماء جماعات كزمرة وأمة وفرقة، فالأصل أن تكون بالتاء لتوافق نظائرها، فاستصحب الأصل المذكر لتقدم رتبته».

---

(٠) بكسر الخاء وسكون الراء.

● ومن أمثلة المعادلة يجوز أن نضرب مثلا بالفاعل الذى هو (أرفع) قيمة فى الجملة لفاعليته فأخذ أثقل الحركات، على حين نجد أن المفعول به الذى هو فضلة، وأتى بعد تمام الفائدة.. إلخ قد أخذ (النصب) وقد مر بنا ذلك بتفصيل.

● ومن أمثلة المعادلة فى مسائل النحو أيضًا ما يذكره النحاة عن كسرة النون فى المثنى وفتحها فى جمع المذكر السالم: أن المثنى خفيف والكسر ثقيل، فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل. أما جمع المذكر السالم فهو ثقيل والنون مفتوحة خفيفة فيحدث التعادل.

والإشارة تنصرف أولا إلى ماينبغى أن يكون من تكافل فى البيئة الاجتماعية العامة للمسلمين، كما حدث بين المهاجرين والانصار فى بداية الإسلام، فالقوى من واجبه مساندة الضعيف، والضعيف له حق على القوى. لأجل هذا جاءت الزكاة والصدقات وما إلى ذلك من صور التكافل والتعاون التى يريدها الإسلام لمجتمع صحى يخلو من الحقد والجريمة.

اما على المستوى الخاص فهى موجهة أولا إلى الشيوخ الذين ينبغى عليهم بما لهم من قوة فى العلم وفى الأحوال أن يمنحوا مريديهم كل عون مناسب فى الوقت المناسب. وللقشيرى فى ذلك دستور سجل(٠) معظم مواده فى نهاية «الرسالة» وغيرها من مصنفاته: «الشيوخ فى محل السفراء، والشيخ فى قومه ينبغى أن يكون كالنبى فى أمته».

«والأب يربى الابن بنعمته والشيخ يربى المريد بهمته».

«الآباء للأشباح والشيوخ للأرواح».

«المريد ربيب همة شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدمتهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هممهم،

(٠) بفتح السين وتشديد الجيم المفتوحة.

يجبرون كسرهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومن أهمل مريداً وهو يعرف صدقه فقد باء من الله بسخط[1].

إذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على الشيوخ، فرض عليهم أن ينفقوا عليهم من قوة أحوالهم بما يكون جبراناً لتقصيرهم[2].

أما بين الأصحاب فتمتلئ أبواب «الصحبة» و«الفتوة» بنماذج هائلة لهذه (المعادلة) و (الإنصاف) بحيث يتحصل لدينا نمط في العلاقات الاجتماعية ندر أن نجد له نظيراً، وأتخيل أنه لو انتقل عشر معشار هذه القواعد إلى المجتمع العام، وعمل الناس به لانتظم حال الناس واعتدل ميزان الحياة.

ونختم هذه القضايا بطرح هذين التساؤلين اللذين يردان[.] على بعض الخواطر:

١ـ ما موقف الخواص بالنسبة لأملاكهم ؟

٢ـ ما موقف المتصوفة من العون الذى يأتيهم من خارج ؟

ونترك شيخنا يجيب عنهما:

وهو يميز بين الأمرين: (الخواص لا يرون لأنفسهم ملكًا ينفردون به، لا من الأملاك المنقولة ولا من المساكن التى تصلح لأن تكون مدخولة، ومن فاتحهم بشىء منها فلا يكون منع ولا زجر، ولا حجب لأحد ولا حظر.. هذا فيما نيط بهم. أما فيما بغيرهم فلا يتعرضون لمن هى فى أيديهم لا باستشراف طمع ولا بطريق سؤال، ولا على وجه انبساط. فإن كان حكم

(١) اللطائف جـ ٢ ص ٦٠٩.

(٢) الإمام القشيرى وآثاره تأليف بسيونى ص ٢٠٥.

(.) بفتح الياء وكسر الراء.

الوقت يقتضى شيئًا من ذلك فالحق يلجئ من فى يده الشىء ليحمله إليه بحكم التواضع والتقرب، والولى يأخذ ذلك بنعت التعزز)[٣].

ويعلل الكلاباذى لرفضهم العون الخارجى فى ظروف معينة (لأن الذى فى يد الأغنياء ليس كله طيب.. والله سبحانه لا يقبل إلا طيبا.

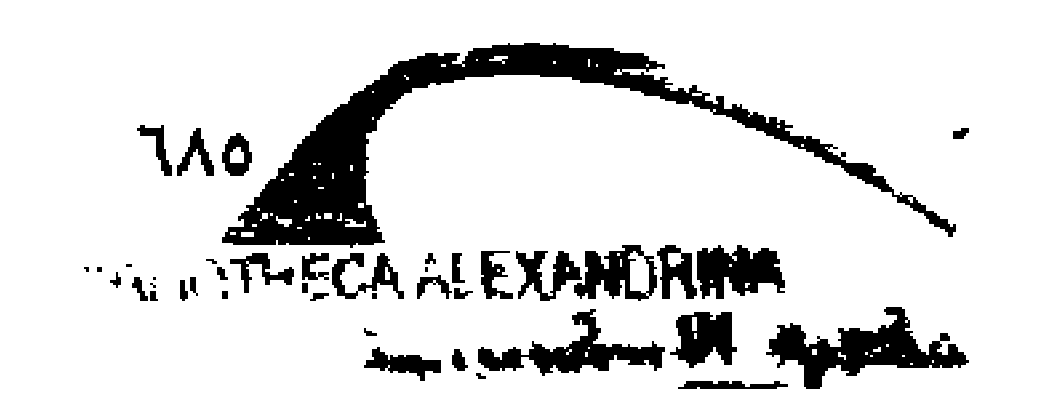
ولأن هؤلاء مرادون بالبلاء منعهم الحق سبحانه عن العوز(.) إلى الأغنياء ليتم(..) مراده فيهم)[٤].

(٣) اللطائف جـ ٢ ص ٦٠٥.

(٤) التعرف للكلاباذى ص ١١٥.

(.) بفتح العين وفتح الواو.

(..) بضم الهاء وكسر التاء وتشديد الميم المفتوحة.



فصل (٥٨):

الاسم الموصول

«من الأسماء ما هو اسم موصول لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومن(.) والذى وأى.

والإشارة: كذلك من الناس من لا يستقل بتدبيره، ولا يكون له بد(..) من غيره.

ثم إن أراد به الله خيراً سد(...) عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق شهود الحق. سبحانه.

وإن أراد به سوءاً فالحال بالضد(....)».

(.) بفتح الميم .
(..) بضم الباء وتشديد الدال مع التنوين .
(...) بفتح السين وتشديد الدال.
(....) بتشديد الضاد مع الكسر .

من أسماء الموصول: الذى واللذان واللذين واللتين ومنها ما هو مختص كما سبق ومنها ما هو مشترك: وهى التى تستعمل للفرد والمثنى والجمع بنوعيهما وهى:

من ـ ما ـ أل (الداخلة على اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبهة: جاء القائد = الذى قاد، والبحر المسجور أى الذى سجر، وحضرت الكريمة أى التى كرمت)(.).

وكذلك ذو: سافر ذو كافانى (أى الذى) وأى: يعجبنى أى(..) مهذب (فاعل مرفوع غير مضافة وصدر الصلة محذوف): احترم أيا هو مهذب (مفعول به. غير مضافة وصدر صلتها مذكور) وتبنى على الضم إلا إذا أضيفت وحذف صدر صلتها مثل (الفوز لأيكم(...) مخلص. و(تفتقر الموصولات كلها إلى جملة صلة) تتأخر عنها ولا يجوز أن نتقدمها، وجملة الصلة مشتملة على ضمير رابط مطابق للفظ الموصول وليس لها محل من الإعراب وشروطها أن تكون خبرية فلا تكون أمرًا أو نهيًا وتعجبًا.

* * *

شد(....) لقب (الموصول) واحتياجه إلى (صلة) انتباه الشيخ.. إنه يقدر[1] احتياج المرء ـ سواء كان فردًا عاديًا أو سالكًا لطريق الصوفية ـ إلى (صلة) تربطه بمن يساعده فى (تدبيره).

ولكن هذه الحتمية تفرض عليه أن يلتمس العون والمدد من (الخالق) لا من (المخلوقين)، لأن المخلوقين أنفسهم يرفعون حوائجهم إلى (الحق)

(.) بفتح الكاف وضم الراء.

(..) بتشديد الياء المضمومة مع تنوينها.

(...) بضم الياء المشددة.

(....) بفتح الشين وتشديد الدال.

(١) بضم الياء وكسر الدال المشددة.

سبحانه فهو وحده (صاحب التدبير)، ولهذا (من أراد الله به خيرًا سد عليه طريق المخلوقين وفتح عليه طريق شهود الحق سبحانه) فهذا هو الأصل.

وبهذا يكون الشيخ قد أنار الطريق إلى فهم حقيقة (التوكل)، ومدى (الصلة) (بالخلق وبالحق ونفهم (اسم الموصول) الواجب الاتصال به. فالقضية أكبر من نطاق التصوف، إنها تعود إلى الفهم الإسلامى الأصيل للتوكل، الذى كثيرًا ما يساء إليه.

فالأصل أن الإسلام ليس دين تقلص وانكماش، وإنما هو دين السعى والارتزاق والكدح فى مناكب الأرض بحثًا عن الرزق الحلال، فمن خلال ذلك تتضح معادن الناس. ولم يكن الرسول ﷺ استثناء من هذه القاعدة، فقد عمل تاجرًا وراعيًا وكان يقول: لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره له من أن يتكفف الناس ترده اللقمة واللقمتان».

ويقول: «أحل ما يأكل المؤمن من كسب يده».

كذلك لم يجىء التصوف ليتنكر بما فيه من زهد ورضًا وصبر لهذه القاعدة، وقد قلنا من قبل إن أجلة الشيوخ كانوا من أصحاب الحرف(.) البسيطة التى أغنتم عن المسألة، وهيأت لهم التفرغ لطريق الله.

فإذا حول(..) بعض المغرضين التوكل إلى تواكل.. فهذه حالة مرضية(...) تدل على سقم التدين عند صاحبها.

الشيخ هنا لا ينكر حتمية (الصلة) بالناس، فهذا شىء (ليس منه بد) لأن الإنسان لا يعيش وحيدًا فى الأرض بل ضمن مجتمع من البشر.. لكنه

(.) بكسر الحاء وفتح الراء .

(..) بتشديد الواو مع فتحها.

(...) بفتح الميم والراء.

يريد ألا تصل (الصلة) بأحد على نحو ينسى الله فيه، ويوصم هذه الشبهة من يرتمى فى أحضان الحكام والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ، كما يوصم بها من يكسر الشص ويمتنع عن الذهاب إلى البحر (اتكالا) على الرزاق. كلاهما أخو سوء.. كلاهما على باطل.. كلاهما مضاد للروح الإسلامية.

ذلكم هو مقصد الشيخ ـ فى رأينا ـ من هذا الباب كله، ونترك للنصوص الآن أن تبرز الصورة على نحو أفضل.

فكما ينقسم الموصول إلى مبنى ومعرب، وكما تتوقف الصلة بحسب وجهتها تختلف مقادير السالكين بحسب نواياهم وتصرفاتهم وغاياتهم. يقول القشيرى فى لطائفه «إذا وضع العبد قصده فى حوائجه عند المخلوقين، وعلق قلبه على الاستعانة وطلب المأمول عليهم فقد وضع الشىء فى غير موضعه.. بل هو ظلم. وعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو (انسداد) طريق رجوع ذلك القلب إلى الله»[٢].

ويقول إبراهيم بن أدهم مناجيًا ربه:

مدحى لغيرك لهب نار خضتها   فأجر عبيدك من دخول النار

والنار عندى كالسؤال فهل ترى   ألا تكلفنى دخول النار

ويقول الخواص (ت ٢٩١):

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى   إلى غير من قال اسألونى.. فشلت

سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة   وأرضى بدنيائى .. وإن هى قلت

ويقول ابن السماك محددًا قضية كثيرًا ما تثار:

(٢) اللطائف ٢٦٧.

«الأصل فى السؤال أن يكون لمن أمرك أن تسأله لا (من) يفر منك إذا سألته»[٣].

ويقول سفيان الثورى:

إن كنت ترجــو الله فاقنـع به فعنده الفضل الكثيـر البشير

(من ذا الذى) تلـــــزمه فاقة وذخـــره الله العلـى الكبير[٤]

ويقول أبو الأسود (أحد التابعين):

وإذا طلبت من الحوائج حاجة فـادع الإله وأحسن الأعمالا

إن العبـاد وشـأنهم وأمـورهـم بيـــد الإله يقلب الأحوالا[٥]

ومن طـريف مـا نـذكـره فى هـذا الخصـوص الإشـارة التى لجـأ إليـهـا القشيرى فى توجيه (اسم الموصول) فى الآية الكريمة:

«يأيها النبى حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين[٠]».

فيقول:

«أحسن التـأويلات فى هـذه الآيـة أن تـكون (من) فى محل النصب أى: ومن اتبعك من المؤمنين يكفيكم الله».

ومن التـأويلات أن تكون (من) فى محل الرفـع أى حسبك من اتبعك من المؤمنين. وقد علم أن استقلال الرسـول ﷺ كان بـالله لا بمن سـوى الله. وكل من هـو سوى الله فمحتاج إلى نصـرة الله. كمـا أن الرسـول هـو نفسه محتاج إلى نصرة الله»[٦].

(٣) حلية الأولياء جـ ٨ ص ٢١٠.

(٤) حلية الأولياء جـ ٦ ص ٢٧٢.

(٥) الأغانى جـ ١ ص ١٠٣.

(٠) الأنفال ٦٤ وانظر اللطائف ٢/٢٢٢ ط أولى.

(٦) لطائف الإشارات جـ ١ ص ٦٢٧.

أما في الأحوال التى قلنا إنها من لدن الحق فينبغى أن يفقه العارف صاحب الأحوال أنها مردها جميعًا إلى الله وأنها (موصلة) بمشيئته، فإذا زخرفت له نفسه أن منه هو شيء فقد أساء فهم (الصلة) وجزاؤه (سد)(.) باب الألطاف و (الرد) عن البساط.

(.) بفتح السين وتشديد الدال مع ضمها.

فصل (٥٩):

النسب

«إذا نسبت اسمًا إلى اسم زدت فى آخره ياء مشددة، وأقر(.) الأول بحاله فتقول فى النسب إلى جعفر جعفرى، وإلى عمر عمرى. وكذلك حروفه وأقسامه.

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه. وقيمة كل منسوب ماينسب إليه. وإنما ينسب الشىء إلى الشىء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل[1]. إلى ماذا ينسب(..)؟ إذا كان رجلا ينسب إلى الدنيا يقال له دنياوى فقيمته الدنيا.

وإن كان الغالب عليه حديث الأخرة نسب إلى الآخرة فقيمته الآخرة. كذلك جميع ما هو الغالب عليه.

فلينظر(...) كل غالبه يعرف(....) قدره(.....).

(.) بضم الهمزة وكسر القاف وتشديد الراء.

(١) بضم اللام وتشديدها وتنوينها.

(..) بضم الهاء.

(...) بسكون الراء.

(....) بسكون الفاء.

(.....) بسكون الدال وفتح الراء.

النسب، أو الإضافة المعكوسة ـ كما يسميه صاحبها تهذيب التوضيح ـ أن تجعل المنسوب من آل المنسوب إليه، أو من أهل تلك البلد أو القبيلة: كهاشمى ومراغى وهذلى

اى من آل هاشم ومراغة وهذيل.

وهذه الياء الصغيرة فى حجمها ذات خطر كبير لأنها أشبه بصك الانتساب، ومعناها احتمال (كل) أوصاف المنسوب إليه بحسناتها وسيئاتها ـ وإن كان الشيخ يستعمل (الغالب) بدلا من (كل)، ووصفه اقرب إلى الواقع.. كما سنرى.

ويعامل بعض النحاة المنسوب على أنه اسم مفعول على حين يذهب آخرون إلى أنه كالصفة المشبهة. فالياء فى الحالة الأولى نائب فاعل وفى الثانية فاعل.

ويكتفى الشيخ هنا بحالة النسب التى لايصاحبها تغيير فى بنية المنسوب إليه عند إضافة الياء أى ذلك النوع الذى (أقر الأول بحاله).

ولكننا سنلاحظ أنه قد تنشأ بعض التغييرات عند الانتساب[٢] على النحو التالى : ـ

١. حذف تاء التأنيث مثل القاهرة ومكة، قاهرى ومكى.

٢. وتقول فى ملهى ملهوى. وفى عصا عصوى.

٣. ويجب قلب الكسرة فتحة فى فعل مثل إبل[.] إبلى[..].

٤. تحذف علامات التثنية وجمع المذكر وجمع المؤنث.. وتنسب إلى

(٢) انظر هذه التغييرات عند النسب عما قبله بما سيذكره فى الإشارة من (التزامات ثقيلة) تفرض نفسها على العبد عند انتسابه للطريقة أو للشيخ.

(.) بكسر الباء.

(..) بفتح الباء واللام.

المفرد طالما لم تطلق الألفاظ على أعلام فتقول فى عابدين عابدى وفى تمرات تمرى (بالإسكان).

أما إذا كانت أعلاما فتنسب إليها كما هى مثل: سلمان سلمانى.

٥ ـ تقول فى طيب طيبى.

وفى حنيفة حنفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)

وفى صحيفة صحفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)

حتى لا تتوالى كسرتان وياء النسب

٦ـ وتقول فى غنى وعلى: غنوى وعلوى.

٧ـ همزة الممدود حكمها فى النسب:

(أ) إن كانت للتأنيث قلبت واوًا كصحراوى وسوداوى.

(ب) إن كانت أصلا سلمت كقراء(.) وقرائى.

٨ ـ وتنسب إلى الصدر فى حضرموت فتقول: حضرى.

* * *

حول المنهج:

فى مواضع شتى من مصنفاته يطلق الشيخ على (الإضافة) لفظ (النسبة)، فهو مثلا فى كتابه «التحبير فى التذكير» وعند معالجته لأوصاف الفعل يتحدث عنها (بالإضافة) إلى الحق أو إلى الخلق ويقصد بالنسبة إلى أى منهما.

وقد وجدنا بعض النحاة يتجهون إلى هذا الإطلاق (انظر التوضيح وتهذيب التوضيح. ونجد ابن الأنبارى فى أسرار العربية يقول:

(.) بضم القاف وتشديد الراء مع فتحها.

«النسب فى معنى الإضافة» وأما سيبويه فيقول صراحة:

«هذا باب الإضافة وهو باب النسبة» الكتاب ٢/ ٦٩.

والنسبة عند الشيخ بحسب (الغالب) من الصفات المشتركة بين الطرفين المنسوب والمنسوب إليه، بينما نجدها فى تعريفات النحاة (كل) الصفات.. ومذهب الشيخ أكثر دقة من ناحية الواقع.

والإشارة:

تنطلق من حيث يعرف الشيخ أن لفظة (الانتساب) تتردد كثيرًا جدًا فى بيئة المتصوفة، فهى تستخدم فى الدلالة على العلاقة بشيخ أو بطريقة أو سند، أو الاتجاه نحو الدنيا والاخرة، أو التعلق بالألوهية (ربانى)[٣].. ونحو ذلك، فحاول هنا أن يستغل هذه الظاهرة فى ظلال قواعد النحو.

بل إن القضية أوسع من ذلك بكثير.. فقد لاحظ ابن خلدون وهو يؤرخ لنشأة التصوف أن أجيال الصحابة والتابعين وتابع التابعين وصلت إلى مرحلة فى التاريخ تشبه التوقف بعد موت آخر هذه الأجيال.. ولكن ظهر فيما بعد ذلك آحاد ثم جماعات (ينتسبون) إلى هذا السلف العظيم، ويحملون أمانة الاستمرار على طرائقهم فى الورع والزهد والصبر والتوكل.. وتألفت من هؤلاء البدايات الأولى للصوفية، الذين بدورهم تناسلوا عبر التاريخ هذه الأسوة الصالحة بحيث لا يخلو عصر ممن لهم (انتساب) إلى هذا الطريق، فتظهر جماعة تمثل ضمير الأمة، لاتجرفها الأطماع، ولا يسترقها الحكام بل تبقى يقظة تحرس الدين مهما أحدقت الخطوب، وارتمى الناس فى أحضان الدنيا.

وعلى هذا يمكن أن تجرى إشارة الشيخ على ثلاثة محاور:

(٣) الألف والنون قبل ياء النسب بقية من بقايا السامية فى اللغة العربية مثل روحانى وربانى.. ونحوهما.

١. بداية يجب أن يتذكر الإنسان حقيقة (نسبه) فهو من «سلالة من طين» وهذا التذكير بالأصل الطينى له أهمية بالغة فى السلوك.. استمع إليه «عرفهم(.) أصلهم لئلا يعجبوا(..) بفعلهم، و(نسبهم)(...) لئلا يخرجوا عن حدهم ولا يغلطوا فى نفوسهم، خلقهم من سلالة سلت(....) من كل بقعة فمنهم من طينة من جردة أو من سبخة، من سهل أو من وعر.. ولذلك اختلفت أخلاقهم. خلقهم من سلالة من طين ولكن القدر للتربية لا للتربة».

٢. حينما يختار العبد (ياء النسب) ليدخل بها إلى الطريقة أو يتعلق بواسطتها بشيخ فعليه أن يعلم أن (التزمات ثقيلة) قد ألقيت على كاهله لأن «قيمة كل إنسان بحسب إرادته فمن كانت همته الدنيا فقيمته خسيسة حقيرة كالدنيا ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره، ومن كانت همته (ربانية) فهو سيد وقته»[٤].

وفى تقديرنا أن فكرة (الانتساب) هى التى فرضت نفسها بمرور التاريخ على هذه الطائفة لكى تظهر الأسانيد التى تنتهى غالبًا بالنبى ﷺ فكل شيخ يريد أن (ينتسب) إلى (أستاذ) أخذ عنه الطريقة، وهذا أخذها عن فلان.. عن فلان إلى النهاية، حتى تظهر سلامة اقتدائه وانتسابه، فلا يكون كـ (ما) التى لا تعرف لها نسبًا ولا متشبهًا بمتشبه فى الفعلية!

٣. حينما نهض الشيخ لتأليف «رسالته» الشهيرة كى يوجهها إلى الصوفية فى جميع الأنحاء كان (الانتساب) هو القضية المحورية لكتابه،

(.) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة.
(..) بضم الياء وسكون العين.
(...) بفتح النون والسين والباء.
(....) بضم السين وتشديد اللام مع فتحها.
(٤) اللطائف مجلد ٢ ص ٥٦٩.

لأنه يريد أن يجمع الأسانيد والمتون للشيوخ (الذين بهم اقتداء)، وأن يخلص(.) الطريقة وأهلها من هؤلاء الأمشاج الذين لم يصح (نسبهم) فى الالتحاق، بل (كانوا عارًا) عليها وعليهم بما ابتدعوه من باطل.

(.) بضم الياء وفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة.

فصل (٦٠)

جمـوع الكثرة والقلـة

«الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير. وأقسام الجمع تكثر وكذلك أحكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج، وأمثال تجتمع، ثم يخبر[.] عن المجتمعات باسم واحد.

والإشارة:

الإنسان اسم شامل لجملة مخصومة لها بنية[..] مشهورة، فمن[...] كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل، ومن كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير.. وباختلاف أحكامه اختلاف مقدار.

(.) بضم الياء وفتح الباء.

(..) بكسر الباء وسكون النون.

(...) بفتح الفاء والميم.

فى الفطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الكتاب تناول الشيخ فى عجل جمع التكسير، وكيف أنه فى كثير من الأحيان لكى يتخذ قوامه يحدث فى مفرده شئ من الهدم أو التغيير، ولا يخضع ذلك فى الأغلب إلى قاعدة مطردة تريح الدارس، ولهذا تعددت صيغ هذا النوع من الجموع، ونشأت اصطلاحات مثل: جمع قلة وجمع كثرة، وسماعى وقياسى.. فى محاولات لضبط أمر(.) عسير (فأقسامه تكثر وكذلك أحكامه) وهو هنا يفصل(..) الأمر.

ولنضرب أمثلة على ذلك:

قد تحدث تغيرات فى المفرد ـ مسموعة أو قياسية ـ

مثل: صنو وصنوان (التغيير هنا بالزيادة).

تخمة وتخم (التغيير هنا بالنقص).

أسد وأسد(...) (التغيير هنا بتبديل الشكل).

رجل ورجال (التغيير هنا بزيادة وتبديل الشكل).

قضيب وقضب (التغيير هنا بنقص وتبديل شكل).

والشيخ هذا يركز على فكرة معينة هى قضية الكثرة والقلة فى فئات هذا الجمع.

والأول ما فوق العشرة إلى مالا نهاية له من الصيغ، وقد نظمها بعض الظرفاء على هذا النحو محاولا أن يحصر السبعة عشر جمعًا (المشهورة):

(.) بكسر الراء المنونة.

(..) بضم الياء وفتح الفاء.

(...) بفتح الألف والسين، والجمع بضم الألف والسين.

في السفن الشهب البغاة صور — مرضى القلـوب والبحـار عبـر
غلمانهم للأشقياء عمـلة — قطـاع قضبـان لأجـل الفيـلة
والعقـلاء شـرد(٠) ومنتهى — جموعهم في السبع والعشر انتهى

أما جموع القلة فأوزانها أربعة هي على صيغ:

١. أفعل(١). ٢. أفعال. ٣. أفعله(٠٠). ٤. فعله(٠٠٠).

ومع كل ذلك يبقى الباب مفتوحًا أمام شذوذ محتمل عن القاعدة، فالباب كما قلنا صعب المراس.

والإشـارة..

يتكاثر النوع (الإنساني) ـ وهذا هو المهم في نظر الشيخ ـ حسب القاعدة القرآنية ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٧) التي تحوي أيضًا كائنات أخرى غير الإنسان. نقول يتكاثر البشر ثم يبدأون في التشرذم جماعات وجماعات حسب طبائع أو دوافع أو أصول أو مواقع جغرافية... الخ هذه الأسباب المعروفة، وتأخذ كل جماعة اسمًا ووصفًا، ويتحمس الفرد المنصوي تحت الجماعة لأهدافها وطموحها. وإذا حكمنا الأصل قلنا إن الخير غاية مثلى للنظام الإنساني، وإذا فالخيرون أكثر عددًا من الأشرار، وهذا يطابق النسبة النحوية لجمع التكسير فجموع القلة أربع صيغ أما الكثرة فثلاث وعشرون وتزيد. هذه هي النظرة الفوقية للموضوع. أما لو تغلغلنا في دواخل هذه المجتمعات.. ولنأخذ مجتمع الصوفية مثلا ـ وهو مناط الرؤية عند الشيخ ـ فإننا نصدم بأن العكس هو الصحيح..

---

(٠) بضم الشين وفتح الراء وتشديدها.
(٠٠) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين.
(٠٠٠) بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام.
(١) بفتح الهمزة وسكون الفاء وضم العين.

بل إن رؤية القشيرى للموضوع تسبق ذلك بخطوات.. استمع مثلا إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٢)

(شكا من أكثرهم لأقلهم، فالأكثرون من(.) ردتهم(..) القسمة والأقلون من قبلتهم الوصلة)(٢).

وتشتد الصراحة والوضوح فى كشف الحقيقة عند قوله تعالى مخاطبا نبيه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦) ويفسرها الشيخ هكذا: (أهل الله قليلون عددًا وإن كانوا كثيرين وزنًا وخطرًا، وأما الأعداء ففيهم كثرة).

فإذا كان ذلك على المستوى العام، أى بالنسبة للكافة، فإنه صحيح أيضا بالنسبة للمجتمع الخاص من الصوفية، يدخل الطريقة أعداد وأعداد.. ثم يخرجون بعد حين، ولا يبقى إلا أقل القليل «لأن الشكل بالشكل أليق»(٣) ولأن «المؤمن للأجانب مجانب وللأقارب مقارب. وكما قيل. طير السماء على ألافها تقع»(٤).

فالانسجام المزاجى الروحى عزيز.. ولابد لقيام أى (تجمع) من الانسجام بين أفراده.. وهنا العبرة بالقيمة لا بالكم. فكأن الشيخ فى النهاية يشير على القوم بهذه النصيحة: لاتفرحوا (بالكثرة) فى عموم الأحوال، وأفرزوا وغربلوا.. وليخرج من بينكم من يخرج.. غير مأسوف عليه فربما كان جرثومة فى بدن (مجتمعكم) تمامًا كما يخرج الشاذ من القاعدة المطردة فى نحو الظاهر فى حالة جمع التكسير.

(٢) اللطائف جـ ٢ ص ٥٥٤.

(.) بفتح الميم.

(..) بفتح الراء وتشديد الدال المفتوحة.

(٣) اللطائف جـ ١ ص ٢٤٥.

(٤) اللطائف جـ ١ ص ٦٤١.

ونختم الباب ببعض الأفكار عن (اجتمعات) الصوفية على نحو موجز:

١ـ **اهل الصفة**[٥]: أول صورة لمجتمع الفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله. وينسبون إلى صفة مسجد النبى ﷺ فى المدينة، وكان ينضم إليهم (أمثالهم وأشكالهم) ممن لا يجدون طعامًا أو مأوى.. وكانوا يكتسبون عند إمكان الاكتساب. وكان الرسول ﷺ يبعث إليهم مما عنده.

ويشبههم السهروردى «باجتماع الصوفية قديمًا وحديثًا فى الزوايا والربط»[٦].

٢ـ **الشكفتية**: نسبة إلى شكفت أى الكهف والمغارة، ولايسكنون القرى والمدن، ويسمون فى الشام «الجوعية» ويضيف السهروردى قائلا: (واسم الصوفية مشتمل فى جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة)[٧].

٣ ـ **القلندرية**: وهم قوم «أسكرتهم طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرحوا التقيد بآداب المخالطات والمجالسات، وقلت[٠] أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض. ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحًا برخصة الشرع، ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين وقنعوا بطيبة قلوبهم»[٨].

٤ ـ **الملامتية**: ظهروا فى منتصف القرن الثالث الهجرى فى نيسابور مدينة القشيرى. وقد تحدثنا عنهم فى مواضع متفرقة.

ونحمد للسراج أنه تابع أغلاط **(الجماعات)** الصوفية متابعة جادة

(٥) بضم الصاد المشددة وفتح الفاء المشددة.

(٦) عوارف المعارف ص ٤٧.

(٧) عوارف المعارف ص ٤٧.

(٠) بفتح القاف وتشديد اللام المفتوحة.

(٨) عوارف المعارف ص ٤٨.

وموضوعية، الأمر الذى يهدى إلى تمييز الخبيث من الطيب بينها.. ونستمع إليه فى ذلك:

توهم (جماعة) من المريدين والمبتدئين أن مخالفة النفس يكون بترك الطعام تماما حتى يؤمن شرها وبوائقها وعوائقها، وظنوا أن ذلك «حال». وقد غاطوا فى ذلك لأن المريد يجب أن يتوقف عند حد لايكون منه بلاء وفتنة لا يقدر على تلافيهما، فالنفس أمارة بالسوء، ومن ظن أنها تنكسر بالجوع أو قلة الطعام فقد غلط ولقد كان سهل بن عبد الله رحمه الله يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرة حتى لايضعفوا عن العبادة» اللمع ص ٥٢٧.

(وجماعة) ظنوا أن التصوف سماع ورقص واتخاذ دعوات وطلب إرفاق.. ونحو ذلك. وهذه قلوب ملوثة بحب الدنيا، متهمة بالبطالة والغفلة.. وهى من قبيل المعلولات والتكلف».

(وجماعة) فضلوا الأولياء على الأنبياء وهذا خطأ، لأن كل ولى من الأولياء ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ. فكيف يجوز أن يفضل التابع على المتبوع، والمقتدى(.) على المقتدى(..) به. وإنما يعطى(...) الأولياء رشاشة مما يعطى الأنبياء عليهم السلام.

والحق إن التصوف كان قد بدأ قبيل عصر القشيرى فى التمخض عن طريق كثرة زادت مع الأيام عددًا وتشعبًا، وانتشرت فى بقاع العالم الإسلامى فيما بعد انتشارًا هائلا وحملت ألقابا أخذت طريقها إلى الاشتهار مثل: الأكبرية والقادرية والرفاعية والسهروردية والشاذلية والمولوية والنقشبندية والبدوية... الخ .

(.) بكسر الدال.

(..) بفتح الدال.

(...) بضم الياء وفتح الطاء.

رتحاول كل طريقة أن تثبت إسنادها وتسلسل هذا الإسناد، ومعظمها إما ينتهى بعلى بن أبى طالب أو بأبى الصديق، وكلاهما من رسول الله ﷺ مقتبس. فإذ سلم إسناد الطريقة ومتونها على نحو مقنع فخير وبركة، وإذ أصاب الإسناد أو المتن شىء من الارتياب.. فحقه الرفض.. ويمكن الاستفادة بحقائق «علم مصطلح الحديث» فى متابعة هذا الجانب متابعة علمية موثقة.

فهــرس

محتويات الكتاب الثانى

رقم الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

يسعد الهيئة المصرية العامة للكتاب أن تقدم هذا الإصدار للقارئ العربى، والذى يجمع بين دفتيه كتابين قيمين للعالم الجليل زين الإسلام عبد الكريم القشيرى.

- الكتاب الأول (نحو القلوب الصغير) : وقد بذل الدكتور أحمد علم الدين الجندى جهدا مشكورا فى دراسته وتحقيقه وشرحه.

- الكتاب الثانى (نحو القلوب الكبير) : الذى عثر الدكتور أحمد علم الدين الجندى على مخطوطته ، وكانت تحت يده عند تحقيق الكتاب الأول. وشارك فى تحقيقها الأستاذ الدكتور ابراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعات العراق وعين شمس وصدرت بمناسبة العيد الألفى للإمام القشيرى.







ISBN# 9789774203668
6 221149 008007

١٧ جنيه